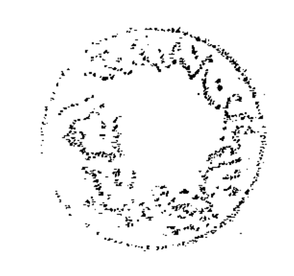
التيارات السياسية المعاصرة



التيارات السياسية المعاصرة

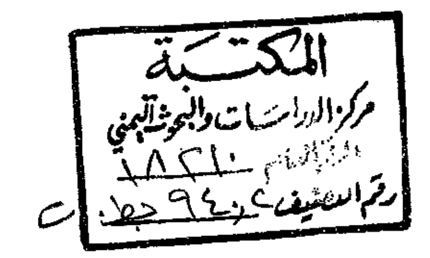
١٨١٥ - ١٩٦٠



تأليف
الدكتور عبد الحميد البطريق
استاذ التاريخ الحديث والمعاصر
في جامعة عين شمس وجامعة الرياض

١٩٧٤

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص.ب ٧٤٩



الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

في هذا القرن الذي نعيش فيه ، أضحى العالم كله وحدة متشابكة متساندة ، بحيث لا يستطيع شعب من شعوبه ، أن يعيش بمعزل عن الآخر أو يحيا غير متأثر بما يجري في العالم من تيارات وأحداث ، تلك التيارات التي تحركها الدول الكبرى فتجرف في غمارها الدول الصغيرة ، والشعوب الضعيفة التي تخلفت عن ركب الحضارة الحديثة .

لقد مضى الزمن الذي انطوت فيه بعض الشعوب على نفسها ، ولم تهتم بغير أمرها وغلقت الأبواب دونها ، وما لبثت أن رأت الأقوياء يحطمون تلك الأبواب ، ويقتحمون عليها الديار ، ويسلبونها أعز ما تملك من أرض ومال .

وقد شاهد الجيل الحاضر حربين عالميتين كبيرتين . الأولى حدثت وقائعها ما بين عامي ١٩١٤ و ١٩١٨ ، والثانية ما بين عامي ١٩٣٩ و ١٩٤٥ ، وسار العالم بعدهما إلى طور تاريخي جديد تغيرت فيه الأوضاع السياسية

والاجتماعية والاقتصادية ، ثم تتابعت الأحداث وتنوعت وتشابكت ، وانقسم العالم على نفسه إلى كتلة شرقية وأخرى غربية ، ووقعت شعوب مسالمة بين شقي الرحى ، تحاول جهد استطاعتها أن تقف من الكتلتين على الحياد ، لتجنب نفسها وتجنب العالم خطر الحرب ، ولكنها لا تزال تعاني من أثر الحرب الباردة التي تشن عليها من الدول الكبرى التي تعمل على تدعيم خطوط دفاعها بسلاسل من الاحلاف لا تكاد تنتهي .

والتيارات السياسية المعاصرة ، لها جذورها في أعماق التاريخ الأوربي بنوع خاص ، حاولت في الفصول التالية ، أن أعرضها عرضاً واضحاً ميسراً على القارئ العربي ، وعلى تلاميذي الأصفياء في الجامعات العربية : راجياً أن يجدوا في هذا العرض تفسيراً للحاضر في ضوء الماضي ؛ وأن أكون قد وقفت إلى هذا الهدف الذي أبتغيه ، والغرض الذي قصدت اليه .

المؤلف

الفصل الاول

مؤتمر فينا

١٨١٤ – ١٨١٥

مقدمة :

كانت الثورة الفرنسية التي قامت في سنة ١٧٨٩ بداية للتاريخ الأوربي الحديث ، وأساساً لكثير من الآراء والمذاهب التي تسود في العالم المعاصر فقد نشرت على العالم مبادئ جديدة لخصتها في كلمات ثلاث : الحرية والاخاء والمساواة ، وأصبحت تلك الكلمات الثلاثة شعاراً للثورة الفرنسية ، ثم تناولتها الشعوب الأخرى وحاولت في ضوئها أن تصلح من نفسها ، فتحارب الطغيان والاستبداد ، وتمحو آثار الماضي البغيض بما حمله شعار الحرية والاخاء والمساواة من معان . فقد كان رجال الثورة الفرنسية يقصدون بالحرية حرية الرأي والصحافة والدين ، وألا يتعرض الأشخاص للسجن دون محاكمة شرعية ، وكانوا يقصدون بالاخاء والمساواة محو نظام الطبقات وأن تكون الأمة الفرنسية على قدم المساواة مع غيرها من الأمم ، وأن تحل الصداقة العالمية محل العداوة والبغضاء بين الأمم ، وقد فشلت الثورة الفرنسية

في تحقيق هذا الشطر الأخير من أهدافها ، اذ أعقب قيام الثورة الفرنسية قيام حرب أوربية عامة .

ثم جاء حكم نابليون ١٧٩٩ — ١٨١٤ فكانت فترة قلقة في تاريخ فرنسا حيث ألهتها حروبه عن تحقيق مبادئ الثورة في فرنسا ذاتها ولكن تلك المبادئ تسربت الى الخارج ، فبدأت بالبلاد التي فتحها نابليون ثم أخذت تنساب الى معظم الدول في العالم .

الديموقراطية

وقد تمخضت الثورة عن فكرتين أساسيتين وهما الديمقراطية ، والقومية . ففكرة المساواة في نظر الشعوب هي الديمقراطية ، وهي كلمة أشتقت من لفظ Demos اليوناني وهي الكلمة التي ترادف كلمة Crowd الانجليزية أو الجمهور باللغة العربية ، فقد ضج الناس من تحكم الملوك ، وتحكم بعض الفئات الصغيرة من الأغنياء والأشراف ورجال الكنيسة والمحامين والتجار والملاك . أما بعد الثورة الفرنسية فقد ظهر « الجمهور » أو « الشعب » على مسرح السياسة ، يشترك في تقرير مصير الحكم ، ويختار ممثليه في المجالس التشريعية ، وبالتالي يشترك في اختيار حكامه ، ولهذا أصبح الفرنسيون يحتفلون بعيد الثورة في ١٤ يوليه ، وهو اليوم الذي تحطم فيه الباستيل .

وقد تأثرت بتلك الفكرة أعرق الأمم الدستورية ، بل وتأثرت بها الدكتاتوريات الحديثة ، ففي انجلترا أصبح أعضاء مجلس العموم يعتمدون على أصوات الشعب كله ، بعد أن كان نصفهم ينتخبه كبار الملاك في المدن الانجليزية والنصف الآخر ينتخبه مندوبون من طبقة خاصة ، أما البلاد التي ظهرت فيها الدكتاتوريات الحديثة فان حكامها يعتمدون على رضاء الشعب وثقته ، ولذلك كانوا يعمدون الى العناية بالدعاية الواسعة لأنفسهم بين طبقات الشعب لاقناعه بأن الحاكم في خدمتهم وأنه خادم الوطن قبل كل شيء .

وأدت الديمقواطية السياسية الى ديمقراطية التعليم ، بعد أن كان قاصراً

على طبقة قليلة من الخاصة .

وقضت الديمقراطية التي كانت أثراً من آثار الثورة الفرنسية على الامتيازات الصارخة التي كانت تتمتع بها بعض الطبقات في جميع أنحاء أوربا — فيما عدا انجلترا — قبل قيام الثورة ، وهي تلك الامتيازات التي تخلفت عن العصور الاقطاعية التي سادت في القرون الوسطى عندما كانت وظائف الحكومة الكبرى ورتب الجيش السامية ، قاصرة عن النبلاء والأشراف الذين لم يقتصر امتيازهم على الاعفاء من دفع الضرائب للدولة ، بل كان من حقهم هم أن يفرضوا على الفلاحين الذين يرتبطون بهم في اقطاعاتهم ضرائب تؤدي لهم . وساد ذلك النظام قروناً طويلة حتى أصبح السكان في معظم بلاد أوربا شرقي فرنسا يعيشون رقيقاً للأرض التي يملكها أصحاب الاقطاع ، ولم يكن هناك فرق بينهم وبين العبيد سوى أنهم لا يباعون ولا يشترون بالمال . فلما جاءت الثورة الفرنسية اكتسحت مبادؤها هذا النظام ، ثم تسربت تلك المبادئ شرقاً فامتنع الرق في معظم جهات ألمانيا قبيل انتهاء حروب نابليون في روسيا . وهكذا كان محو الامتياز بين الطبقات أول ثمرة من ثمار الثورة الفرنسية .

تلك كانت أهم آثار الثورة خارج الحدود الفرنسية أما ما تلا هذا العهد من حروب نابليون وفتوحاته ، فقد كان لها نتيجة بعيدة المدى في بعض الدول الأوربية الأخرى ، اذ أنها أشاعت روح القومية والوطنية بين الشعوب المهضومة ، ولكي نتبين مدى خطورة تلك النتيجة يجب أن نشير الى ما كانت عليه حدود الدول في تلك القارة :

فايطاليا كانت تتكون من عدة دول ومدن مستقلة ، يحكم معظمها أمراء من الأجانب ، دخلاء على الايطاليين ، وألمانيا كانت بولاياتها المختلفة تكون جزءاً من الدولة الرومانية المقدسة التي كانت تضم أيضاً بروسيا والنمسا ، أما الجزء الغربي من ألمانيا وهو الذي يجاوز فرنسا فقد اشتمل على عـــدة حكومات صغيرة ، أو مدن حرة ، أو ابرشيات أسقفية يحكمها رجال الدين

« Bishopricks » أو اقطاعيات يحكمها الفرسان « Knighthoods » وكانت تلك الدويلات مستقلة في الواقع ، ولكنها كانت تدين من الناحية الاسمية بالولاء للامبراطور الذي اتخذ مقره في النمسا .

وفي الجنوب الشرقي من ألمانيا كانت تقبع بعض الممتلكات النمسوية الاخرى وهي التي كونت الآن تشكوسلوفاكيا ، والمجر ، وبعض أجزاء رومانيا ويوغوسلافيا ، كذلك امتدت الحدود النمسوية الى بلجيكا ، ووزعت مملكة بولنده القديمة شرقي ألمانيا بين روسيا وبروسيا والنمسا سنة ١٧٩٥ حتى زالت من الوجود وأصبحت النمسا وبروسيا جارتين متنافستين .

من كل هذا نلمس حقيقتين لهما أهميتهما : أولهما أن الحدود الأوربية في تلك الجهات جميعها لم تكن قوية ، فقد كان الألمان والايطاليون موزعين بين عدة دول ، وكان المجر والتشك واليوغوسلاف وغيرهم من الأجناس مقحمين داخل امبراطوريات لا يشعرون نحوها بالولاء القومي والاحساس الوطني ، والحقيقة الثانية أن فرنسا لم تجد على حدودها دولة عظمى متماسكة تستطيع أن تصد الهجوم الفرنسي ، ولذلك لم تجد جيوش الثورة الفرنسية صعوبة كبيرة في الانسياب وراء تلك الحدود ، فاستطاعت بسهولة أن تغزو بلجيكا وهولنده وايطاليا وغربي ألمانيا ، وهناك في تلك البلاد جميعاً ، وجدت من سكانها أغلبية ترحب بمقدمها لسبب واحد هام ، هو أن تلك الشعوب التي فقدت قوميتها لم تكن تشعر نحو حكوماتها بأي نوع من الحب والولاء ولأن الفرنسيين قد حملوا اليهم أفكاراً ومبادئ جديدة كان أقربها الى أنفسهم مبدأ المساواة .

القومية

ولكن سرعان ما تحول الاعجاب بالفرنسيين الى تذمر وكراهية ، وخاصة في ألمانيا ، فقد أبى الألمان أن يتحكم فيهم أجنبي يفرض الضرائب الفادحة والتجنيد الاجباري مما يجعلهم وقوداً لنار الحروب النابليونية التي

لا يهدأ أوارها ، فبدأوا يفكرون في أنفسهم كجنس الماني يخضع لحكم أجنبي .

كذلك عندما حاول نابليون أن يغزو أسبانيا وروسيا لاقى من المقاومة ما قضى على آماله ، إذ لم يكن من السهل عليه أن يذلل الصعوبات والمشاق التي نعرض لها ، وبصرف النظر عن الصعوبات الطبيعية ، كان في البلدين شعبان يتمتعان بنظام حكومي قومي على الرغم مما كان يشوبه من مساوىء . أما انجلترا فقد ظلت بالنسبة له عدواً لا يُقهر ، وكانت موقعة ترافلجار (الطرف الأغر) الصخرة التي تحطمت عليها آخر محاولات نابليون .

بداية النهاية :

لقد وصل بونابرت إلى ذروة مجده بعد صلح تِلْسِتْ (يوليه ١٨٠٧) فقد كانت امبراطوريته تمتد من فرنسا إلى المانيا وايطاليا وتحيط بها سلسلةمن الدول التابعة له والتي عيّن عليها عددا من أقربائه الذين رفع بعضهم الى مرتبة الملوك ، فقد عيّن أخاه « لويس » ملكا على هولنده ، وأخاه « جوزيف » ملكا على نابلي ، والأخ الثالث «جيروم» ملكا على وستفاليا وحمل هو لقب ملك ايطاليا ، وشكّل من الأراضي البولندية التي كانت في يد بروسيا دوقية وارسو التي سيطر عليها بعد أن عهد بها إلى أحد عملائه من الأمراء الألمان (ملك سكسونيا)

ولم يبق أمامه بعد انتصاراته الحاسمة على النمسا وبروسيا ، وحمّله روسيا على أن تكون حليفة له غير انجلترا التي وقفت عقبة كؤودا في سبيل تحقيق كل أطماعه . وكان نابليون قد يئس من نجاح مشروعه من غزو انجلترا ، ولهذا رأى أن يلجأ إلى الحرب الاقتصادية مستخدما سيطرته السياسية على القارة الأوربية ليحول دون وصول البضائع البريطانية إلى المواني الأوربية ، فأصدر مرسوم برلين عام ١٨٠٦ وهو المرسوم الذي يقضي بالاستيلاء على جميع البضائع الانجليزية التي تصل إلى أي جزء من أجزاء أوربا تحالف معه أو كان تابعا له وحرم على السفن الانجليزية دخول أي ثغر من ثغور حلفاء فرنسا ، وهكذا أنشأ

بصورة رسمية ما سُمّي « بالنظام القاري » . وكان هدفه بالنظام القاري تحطيم الاقتصاد البريطاني ، وإفلاس الشركات الانجليزية ، وتدمير التجارة ، ونشر التذمر والحركات الثورية في الأمبراطورية البريطانية ، والتأثير على الدخل القومي وخصوصا موارد بريطانيا من الرسوم الجمركية .

وقد ساعده انتصاره على النمسا وبروسيا في عامي ١٨٠٥ و ١٨٠٦ على انضمامهما قسراً للرسوم الحصار ، وكذلك في صلح تلست ١٨٠٧ قبل قيصر روسيا تطبيق هذا النظام في الموانى الروسية ، ولم تجرؤ الدول المحايدة أن تخالف هذا النظام وبذلك كله أصبح النظام قاريا فعلا .

ورضخت جميع الدول للنظام القاري إلا دولة واحدة صغيرة هي البرتغال التي كان اقتصادها يعتمد على بريطانيا ، فغزاها نابليون بقواته التي أرسلها عبر أسبانيا ، وتم استيلاؤه عليها في نوفمبر عام ١٨٠٧ .

الحركات القومية ضد نابليون :

كان يبدو وكأن أوربا أصبحت تحت سيطرة نابليون بونابرت ، بعد انتصاراته الأخيرة ، وإنجازاته غير المتوقعة ، ولكن امتداد امبراطوريته الكبير في القارة الأوربية ، أثار في طريقهمتاعب وصعوبات أوقفت نشاطه ثم قضت عليه في النهاية ، فقد ترتب على وقف التجارة مع بريطانيا تحطيم اقتصاد الدول التي خضعت لنظام الحصار القاري ، وعانت من جرّاء ذلك الطبقات الوسطى وطبقة العمال في تلك الدول . وكذلك أدت حروبه المستمرة إلى فرض الالتزامات الاقتصادية على الدول التابعة له ، مما جعله شخصية بغيضة تتطلع الشعوب الأوربية الى التخلص منها ، وظهر عدد من الزعماء الوطنيين يقودون الحركات الوطنية واستعادة الحرية التي أهدرها الامبراطور . وقد أدى ظهور هذه الحركات الوطنية إلى تشجيع الحكومات التي خضعت لسلطانه على الاتصال سراً بالحكومة البريطانية ، وبذلك سارت الأمور على غير ما يهوى نابليون .

وقد كان نجاح الحصار القاري متوقفا على السيطرة الفرنسية التامة على إيطاليا وأسبانيا ، أما إيطاليا فقد كان إخضاعها أيسر وأسهل من إحكام السيطرة على أسبانيا ، فالحكم الفرنسي لم يكن غريبا في الأراضي الايطالية ، أضف إلى ذلك أن أفكار الثورة الفرنسية وشعاراتها كان لها أنصار وأشياع في ايطاليا ، ثم كانت محرومة من ملكية قوية وجيش قوي ثابت ولذلك لم يجد نابليون صعوبة من تنفيذ الحصار الإيطالي ، ولم يكن هناك غير خطر واحد ، وهو أن يثور النزاع بينه وبين البابا ، ولذلك أقدم على نفي البابا في عام ١٨٠٩ وضم أملاكه وربطها بالنظام الاداري للأمبراطورية الفرنسية .

الحرب الاسبانية :

وفي الوقت الذي بدأ النزاع يشتد بينه وبين البابا شنّ نابليون هجومه على أسبانيا ، مع علمه بمبلغ ما يصادفه أي غاز يهاجمها من الشمال حيث تقف في وجهه جبالها وأنهارها التي تعتبر من شبه الجزيرة ، وهناك الهضبة المرتفعة التي يتألف منها وسط أسبانيا والتي تجعل من الصعوبة بمكان تموين أي قوات معادية ، زد على ذلك عزلة أهلها عما كانت تنادي به الثورة الفرنسية ولم يكن من بينهم معجبون بالانقلاب الفكري الفرنسي كما كان الحال في ايطاليا .

ومع أن القوات الأسبانية كانت ضعيفة ومفككة ، وليست مزودة بأسلحة حديثة إلا أن الجنود الأسبان كانوا بارعين في حرب العصابات ، وهي الحرب التي تلائم طبيعة بلادهم أكبر ملاءمة . لذلك كانت القوات الفرنسية في خط مواصلاتهم الطويل الممتد من جبال البرانس إلى مدريد يتعرضون لفتك القنّاصة الأسبان ، مما سهل مهمة انجلترا في مساعدة أسبانيا ، فقد أرسلت لها جيشا قاده الجنرال ولسلي Wellesley لتنظيم المقاومة الأسبانية التي استمرت ست سنوات كاملة .

ومن خلال تلك الحروب الأسبانية الطاحنة ، وظهور الإعياء على الجيوش الفرنسية في إسبانيا ، حاولت النمسا في عام ١٨٠٩ أن تعاود القتال ضد فرنسا — للمرة الرابعة — وشرعت قواتها تتوغل في الأراضي البافارية الألمانية ، وفي الوقت نفسه حاولت إثارة الشعب الألماني ضد الحكم الفرنسي ، ولكنها كانت محاولة إثارة الألمان سابقة لأوانها ، لأن بروسيا زعيمة الألمان لم يكن باستطاعتها في ذلك الحين أن تمدّ يد المساعدة لأي انتفاضة ألمانية ضد حكم نابليون لأن القوات الفرنسية كانت لا تزال تحتل أراضيها . ولما علم نابليون بالتحركات النمسوية ، تقدم بقواته نحو فيينا وهزم النمسويين في موقعة واجرام (يوليه ١٨٠٩) واضطرت النمسا إلى قبول صلح تنازلت بموجبه عن غاليسيا وعادت مكرهةً إلى التحالف مع فرنسا ، وتزوّج نابليون الأميرة ماري لويز من أسرة الهبسبرج .

وقد شهدت السنتان التاليتان امبراطورية نابليون وهي في أوج قوتها وعظمتها . ولكن على الرغم من أن نابليون كان يبدو في عامي ١٨١٠ و ١٨١١ وكأنه بلغ الذروة ، إلا أن امبراطوريته في الواقع كانت على وشك التصدع ، فما تزال المقاومة الأسبانية على أشدها ، ولم تعد القارة الأوربية تتحمل بقاء النظام القاري ، وكان القيصر اسكندر الأول على رأس الحانقين عليه ، لأن روسيا كانت تستفيد من تجارتها مع بريطانيا ، لأنها كانت تتبادل محاصيلها الزراعية بما تنتجه المصانع الانجليزية ، ولما اضطرت إلى إغلاق موانيها في وجه البضائع الانجليزية حدثت بالبلاد أزمة اقتصادية جعلت قيصر روسيا يتغاضى عن تهريب تلك البضائع داخل البلاد ، ثم انسحب رسميا من النظام القاري واستؤنفت العلاقات التجارية بين روسيا وبريطانيا . وبدأت روسيا منذ أوائل عام ١٨١١ اغلاق موانيها في وجه السفن المحايدة ، وأصدرت تعريفة جمركية ملائمة لواردات المستعمرات البريطانية ، فأضرّت بذلك الواردات الفرنسية .

واستحكم الخلاف بين نابليون والقيصر ، وأقدم نابليون على تنفيذ مغامرته الجامحة بتجهيز جيوشه لغزو روسيا نفسها في عام ١٨١٢ . وقد اتبع الروس سياسة استدراج القوات المهاجمة إلى داخل الأراضي الروسية ، فكانت قواتهم تتقهقر أمام الغزاة ، الذين تبعوهم في أعماق روسيا مبتعدين عن قواعد تموينهم ، ولذلك صادفت مغامرة بونابرت صعوبات ومتاعب وتضحيات ، ولقي مائة ألف من جنوده حتفهم ، ولكنه استطاع أن يدخل موسكو في ١٤ سبتمبر عام ١٨١٢ حيث غادرها أهلها بعد أن أحرقوها وتركوها له خرابا موحشا .

كان نابليون يعتقد أن دخوله موسكو سوف يرغم القيصر على طلب الصلح ، إلا أن القيصر كان مدركا حرج مركز عدوه ولاسيما بعد أن اقترب فصل الشتاء ، وكان نابليون من جانبه لا يريد أن يتعرض هو وجيشه للمحنة القادمة ، وفي الوقت نفسه كان حريصا على العودة إلى فرنسا بأسرع ما يستطيع إذ كان يخشى أيضا التآمر عليه هناك ، أو قيام حلف أوربي جديد ضده . لذلك أقدم على إصدار الأمر إلى قواته بالتراجع . وكانت الطاقة الكبرى والقضاء المجرم على جيشه المتقهقر – وكان هذا الفشل الذريع من غزو روسيا إيذانا بتلك الانتفاضة التي قام بها الشعب الألماني ضد حكم نابليون مما عجّل باندحاره .

حرب تحرير ألمانيا :

فقد سادت الشعب الألماني أمنية مشتركة هي تحرير ألمانيا من وطأة الحكم الأجنبي . وتخليص الأمة الألمانية من وطأة الحصار الاقتصادي والتجنيد الإجباري وظهرت تلك الحركة الوطنية الكبرى بأجلى مظاهرها في شمالي ألمانيا حيث ظهر لفيف من الكتاب والمفكرين والشعراء يشيدون بفكرة توحيد ألمانيا . ولكن لم تكن تستطيع الولايات الألمانية أن تهزم بمفردها نابليون ، وحتى بروسيا لم تكن تملك بعد جيشا يقوم بتلك المهمة ، وكان عليها أن تلتمس العون من الامبراطورية النمسوية ، ولكن النمسا لم تكن في جملتها دولة جرمانية ، وكان اهتمامها

موجها إلى السيطرة على شمال ووسط ايطاليا ، أكثر من اهتمامها بحماية ألمانيا من نابليون .

ولم يكن من مصلحة النمسا أن تقوم دولة ألمانية موحّدة ، بل كان من رأي مترنيخ الذي كان يوجّه السياسة النمساوية إذ ذاك أن يعمل على إنهاء الاحتلال الفرنسي للأراضي الألمانية عن طريق المفاوضة الدبلوماسية ، وإزالة سيطرة فرنسا على اتحاد الراين إذا أمكن ، وبذلك يتكون اتحاد ألماني ضعيف مؤلف من ولايات تتطلّع إلى زعامة النمسا كحامية ورائدة ، وقد استطاع « مترنيخ » أن يؤجل الوحدة الألمانية إلى عام ١٨٧٠ ، وخرجت ألمانيا بنظام تعاهدي لم يحقق وحدتها بل وُضع على نحو يشل نشاطها ويحرمها من أن تتبوأ أي مركز فعلي في أوروبا كدولة موحدة .

سقوط نابليون :

وكانت الدول المعادية لنابليون قد قررت — بعد أن بدأ الانهيار في صرح امبراطوريته — أن تجبره على التنازل عن فتوحاته الألمانية والبولندية ، ولذلك تكوّن التحالف الأوربي الرابع من انجلترا وروسيا وبروسيا والسويد والنمسا . وتتابعت بعد ذلك الكوارث والهزائم على نابليون ، فانهزمت قواته هزيمة حاسمة عند « ليبزج » Leipzig ، وسميت هذه الحرب بحرب الأمم ، وبعدها انهارت آمال نابليون بعد أن رأى جيشه الذي حاول إحياءه بعد كارثته في المغامرة الروسية ، ومع ذلك فقد رفض نابليون ما عرضه عليه الحلفاء ، وهو أن تحتفظ فرنسا بحدودها الطبيعية ، أي تصبح أراضيها بين جبال الألب ونهر الرين وجبال البرانس .

وفي أوائل عام ١٨١٤ أقدم الحلفاء على غزو فرنسا بثلاثة جيوش ووجد نابليون نفسه وجها لوجه أمام جحافل من القوات المتفوقة في العدد ، ومع ذلك لم ييأس وأدار الحرب بكل ما في طاقته من عزم وحذق ، واستطاع في الأيام الأولى أن يواجه الموقف بشجاعة فكان يضرب البروسيين والروس من

الشمال ، ويكرّ لضرب النمساويين الذين يهاجمونه في الجنوب ، وكانت قوات الشمال بقيادة «بلوخر» الذي كان يتراجع أمام كرّات نابليون ، ولكن سرعان ما كان القائد بلوخر يعود الى الهجوم حتى كلّت الجيوش الفرنسية واضطر نابليون إلى التراجع غربا بعد أن فتح بلوخر لجيوشه وبقية جيوش الحلفاء الطريق إلى باريس .

وفي ٣١ مارس ١٨١٤ سلّمت باريس للقيصر اسكندر الأول وفردريك وليم ملك بروسيا . وبذلك انتهت الأسطورة الكبرى التي عاشتها فرنسا طوال حكم نابليون بونابرت ، ولم يسع الامبراطور الذي كان معسكــرا في فونتنبلو Fontainebleau إلا أن يستمع لكبار قواده الذين طلبوا منه التنازل عن العرش ، ثم رحل عن فرنسا منفيا في جزيرة البا الايطالية .

أثار سقوط نابليون عدة أسئلة كان أهمها من يتولى حكم فرنسا ، وما هو نوع الحكم الذي يفرضه الحلفاء عليها ، وما مصير الممتلكات الشاسعة التي حكمها نابليون . وقد برز في ذلك الحين رأي فرنسي يمثله تاليران وزيــر خارجية فرنسا الذي كان على خلاف دائم في الرأي مع نابليون بونابرت ، فقد عرض استدعاء أسرة بوربون للعودة إلى تولي العرش ، مقترحا أن يكون ملك فرنسا الجديد هو « لويس الثامن عشر » الذي عاش منفيا من فرنسا قرابة خمس وعشرين عاما ، وهو أخو لويس السادس عشر (١) .

أما مصير فرنسا فقد تقرر في معاهدة باريس الأولى (مايو ١٨١٤) التي اتسمت بالاعتدال ، وعدم مطالبة فرنسا بدفع غرامة حربية ، ولا بالإنفاق على جيش الاحتلال لحين الجلاء . وبموجب هذه المعاهدة تنازلت فرنسا عن الأراضي التي احتلتها في هولندة وبلجيكا وايطاليا وسويسرا .. وتعود سياسة الاعتدال مع فرنسا في ذلك الحين إلى سبب سياسي ، وليس عاطفيا ، ذلك أن الحلفاء كانوا

---

(١) كان لويس السابع عشر فهو ابن لويس السادس عشر من ماري انطوانيت وقد لقي حتفه في عام ١٧٩٥ ، وكان عمره عشر سنوات

يقصدون ضمان الأمن وتحقيق السلام بعدم إثارة الشعب الفرنسي ، وإقناعه بعودة أسرة البوربون الى العرش ، واستقرار الأوضاع .

وقد تعهد لويس الثامن عشر بقبول قرارات الحلفاء في مؤتمر فيينا المنوي عقده لتقرير مصير أوربا ، وكان الرأي قد استقر على اختيار « فيينا » لتكون مقر للمؤتمر ، وبذلك يرأس المؤتمر السياسي الداهية الكبير «مترنيخ» مستشار النمسا . وقد دعيت جميع الدول التي اشتركت في الحرب لارسال ممثلين عنها ، إلا أن الأمر كله كان بيد الدول الكبرى الأربع « انجلترا ، والنمسا ، وروسيا ، وبروسيا » وهكذا أدركت الدول الصغرى أنها دعيت لإقرار ما تراه الدول العظمى ، على أن المندوب الفرنسي «تاليران» تمكن بقوة شخصيته وعلاقته القوية بالحلفاء أن يكون من بين الشخصيات البارزة التي أثرت في قرارات المؤتمر .

وكانت حروب نابليون قد تركت مستقبل كثير من دول أوربا كبلجيكا وهولندة وألمانيا وبولندة وإيطاليا وأسبانيا مائعاً غير ثابت ، كما كان هناك كثير من المسائل التي تخص العلاقات الدولية تحتاج إلى البحث والتنظيم ، وكان لكل من دول الحلفاء أطماع متعارضة أدت إلى إثارة خلافات حادة أثناء عقد المؤتمر ، وقد بلغت هذه المشاحنات مبلغا كبيرا من الخطورة . وبينما كان النقاش محتدا والخطر على التحالف ماثلا ، سمع العالم عن هرب نابليون بونابرت من منفاه من جزيرة إلبا في أول مارس ١٨١٥ واستطاع الوصول إلى فرنسا معلنا عودة الامبراطورية من جديد ، وقد شجعه على هذه المغامرة ما سمعه عن نشوب الخلافات الخطيرة بين أعدائه ، وكذلك الأنباء التي وصلت إلى سمعه من باريس والتي تفيد بأن الرأي العام الفرنسي يقف ضد حكومة لويس الثامن عشر لأنها تمثل روح الاستسلام والرضاء بأن تفقد فرنسا أملاكها الواسعة التي ضمها نابليون ، إلى جانب المرارة التي شعر بها الشعب إزاء عدة ظواهر كانت تهدده في مكاسبه ، فقد عاد كثير من المهاجرين الفرنسيين من

الطبقات المميّزة وأخذوا يطالبون بحقوقهم الموروثة وأملاكهم المصادرة مما أقلق طبقة الفلاحين .

حكم المائة يوم :

وما أن وصل نابليون إلى أرض فرنسا حتى تخلّى الجيش عن الملك لويس الثامن عشر ، ورحّب قواد نابليون وضباطه القدامى بمقدمه وهتف الشعب بحياته وهو يدخل باريس (٢٠ مارس ١٨١٥) . وكان أول ما فعل إصدار مرسوم بتأليف هيئة تشريعية من مجلسين ، ثم اصدار قرار بحرية الصحافة ومسئولية الوزارة أمام الهيئة التشريعية .

وكان لنبأ عودته وقع الصاعقة على أعدائه الذين أفاقوا من مشاحناتهم ليقفوا من جديد في وجه الأمبراطور الطموح . وسارع الانجليز والبروسيون إلى إرسال جيش بلغ عدده ٢٠٠,٠٠٠ مقاتل إلى بلجيكا — وكانت القوات الانجليزية يقودها «ولنجتون» ، أما القوات البروسية فكان يقودها « بلوخر » . وعندئذ قرر نابليون أن يتبع الخطة التي تعوّد على اتباعها وهي خطة الهجوم ، التي بدأها بملاقاة البروسيين قبل أن يتمكّنوا من المضي للانضمام إلى ولنجتن ، وهزمهم فعلا في موقعة « ليني Lighny » (١٦ يونيه) في جنوب بلجيكا . ثم أمر بعض قواته أن يظلوا يطاردونهم ، بينما استدار هو نحو أعدائه الانجليز الذين اتخذوا لهم موقعا حصينا عند «واترلو» ، وفجأة ظهرت القوات البروسية على يمينه ، فقد استطاع «بلوخر» أن يتفادى القوات الفرنسية التي كانت تطارده ، ليمرق نحو ميدان القتال ، وعندئذ وقع نابليون بين نارين ، وانهزم هزيمة حاسمة في «واترلو» ، وفرّ إلى باريس حيث أعلن تنازله عن العرش للمرة الثانية ، وحاول الهرب إلى أمريكا إلا أنه وجد الساحل كله تحرسه القوات الانجليزية فاستسلم لأعدائه الذين حملوه على سفينة انجليزية إلى انجلترا أولا ، ثم أبعدوه منفيّا هذه المرة إلى جزيرة سانت هيلانة النائية في المحيط الأطلنطي حيث قضى ست أعوام في المنفى إلى أن مات عام ١٨٢١ — وأعاد الحلفاء لويس الثامن عشر الى العرش ،

ومنحوا فرنسا سلاما كانت شروطه أقل تسامحا . فقد كانت لفترة المائة يوم التي مرت بفرنسا تحت حكم نابليون بعد فراره من « إلبا » أثرها في تغيير وجهة النظر الأوربية في معاملة الفرنسيين الذين رحبوا بعودته ، وبعد أن كان الحلفاء قد أعلنوا عام ١٨١٤ أنهم إنما كانوا يحاربون نابليون ولا يضمرون العداء للشعب الفرنسي نفسه ، رأوا بعد ترحيب ذلك الشعب لقائده أن يفرضوا على فرنسا شروطا أشد قسوة ، ولذلك فرضوا على فرنسا أن تدفع غرامة مقدارها ٧٠٠,٠٠٠,٠٠٠ فرنك ، وفرضوا عليها احتلالا عسكريا يبقى في أراضيها حتى عام ١٨١٨ ، وإعادة التحف الفنية التي كان نابليون قد سلبها من البلاد التي غزاها ، وأعيدت حدود فرنسا إلى ما كانت عليه في عام ١٧٩٠ ، وبذلك فقدت عددا من المواقع الهامة على حدودها الشرقية ، ولكن الحلفاء رفضوا محاولة بروسيا أن ينضم الألزاس واللورين إلى الحدود الألمانية ، ولا سيما أن اسكندر الأول قيصر روسيا كان من رأيه الاحتفاظ بالكيان الفرنسي قويا في عهدها الجديد ، وقد برز أثناء اجتماع أقطاب مؤتمر فيينا عامل التوازن الدولي بحيث تحصل الدول الكبرى على أملاكها التي كانت تسيطر عليها عام ١٨٠٥ ، أو على الأقل ما يتوازن مع هذه الأملاك — وقد حاولت الدول فعلا تطبيق هذا المبدأ في قرارات المؤتمر ، إلا أن أن روسيا وحدها استطاعت أن تحصل على أكثر مما كانت الدول تنوي الدول منحها إياه — فقد نجح القيصر في إثارة الريبة في نيات روسيا ، إذ كان يشترك في مفاوضات الصلح ، وفي الوقت نفسه يوحي إلى المؤتمرين بأن روسيا على استعداد لحرب جديدة إذا عجزت عن تحقيق أطماعها على يد المؤتمر ، لذلك استطاع أن يحصل لروسيا على أكبر مساحة من بولندة بما في ذلك وارسو — وذلك على الرغم من أن (كاسلريه) وزير خارجية بريطانيا ومترنيخ مستشار النمسا كانا يخشيان ذلك الاتساع الروسي نحو الغرب ، مما يخل بالتوازن الدولي .

قرارات مؤتمر فيينا :

لم تحاول الدول الأربع الكبرى التي تزعمت مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥ أن تواجه

مطالب الشعوب وتستجيب للوعي القومي ، وظن ساسة الدول الكبرى أن انتصارهم على الثورة الفرنسية يعتبر انتصارا على المبادىء التي جاءت بهـا ، ولذلك كان شعارهم في التسوية إعادة « الحقوق الشرعية » إلى أصحابها ، وهو المبدأ الذي أعاد ملوك وأمراء ما قبل الثورة ونابليون إلى عروشهم التي أبعدوا عنها والاحتفاظ بالنظم القديمة التي كانت تسود أوربا بصرف النظر عن الاعتبارات القومية والأماني الوطنية للشعوب .

المبادىء التي سيطرت على المؤتمر :

وقد كان « مترنيخ » مستشار الامبراطورية النمسوية أقوى شخصيةسيطرت على مناقشات المؤتمر وأشد الأعضاء تمسكا بعودة الأمور إلى ما كانت عليه قبل عام ١٧٨٩ وجعل مبدأ « الحقوق الشرعية » أساسا لأية تسوية . على أن إعادة الحقوق الشرعية في تسوية فينا قد خضع لاعتبارين : أولهما منح بعض الدول تعويضات إقليمية لمواجهة تعطش الدول الكبرى للتوسع ، وثانيهما العداء المستحكم ضد فرنسا والعمل على إضعافها حتى يمكن قهرها في المستقبل إن عادت لعهد الثورة وحروب التوسع . وهكذا كان مبدأ «إعادة الحقوق الشرعية» ، وتعويض المنتصرين إقليميا ، والعداوة ضد فرنسا ، هي المبادىء الثلاثة التي سيطرت على مقررات مؤتمر فينا .

ايطاليا تعود إلى ما كانت عليه مع تعديلين :

أعاد المؤتمر إيطاليا إلى عهدها القديم قبل حروب الثورة ونابليون ، فأعيد الحكام المبعدون كالبابا ، وملك نابلي ، ودوق تسكانيا — وأما التعديلات التي أدخلت على الولايات الايطالية فهي عدم عودة جمهوريتي جنـوه والبندقية . فقد قرر المؤتمر ضم جنوه إلى مملكة سردينيا لتقوية تلك المملكة ضد فرنسا . وكذلك تقرر ضم البندقية وساحل دالماشيا الأدرياتي إلى النمسا تعويضا لها عن فقد بلجيكا (أي الأراضي المنخفضة النمسوية)

ضم بلجيكا إلى هولنده :

ولما كانت بلجيكا وهولندة قد خضعتا من قبل للحكم الفرنسي فقد قرر المؤتمر ضم بلجيكا إلى هولندة لتصبحا دولة واحدة كبيرة تستطيع أن تقف في المستقبل ضد أية محاولات فرنسية أخرى للتوسع ، وسميت بمملكة الأراضي المنخفضة United Netherlands ووضع تاجها في أسرة أورايخ صاحبة الحق الشرعي في تاج هولندة .

بريطانيا تستولي على مكاسب استعمارية :

أما بريطانيا فقد حصلت على مكاسب أستعمارية فيما وراء البحار ،ومعظمها كانت أملاكا هولندية ، وكانت أهم مكاسبها جنوب إفريقيا (مستعمرة الكاب ، وجزيرة سيلان ، وجزيرة مالطة وجزيرة هِلْجُولاند Helgolnd في بحر الشمال .

سويسره . السويد . الدنمرك :

وأعيد إلى سويسرة استقلالها الذي فقدته عندما خضعت لنظام نابليون . أما السويد التي سبق أن فقدت فنلندة عندما استولت عليها عام ١٨٠٩ فقد قرر المؤتمر ضم النرويج إليها مكافأة لها على الوقوف في صف الحلفاء ضد نابليون عام ١٨١٣ ، وكانت النرويج من قبل تابعة للدنمرك التي وقفت دائما في صف نابليون وبذلك خضعت النرويج رغم أنفها للحكم السويدي

الوصول إلى اتفاق حول بولندة وألمانيا :

كانت مشكلة بولندة وألمانيا من أصعب المسائل التي واجهت المؤتمر وثار من أجلهما الخلاف . ولكن ساسة المؤتمر استطاعوا بعد خلاف ونقاش أن يصلوا إلى حلول وسط ترضي أطماعهم جميعا ، فدوقية وارسو التي استحدثها نابليون واحتلتها قوات القيصر اسكندر بعد جلاء الفرنسيين عنها سنة ١٨١٢ ، تقرر

في التسوية أن ينضم إقليمها الشرقي (بوزن) إلى بروسيا. ويحتفظ القيصر بالقسم الغربي (مملكة بولندة) باعتباره ملكا عليها . وهكذا عادت بولندة إلى الخريطة الأوربية بعد أن اقتطع جانبا منها ، ولكن تاجها مُنح لعاهل أجنبي هو القيصر الروسي الماني [1]

ألمانيا

أما ألمانيا ذات الثمان وثلاثين ولاية فقد كانت منقسمة على حسب مساحاتها إلى ثلاث مجموعات : المجموعة الأولى مكونة من دولتين كبيرتين النمسا وبروسيا ، والثانية من خمس ولايات متوسطة المساحة هي باڤاريا وڤورتمبرج وبادن وسكسونيا وهانوفر ، وأما المجموعة الثالثة فتتألف من عدة ولايات صغيرة وثلاثة مدن هي همبورج وبْرمِنْ ولُوبِيك . ولم يحاول المؤتمر إعادة ما كان يسمى بالامبراطورية المقدسة . ولكن استعيض عن ذلك بتكوين نوع ضعيف من الاتحاد يربط نظرياً تلك الولايات المستقلة ، وتأسس مجلس الديت الذي يتكون من حكام كل ولاية تحت رئاسة النمسا التي سيطرت في الواقع على الديت الألماني وكانت بروسيا عضواً في الديت .

وكان الحلفاء قد وعدوا بروسيا بعودتها إلى حدودها القديمة قبل حروب نابليون ، ولكن نظرا لاستيلاء روسيا على الأراضي التي كانت تدعيها بروسيا لنفسها في بولندة فقد عوّض المؤتمر ملك بروسيا عن ذلك بالاستيلاء على نصف ولاية سكسونيا ، وأرضا أخرى على الضفة اليُسرى من نهر الراين بقصد ايجاد قوة حصينة ضد فرنسا في تلك المنطقة . وقد حملت بعد ذلك بروسيا لواء الزعامة الألمانية لتكوين الوحدة الألمانية الكبرى .

---

(١) كان القيصر قبل موقعة ليبزج ١٨١٣ قد وعد كلا من بروسيا والنمسا أنهما سيقتسمان معه بولندة بعد القضاء على دوقية وارسو التي اسسها نابليون ، ولكن بعد الانتصار غير رأيه وقرر الاحتفاظ بها لنفسه بدواعي أمن روسيا .

وهكذا لم يراع مؤتمر فينا الاعتبارات القومية والتطلعات الجديدة للشعوب واوضح مثال على ذلك تشبث المؤتمربوضع شعب النرويج قسرا عنه تحت حكم السويد، ووضع البلجيكيين تحت حكم هولندة ووضع شمال إيطاليا بثرواته الطبيعية تحت حكم النمسا . وكانت نتيجة هذا التعنُّت قيام حركات قومية كان لا مفرَّ منها . ولم يفطن ساسة الدول الكبرى المنتصرة — وعلى رأسهم «مترنيخ» إلى أن القومية وروح الوطنية أصبحت سمة العصر الحديث بحيث أصبح لا فائدة تُرجى للامبراطورية النمسوية من ضم ذلك الجزء من شمال إيطاليا ، والذي لا يمتّ إليها بصلة الجنس أو اللغة أو العاطفة ، بينما أدَّى منح بروسيا جزءا من شمال ألمانيا إلى قيام بروسيا — وأهلها بطبيعتهم من الألمان — بتزعّم الحركة الكبرى التي انتهت بتوحيد ألمانيا .

وبعد أن نجحت الدول المنتصرة في إعادة النظم القديمة في سائر أنحاء أوربا عقدت فيما بينها تحالفا كان هدفه المحافظة على سير الأمور على الوضع الذي أقامه مؤتمر فينا . وقد تزعّم الفكرة « مترنيخ » الذي دعا إلى تحطيم أي ثورة تقوم ضد الحاكم الشرعي في أي مكان في أوربا ولو أدى الأمر إلى التدخل العسكري . ومن هنا جاء عهد المؤتمرات العديدة التي كان يدعو إليها (مترنيخ) كلما حدثت ثورة ضد النظم القائمة ولا سيما في الفترة ما بين عامي ١٨١٥ و ١٨٤٨ حيث قامت عدة ثورات أدت إلى أحداث هامة في تاريخ أوربا الحديث ، وكان أهمها ما حدث في فرنسا وشبه الجزيرة الإيطالية والولايات الألمانية وبلجيكا .

الفصل الثاني

فرنســا

١٨١٥ – ١٨٧٠

ترك نابليون بونابرت لمن يحكم فرنسا بعده تركة مثقلة ، ومشكلات ليس من السهل التغلب عليها ، ولعل أحدث تلك المشكلات أن الحاكم الجديد يجب أن يوفق بين غرضين متعارضين : أولهما السعي لتكوين نظام من الحكم ترضى عنه أغلبية الفرنسيين ، وثانيهما أن يكون هذا النظام لا يتعارض مع المبادىء التي وضعها الساسة الأوربيون لإحكام السيطرة على السياسة الفرنسية . أما الشعب الفرنسي فلم يكن راضيا عن تسوية فينا التي حرمت فرنسا أجزاء عزيزة عليها من الحدود والممتلكات . وفي الوقت نفسه لم يقابل الشعب عودة أسرة البوربون بالبشر والرضا ، بل كانت الأغلبية ترتاب في صلة تلك الأسرة بالدول الأوربية المعادية لفرنسا . وعندما آل الحكم فعلا للبوربون وتولى العرش لويس الثامن عشر ، أنشأ نظاما برلمانيا اضطلعت فيه الطبقة الوسطى بمهمة الحكم الدستوري ، وانقسم المجتمع الفرنسي إذ ذاك بين ملكيين متطرفين ممن كانوا ألدّ أعداء الثورة الفرنسية ويعملون على إعادة الحالة في فرنسا إلى ما كانت عليه في العهد القديم مع إدخال بعض التعديلات لمصلحة طبقة الأشراف .

أما الفريق الآخر فهو فريق الأحرار الذين يجاهدون في سبيل المحافظة على الحقوق والحرية . ويميلون إلى قيام جمهورية ديموقراطية ، وكان من هؤلاء من

يؤيد المكاسب التي حصل عليها الشعب نتيجة لتطبيق مبادىء الثورة الفرنسية ولكنهم كانوا في الوقت نفسه لا يحبّذون الالتجاء الى العنف والروح الثورية بل يريدون التوفيق بين النظام والحرية ، فهم حزب معتدل يقبل عودة الملكية ويتعهد بالولاء للملك والاخلاص له طالما كان وفياً لشعبه ، لا يتعرض للحريات بسوء ، وما دام يحترم العهود التي أخذها على نفسه تجاه المواطنين عندما آل إليه عرش فرنسا .

وكان لويس الثامن عشر قد أعلن عند اعتلائه العرش برنامجه الذي أطلق عليه (العهد) تعهد فيه أن ينبذ تقاليد العهد القديم البالية وأن يحترم مبادىء التسامح الديني والمساواة المطلقة أمام القانون وفي وظائف الدولة مدنيّةً كانت أو عسكرية ، وأن يقتبس من تقاليد الامبراطورية نظام الادارة المركزي – كذلك منح (العهد) الشعب الفرنسي بحقه في مراقبة الحكومة وتكوين هيئة تشريعية من مجلسين : مجلس شيوخ ومجلس نواب ، ومهما يكن هناك من نقص في هذا (العهد) فقد كان ضمانا لملكية دستورية ، تمثل تعاقدا بين الملك وشعبه .

على أن البون كان شاسعا بين أعضاء الحزبين المتطرف والمعتدل ، ولذلك كان موقف لويس الثامن عشر دقيقا يحتاج إلى حكمة وحسن تصرف ، وتمكن فعلا من أن يقود السفينة في حذر ورويّة إلى أن مات عام ١٨٢٤ ، وخلفه أخوه الأصغر شارل العاشر .

شارل العاشر :

وكان شارل العاشر من غلاة الرجعية ونصيرا للحكم المطلق ، ولذلك بذل كل جهده في سبيل تحقيق أهداف الحزب الملكي المتطرف ، ومنح التعويضات المالية للأشراف المهاجرين الذين عادوا إلى فرنسا تعويضا لهم عن الأراضي التي انتُزعت منهم ووزعت أيام الثورة على صغار المزارعين ، وشاعت في البلاد أنباءٌ بأن « شارل العاشر » ينوي إلغاء الدستور وإعادة النظام القديم بحذافيره ، وازدادت شكوك الشعب عندما اختار رئيسا لوزائه شخصيةً بغيضة يراها الفرنسيون

رمزا على العهد القديم ، وهي شخصية «بولنياك» الذي كان من أوائل من هاجروا من فرنسا قبيل استفحال الثورة الفرنسية فكان تعينه رئيسا للوزراء تحديا سافرا للرأي العام الفرنسي ، وكان أول انذار للشعب بعودة القديم تصريح «بولنياك» بأنه سيمنح رجال الدين ما كان لهم من امتيازات ونفوذ وسلطان ، ولكي يشغل أذهان الفرنسيين ويبهر أنظارهم بالمجد الحربي أقدم على إرسال الحملة الفرنسية إلى « الجزائر » عام ١٨٣٠ لفتحها وجعلها الحجر الأساسي للتوسع الفرنسي في شمال إفريقيا .

على أن ذلك لم يؤثر في شعور الأحرار من أعضاء البرلمان ، وأعلنوا احتجاجهم في الرد على خطاب العرش على تعيين وزارة لا تؤيدها أغلبية برلمانية ، فاعتبر شارل العاشر ذلك الاحتجاج إهانة شخصية له ، وأصدر مرسوما بحل البرلمان عام ١٨٣٠ ولما جرت الانتخابات الجديدة أسفرت عن خسارة الحكومة لخمسين مقعدا في البرلمان ، وتحرج موقفها ، وثارت أزمة أدت إلى ثورة وانقلاب جديد ، وذلك عقب اصدار الملك مراسيم جديدة تنصُّ على اعتبار الانتخابات الأخيرة لاغية وتعديل قانون الانتخاب والحدّ من حرية الصحافة — وكانت النتيجة قيام ثورة يوليه ١٨٣٠ بزعامة القائد الفرنسي القديم « لافاييت » — ونجحت الثورة ، واضطر شارل العاشر إلى التنازل عن العرش — وبذلك تم خلعه ونودي بابن عمه « الدوق أورليان » لويس فيليب ملكاً على فرنسا .

لويس فيليب ١٨٣٠ — ١٨٤٨ :

لم تستطع ثورة عام ١٨٣٠ أن تقلب نظام الحكم الملكي ، فقد كان الجمهوريون يدركون مبلغ المتاعب التي يجرونها على فرنسا في الخارج لو عاد النظام الجمهوري ، ولكن الثورة على أي حال نجحت في حرمان الملك من سلطته المطلقة في اصدار القوانين في الحالات الاستثنائية ، ومن حقه في اقتراح القوانين التي أصبحت وقفا على مجلس البرلمان ، وألغيت الرقابة على الصحف .

وقد حكمت أسرة (أورليان) فرنسا ثمانية عشر عاما تطورت أثناءها النظم الدستورية في فرنسا ، فقد تخلّى لويس فيليب عند اعتلائه العرش عن مبدأ الحق الالهي في الحكم ، وحاول أن يتصرف تصرف الحاكم الذي يحنو على رعاياه ، ويتفانى في خدمتهم ، ومع ذلك فإن ملكية يوليه لم تستطع أن تضمن رضاء الجميع ، بل فسدت العلاقات بينها وبين شطر كبير من الشعب من ملكيين وجمهوريين واشتراكيين ، وأحسّ الشعب أن « لويس فيليب » لم يعد الملك الذي يتجاوب مع تطلعاته وآماله ، وهنا قامت الثورة في باريس ، وذلك عندما ظهر للفرنسيين أن ملكية يوليه التي يمثلها لويس فيليب لم تعد صالحة للعهد الجديد سواء من الناحية الداخلية أو الخارجية ، وقد تميز هذا العهد بظهور الحركة الاشتراكية التي كان من زعمائها « سان سيمون » الذي اتجهت أفكاره الاشتراكية إلى إصلاح حياة الطبقات العاملة ، بغير استخدام العنف أو المصادرة ، ولكن عوامل التذمر في فرنسا قد زادت وبلغت مرحلة الانفجار ، وحدث أن منعت الحكومة التي كان يرأسها « جيزو » اجتماعا كان مقررا أن يخطب فيه الزعماء المطالبون بالاصلاح في ٢٢ فبراير عام ١٨٤٨ ، وعندئذ اندلعت الثورة في باريس ، وقام القتال في الشوارع ، وتحصّن العمال خلف المتاريس التي أقاموها في الشوارع ، وانتهز زعماء الحزب الجمهوري الفرصة فحوّلوا تلك الثورة التي كانت تنادي بالاصلاح إلى ثورة ضد الملكية ، وبعد كان شعار الثورة « يحيا الإصلاح » أصبح شعارها « تحيا الجمهورية » . وحاول الملك عبثا مجابهة الموقف بارضاء الثائرين ، بأن أقال رئيس وزرائه المكروه ، من الشعب « جيزو Guisot » ، ولكن هذا الإجراء لم يكن كافيا لإخماد ثورة عـــام ١٨٤٨ ، لذلك اضطر إلى التنازل عن العرش والفرار إلى انجلترا . وتكونت في فرنسا حكومة مؤقتة ، لم تكن تستند على أي أساس دستوري ، ولكنها كانت تعتمد على الثوار الذين قاموا بحركة ١٨٤٨ ، وقد ثار الخلاف منذ البداية بين أعضاء هذه الحكومة المتبايني المذاهب ، إلا أنها نجحت في إجراء بعض التعديلات الدستورية لصالح الشعب ، فقد أعلنت حق الانتخاب العام ، وتكليف

الناخبين الجدد – وكان عددهم يزيد على تسعة ملايين – بانتخاب جمعية تأسيسية تضع قواعد الدستور ، ثم تألفت وزارة جديدة لم يشترك فيها الاشتراكيون – مما أثار ضدها الحزب الاشتراكي الذي كان يتزعمه (لويس بلان) ، وكذلك طبقة العمال الذين كانوا يرون في ذلك الحزب سندا وظهيرا لهم ولمطالبهم . وحاول عدد من المتظاهرين ضد تلك الحكومة اقتحام دار الجمعية الوطنية مطالبين باقصاء الحكومة المؤقتة ، وتعيين حكومة أخرى يرأسها « لويس بلان » ، إلا أنها كانت حركة فاشلة واستطاع الحرس الوطني طردهم منها . ولكن ظلت القلاقل تسيطر على باريس ، وعاد العمال إلى أعمال العنف في الشوارع أربعة أيام على التوالي ، واتخذوا عدة قرارات منها أنهم أعلنوا حل الجمعية الوطنية القائمة وغير ذلك من القرارات الثورية ، إلا أن الجمعية الوطنية انتصرت في النهاية وتغلبت على ما صادفها من مواقف خطيرة ، واستعادت مركزها وسيطرتها على شئون فرنسا . وقررت وضع السلطة التشريعية في يد مجلس واحد مكون من سبعمائة وخمسين عضوا ، وأن يشترك أعضاء الجمعية في انتخاب رئيس الجمهورية ، وأن تكون مدة ولايته أربع سنوات فقط ، ولا يجوز انتخابه مرة أخرى–واختارت لرئاسة الجمهورية لويس نابليون، وهو ابن لويس بونابرت الذي كان نابليون بونابرت قد عينه ملكا على هولنده

لويس نابليون ١٨٤٨ – ١٨٥٢

وكان لويس نابليون كعمه نابليون بونابرت شديد الطموح قوي الارادة ، عاش فترة من الزمن في سويسرا ، وايطاليا ، وانجلترا ، وأمريكا . ولذلك اكتسب خبرة واسعة بالشئون الأوربية والعلاقات الدولية ، ولعل اسمه وشهرته وتقدير الفرنسيين له ، هو السبب في انتخابه رئيساً للجمهورية وفوزه بملايين الأصوات على منافسيه .

ولما تولى رئاسة الجمهورية واجهته عدة صعاب ، لأنه لم يكن له في الجمعية التشريعية التي انتخبت وفقا للدستور الجديد أنصار يؤيدونه على طول الخط ،

فقد بدأت تظهر نياته تجاه الحكم الجمهوري ، إذ كانت آماله معلقة بإعادة العهد الأمبراطوري ، ولذلك كان يتبع طرقا ملتوية يريد بها أن يخدع الشعب حتى يتمشى معه في الطريق الذي رسمه للتخلص من النظام الجمهوري . وقد ساعده على ذلك أن فرنسا لم تكن كأنجلترا متمسكة بنظامها الدستوري كتقليد مقدس تحرص عليه ، ثم أن الشعب الفرنسي كان يشعر بأنه في أشد الحاجة إلى الاستقرار واستتباب الأمن بعدما مرّ به من المحن والنكبات ، فلما أوشكت مدة رئاسته على الانتهاء ، عرض في عام ١٨٥١ على المجلس اقتراحا بمد فترة رئاسته أربع سنوات أخرى ، ولم يفز الاقتراح بالأغلبية القانونية (ثلاثة أرباع الأصوات) . فقرر حلّ الجمعية ، ونشر الدعاية ضدها بين الشعب ، واضطهد الزعماء الذين وقفوا في طريقه ، والذين أدانوه بالاعتداء على الدستور الذي أقسم الجميع اليمين على احترامه والدفاع عنه ، وكان الكاتب الفرنسي الكبير «فكتور هيجو» من أشد الكتاب هجاء له ونقدا لتصرفاته .

نابليون الثالث «امبراطورا»

وفرض لويس نابليون دستورا جديدا ينص على بقاء رئيس الجمهورية في منصبه عشر سنوات ، وأن يكون من حقه تعيين الوزراء ، وأن تكون الوزارة مسؤلة أمامه مباشرة، كما نص على تكوين مجلس دولة يختاره الرئيس وتكون مهمته تحضير القوانين ، أما الجمعية التشريعية الّتي تنتخب عن طريق الانتخابات العامة فتكون مهمتها مناقشة القوانين والميزانية والضرائب. وكذلك نص الدستور الجديد على تكوين مجلس الشيوخ يعيّن الرئيس أعضاءه ، ومهمته المصادقة على القوانين والاشراف على النظام الدستوري للدولة .

وبذلك أصبح لويس نابليون حاكما مطلقا ، ولم يبق إلا اللقب ليصبح امبراطورا ، وقد نجح في الوصول إلى هدفه في أقل من عام ، ومما يجدر ذكره أن عودة لقب الامبراطور لرئيس فرنسا قد لاقى حماسة وتأييدا من جماهير غفيرة من الفرنسيين الذين كانوا معجبين بالأمبراطورية النابليونية ، ولذلك فإن

الاستفتاء الذي جرى في فرنسا لجعل الامبراطورية وراثية أسفر عن قبول الأغلبية الساحقة لأن يكون الحكم وراثيا في أسرة الامبراطور الجديد الذي حكم فرنسا باسم الامبراطور نابليون الثالث ، على اعتبار أن ابن نابليون بونابرت الذي مات كان المفروض فيه أن يكون نابليون الثاني .

وفي سياسته الداخلية اتبع نابليون الثالث خطة التقليل من أهمية الجمعية التشريعية حتى لا تصبح قوة تحدُّ من سلطانه ، وأخذ يعمل على أن تسيطر حكومته على الصحافة وتوجيه الرأي العام بأحكام الرقابة على ما تكتبه الصحف ويُنشر في الكتب ، والحد من الاجتماعات العامة .

أما في سياسته الخارجية فقد كان ولوعا بالتدخل في الأحداث الأوربية والعالمية ، ومع ذلك تكن تلك السياسة محددة ولا واضحة حتى أن المستشار الألماني بسمرك قال عنه ذات مرة « كان نابليون الثالث يشعر دائما بأنه في حاجة إلى حرب ما » . وقد أشرك فرنسا في حرب القرم ، وفكّر في السيطرة على بيت المقدس إرضاء لرجال الدين في فرنسا مما عرّضه للاحتكاك بروسيا التي كانت تعتبر نفسها حامية الكنيسة الارثوذكسية ، وعرّضه هذا الاتجاه أيضا لنقد الحكومة البريطانية التي كانت تؤيد وحدة أملاك الدولة العثمانية . كذلك تدخل في الشئون الايطالية مدعياً أنه نصير الوحدة والمبادىء القومية ، مما عرّضه لعداوة النمسا ، ثم تعرّض مرة أخرى لعداوة روسيا عندما تدخّل في عام ١٨٦٣ في المسألة البولندية وناصر البولنديين في القسم الروسي ضد القيصر . أما حملته التي أرسلها إلى المكسيك فكانت أعظم دليل على عدم ثبات الأمبراطور نابليون الثالث في سياسته وولوعه بالمشروعات الخيالية التي تفشل دائما .

وأخيرا كانت نهاية امبراطوريته في الحرب الفرنسية البروسية التي أنهت حكمه بعد أن استسلم للبروسيين في واقعة سيدان سبتمبر عام ١٨٧٠ وهو تاريخ قيام الجمهورية الفرنسية الثالثة .

الفصل الثالث

نحو الوحدة

ايطاليا وألمانيـــا

الوحدة الايطالية

تجلت الأطماع النمسوية في ايطاليا بعد سقوط نابليون ، وعملت في مؤتمر فينا على تحقيق تلك الأطماع ، فاسترجعت مقاطعة لمبارديا التي كانت خاضعة لها منذ عام ١٧١٣ ، وحصلت على البندقية وجزرها التي كانت تمتلكها ،واستعادت تريستا وساحل دالمشيا ، وأصبحت النمسا بفضل استيلائها على البندقية وجانب كبير من شاطىء الأدرياتيك — دولة بحرية .

أما بقية الولايات الايطالية ، فقد كانت في واقع الأمر خاضعة للنفوذ النمسوي ، ولما كان مترنيخ يحارب الوحدة الايطالية ويعمل على أن يجعل كلمة «ايطاليا» تعبيراً جغرافياً لا أقل ولا أكثر ، فقد سعى لحث المؤتمر على اعادة حقوق الحكم الى أصحابها الشرعيين . فأعاد ملك بيدمنت أو سردينيا الى مملكته ، وضم اليه جمهورية جنوة القديمة ، وأعيدت ولايات البابا اليه ، وتولى حكم نابلي ملكها القديم فردناند الرابع ، الذي تربطه بالنمسا روابط من القرابة والسياسة والمذهب ، وقد وعد ملك نابلي — سراً — ألا يمنح بلاده دستوراً بغير استئذان النمسا . وهكذا نجح مترنيخ في أن يقضي — الى حين — على حركة

القومية في ايطاليا ، ولكنه لم يستطع أن ينتزع الفكرة نفسها من رؤوس الوطنيين الايطاليين .

وقامت ثورات تطالب بالاصلاح في مختلف الولايات الايطالية في عام ١٨٤٨ ، ولكنها لم تصادف نجاحاً كاملاً ، لأنها لم تكن ثورة موحدة بل كانت عدة ثورات يقود كل منها زعماء محليون لأغراض محلية ، ثم أخذت عاطفة القومية تزداد قوة ويضطرد نموها ، حتى تولت مملكة بيدمنت زعامة الحركة ، وكان ملكها — شارل ألبرت — من أسرة سافوى ، ولقبه الرسمي (ملك سردينيا) يميل الى شعبه فمنحه لوناً من الحكم الدستوري ، وقاده لمحاربة النمساويين الذين كانوا يحكمون لمبادريا على حدوده الشرقية ، وعندما انهزم تخلى عن العرش لابنه فكتور ايمانويل « Victor Emmanuel » .

كافور (١٨١٠ — ١٨٦١)

ووفق الملك الجديد الى زعيم سياسي من الطراز الأول هو كافور الذي تولى قيادة حركة الوحدة [١] ، فاتجهت سياسة كافور الى توحيد ايطاليا تحت تاج آل سافوى وقد درس كافور أخطاء الثورات التي قامت في ايطاليا واستخلص منها أن الوحدة لن تتم الا بتحقيق ثلاثة أهداف : أولها تقوية ايطاليا ، وثانياً الاستعانة بدولة من الدول الكبرى في تأييد الحركة الايطالية تأييداً فعالاً [٢] ، وأخيراً بأن يعمل على ضمان الايطاليين الذين كانوا يهدفون الى تأسيس جمهورية ايطالية .

---

(١) ولد كافور من أسرة عريقة في مملكة سردينيا ، تعلم بالمدارس الحربية ، وسافر الى سويسرا وفرنسا وانجلترا فوسع السفر أفقه الفكري ، وسرعان ما أصبح من الزعماء الأحرار الذين ينشدون استقلال ايطاليا والقضاء على الحكم النمسوي لأراضيها ، وأسس صحيفة اسمها « البعث» نشر فيها أفكاره على الشعب ، وفي سنة ١٨٥٢ أصبح رئيساً للوزراء في سردينيا .

(٢) من أجل ذلك انضم الى بريطانيا وفرنسا في الكفاح ضد روسيا في حرب القرم وعجب الناس لهذه الخطوة ولكنها في الواقع مكنته أن يخطب في مؤتمر الصلح منددأ بما تلقاه ايطاليا من عسف النمسا .

وكان على رأس هؤلاء الوطنين، الزعيم مازيني « Mozzini »الذي أسس حزب ايطاليا الفتاة ، وهو الذي نادى بالقومية الايطالية ، وكان دائماً يقول « ان النمسا لا تستطيع أن تستمر في حكم أمة تتألف من عشرين مليون نفس » وعلى الرغم من أنه لم يوفق الى تطبيق مبادئه ، الا أنه ظل يقول للشباب « بشروا بالفكرة . أظهروا نورها للشعب ، عودوه على تقديسها » كذلك استطاع كافور أيضاً أن يضمن تأييد زعيم آخر من الوطنيين هو غاريبلدي .

حقق كافور هدفه الأول بتقوية بيدمنت من الناحية الاقتصادية ، ونشطت فيها حركة التجارة والصناعة والزراعة وأبرم سلسلة معاهدات تجارية مع الدول الأخرى ، وعنى بالجيش وتسليحه وتخريج ضباطه ، وسهل للأحرار اللاجئين من أنحاء ايطاليا أن يلوذوا بحكومة بيدمنت فراراً من الاضطهاد .

وحقق هدفه الثاني بضمان تأييد فرنسا — وعلى رأسها الامبراطور نابليون الثالث — لحركة الوحدة الايطالية ، فاتفق معه سراً على عقد معاهدة هجومية دفاعية في ديسمبر ١٨٥٨ تعهدت فيها فرنسا بأن تساند مملكة بيدمونت بمائة ألف جندي اذا أعلنت النمسا عليها الحرب خلال الأشهر الثلاثة القادمة (ومعنى هذا أن على بيدمنت أن تستفز النمسا قبل أن تنتهي المهلة) .

٢ — وأن تتنازل بيدمنت لفرنسا مقابل هذه المساعدة عن نيس وسافوى .

٣ — وأن تتابع الدولتان الحرب حتى تتحرر ايطاليا من النمسا .

وفي عام ١٨٥٩ تمكن كافور من اثارة النمسا واستفزازها ، فأرسلت انذاراً إلى بيدمنت ، فأعلن نابليون الثالث الحرب على النمسا ، واحتلت الجيوش الفرنسية لمبارديا بعد أن انتصرت في معركتي ماجنتا وسلفرينو ، وهو انتصار نتج عنه أن عقد نابليون مع النمسا صلحاً ينص على ضم لمبارديا (ما عدا فينسيا) الى مملكة بيدمنت .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل تبع ذلك قيام ثورات في الولايات

الصغيرة في وسط ايطاليا تطالب كلها بالاتحاد مع بيدمنت .

وفي العام التالي ، قاد غاريبلدي أتباعه من لابسي القمصان الحمراء لتحقيق الوحدة الايطالية ، وسرعان ما انضمت جميع الولايات الجنوبية الى الحركة ونادت كلها بوحدة ايطاليا .

وأخيراً تغيرت سياسة غاريبلدي ، فبعد أن كان زعيماً للجمهوريين ، أصبح من دعاة الملكية الايطالية ، وأعلن ولاءه وولاء الولايات الايطالية كلها للملك فكتور ايمانويل الذي أصبح ملكاً على ايطاليا الموحدة في عام ١٨٦٠ .

بقيت روما والبندقية وحدهما بعيدين عن المملكة الايطالية الجديدة ولكن لم يستمر هذا الابتعاد طويلاً .

ففي سنة ١٨٦٦ ، أعلنت بروسيا الحرب على النمسا فانضمت ايطاليا الى بروسيا ضد عدوتها القديمة ، ونالت البندقية مكافأة لها بعد النصر البروسي على النمسا .

وفي عام ١٨٧٠ بدأت الحرب البروسية الفرنسية ، فسحب نابليون الثالث الحامية الفرنسية التي كانت تضعها فرنسا في روما لحماية بقايا ممتلكات البابا ، وسرعان ما دخلت القوات الايطالية الوطنية روما ، وبذلك احتلت العاصمة الكبرى التي طالما انتظر الايطاليون ضمها الى الوحدة الايطالية بفارغ الصبر .

الوحدة الالمانية

أصبحت ايطاليا بعد وحدتها ، من الدول الكبيرة في القارة الأوربية ، أما الوحدة الالمانية فقد خلقت أعظم دولة في أوربا الوسطى وقد تمت تلك الوحدة على خطوات .

بعد انتهاء مؤتمر فينا ساد عهد من الهدوء النسبي استمر ثلاثة وثلاثين عاما

أي من ١٨١٥ ــ ١٨٤٨ كان أعظم شخصية سيطرت أثناءه على السياسة الأوربية هي شخصية مترنيخ مستشار الامبراطورية النمسوية الذي كرّس جهوده ومهارته السياسية للاحتفاظ بالنظام القديم الذي كان يسود أوربا قبل الثورة الفرنسية ، فلم يأل جهدا في التدخل لتأييد الملوك والحاكمين ضد رعاياهم من الثائرين ، كما حدث عندما كان يتدخل في شئون الولايات الايطالية ، وأما في ألمانيا فقد كان بصفته رئيس الدِّيتْ الألماني ، وهو مجلس يجمع ممثلي ثمان وثلاثين ولاية ألمانية ، يشجع حكام هذه الولايات على اتباع سياسة القَسْر وكبت الشعوب ، ولم يكن الدِّيتْ الألماني برلمانا بالمعنى المفهوم ، ولكنه كان أشبه شيء بعصبة ولايات أو بعبارة أصحّ عصبة حكومات ، لأن أعضاءه كانوا من الوزراء الذين يعيّنهم حكام الولايات الألمانية ، وكانت أقوى تلك الولايات ــ بعد النمسا ــ مملكة بروسيا التي مُنحت حدودا واسعة على ضفتّي نهر الرين ، وكانت دائما تشعر بأنها مهضومة الحق لأنها منفصلة عن بروسيا الغربية بعدة ولايات مستقلة ، وكانت كل ولاية في ألمانيا تستقل بفرض الضرائب والرسوم الجمركية على الواردات التي تخترق حدودها ، لذلك رأت بروسيا أن تمحو تلك الحواجز الجمركية بين شطريها في الشرق والغرب ، فنشأت فكرة توحيد الألمان ــ ما عدا النمسويين ــ في اتحاد جمركي أطلقوا عليه اسم الزلفرين Zollverie الذي تأسس عام ١٨١٨ ، وكانت هذه الوحدة الاقتصادية أول خطوة نحو الوحدة السياسية لألمانيا ، فقد كان لنظام الزلفرين أثره خلال الثلاثين عاما التالية في اجتذاب جميع الولايات الألمانية إلى الانضمام لذلك الاتحاد وهكذا وضعت بروسيا أسسا متينة لإقامة دولة ألمانية موحدة تحت سيطرتها .

وقد بدأت النهضة البروسية التي وحّدت الألمان منذ أن عُين فريدريك وليم الرابع (١٨٤٠ ــ ١٨٦١) ملكاً على بروسيا ، وعاصر عهد الثورات التي قامت سنة ١٨٤٨ ، وقد عرضت عليه بعض الولايات الألمانية أن يرأس الاتحاد الألماني ، ولكنه رفض ذلك التاج لعدم إجماع الولايات كلها على اختياره .

وقد خلفه في الحكم أخوه وليم ، الذي عاصر فترة خطيرة من تاريخ

ألمانيا ، فقد اشترك أيام صباه في الجيش البروسي الذي حارب نابليون الأول في ألمانيا ، ثم أصبح أول امبراطور لألمانيا الموحدة سنة ١٨٧١ ، وقد أطلق عليه الألمان اسم ولهلم الأكبر Wilhelmder grosse . وقد اهتدى الملك وليم الأول (ولهلم) إلى رجل سياسة فذّ هو « اتو ڤون بسمرك » ليكون وزيره الأول ، وكان بسمرك عدواً للنفوذ النمسوي في الولايات الألمانية، وكان من رأيه أن تتنازل أسرة الهبسبرج النمسوية عما تدعيه من زعامة على الولايات الألمانية ، ولا سيما الولايات الشمالية التي تعتبرها بروسيا المجال الطبيعي لزعامتها ، ولم يتوان بسمرك عن التصريح بذلك حتى تتبين النمسا موقف بروسيا الحقيقي .

شلذويخ وهولشتين

على أن العداء الذي عكّر الجو بين بروسبا والنمسا أخفته — إلى حين — مسألة خطيرة ثارت في أوربا عقب وفاة « فردريك السابع » ملك الدنمرك دون وريث لعرشه ، وكان ملك الدنمرك — عقب تسوية فينا — يحكم ثلاثة أقاليم متميزة بعضها عن بعض ، مملكة الدنمرك بما تمتلكه من جزر في بحر البلطيق ثم الجزء الشمالي من شبه جزيرة جيتلند Jutland ، والسكان في هذا الجزء كله من الدنمركيين . والجزء الثاني الذي كان يحكمه ملك الدنمرك يتكون من الجزء الجنوبي الأقصى في جيتلند وتقع فيه دوقية (هولشتين) وسكانها من الألمان ويقع بها ثغر من أهم ثغور بحر البلطيق وهو ثغر كييل Kiel — وأخيراً فإنه كان يحكم دوقية (شلزويج) الواقعة بين الدنمرك ودوقية هولشتين ، وكان سكانها خليط من الألمان والدنمركيين .

فلما توفي ملك الدنمرك عام ١٨٦٣ ، طالب الألمان في الدوقيتين بالانفصال عن الدنمرك ، وانتهز بسمرك الفرصة لتوسيع رقعة بروسيا بضم الدوقيتين للأملاك البروسية ، وكان يدرك تمام الادراك بأن هذا لا يتم إلا عن طريق الحرب ، لذلك رأى أن يتغاضى عن عداوته للنمسا ، وحرّضها على أن تشترك مع بروسيا في إعلان الحرب على الدنمرك ، وسرعان ما أذعنت الدنمرك وتنازلت

عن الدوقيتين للنمسا وبروسيا ، واتفقت الدولتان على حكم الدوقيتين حكما مشتركـــا .

على أن بسمرك كان عازما على ضم شلزويج وهولشتين إلى بروسيا ، وهو يعلم أن النمسا لن تقف مكتوفة الأيدي – ولذلك أخذ بسمرك يعدّ العدة لمواجهة النمسا والاستئثار بالغنيمة . ولكنه في الوقت نفسه كان يريد أن يأمن جانب نابليون الثالث امبراطور فرنسا في صراعه المقبل مع النمسا ، كما أراد أيضا أن يضمن مساعدة المملكة الايطالية الشمالية «بيدمنت» له في حربه ضد النمسا ، وقد تمكنه فعلا من عقد معاهدة مع « بيدمنت» تعهدت فيها بأن تنضم لبروسيا في حربها ضد النمسا على شرط ألا تتأخر بروسيا في إعلان الحرب على النمسا أكثر من ثلاثة شهور ، وتعهد بسمرك أن يمنحها البندقية في نهاية الحرب . أما نابليون الثالث فقد تعهد لبسمرك أثناء مقابلتهما في « بيارتز » في سبتمبر ١٨٦٥ أنه على استعداد لوقوف فرنسا على الحياد عند قيام الحرب بين بروسيا والنمسا ، وفي مقابل ذلك وعده بسمرك بالموافقة على أن تتوسع حدود فرنسا نحو الشرق على حساب بعض الولايات الألمانية الجنوبية ، أما نابليون الثالث فلم يكن قلقا من جرّاء رغبة بروسيا في ضم الدوقيتين ولم يكن إقامة اتحاد ألماني في الشمال يثير مخاوفه ، بل ربما ساعده ذلك على أن ينفرد ببسط نفوذه في الجزء الجنوبي من ألمانيا .

اطمأن بسمرك وأعلن الحرب على النمسا سنة ١٨٦٦ ، وكانت حرباً خاطفة لم تزد عن سبعة أسابيع وانتهت بهزيمة النمسا في موقعة (سادوا) في بوهيميا ، وصار الطريق مفتوحاً أمام القوات البروسية إلى « فينا » إلا أن بسمرك لم يشأ أن يقدم على ذلك ، وامتنع عن أن يجرح كبرياء النمساويين ، لأنه كان يقدِّر ما لحيادهم من أهمية في حربه المقبلة التي يضمرها في نفسه ضد فرنسا ، وكل ما كان يبغيه هو أن تنسحب النمسا من الدائرة الألمانية وإنهاء التبعية الألمانية لتاج أسرة هبسبرج ، وهكذا اندمجت كل من « هانوفر » و « هس » وناسو وفرنكفورت في المملكة البروسية وكذلك شلزويج وهولشتين ، وأما سكسونيا

وبقية الولايات في الشمال فقد تكوّن منها الاتحاد الألماني الشمالي الذي يرأسه ملك بروسيا . أما الولايات الجنوبية « بادن وڤورتمبرج وباڤاريا » فظلّت خارج الاتحاد مؤقتاً ولكنها ارتبطت بمعاهدة نصّت على وضع قواتها المسلّحة تحت تصرف بروسيا وبذلك أصبحت ألمانيا كلها عملياً دولة واحدة تحت سيطرة الملك وليم الأول ملك بروسيا ووزيره العظيم بسمرك .

المملكة الثنائية (النمسا والمجر) : وأما النمسا فقد أخذت عبرة من هزيمتها في حرب عام ١٨٦٦ ، واتجه ساستها إلى تعديل السياسة الاستبدادية القديمة وانشاء دستور جديد للدولة ، ومن ذلك أن الحكومة النمسوية دعت ساسة المجر للتفاوض بشأن المستقبل ، وأسفرت المفاوضات عن اتفاق غيّر من النظـــام النمسوي القديم الذي كان يضع المجريين تحت حكم النمسا المباشر إلى نظام اتحاد بين الدولتين .. وأطلق على هذا الاتحاد (مملكة النمسا والمجر) على أن تحتفظ كل منهما بدستورها الذي وضعته لنفسها ، ولكن تحت تاج واحد هو تاج الأمبراطور .

المرحلة الأخيرة للوحدة الألمانية :

لم يكن الأمبراطور الفرنسي نابليون الثالث سعيدا بانتصار البروسيين انتصارا حاسما على النمسا في «سدوا» ، إذ بدأ قلقه من وجود جار قويّ على الحدود الفرنسية ، ومع ذلك فلم يضع الأمبراطور خطة معيّنة لمجابهة الموقف ، وذلك في الوقت الذي كانت بروسيا نفسها تستعد لمحاربة فرنسا . وترتب على تقاعس فرنسا أن مضى بسمرك يخطط للمستقبل بينما لم يحاول نابليون الثالث إدخال الاصلاحات الحديثة على الجيش الفرنسي ، ولم يقدّر مبلغ ما كان عليه الجيش البروسي من استعداد وما يملكه من عتاد ورجال وأسلحة حديثة ولمّا كانت أطماع فرنسا في الولايات الجنوبية الألمانية لم تتحقق فقد ازدادت الكراهية وحان خطر الحرب بين فرنسا وبروسيا ، وقد سارع بسمرك إلى اطلاع الولايات الألمانية الجنوبية الكبرى على ما أبدته فرنسا من رغبة في الاستيلاء على

أراضيها ولذلك وضعت تلك الولايات جيوشها تحت تصرف بروسيا في حالة اندلاع الحرب ضد فرنسا .

الحرب الفرنسية البروسية

كان من الطبيعي أن تنزعج فرنسا من نجاح الوحدة الألمانية ، لأن انقسام المانيا وتفككها يجعل فرنسا صاحبة النفوذ الأول في غرب أوربا ، ولذلك كان الرأي العام الفرنسي يقف دائماً ضد فكرة الوحدة القومية الألمانية .

تهيأ الجو عند الفريقين للحرب ، ففرنسا كانت تريد أن تقضي على ألمانيا الجديدة قبل أن يقوى ساعدها ، وأما بروسيا زعيمة الاتحاد الألماني فقد رأت أن دخولها الحرب ضد فرنسا متحالفة مع الولايات الألمانية الجنوبية المستقلة سوف يساعد على ضم تلك الولايات الى الاتحاد الألماني .

وكما كانت مسألة شلزويج — هولشتين ذريعة للحرب الفرنسية سنة ١٨٦٦ كذلك كانت مسألة أسبانيا ذريعة للحرب الفرنسية ١٨٧٠ اذ بعد أن طرد نابليون من أسبانيا ، ظلت تلك البلاد يسودها القلق والاضطراب ففي سنة ١٨٦٨ خلعت الملكة ايزابللا المستبدة من عرش اسبانيا وأعلنت الجمهورية المؤقتة حتى يستقر الرأي على اختيار ملك جديد . وفي هذه الأثناء سعى بسمرك سراً لحمل بعض الأسبان على ترشيح أمير بروسي لعرش أسبانيا هو البرنس ليوبولد من أسرة هوهنزلرن الحاكمة في بروسيا ، ويمت بصلة القرابة لملك بروسيا ، عندئذ احتجت فرنسا وسحب البرنس ليوبولد قبوله تاجا لم يكن له فيه رغبة من قبل ، وتغالت فرنسا بعد ذلك فطلبت من ملك بروسيا أن يعد بعدم ترشيح أحد من أسرة هوهنزلون في المستقبل لتاج اسبانيا في المستقبل .

وكان هذا الطلب من فرنسا أول شرارة أشعلت الحرب اذ اعتبر بسمرك ذلك التدخل تحدياً سافراً واهانة موجهة من فرنسا الى ألمانيا ، وأخيراً اندلعت نيران الحرب بين الفريقين .

كان من سوء حظ فرنسا أنها لم تكن مستعدة للحرب في حين أن ألمانيا كانت مستعدة كل الاستعداد ، وعمدت ألمانيا الى الحرب الخاطفة فلم يمض على مدة القتال ستة أسابيع حتى هزم أحد الجيوش الفرنسية – وكان على رأسه الامبراطور نفسه – واضطر الى التسليم في موقعة سيدان ، كذلك هزم الألمان جيشاً فرنسياً آخر في حصن متز Metz ، وبذلك انفتح الطريق أمام الألمان لمواصلة السير الى باريس .

وعلى الرغم من تلك الهزائم ، فقد أعلنت فرنسا الجمهورية وأخذت تستعد للدفاع استعداد المستميت ، وعادت المناوشات من جديد وتجدد القتال خمسة أشهر . ثم جاءت الهزيمة النهائية لفرنسا . واضطرت الى عقد معاهدة فرنكفورت التي نزلت بمقتضاها عن الألزاس واللورين ، وهما ولايتان كانتا ضمن الحدود الفرنسية قرابة مائتي عام ، ظل سكانهما طول هذه المدة يدينون بالولاء لفرنسا رغم أن عدداً كبيراً منهم يتكلمون الألمانية .

وقبل أن توقع تلك المعاهدة سنة ١٨٧١ اتخذ الألمان قرارهم الهام باعلان قيام الامبراطورية الألمانية ، واختاروا بهو المرايات بقصر فرساي مكاناً للاحتفالات باعلان الامبراطورية الألمانية حيث قدم ملك بافاريا – وهي أكبر الولايات الألمانية في الجنوب – التاج الامبراطوري الى ملك بروسيا ولهلم الاول .

الفصل الرابع

العلاقات السياسية بين الدول الكبرى

(١٨٧١ – ١٨٩١)

(١) نتائج الحرب السبعينية وسياسة بسمرك

يعتبر عام ١٨٧٠ ختاماً لعدة حركات سياسية ، نتـج عنها تكوين الامبراطورية الألمانية والمملكة الايطالية ، والجمهورية الثالثة الفرنسية ، والمملكة الثنائية (النمسا والمجر) . ثم تلا ذلك نيف وأربعون عاماً حدثت خلالها أحداث مهدت للحرب الكبرى الاولى نتيجة لحب التوسع والاستعمار . وكان أهم ما حدث خلال تلك الفترة ، تأسيس الجمهورية الفرنسية وتدعيم الامبراطورية الألمانية وتكوين التحالف الثلاثي والثنائي ، والمسألة الشرقية .

كان تأسيس الجمهورية الفرنسية سنة ١٨٧٠ نتيجة من نتائج الحرب الفرنسية البروسية ، فقد اعتقد الفرنسيون أن الملكية الفرنسية كانت السبب في الخراب والدمار والغزو والانحلال الذي أصاب الوطن ، ودفع نابليون الثالث الثمن غالياً ، ففقد عرشه وضاع الملك نهائياً من أسرته بعد أن اتهمه الشعب الفرنسي بأنه جلب الكارثة لبلاده .لقدكان الامبراطور نابليون الثالث يدعي دائماً أن امبراطوريته ترتكز على ارادة الشعب ، ولكن الحقيقة أنه

كان يعتمد على قوة الجيش ، فلما تحطم جيشه أمام الألمان ، وفقد القوة التي كان يستند اليها تحركت عوامل الثورة في نفوس الشعب ، وتذكر الفرنسيون كيف أنقذتهم حكومة الجمهورية أيام الثورة الفرنسية من الغزو الأجنبي في عام ١٧٩٢ ، وعادوا الى تقاليد الثورة الفرنسية لعل التاريخ يعيد نفسه .

ومن المهم أن نلاحظ أن قيام الجمهورية في فرنسا سنة ١٨٧٠ لم تفرضها الديمقراطية في باريس على الشعب كما حدث أيام قيام جمهورية سنة ١٨٤٨ بل أن الشعب نفسه في الاقاليم ، قد أعلن الجمهورية قبل أن تصله أنباء الثورة في العاصمة ، ولذلك نستطيع أن نقول أن الجمهورية الثالثة ارتكزت على اساس أقوى من الأساس الذي ارتكزت عليه الجمهورية الثانية ، ولذا فقد كانت اكثر استقراراً وأطول حياة .

وقد تولت بعد سقوط الامبراطورية حكومة الدفاع الوطني التي أخذت على عاتقها طرد الجيش الألماني من الاراضي الفرنسية ، وتولى قيادة تلك المهمة ليون جامبتا Leon Gambetta وزير الداخلية الذي كرس جهوده لاعادة الحياة الى بلاده وبعث روح النشاط من كل مرافقها ، ولكن جهوده المضنية لم تستطع أن تنقذ العاصمة ، وانعقدت « جمعية وطنية » في بوردو لتقرر مصير البلاد ، اما الى السلام واما الى الحرب . وانتهى القرار الى الموافقة على الشروط القاسية التي فرضتها المانيا على فرنسا في معاهدة فرنكفورت ١٨٧١ ، وكان هذا القرار صدى لما كان يعتمل في نفوس الشعب من اليأس والجنوح الى وضع حد لسفك الدماء على غير جدوى . فعقد الصلح . وفقدت فرنسا الألزاس واللورين ووافقت على أن تدفع تعويضاً قدره مائتي مليون جنيه وسرعان ما عادت المنازعات الداخلية وأصبحت البلاد تغلي بالخلافات والمشاحنات .

لقد كانت باريس دائماً مركز أي حركة من حركات التاريخ الفرنسي بل انها كانت تفرض ارادتها على الشعب الفرنسي الذي كان ينتظر الأوامر

من باريس ليتلقى عنها الوحي والارشاد ، ولكن بعد سنة ١٨٧٠ رفض الشعب أن يتلقى أوامره من العاصمة .

وعندما أبرمت الجمعية الوطنية في بوردو صلح سنة ١٨٧١ ، غضب دعاة الحرب أشد الغضب ، واستقال النواب المتطرفون من « جمعية سلمت اقليمين فرنسيين وعرضت فرنسا للانحلال والخراب » .

وأصبحت ألمانيا بعد الحرب الفرنسية الالمانية سيدة الدول الاوربية ، وأصبح زعيمها بسمرك سيد الموقف السياسي في أوربا . وتحققت الوحدة السياسية الألمانية تحت زعامة بروسيا . وهي الوحدة التي ساق بسمرك من أجلها ثلاثة حروب ، ومهد لها فلاسفة الألمان وكتابهم وشعراؤهم ومؤرخوهم حتى أصبحت صلاة الألمان وهدفهم المقدس .

ولكن الانتصار الألماني على فرنسا ترك في نفس الفرنسيين أثراً لا يمحي اذ ليس من السهل أن ينسى الفرنسيون انتزاع الألزاس واللورين ، لذلك كان هدفهم في المستقبل يتلخص في كلمة الانتقام « Revanche » . وترتب على ذلك — كما قال أحد المؤرخين الألمان — أن ألمانيا منذ أن تم تأسيس امبراطوريتها وجدت في فرنسا معولاً يتهيأ دائماً لتحطيم بنائها عندما تسنح أول فرصة ، أضف الى ذلك ان اعداء المانيا كانوا يرون دائماً في فرنسا الحليف المتحمس . ولذلك كانت سياسة بسمارك تتجه الى العمل على ان تتحاشى المانيا الدخول في نزاع آخر مع الفرنسيين ، وقد تجلت تلك السياسة في الكتاب الذي ارسله بسمرك الى السفير الالماني في باريس وقال فيه « نحن نريد ان تتركنا فرنسا نعيش في سلام » كذلك لم يحاول ان يظهر أي شعور عدائي تجاه الجمهورية الفرنسية الناشئة ، ولكي يصرف انظار الشعب الفرنسي عن الانتقام من اجل الاراضي الفرنسية المسلوبة حاول كثيراً توجيه انظار الفرنسيين نحو الاستعمار في الخارج وهو في هذا يهدف الى غرضين : أولهما اقحام الفرنسيين في حروب استعمارية في الخارج ، وثانيهما اثارة

العداوة بينهم وبين الدول الاخرى فشجع فرنسا على غزو تونس لكي تختلف مع ايطاليا وشجع انجلترا على غزو مصر ليقوم النزاع بينها وبين فرنسا ومع ذلك فقد كان يشعر في قرارة نفسه ان لا سبيل الى اصلاح ما افسدته الحرب السبعينية بين الدولتين ، وزاد هذا الشعور قوة ، ما لاحظه من ان فرنسا قد افاقت بسرعة عجيبة من الكوارث التي نزلت بها سنة ١٨٧٠ وبدأت تعمل في جد وسرعة لتنظيم جيوشها . وكان القائد الالماني مولتكه على حق عندما قال « لقد كسبنا احترام العالم في الحرب الاخيرة ولكنا خسرنا حبه ، ان ما جنيناه بقوة السلاح في ستة اشهر سنضطر للدفاع عنه مدى خمسين عاماً . »

(٢) عزل فرنسا

لذلك وجه بسمرك كل همه نحو عزل فرنسا عن الدول الاوربية حتى لا تستطيع أن تجد من بينها حليفاً تعتمد على معاونته ، لانه كان يعتقد أنه ما دامت فرنسا بغير حلفاء فلن تكون خطراً يهدد المانيا ، وقد تسلطت تلك الفكرة عليه في اثناء الحرب الفرنسية – البروسية اذ كان يخشى من تكوين أي تحالف اوربي يتدخل في اللحظة الاخيرة فيحرم الالمان من ثمار النصر. فقد كان يعلم تماماً ان ايطاليا مثلاً لا تنسى الخدمات التي أدتها لها فرنسا في حروب الوحدة ، وأن النمسا قد تفكر في أن تنتقم لنفسها بسبب طردها من الاتحاد الالماني ، وأن روسيا تستطيع أن تعرقل النصر الالماني لو قامت بأية حركة في الجبهة الألمانية الروسية ، ومع ذلك فقد امنت المانيا كل تلك المخاوف حتى انتصرت على فرنسا .

بسمرك يؤلف الجبهة الأوربية

وظل ذلك الخوف من تكوين جبهة أوربية ضد الامبراطورية الالمانية يساور بسمرك حتى هداه تفكيره الى تأليف حلف دفاعي يضم بعض اعداء الامبراطورية الالمانية القدامى ، واستطاع بدهائه ان يحقق تلك الخطوة مع

النمسا وروسيا ، وساعده على ذلك ان آل هبسبرج قد فقدوا الأمل في امكان استعادة سيادتهم على المانيا ، وتحولت السياسة النمسوية الى تحقيق بعض اطماعها في بلاد البلقان ولذلك كانت النمسا في أشد الحاجة الى تأييد المانيا لها في سياستها الشرقية ضد العناصر السلاقية ، وخصوصاً أن روسيا كانت تتجه نفس الاتجاه لبسط سيطرتها على شبه الجزيرة البلقانية .

أما عن روسيا فقد حاول بسمرك أن يتبع أيضاً سياسة حسن التفاهم معها ، ولا سيما أن العلاقات بين المانيا وروسيا ظلت طيبة منذ أوائل القرن التاسع عشر ، بل ان الصداقة الشخصية بين العاهلين ، ولهلم الأول امبراطور المانيا وابن اخيه اسكندر الثاني قيصر روسيا قد زادت من تفاهم البلدين . وكان من السهل على بسمرك ان يقنع كلاً من النمسا وروسيا بأن التيارات الثورية والمبادئ الديمقراطية والاشتراكية التي انتشرت بين الجمهور الفرنسي وبعض الطبقات الألمانية والروسية اصبحت خطراً يهدد كيان الحكم الاوتوقراطي في الدول المحافظة ، وعليها اذن ان تعمل على تكوين حلف مقدس فيما بينها .

وفي سنة ١٨٧٢ تقابل الاباطرة الثلاثة في برلين ، ووصلوا الى اتفاق شفهي فيما بينهم ، وقد اطلق على هذا التفاهم او هذا الوفاق اسم « عصبة الاباطرة الثلاثة » ، والواقع أن هذا التفاهم لم يعقبه توقيع معاهدة بين الدول الثلاث ، ولكن كل ما حدث أن الدول الثلاث الكبرى ، روسيا والمانيا والنمسا ، اتفقت جميعها على « الابقاء على الحدود الراهنة لاوربا ، والعمل على تسوية المشكلات الناجمة عن المسألة الشرقية ، والمعاونة على اخماد الحركات الثورية في اوربا » .

واستطاع بسمرك أيضاً أن يستميل ايطاليا ، ثم توجت العلاقات الالمانية الايطالية بزيارة الملك ايمانويل لبرلين عام ١٨٧٣ . وبذلك تم لبسمرك عزل فرنسا عزلاً يكاد يكون تاماً .

(٣) المسألة الشرقية وأزمة البلقان

درج السياسيون على تسمية البلقان « برميل البارود » لأن بلاده كانت مثار الحروب منذ القرن التاسع عشر ، فقد كان يسكنه شعوب مختلفة الاجناس والعادات والتقاليد ، متنافرة الشعور والاهواء والميول ، وقد تقاسم النفوذ في تلك المنطقة دولتان كبيرتان ، هما الدولة العثمانية ، والامبراطورية النمسوية . فقد استطاع الاتراك العثمانيون منذ القرن الخامس عشر ، أي منذ سقوط القسطنطينية في ايديهم ، أن يندفعوا بفتوحاتهم نحو البلقان ، وظلوا مسيطرين على معظم بلاده حتى نهاية القرن الثامن عشر ، عندما بدأت الامبراطورية العثمانية في الضعف والانحلال ، وعندئذ كانت الفرصة سانحة لكل من روسيا والنمسا ، ان تحققا اطماعهما في تلك البلاد ، وادركت شعوب البلقان أن باستطاعتها ان تحقق امانيها القومية ، فتمكن المجريون في عام ١٨٠٤ من الاستقلال الذاتي بعد ثورة عنيفة قاموا بها ، ثم استقل اليونانيون استقلالاً تاماً بعد ثورتهم الكبرى وتدخل الدول لمصلحتهم عام ١٨٣٢ ، واضطرت تركيا الى اعطاء صربيا استقلالاً ذاتياً عام ١٨٣٠ بشرط دفع الجزية للسلطان وكان الصربيون هم اول من ثار من البلقانيين ضد الاتراك ، وان كان اليونانيون قد سبقوهم الى الحصول على استقلالهم التام . الا أن الصربيين لم يذعنوا الى الابد ، بل تابعوا جهادهم حتى جلا الاتراك عن بلادهم سنة ١٨٦٧ .

وكانت ولاية البوسنة والهرسك تابعتين للسلطان ، وكان سكانهما يكرهون حكم الاتراك ، ويتطلعون الى الانضمام الى صربيا بعد ان نالت استقلالها .

وقد برزت خلال تلك الثورات وغيرها على الدولة العثمانية مشكلة سميت في التاريخ باسم المسألة الشرقية ، اشتركت في حوادثها الدول الاوربية الكبرى ، فاصبحت قضية أوربية معقدة ، استحال على الساسة حلها حلاً

يرضي جميع الاطماع . فروسيا وفرنسا يتنافسان على حماية رعايا الدولة المسيحيين ، حيث ادعت الاولى حق حماية الارثوذكس ، وادعت الثانية حق حماية الكاثوليك . وتطلعت النمسا الى التوسع في البلقان ، ووقفت بريطانيا متربصة للاطماع الروسية في الاملاك العثمانية ، وحاولت النمسا الاتجاه نحو البلقان ، وأخذت بريطانيا تعمل على ان تمنع الاجهاز على تركيا (الرجل المريض) .

ثم عادت المسألة الشرقية للظهور في عام ١٨٧٥ ، فقد قامت ثورة في الهرسك (هرزجوفينا) ، بسبب قسوة الحكام الاتراك في جباية الضرائب رغم نقص المحصول في ذلك العام ، وانضم الى الثوار متطوعون من الصرب والجبل الأسود وبلغاريا ، لمعاونتهم ضد العدو المشترك ، تركيا ، ولتحقيق وحدتهم التي تتزعمها صربيا .

وفي صيف عام ١٨٧٥ ، اعلنت صربيا والجبل الأسود الحرب على تركيا ، وعندئذ تنبهت كل من روسيا والنمسا الى مصالحهما واطماعهما في البلقان وحاولت كل منهما ان تستفيد من الموقف المرتبك في تلك البلاد .

اما روسيا فقد كانت سياستها ذات وجهين : أولهما سياستها الرسمية في التفاهم مع النمسا على توحيد سياستهما في البلقان ، وثانيهما وجود عاطفة قوية نحو الجامعة السلافية تستمد قوتها من العاطفة الدينية الارثوذكسية التي تتخذ لها مركزاً في موسكو .

ولكن النمسا رغم رغبتها في تحطيم الدولة العثمانية ، كانت تخشى ان يثور السلاف الخاضعون لها تشبهاً بالسلاف الخاضعين لتركيا ، فاتفق رئيس وزرائها اندراسي مع دزرائيلي رئيس الوزارة البريطانية على توجيه مذكرة الى تركيا يفرضان فيها على السلطان عدة مطالب تختص بمعاملة رعاياه المسيحيين ، ومع ان السلطان قد قبل المذكرة ووعد بتحقيق ما جاء فيها ، رفض الثوار ان يعتمدوا على وعد السلطان .

وامتدت الثورة الى بلغاريا ، فاستعمل الاتراك منتهى الشدة في اخمادها ، مما اثار السخط على تركيا في اوربا ، ولما ارسلت الدول الاوروبية مذكرة جديدة تلح في وجوب تنفيذ الاصلاح ، لم تعبأ بها تركيا ، وردت عليها رداً جافاً ، لأنها كانت تعتقد أن الدول الاوروبية تشجع الثوار وتمدهم بالعون والتأييد .

الحرب الروسية التركية

وفي عام ١٨٧٧ ، اعلنت روسيا الحرب على تركيا ، وانضمت اليها رومانيا وصربيا والجبل الاسود وبلغاريا ، بينما لم يكن لتركيا في ذلك الوقت حليف قوي تستطيع أن تعتمد على تأييده ، وكانت روسيا قد ضمنت حياد النمسا في تلك الحرب بعد ان وعدتها بأن توافق على ضم البوسنه الى النمسا في التسوية القادمة .

ولم يكد ينتهي العام حتى كانت القوات الروسية تتقدم منتصرة نحو القسطنطينية ، وعندئذ تحركت الحكومة البريطانية — وكان على رأسها دزرائيلي — للعمل على منع عدوتها التقليدية روسيا من الوصول الى العاصمة التركية ، وكان على استعداد للحرب حتى يمنع الكارثة التي تقف بريطانيا دائماً دون حدوثها ، ووصلت قطع من الاسطول البريطاني الى الدردنيل لمنع اي تقدم روسي .

كذلك اظهرت النمسا قلقها من احتمال نجاح البلقانيين ضد تركيا وانتقال العدوى الى ممتلكاتها ، وفي الوقت نفسه كانت ترى أن أي تقدم روسي نحو القسطنطينية قد يعطي روسيا فرصة السيطرة على مدخل نهر الدانوب ، وهو النهر الذي يربط بين الممتلكات النمسوية ، وبذلك ظهر الخلاف بين السياسة الروسية والنمسوية في البلقان .

وهكذا تبين لقيصر روسيا صعوبة تحقيق مآربه ، واضطر الى ابرام الصلح مع تركيا في معاهدة سان ستفانو (في ٣ مارس

سنة ١٨٧٨) . ولم تكن معاهدة الند للند ، بل معاهدة بين القوي والضعيف ، أملى الروس شروطها وهم يكظمون غيظهم من محاولة التدخل البريطاني المسلح ، واحتمال انضمام النمسا الى جانب بريطانيا فيه . ونصت المعاهدة على استقلال رومانيا والصرب والجبل الأسود استقلالاً تاماً ، وتنازلت تركيا لروسيا عن بعض المناطق في القوقاز .

وكان أهم النتائج التي ترتبت على عقد تلك المعاهدة منح بلغاريا حدوداً أوسع فقد مهدت الصحافة التي تنطق باسم الجامعة السلافية الى تحويل أنظار البلقانيين الى الزعامة البلغارية الجديدة . واصبحت بلغاريا بموجب معاهدة سان ستيفانو تمتد من البحر الاسود الى الساحل الطويل الواقع على بحر ايجه ، وهي محاولة شاءت بها روسيا أن تنشئ دولة كبرى تتمتع بالحكم الذاتي ، وتستمد العون والتأييد من الحكومة الروسية ، وعن طريقها يتغلغل النفوذ الروسي في البلقان .

موقف انجلترا

لم تكد الحكومة البريطانية تعلم بنبأ تلك المعاهدة ، حتى ثارت ثائرتها وقررت التدخل لاجبار القيصر على أن يعرض معاهدة «سان ستيفانو» بحذافيرها على مؤتمر يمثل الدول الكبرى ، للنظر في شروطها واجراء التعديل فيها .

مؤتمر برلين ١٨٧٨

ورأى بسمرك ان يتوسط في الأمر واقترح عقد المؤتمر في برلين ، وقبلت روسيا أن تعرض شروط المعاهدة على المؤتمر ، لأنها شعرت اذ ذاك بعزلتها ، وفي هذا المؤتمر اتفقت سياسة المانيا مع سياسة كل من النمسا وبريطانيا ، وأيد بسمرك جميع المشروعات الانجليزية التي كانت ترمي الى تضييق الخناق على روسيا .

وقد تقرر في هذا المؤتمر ان توضع البوسنه والهرسك تحت حماية النمسا

وادارتها ، أما بلغاريا ، التي امتدت حدودها بموجب معاهدة سان ستيفانو — طبقاً للسياسة الروسية — فقد انكمشت الى مساحة أكثر تناسباً واعتدالاً . وكل ما استطاعت روسيا أن تخرج به من المؤتمر هو منحها مقاطعة بسارابيا .

وعاد دزرائيلي — ممثل بريطانيا في المؤتمر — الى بلاده بعد ان كسب قبرص لانجلترا ، ووضع حداً لمطامع الروس .

ومع ذلك ، فلا نستطيع ان نقول ان مؤتمر برلين قد انتهى الى ايجاد تسوية دائمة للمسألة الشرقية ، اذ أن الولايات البلقانية نفسها لم ترض عن تلك التسوية ، فرومانيا التي ساعدت روسيا في حربها ضد تركيا ، قد فوجئت بتقرير ضم بسارابيا الى حليفتها روسيا . وساء بلغاريا أن يتبدد الحلم الذي حققته في سان ستيفانو . وغضبت صربيا كل الغضب لانتقال البوسنه والهرسك من يد الاتراك الضعيفة الى قبضة النمسا القوية ، اذ أن ذلك الحل يضعف أملها في ضمها عندما تسمح الظروف .

ومع ان دولة النمسا والمجر استطاعت أن تكسب أرضاً جديدة — البوسنة والهرسك — بدون ان تدخل الحرب ، فان ذلك الكسب ، كان في الواقع عبئاً جديداً على عاتقها ، اذ أن بسط السيادة النمسوية على ولايتين سلافيتين يزيد من نسبة عدد الجنسيات الاجنبية المختلفة في المملكة الثنائية (النمسا والمجر) وذلك — كما اتضح فيما بعد — يضعف بناءها ويزيد أعباءها ، وقد كان الامبراطور فرنسيس جوزيف نفسه يرى هذا الرأي .

وخرجت ايطاليا من ذلك المؤتمر خالية الوفاض ، وخرجت روسيا وقد حز في نفسها أن المانيا غدرت بها وبمصالحها في البلقان ، ووافقت على الغاء شروط معاهدة سان ستيفانو التي أملتها روسيا بعد انتصارها على الأتراك .

(٤) بسمرك وسياسة التخالف

الحلف النمسوي الالماني عام ١٨٧٩ :

شعر بسمرك غداة انتهاء مؤتمر برلين أن المانيا أصبحت في امس الحاجة الى تقوية مركزها في اوربا بعقد التحالف مع بعض الدول الكبرى . وقد كتب في اغسطس سنة ١٨٧٩ يقول « ان فشلنا في تدعيم مركزنا مع روسيا يضطرنا الا اتخاذ الاحتياط في علاقاتنا مع الدول الاخرى ، اكثر مما كنا نفعل عندما كنا متأكدين من صداقة روسيا » .

لذلك وقع اختياره من جديد على النمسا لتكون حليفة المانيا في العهد الجديد ، وهكذا تألف الحلف الثنائي سنة ١٨٧٩ ، وظلت شروطه سرية الى ما بعد الحرب العالمية الأولى ، وكانت تنص تلك الشروط على أن تقدم كل دولة منهما مساعدتها للأخرى إذا ما حدث ان هاجمتها روسيا ، اما اذا هاجمت فرنسا المانيا ، فليس على النمسا سوى الوقوف على الحياد ، ولم يكن بسمرك راضياً كل الرضاء عن هذا الشرط الأخير الذي أصر عليه اندراسي وزير خارجيه النمسا .

وقد هيأ ذلك التحالف الثنائي فرصة للنمسا لتطمئن من جهة الأطماع الروسية في البلقان ، وهيأ لألمانيا تاميناً لحدودها الجنوبية في حالة الحرب ضد روسيا أو فرنسا ، على الرغم من أنه لم يضمن لالمانيا مساعدة النمسا لها في حالة الحرب مع فرنسا . والواقع أن ذلك التحالف يعتبر معاهدة دفاعية ، نجح في عقدها بسمرك وظلت الأساس الذي ترتكز عليه السياسة الألمانية الى عام ١٩١٨ .

تحالف البراطرة الثلاثة

ومع كل ما تقدم ، لم تكن سياسة بسمرك تهدف في ذلك الوقت الى عزل روسيا ، بل انه على العكس كان يخشى ان تجد روسيا نفسها في حاجة

الى حليف يقوي مركزها ، فلا تجد امامها الا فرنسا ، فسعى لتحسين العلاقات الألمانية مع روسيا ، وسنحت له الفرصة عندما قتل القيصر الكسندر الثاني سنة ١٨٨١ ، وضعفت في روسيا حركة تأييد الجامعة السلافية . فاستطاع ان يهيىء الجو لاحياء « عصبة الأباطرة الثلاثة » حتى يضمن انحياز روسيا الى جانب ألمانيا والنمسا ، ولو اقتصر دورها على الالتزامات الدفاعية دون الهجومية . ولذلك نص الاتفاق الجديد على انه اذا وقعت احدى الدول الثلاث في حرب مع دولة رابعة فعلى الدولتين الاخريين ان تحتفظا بحيادهما ، حتى ينحصر الخلاف في أضيق نطاق ، فاذا هاجمت فرنسا ألمانيا ، اطمأنت الاخيرة الى وقوف روسيا والنمسا على الحياد . وقد رضيت النمسا عن ذلك الاتفاق ، لأنه يفيدها عند مهاجمة ايطاليا لها ، ففي هذه الحالة لن تخشى التدخل الألماني أو الروسي . كذلك كان الاتفاق مرضياً لروسيا في حالة قيامها بمغامرات أخرى في البلقان . وكان بسمرك يرمي الى بعث شيء من الهدوء في العلاقات الروسية النمسوية ويتمنى عقد اتفاق بين الدولتين على مدى نفوذ كل منهما في جنوب شرق اوربا ، وذلك بتحديد المجال الحيوي لكل منهما ، فتصبح صربيا في منطقة النفوذ النمسوي ، وبلغاريا والمضايق في منطقة النفوذ الروسي . ولكن الواقع أن التنافس بين الدولتين وأطماعهما المشتركة كانت أعمق من ان تنتهي بذلك الحل البسيط .

التحالف الثلاثي (١٨٨٢)

كان التحالف الثنائي ، وتحالف الأباطرة الثلاثة ، قد ضمنا لألمانيا نجاح سياستها واحتفاظها بما نالته أخيراً من تفوق وتسلط ، ولم يفكر بسمرك في أن يضم ايطاليا إلى التحالف ، ولكن ايطاليا سعت اليه بنفسها سنة ١٨٨٢ ، ولم يتحمس بسمرك في أول الامر لقبول ايطاليا كحليف جديد ، فقد قال ذات مرة « لسنا في حاجة الى أن نجري وراء ايطاليا فانها دولة لا تحتفظ بوعودها عندما تتعارض مع مصالحها » وأن « السياسة الايطالية ذات الطابع المضطرب المتعجرف قد تسبب المتاعب لأصدقائها » .

ثم ان العلاقات الايطالية النمسوية كانت متوترة منذ حروب التحرير الايطالية، فلما حاولت ايطاليا جس نبض المانيا ، قال بسمرك لسفير ايطاليا في برلين ان الخطوة الأولى للتفاهم هي ان تتفق ايطاليا مع النمسا أولاً وأن « مفتاح الموقف ليس في برلين بل في فينا » وقد اتبعت ايطاليا تلك النصيحة فزار ملك ايطاليا فينا ، وبذلك مهد السبيل الى توقيع التحالف الثلاثي سنة ١٨٨٢ .

وقد نص ذلك التحالف ، على ان تساعد كل دولة حليفتها اذا هاجمتها دولة اخرى ، على ان تقتصر مساعدة النمسا لألمانيا على حالة واحدة هي مهاجمة دولتين من الدول الكبرى لها ، وبناء على اقتراح ايطاليا تقرر انه لا تجوز المساعدة اذا كان الهجوم على احداها بناء على اثارتها للدولة المعادية ، وقد ارتكنت ايطاليا على هذا النص في الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ ، عندما قررت عدم الدخول في الحرب في صف حلفائها . ومع ذلك فقد كان اشتراك ايطاليا في التحالف الثلاثي في نظر بسمرك مفيداً ، لانه يؤمن النمسا من ناحية الحدود الايطالية ، فيتوفر لها جانب من القوات التي كان المفروض ان تلتزم الاقامة على تلك الحدود ، وفي الوقت نفسه تضطر فرنسا الى وضع عدد من القوات الفرنسية على الحدود الايطالية الفرنسية ، وذلك يضعف من استعدادها على كل حال .

ظلت نصوص ذلك التحالف سرية ، وأعلن بسمرك أنها معاهدة دفاعية لا يقصد منها الاعتداء على أحد ، ومع ذلك فان الايطاليين أرادوا انتهاز فرصة تحالفهم مع الدولتين الكبيرتين ، ليسهل لهم تحقيق أطماعهم الاستعمارية في طرابلس ، ولتعزيز مركزهم في تنافسهم مع الفرنسيين في شمال افريقية ولذلك ساد الجو عدم الطمأنينة والثقة بين ايطاليا وحلفائها .

أما عن روسيا فقد حرص بسمرك على عدم اثارتها ، بل انه وعدها بأن تقف ألمانيا على الحياد في أي حرب تثيرها النمسا ، وذلك ليشتري حياد

روسيا اذا أعلنت فرنسا الحرب على ألمانيا . وكان أخشى ما يخشاه بسمرك ان تقع ألمانيا في حرب مع روسيا وفرنسا في وقت واحد ، وبذلك تضطر الى توزيع قوتها في الجبهتين . من أجل ذلك سعى الى عقد معاهدة مع روسيا تجدد الاتفاق الذي تم في اجتماع البراطرة الثلاثة ، الذي عقد في عام ١٨٨١ وانتهى في عام ١٨٨٧ – وقد تهيأت لبسمرك الفرصة ليعقد حلفاً ثنائياً جديداً مع روسيا وهو التحالف الذي عرف في التاريخ باسم معاهدة اعادة التأمين . وقد وقعت في ١٨ يونيه سنة ١٨٨٧ ، وألحق بها بروتوكول سري . وكان أهم موادها ما يلي :

(١) اذا اشتبكت احدى الدولتين في حرب مع دولة كبرى ثالثة فينبغي ان تلتزم الدولة الاخرى جانب الحياد الودي وتحاول حصر موضوع النزاع .

(٢) اعترفت المانيا برجحان النفوذ الروسي في بلغاريا .

(٣) التمسك بمبدأ اغلاق مضايق القسطنطينية وفقاً لما ورد في تحالف الاباطرة الثلاثة في عام ١٨٨١ .

والواقع أن من يستعرض سياسة بسمرك بين عامي ١٨٧٠ و ١٨٩٠ يدرك ان هذه السياسة كانت مستوحاة من فكرة كبح جماح فرنسا وعزلها وتمكين المانيا من تدعيم مركزها في ممتلكاتها الجديدة ومواردها الضخمة دون ان يزعجها احد .

الفصل الخامس

صراع الكتلتين وانتهاء عزلة بريطانيا

الامبراطور ولهلم الثاني وسقوط بسمرك

نجحت سياسة بسمرك في عزل فرنسا ، وفي المحافظة على السلام في أوربا ، ومع ذلك ، فقد كان هذا الهدوء السياسي سلاماً مسلحاً ، لا بد أن ينتهي في يوم من الأيام .

ولما توفي الامبراطور العجوز ولهلم الأول تولى العرش ابنه فردريك ولكنه مات بعد تسعين يوماً ، وتولى العرش بعده ولهلم الثاني في سنة ١٨٨٨ وكان اذ ذاك في الثلاثين من عمره . فلما تسلم السلطة أراد ان يتخلص من بسمرك فقد كان للامبراطور الشاب سياسة خاصة وافكار أخرى يريد تنفيذها ، ولذلك كان حريصاً على أن تكون له السلطة العليا والكلمة النافذة في ألمانيا ، فلم ينقض عامان على توليته العرش حتى امر بعزل بسمرك سنة ١٨٩٠ . وكان ، اعتزال بسمرك حداً فاصلاً بين سياستين مختلفتين : سياسة بسمرك وسياسة القيصر ولهلم الثاني .

كان ولهلم الثاني يمثل عصر الطموح الألماني ، فهو لم يكن كبسمرك يخشى التكتل ضد المانيا ، أو يهاب الاستعمار ، بل كان يهدف الى تأسيس

امبراطورية قوية لها السيادة البرية والبحرية على السواء ، ويعتقد أن المجد لا ينتزع الا بقوة السلاح ، وان سياسة التهدئة لم تعد تنفع المانيا في عهدها الجديد ، فسياسته تختلف عن سياسة بسمرك من عدة وجوه ، في السياسة الاجتماعية ، والاستعمارية ، والخارجية ، فما كاد يسيطر على المانيا ويثبت اقدامه حتى طرد ربان السفينة وتسلم دفتها بنفسه .

وسرعان ما شعر العالم بتغير السياسة الالمانية في سلوكها وأساليبها . وكان أول نتيجة من نتائج التغير عدم تجديد المعاهدة السرية التي عقدها بسمرك مع روسيا وانتهى أجلها سنة ١٨٩١ ، اذ اصبحت سياسة بسمرك في الجيل الجديد عرضة للتجريح والنقد ، وكانت تلك المعاهدة الاخيرة مع روسيا على رأس اوجه النقد التي كانت توجه الى بسمرك .

الحلف الروسي الفرنسي ١٨٩٣

لقد كان بسمرك حريصاً في سياسته الخارجية على منع أي تحالف بين فرنسا وروسيا ، وكانت فرنسا من جانبها تشعر بعزلتها التي فرضتها عليها السياسة الالمانية ، وكان بسمرك يظن ان تحويل انظار الفرنسيين عن الالزاس واللورين سهل ميسور ، ولكنه ادرك قبل ان يعتزل الحكم انه كان مخطئاً وأن تونس أو مراكش لا يمكن أن يضارعا في نظر الفرنسيين ما فقدوه في الحدود الفرنسية ، فقد اتجهت السياسة الفرنسية نحو العمل على استرجاع الالزاس واللورين ان عاجلا أو آجلا . ورأت فرنسا أن أول خطوة نحو تحقيق هذا الهدف هو تقوية مركزها في اوربا ، بالبحث عن حليف أو حلفاء أقوياء . وكانت روسيا في ذلك الوقت هي الحليف الطبيعي . وقد قال البروفسور بروجان « كان هناك حليف واحد في استطاعته ان يؤدي لفرنسا ما تريده ، ذلك الحليف هو روسيا ، اذ ان تحالفها مع فرنسا يقوي من عزائم الوطنيين الذين يتحمسون لاستعادة الالزاس واللورين ، ويحيي موات أولئك الجبناء الذين لا يهتمون بالانتقام لهزيمة سنة ١٨٧٠ ويشفقون على فرنسا من التعرض

لغزو آخر » .

وعلى الرغم من وجود خلاف حول المبادئ العامة التي تعتنقها كل من الدولتين ، فان تلاؤم المصالح واشتراك الأهداف وتبادل المنافع دعا الدولة الجمهورية الديموقراطية الى التحالف مع أشد الدول رجعية[1] ، لان فرنسا كانت ترنو الى التحالف مع دولة قوية تؤمنها ضد المانيا ، وكانت روسيا تنشد التحالف مع فرنسا لتستعين بالأموال الفرنسية على اتمام مشروع مد شبكة السكك الحديدية الذي بدأته في امبراطوريتها ، وعلى الاخص مشروع سكة حديد سيبيريا الذي يخترق آسيا الى المحيط الهادى .

وقد بدأ التقرب بين الدولتين في سنة ١٨٩١ ، عندما زار الاسطول الفرنسي ميناء « كرنستادت Kronstadt . فقد استقبله الروس بالتحية والترحيب ، وعزف نشيد المرسيليز الذي كان ممنوعاً عزفه في الممتلكات الروسية . وقد رد الاسطول الروسي زيارة الاسطول الفرنسي ، عندما زار ميناء طولون سنة ١٨٩٣ . وقد حاول القيصر الالماني بكل استطاعته ان يمنع التحالف بين روسيا وفرنسا ، الا ان مخاوف الروس من مطامع الالمان في الشرق ، ووقوفهم على مرمى السياسة الالمانية الجديدة زادت مسافة الخلف بينهم وبين الالمان . وقد اتضحت سياسة المانيا في المذكرة التي بعث بها المستشار الالماني الجديد الى الريخستاج الالماني قال فيها :

« ان ظروف فرنسا تسير بها نحو الدكتاتورية ، وهذا يؤدي بها في الغالب الى طريق الحرب ، ويبدو للناس أن الحكومتين الروسية والألمانية على وفاق تام ، مع أن الرأي العام في كلتا الدولتين يختلف كلا الاختلاف لان الشعبين في عداء واضح . فالتقاليد الروسية تتمسك بالسعي الى السيطرة على المضايق وعلى القسطنطينية ، وروسيا تعمل للوصول الى هذا الهدف حتى ولو كان

---

(١) سمى بعض الفرنسيين هذا التحالف زواج المصلحة .

طريقها اليه داخل برلين نفسها . وعلى ذلك ترى الحكومة الالمانية نفسها مضطرة الى العمل على تقوية مركز النمسا كدولة كبرى (فنحن لا نريد ان نضحي بالنمسا من اجل الحصول على تفاهم مؤقت مزعزع مع روسيا . علينا في هذه الحالة اذن ان نستعد للحرب في جبهتين) .

وهكذا تلبد الجو بين روسيا والمانيا ، وازداد التقارب بين فرنسا وروسيا وتم التحالف بين الدولتين سنة ١٨٩٣ وبمقتضاه اصبح لزاماً على كل من الدولتين ان تؤيد الاخرى تأييداً عسكرياً اذا اعتدت عليها المانيا او الدول الوسطى ، فاذا هاجمت المانيا فرنسا ، او هاجمتها ايطاليا بمساعدة المانيا فان على روسيا ان تسارع الى مساعدتها ، كذلك اذا هاجمت المانيا روسيا او هاجمتها النمسا بمساعدة المانيا فان على فرنسا ان تعد كل قواتها ضد المانيا .

ظلت مواد هذا التحالف الروسي الفرنسي سرية لان القيصر كان حريصاً على ألا يعلم بتلك المعاهدة سوى رئيس الجمهورية الفرنسية ورئيس وزرائه ، ولكن في سنة ١٨٩٥ لم يعد التحالف الثنائي سراً بين الدولتين . وعندما علم امبراطور المانيا كتب الى القيصر نيقولا الثاني (١٨٩٢ — ١٩١٧) يقول « لم تزعجني صداقة فرنسا وروسيا ولكن الذي اغضبني هو ما يتعرض له مبدأ الملكية من خطر ، ... فالجمهوريون قوم ثوريون بطبيعتهم ، وقد لعنهم الله الى الابد وعلينا نحن الملوك والأباطرة المسيحيين واجب فرضه الله علينا وهو ان نحافظ على ذلك المبدأ بعون الله[1] .

انتهاء عزلة بريطانيا

تحرج الموقف الدولي في اوربا عندما انقسمت القارة الى معسكرين

---

(١) مما هو جدير بالذكر ان الراسل والمرسل اليه قد طردتهما الثورات من عروشهم فقيصر روسيا قتل واسرته جميعاً في حصن روسي وحكم على قيصر المانيا بالنفي سنين طويلة .

كبيرين ،ولكن دولة كبرى واحده ، هي بريطانيا العظمى ، كانت لا تزال بعيدة عن الفريقيين ، حريصة على عزلتها عن كل تحالف . وقد كانت لها مصالح تتعارض بعضها مع مصالح جميع الدول الاوروبية ، فتنافسها مع فرنسا على الاستعمار في افريقيه كاد يؤدي الى الحرب في سنة ١٨٩٨ عقب حادثة فاشوده . وكانت علاقاتها مع روسيا متوترة نظراً الى النشاط الروسي في ايران وافغانستان والشرق الاقصى .واما علاقاتها بالمانيا فكانت تسؤ لان الاخيرة اخذت تتحدى سيادة انجلترا البحرية والاقتصادية كما سنرى في الفصل التالى .

وفي اثناء حرب البوير (١٨٩٩—١٩٠٢) وجدت بريطانيا العظمى نفسها مكروهه من جميع الحكومات . فقد وقفت كل من المانيا وفرنسا وروسيا موقفاً عدائياً واتخذت خطة جديدة لحمل بريطانيا على أن تعقد الصلح مع البوير . وقد أحست انجلترا بمركزها الضعيف وارادت ان تتلافى عزلتها امام الدول : وحاول جوزيف تشبرلين واللورد لاندسدون ان يصلا الى التفاهم مع الالمان وقد هددا صراحة بان انجلترا سوف تبحث عن حلفاء اخرين اذا لم تستطع انجلترا الوصول الى اتفاق مع الالمان . ولكن الحكومة الالمانية كانت واثقة من ان بريطانيا لن تستطيع مطلقاً ان تصل الى اتفاق مرض مع دولتي الحلف الثنائي وبخاصة روسيا ، وعلى وعلى هذا رفض الالمان العرض البريطاني فاضطر الانجليز الى البحث عن حلفاء جدد ، فاتجهت الى اليابان وهي الدولة الآسيوية الناشئة فعقدت معها معاهدة سنة ١٩٠٢ ، ثم اتجهت الى فرنسا فعقدت معها الوفاق الودي سنة ١٩٠٤ .

اما اليابان فقد كانت دولة ناشئة استطاعت بسرعة ان تدخل الحضارة والمدنية الغربية على بلادها واصبحت قوة لا يستهان بها في الشرق الاقصى .

الحلف الانجليزي الياباني ١٩٠٢

كان اتجاه انجلترا في ان تتحالف مع اليابان اول علامة دلت على انها بدات تتخلى عن عزلتها بعد ان فشلت في الاتفاق مع الالمان . فما هو المركز السياسي الذي تحتله اليابان في ذلك الوقت وما الذي يغري انجلترا بالاتجاه الى الحلف معها؟.

في مستهل القرن التاسع عشر كانت الصين واليابان تعيشان في عزلة عن العالم الغربي ، ولكن الدول الاوربية – وعلى الاخص شركة الهند الشرقية البريطانية بدات تطرق ابواب الصين ، واختارت ان تدخل اليها تجارياً من ميناء كانتون اهم ميناء صيني في الجنوب ، وأخذ الصينيون هناك يدفعون عن انفسهم ما يكرهونه من اقتحام الاجانب لديارهم ، فكانت الحرب الصينية الانجليزية (١٨٣٩ – ١٨٤٢) وهي الحرب التي انتهت باستسلام الصينيين واستيلاء الانجليز على « هنج كنج » وفتح خمس موان اخرى – منها كانتون وشنغهاي للتجارة الاوربية .

ثم حدثت في الصين حرب اوربية ثانية اشتركت في اثارتها فرنسا وبريطانيا معا كدولتين متحالفتين وذلك خلال ١٨٥٧ – ١٨٥٨ ، وامكنهما انتزاع بعض الامتيازات والاتفاقات التجارية لهما وللشعوب الاوروبية الاخرى ، ومنذ هذا التاريخ خيل للدول ان الصين ميدان فسيح للاستعمار تستطيع ان تقتسمه فيما بينها ، كما كانت اذ ذاك تعمل على اقتسام افريقيا ، ولم يقتصر الامر على دول غرب اوربا بل ان روسيا من جانبها ، وكانت حدودها تتاخم حدود الصين في مواضع مختلفة ، رأت ان تتغلغل جنوباً نحو كوريا وشبه جزيرة لياوتونج لان ميناءها على المحيط الهادي (فلاديفستك)لم يكن صالحاً للملاحة طول العام لأنه يتجمد في فصل الشتاء .

وكانت اليابان قد بدأت تخرج عن عزلتها عن العالم الخارجي ، ولم تعد تلك « المملكة الناسكة » كما كانوا يسمونها ، فقد اكرهتها الولايات المتحدة على تغيير سياستها في الانطواء على نفسها واغلاق موانيها في وجه التجارة الاجنبية ، فقد حدث في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ان الامريكيين بدءوا يوجهون عنايتهم نحو التوسع الاستعماري ، وارتياد المحيط الهادي غرباً .

وفي سنة ١٨٥٤ ، ذهب احد القواد الامريكيين – تؤيده مظاهرة بحرية مكونة من ثمان سفن بحرية حربيه – الى سواحل اليابان ، طالباً من حكومتها رسمياً فتح ابواب الموانئ اليابانية للتجارة الامريكية . وكان لظهور تلك السفن

الحربية اثره ، فاجابت طلبه في الحال . ثم اضطرت بعد ذلك الى منح بعض الامتيازات لبعض الدول الاوربية .

وظن العالم ان اليابان سوف تلقى نفس المصير الذي كتب على الصين ولكن استسلام اليابانيين لم يدم طويلا ، اذ حدثت في عام ١٨٦٧ ثورة في اليابان ، وتخلص الشعب الياباني من النظام الاقطاعي الذي لازمهم قروناً عديدة ، وعاقهم عن التقدم . وظهر باليابان زعماء مصلحون كان هدفهم ادخال الحضارة الاوروبية ، والعمل على تطور البلاد من النواحي الاقتصادية والفكرية والاجتماعية ، وما كاد القرن التاسع عشر يشرف على نهايته ، حتى اصبحت اليابان دولة قوية البنيان شديدة البأس .

ولم يقتصر تقليد اليابان للدول الاوربية الكبرى على تتبع خطواتها في الحضارة ، بل تعدى ذلك الى الناحية الاستعمارية . وكان من الطبيعي ان ان تختار مجالها الحيوي في جارتها الصين ، التي اصبحت مطمعاً للدول الاوروبية.

واضطرت الصين الى الدفاع عن نفسها ضد عدوتها الجديدة وجارتها القديمة . فنشبت الحرب اليابانية — الصينية (١٨٩٤ — ١٨٩٥) ، فانتصرت اليابان . وفرضت على الصين معاهدة (شيمونسكي) التي اعترفت فيها الاولى باستقلال كوريا التي كانت اذ ذاك خاضعة للصين ، وذلك تمهيداً لسيطرة اليابان عليها فيما بعد ، وتنازلت لليابان عن جزيرة فرموزا وشبه جزيرة لياوتونج بمينائها العظيم بورت آرثر [١]

كان ذلك الانتصار الياباني في الصين يتعارض مع اطماع روسيا في نفس تلك الجهات التي اصبحت في حوزة اليابان . واعتمدت في معارضتها للتقدم الياباني على حليفتها فرنسا ، بل ان المانيا نفسها اظهرت تخوفها من ذلك الخطر الجديد الذي ظهر في الشرق الاقصى والذي سماه قيصر المانيا بالخطر الاصفر. فاتفقت الدول الثلاث ، روسيا وفرنسا والمانيا ، على ان تطلب من اليابان أن تعيد لياوتونج الى الصين . واضطرت اليابان الى الرضوخ لهذا المطلب ،

(١) انظر الفصل الثامن عشر عن الشرق الاقصى

الا ان روسيا سارعت الى احتلال تلك المنطقة بعد فترة وجيزة ، ومدت فرعاً من خطوطها الحديدية عبر الحدود الصينية الى الميناء الكبير بورت آرثر ، اما المانيا فقد ارسلت جيشاً احتل كياوتشو مع ميناء تسنج — تاو . واخذت فرنسا وانجلترا تضغطان على الصين لسلب ما يمكن سلبه منها ، واخذتا تتدخلان في شئونها ، واستنكرت الصين هذا التدخل الثنائي ، ثم اخذت تجاهد في سبيل اخراج الاجانب منها فقامت ثورة البوكسرز (١) وحاصر الثوار المفوضيات الاجنبية في بكنج مدة ستة اسابيع (سنة ١٩٠٠) . عندئذ اتفقت الدول الاوروبية على أن ترسل فرقة دولية تحت قيادة قائد الماني ، وتمكنت تلك الفرقة من اخماد الثورة وانقاذ المحاصرين .

اما الحلف الانجليزي الياباني فقد جاء على اثر ذلك الموقف السياسي في الشرق الاقصى ، فان انجلترا صاحبة المصالح التجارية الكبرى في الصين ازعجها ذلك التقدم الروسي هناك ، وكانت اليابان في الوقت نفسه قد عقدت العزم على استرجاع ميناء بورت آرثر . وقدرت لانجلترا موقفها في عدم اشتراكها في توجيه الانذار اليها بالجلاء عن ذلك الميناء ، وتهيأت الظروف لعقد الحلف الانجليزي الياباني سنة ١٩٠٢ .

وبموجب هذا الحلف تعهدت كل من بريطانيا العظمى واليابان بأن تساعد كل منهما الاخرى اذا هاجمتها دولتان أوربيتان . وكانت اهمية هذه هذه المعاهدة بالنسبة لليابان انها تحميها من تدخل دولة ثانية عند قيامها بالحرب ضد روسيا في الشرق الأقصى . فكأن ذلك تحذير لفرنسا والمانيا بأنه اذا قامت الحرب بين روسيا واليابان ، فان اي تدخل من احداهما يستتبعه تدخل بريطانيا لمصلحة اليابان . اما اهميتها بالنسبة لبريطانيا فقد ضمنت حليفاً قوياً يقاسمها مسئولية الدفاع عن المصالح البريطانية في آسيا وفي الوقت عينه أمنت الضغط

---

(١) كلمة (Boxer) ترجمة لاسم جمعية صينية مناهضة للاجانب وهي الجمعية التي لعبت دوراً هاماً في التحريض على الثورة .

الياباني نفسه ضد مصالحها هناك ، ولما كانت اليابان دولة بحرية قوية فان ذلك الحلف يهيئ لبريطانيا فرصة سحب بعض قطع من اسطولها المرابط في الشرق الاقصى ، لتنتفع به في البحر الابيض المتوسط والمحيط الاطلنطي وتعزيز الاسطول البريطاني في بحر الشمال ، حيث يعمل الالمان على احتكار السيادة البحرية فيه . وقد كان هذا التحالف أول تحالف على قدم المساواة في في التاريخ الحديث بين دولة اوربية واخرى شرقية ، مما اعطى لليابان أهمية دوليه كبرى وكان له أيضاً أثره في وقف عملية التقسيم في الصين فقد تعهد الطرفان ان يحافظا على استمرار الحالة الراهنة في الشرق الاقصى .

وجاءت الحرب اليابانية الروسية المنتظرة ، بعد عامين من توقيع المعاهدة الانجليزية اليابانية اي في عام ١٩٠٤ ، وانتهت بهزيمة الروس ، واضطرت روسيا الى قبول صلح استولت اليابان بموجبه على ميناء بورت آرثر وجلت روسيا عن منشوريا التي أعيدت إلى الصين .

وقد كان لهذا الانتصار الياباني على روسيا آثاره البعيدة المدى ، فقد استطاعت اليابان الصغيرة الناشئة أن تهزم روسيا في البر والبحر ، وأصبحت بحق احدى دول العالم الكبرى . ولم تعد روسيا في ذلك الحين الشبح الذي يمنع المانيا والنمسا من محاولة السيطرة على بلاد البلقان ، وشعرت فرنسا ان حليفتها التي علقت عليها الآمال لم تعد تستطيع الاعتماد عليها ، فاصبحت أكثر ميلا للعمل على صداقة بريطانيا ، واما بريطانيا فقد امنت شر روسيا الذي كانت تخشاه على سلامة الهند ، ووجهت همها نحو مجابهة الخطر الالماني .

الوفاق الودي بين انجلترا وفرنسا سنة ١٩٠٤

كانت المانيا تستبعد احتمال وصول انجلترا وفرنسا الى اتفاق فيما بينهما ، ولكن الموقف السياسي جعل الدولتين تشعران بانهما في حاجة الى التفاهم حتى ينقذا مركزهما من الخطر الالماني الذي يهدد كيان كل منهما فقد غيرت المانيا في عهد القيصر الجديد سياسة بسمرك التي كانت تقنع بان تكون المانيا في الدرجة

الثالثة من الدول البحرية وجعل ولهلم الثاني يسعى لان تكون المانيا سيدة البحار بعد ان اصبحت أقوى دولة برية في اوربا . وقد بدا فعلا باتخاذ الخطوات العاجلة نحو تحقيق هذه الامنية كما سنرى في الفصول التالية .

وقد تجلى عداء المانيا لبريطانيا اثناء حرب البوير في جنوب افريقيا ، فقد كانت الصحف الالمانية التي تمثل الرأي العام الالماني تفيض بالحملات الشديدة على بريطانيا ، وظهرت بوادر تدل على ان الحكومة الالمانية ترغب رغبة اكيدة في مساعدة المجاهدين البوير ليتغلبو على الاستعمار البريطاني الزاحف عليهم من الجنوب .

ولم يمض عامان بعد انتهاء حرب البوير ، حتى كانت بريطانيا قديئست تماماً من محاولة الوصول الى تفاهم مع المانيا للحد من التسابق البحري ، وعندئذ تهيأ الجو للاتفاق مع عدوتها القديمة فرنسا . وقد رحبت فرنسا من جانبها بعقد الوفاق الودي (١٩٠٤) مع انجلترا

ولم يكن الوفاق تحالفاً بالمعنى المفهوم ، فهو لم يقيد الدولتين بمساعدة احداهما الأخرى في المستقبل ،ولكنه فقط ، ازال الاسباب التي كانت تؤدي الى الاحتكاك بين الطرفين وكان أهم شروط الوفاق اعتراف فرنسا بمركز انجلترا في مصر ، وتعهدها بالا تثير المصاعب في وجه الاحتلال البريطاني لمصر ، بينما اعترفت بريطانيا بالمصالح الفرنسية في مراكش وبمركز فرنسا الممتاز هناك .

الوفاق الانجليزي الروسي ١٩٠٧

ولما كانت فرنسا وروسيا دولتين متحالفتين ، كان من الطبيعي ان تسعى فرنسا الى التقريب بين انجلترا وروسيا ، ووافق سير ادوارد جراي وزير الخارجية البريطانية على ذلك ، فعقدت بين الدولتين معاهدة تماثل الوفاق الودي بين

فرنسا وانجلترا ووقعت المعاهدة في سنة ١٩٠٧ .

وكانت أعقد المشكلات التي مرت بالمتفاوضين هي مسألة ايران ، لأن روسيا كانت قد بدأت تنشط في آسيا للضغط على ايران ، ولما كانت ايران تجاور افغانستان فان استمرار التقدم الروسي قد اعتبر خطراً على الهند ، اضف الى ذلك ما تنتجه ايران من زيت البترول في الجنوب مما يضمن لانجلترا وقوداً لاسطولها .

وبالجملة فقد اتفق على اطلاق يد روسيا في شمالي ايران واطلاق يد الانجليز في جنوبها على ان تكون هناك منطقة لا يصل اليها الدب الروسي ولا الاسد البريطاني لا لشيء الا لمنع الاحتكاك بين الوحشين .

الفصل السادس

التوسع الاستعماري في ختام القرن التاسع عشر
١٨٩٠ – ١٨٩٩

عندما أشرف القرن التاسع عشر على الانتهاء، كانت حمى الاستعمار قد انتابت الدول الاوروبية الكبرى ، فقد كانت الشعوب قبل ذلك مشغولة بتدعيم كيانها ، وتثبيت وحدتها . فقامت في اوربا ست حروب [1] شغلت العالم الأوربي ما بين عامي ١٨٥٤ و ١٨٧٨ . وظهر الى الوجود دولتان جديدتان أصبحتا في عداد الدول الاوربية الكبرى . هما ألمانيا وايطاليا .

وبعد أن استقرت اوربا بعد مؤتمر برلين ، انتقل ميدان التنافس بين الدول الكبرى الى خارج القارة الاوربية ، وبدا للناس ان العالم كله اصبح امتداداً للمشكلات الاوربية . وكان التنافس الاستعماري نتيجة لعاملين رئيسيين أولهما أن الدول القومية قد بلغت ما كانت تهدف اليه من الوصول الى حل يرضي امانيها الوطنيــــة . وكانت أي محـــاولة يقوم بها الايطاليون او

---

(١) حرب القرم ١٨٥٤ – ١٨٥٦، وحروب الوحدة الأيطالية ١٨٥٩ ، حرب شلزويح وهولشتين ١٨٦٤ ، والحرب النمسوية ١٨٦٦ ، والحرب الفرنسية البروسية ١٨٧٠ – ١٨٧١ والحرب الروسية التركية ١٨٧٧ .

الالمان او الفرنسيين لتغيير الاوضاع السياسية في اوربا حينئذ ، معناها قيام حرب أوربية عامة ، ورغم ان كل دولة منها كانت تشعر بانها لم تصل بعد إلى كل اهدافها ، الا ان ساسة تلك الدول كانوا جميعها لا يحبون المخاطرة بالدخول في حرب اوربية لا يؤملون منها الخير الكثير . اما العامل الثاني فهو رغبتهم في الاتجاه خارج اوربا بحثا وراء الاستعمار . .

ويختلف الاستعمار الحديث الذي ظهر في تلك الفترة من نهاية القرن التاسع عشر ، عن الاستعمار الاوربي الذي بدا بعد حركة الاستكشافات الجغرافية ، والذي كان يسميه الاوربيون ،لأن الاستعمار الثاني كان نتيجة عوامل داخلية منها الدينية كهجرة البروتستانت والهيجنوت والبيورتان الى امريكا ، ومنها الاجتماعية كالفرار من الاضطهاد الاجتماعي والحكم الاستبدادي ، ومنها الاقتصادية ، كنزوع بعض الافراد الى المغامرة والكسب كنزوع بعض الافراد الى المغامرة لكسب المال . أما الاستعمار الحديث الذي نحن بصدده ، فقد قام على عدة دوافع :

دوافع اقتصاديه : وهي البحث عن اسواق جديدة لتصريف المنتجات الصناعية والحصول على المواد الخام واستثمار الاموال الفائضة ، وذلك بسبب التقدم الكبير في الصناعة خلال القرن التاسع عشر ، وظهور طائفة من كبار الرأسماليين الصناعيين ، اغرقوا الاسواق الاوربية بمنتجاتهم الهائلة ، فلم تستطع الاسواق المحلية ان تستهلكها ، فكان لزاما على هؤلاء ان يبحثوا عن اسواق جديدة ليضمنوا تصريفها .

ثم كانت تلك المصانع التي انتشرت في البلاد في حاجة دائمة الى المواد الاولية ، كالمطـاط وزيت البترول والصلب والصوف والقطن ، وازداد التنافس بازدياد الانتاج فترتب على ذلك كساد في التجارة

الى الاندماج في المؤسسات الكبرى ، وقد تجلت تلك الظاهرة بغد الازمة الاقتصادية التي ظهرت في عام ١٨٧٥ ، عندما تضخمت الشركات الكبرى

بعد ان ابتلعت الشركات الصغيرة التي لم تستطع أن تقاوم الأزمة ، وعندما أشرف القرن التاسع عشر على نهايته ، كانت هذه الشركات الاحتكارية الكبيرة تسيطر على الحياة الاقتصادية وظهرت طبقة جديدة من الرأسماليين الكبار ، رأوا أن يستثمروا أموالهم في البلاد المتأخرة التي تحتاج الى مد السكك الحديدية فيها وإنشاء المصارف والبيوت المالية والبحث عن المعادن والمناجم .

تلك هي الدوافع الاقتصادية لتطور الاستعمار الأوربي ، بالاضافة الى عامل اقتصادي هام ، هو ازدياد عدد السكان في بعض الدول مما جعل الحكومات والأفراد يعتقدون أن المخرج الوحيد لحل مشكلة السكان وتفريج الأزمة الاقتصادية هو الاقدام على الاستعمار في خارج البلاد لايجاد مهجر للفائض من السكان ، واستغلال الاراضي المحتلة . وهناك دوافع سياسية معروفة ، تتلخص في تنافس الدول الاوروبية على توسيع ممتلكاتها وراء البحار ، لتدعيم نفوذها الدولي ، وإنشاء امبراطوريات ترضي النزعات الاستعمارية والعزة القومية ، ولا سيما الدول القومية الجديدة التي ظهرت في أوربا كايطاليا والمانيا اللتين كانتا تعملان على الأخذ بنصيبهما في ميدان الاستعمار ، مما أدى في نهاية الامر الى ظهور مشكلات سياسية تهدد السلام في اوربا .

ومما زاد الأمر خطورة ، ظهور طائفة من رؤساء الحكومات وجهوا سياسة بلادهم نحو استعمار اراض جديدة ، أو انشاء مناطق نفوذ ، لسد حاجات بلادهم الاقتصادية ، او الاستيلاء على قواعد بحرية جديدة ، ورفع مهابة الدولة وزيادة نفوذها .

وهكذا أخذت الدول الكبرى تتزاحم على الاراضي التي يمكن استعمارها خارج القارة الاوربية ، حتى لم يعد في الامكان أكثر مما كان ، فطمعت كل دولة قوية في نصيب الاخرى مما ادى الى قيام « حروب الاستعمار » الصغيرة ما بين عامي ١٨٩٠ و ١٨٩٩ .

ففي سنة ١٨٩٠ ، كانت بريطانيا قد أقدمت على القيام بمشروعات

استعمارية خطيرة ، فقد أقحمت نفسها على السودان بعد ان نجحت في تثبيت احتلالها لمصر ، وحاربت مع المصريين هناك من سنة ١٨٩٦ الى ١٨٩٨ بحجة استرجاع السودان لمصر . ثم قام البريطانيون بغزو الترنسفال والاورانج الحرة ١٨٩٩ – ١٩٠٢ على الرغم من الكفاح العنيف الذي قام به البوير ، وهم سلالة الهولنديين الذين استوطنوا تلك الجهات في القرن السابع عشر – فقد قاوموا الانجليز وصمدوا امام قواتهم مدة ثلاث سنوات تقريباً .

وفي سنة ١٨٩٦ ، حاول جيش ايطالي أن يفتح الحبشة ولكنه هزم في موقعة « عدوة » . وفي نفس العام أتم جيش فرنسي غزو مدغشقر (١٨٩٤ – ١٨٩٦) واستطاع جيش فرنسي آخر ان يستولي على جزء من غرب افريقيا.

اما الألمان فقد تمكنوا من اخضاع ثلاثة قطاعات من القارة الافريقية وهي : افريقية الشرقية الألمانية وافريقية الجنوبية الغربية والكمرون .

حادث فاشوده

وقد أدت المنافسة على الاستعمار في تلك الفترة الى قيام أزمات كادت تشعل الحرب بين الدول الكبرى ، وكان أخطر حادث بين انجلترا وفرنسا هو حادث فاشوده بالسودان في عام ١٨٩٨ . عندما استطاع الكابتن مارشال الفرنسي أن يصل بكتيبته الصغيرة الى فاشوده ، بعد ان اخترق حوالي حوالي ٢٫٨٠٠ ميل من الكونغو ، ليرفع عليها العلم الفرنسي علامة على وصول التوسع الفرنسي الى تلك المنطقة من السودان .

وكان « كتشنر » سردار الجيش المصري حينئذ قد وصل بقواته المصرية الانجليزية الى فاشوده في سبتمبر ١٨٩٨ في حروب استرجاع السودان فالتقى في الطريق النيلي بزورق يرفع العلم الفرنسي ، يحمل اليه رسالة من الكابتن مارشان يهنئه فيها بالنصر على الخليفة ، ويخبره أن الحكومة الفرنسية أمرته باحتلال بحر الغزال ، وأنه احتل فاشوده في ١٠ يوليو وعقد معاهدة مع ملكها عبد الفضيل على أن يكون تحت حماية فرنسا ، وأنه بعث يطلب المدد

من فرنسا عن طريق الحبشة وطريق بحر الغزال

أسقط في يد كتشنر ثم تابع السير الى فاشوده وقابل هناك مارشان حيث دارت بينهما مناقشة ذكر له كتشنر اثناءها انه « بالنيابة عن حكومته يصرح له بأن وجود الفرنسيين في فاشوده وفي وادي النيل يعد تعدياً صريحا على حقوق مصر وبريطانيا العظمى ، وأني بناء على الأوامر المعطاة لي أحتج على احتلالك فاشوده ورفعك الراية الفرنسيّة في أملاك الحضره الخديوية » . وأجابه مارشان بانه إنما نفذ الأوامر التي تلقاها « والامر الذي تلقيته من حكومتي باحتلال بحر الغزال وفاشوده صريح لا يقبل التأويل » ورفض مارشان الجلاء عن فاشوده قبل الوقوف على رأي حكومته ، وقرر ان يدافع بالقوة عن العلم الفرنسي المرفوع على أرض فاشوده حتى الموت . وابلغ كل منهما الامر الى حكومته .

وتأزمت الامور بين الحكومتين ولاح شبح الحرب بينهما ، ثم انتهى الأمر بموافقة « دلكاسيه » وزير خارجية فرنسا على التراجع ، واتفقت الحكومتان على جلاء الفرنسيين عن فاشوده على شرط الا يحاول البريطانيون السير غرباً في منطقة النفوذ الفرنسي .

الاستعمار الفرنسي

ولم يكن التنافس مقصوراً على افريقيا بل انه امتد الى آسيا ، ففي سنة ١٩٠٠ ، كانت جميع بلاد الهند وبورما والملايو تحت الحماية البريطانية ، وامتد النفوذ الفرنسي الى افغنستان والتبت . واما فرنسا فقد غزت الجزء ابسمى بالصين الفرنسية وكبوديا وانام وتونكين وكانت الهند الصينية تحت الحماية الفرنسية سنة ١٨٨٧ ، وفي شمال الصين اخترق الروس منشوريا حيث اقاموا حكومة هناك سنة ١٩٠٠ . وكان يبدو للأنظار ان الامبراطورية الصينية سوف تقتسمها الدول كما اقتسمت افريقيه .

وقد ظهرت اليابان في ذلك الوقت كدولة كبرى لها خطرها . اذ كانت

قد استعانت بخبراء من الاوروبيين لترقية شئونها وادخال الحضارة الاوروبية على جميع مرافقها ، وقد استطاعت اليابان في حرب قصيرة (١٨٩٤ — ١٨٩٥) أن تهزم الصين وتضم فرموزا وتسيطر على كوريا . وأخذت الدول — نظرا لعجز الصين عن الدفاع عن نفسها — تتنافس على اقتسام مناطق النفوذ فيها . ولم يكن التنافس مقصوراً على انجلترا وفرنسا وروسيا واليابان فحسب ، بل أن ايطاليا أخذت تعمل على أن يكون لها نصيب من النفوذ في الصين . ثم ما لبثت الصين ان استيقظت وثارت لاخراج الاوروبيين من بلادها . فقامت ثورة البوكسرز ، اذ هجم الثوار على الاوروبيين فقامت مذبحة كبيرة قتل فيها عدد كبير وحاصروا القنصليات الاجنبية . لذلك اتفقت الدول على ارسال حملة تأديبية الى الصين . اشتركت فيها قوتان جديدتان هما اليابان والولايات المتحدة ، أما الولايات المتحدة فقـــد ظهرت في نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين بمظهر لم يكن متوقعاً لها اذ زاد عـــدد سكانها . واتسعت رقعتها من المحيط الاطلنطي الى المحيط الهادي . وحاربت اسبانيا سنة ١٨٩٨) وانتزعت منها كوريا وبورتوريكو(Puerto Rico) وجزر الفلبين وجوام (Guam) وهكذا لم يعد النزاع على السيادة والتفوق مقصوراً على الدول الاوروبية ، بـــل دخلت الى المضمار قوتان هما اليابان والولايات المتحدة ، واصبح الكفاح على السيادة دولياً تشترك فيه معظم القارات ، حتى أصبح اعلان أية دولة الحرب على الاخرى يهدد بقيام حرب عالمية .

وفي مستهل القرن العشرين أصبح العالم مهدداً بخطرين لم يستطع أن يصل الى حل موفق لهما . أولهما شبح الحرب الذي يهدده .لأن الاسباب تتهيأ دائماً لوقوع الخلاف بين الدول . فالمصالح النمسوية والروسية تتنازعان في البلقان ، والمصالح البريطانية والفرنسية والالمانية والايطالية تتنازع في افريقيه ، والمانيا تعمل جاهدة على اللحاق بكل هؤلاء والتفوق عليهم ، فهي تبذل جهدها في العمل على زيادة عدد جيشها لتواجه خطر الخلف الفرنسي الروسي ، وتعمل على تقوية أسطولها لتتغلب على قوة انجلترا البحرية ، كل ذلك جعل

فترات السلام كالهدنة المسلحة ، مما أرهق موارد الشعوب الاوربية ، وخلق جوا من التوتر الذي يجعل الناس تنتظر الحرب من آن لآخر .

وأما المشكلة الثانية فهي حرب الطبقات ، وشعور بعض الشعوب بالحاجة الى العدالة الاجتماعية . وظهور مذاهب جديدة متضادة بين الدول . لذلك نتناول الكلام عن كل دولة من الدول الكبرى على حده حيث ندرس في كل منها مشكلاتها الاقتصادية والدفاعية والاجتماعية .

الفصل السابع

بريطانيـــا العظمى

مشكلاتها الاقتصادية والدفاعية والاجتماعية

منحت الطبيعة بريطانيا عدة مزايا ساعدت على جعلها من أعظم دول العالم، فهي أبعد الاقطار عن خطر الغزو، ولها موان كثيرة صالحة للملاحة، وتقع في مركز متوسط بين العالمين، القديم والجديد، مما جعلها قوة بحرية لها السيادة في البحار والمحيطات، ثم أن مناخها يبعث على العمل والنشاط، وسكانها منسجمون متجانسون، يتمتعون بحكم دستوري عريق، وحرية سياسية يحرصون عليها كل الحرص. كل ذلك بعث النشاط الى نفوس الشعب الانجليزي فاتسعت مداركه، وأصبح شعباً مبتكراً.

وقد نمت بريطانيا على مدى الأجيال في التاريخ الحدث، وأصبحت دولة قوية. وساعدتها ظروفها مساعدة فعاله، وعلى الأخص في العصر الحديث، إذ لم يطأ أرضها جيش أجنبي، ولم تحطمها الحروب الداخلية، ولو تؤثر عليها حروب الثورة الفرنسية وحروب نابليون (١٧٩٨ — ١٨١٤) بل أفادت منها أكبر فائدة. ،اذ شغلت هذه الحروب منافسيها من الدول الدول الكبرى، ولا سيما فرنسا، التي خضعت للحصار خلال ربع قرن من الزمان، استطاعت أثناءه انجلترا أن تحتكر التجارة في البحار والمحيطات ويصبح معظم أرجاء العالم اسواقاً للبضائع البريطانية.

وقد كانت انجلترا منذ القرن الثامن عشر موطناً للانقلاب الصناعي ، وتهيأ للمصانع البريطانية عدد كبير من الأيدي العاملة ، فقد تحول معظم الريف الى أقاليم صناعية شاسعة ، وتكونت المدن الصناعية الكبرى ، واصبح من مصلحة العمال الزراعيين ان يتحولوا الى عمال للصناعة ، لارتفاع الاجور وزيادة الدخل ، وتضاعف عدد سكانها ، ووجة الانجليز همهم الى الاهتمام بالعمل كأساس للانتاج الصناعي الذي زاد فائضه ، وعاد عليهم بتجارة رابحة ، استقرت عليها رأسمالية صناعية ، تفوقت بها انجلترا على سائر الدول ثم سعت في تصدير الاموال الفائضة من مدخراتها لاستثمارها في معظم انحاء العالم ، بل وبعثت مع رؤوس الاموال بعض خبرائها الفنيين للاشراف على تنظيم الاستثمار وتشجيع الهجرة الى الممتلكات الجديدة لتوثيق العلاقة بين انجلترا وامبراطوريتها فيما وراء البحار .

أما في الداخل فقد توفر لديها الاختراع والابتكار ، وفيها الحديد لصنع تلك الآلات البخارية ، والفحم لتشغيلها ، بل وجميع الامكانيات من ايد عاملة ، ورؤوس اموال ، وخبرة فنية وتدريب مهني اكسب صناعتها تفوقاً على اقتصاديات الأمم الاخرى .

على أن المشكلة الكبرى التي كانت تشغل بريطانيا في نهاية القرن التاسع عشر ، أنها كانت تعتمد اعتماداً كبيراً على تدبير السلع الغذائية المستوردة من الخارج ، بعضها يرد اليها من البلاد القريبة كايرلندا ،والدنما ك ، وهولنده ، ولكن معظمها كانت تستورده من بلاد نائية ، فيقطع آلاف الاميال عبر المحيطات من استراليا والهند وجمهورية الارجنتين والولايات المتحدة والبرازيل .

فقد كانت انجلترا تستورد يومياً حوالي ٣٣ مليون طن من الحبوب و ١٠ مليون رطل من السكر ، و٣ مليون رطل من مستخرجات الالبان ، ومليون رطل من الشاي ، وغير ذلك من أنواع الطعام الضروري ،الذي تحرص انجلترا على وصوله الى ثغورها في سلام ، وهذه السلامة لا تضمنها بريطانيا

إن لم تؤيدها قوة بحرية كبرى ، اذ لأجل اطعام ٣٧ مليوناً من الأنفس يعيشون على الطعام المستورد من الخارج ، ولسد حاجة المصانع الدائمة الى المواد الخام ، وتصدير المصنوعات الى اقصى الارض ، لا بد من التغلب على مشكلة النقل وحماية المواصلات ، فلا عجب اذا رأينا أن بريطانيا كانت تمتلك نصف ما يمتلكه العالم من القطع البحرية .ومع ذلك فلم يكن عمل السفن البريطانية مقصوراً على سد حاجاتها فحسب ، بل كان بعضها ينقل تجارة الشعوب الاخرى نظير الأجر الذي يدفع لشركات الملاحة البريطانية .

وهكذا انهالت الأرباح على الانجليز خلال القرن التاسع عشر عن طريق الصناعة والتجارة وتأسيس المصارف (البنوك) في مختلف بلدان العالم . على ان اطمئنان بريطانيا الى سيادتها الاقتصادية العالمية ، لم يستمر طيلة القرن التاسع عشر ، اذ حدث في أواخره اختلاف في التوازن التجاري الدولي الذي كانت حريصة عليه ، فقد ساد استخدام الكهرباء بدل الالآت البخارية ، وأصبح زيت البترول أنجع الوسائل في الوقود ، مما أثر أبلغ الأثر على مناجم الفحم البريطانية .أضف الى ذلك ما حدث من التقدم الصناعي في فرنسا والمانيا وايطاليا وروسيا والولايات المتحدة مما فتح باب التنافس الذي كان له أثره على ازدهار الصناعة البريطانية ، كما أخذت سفن الدول الاوربية الاخرى تجوب البحار وتنافس السفن البريطانية في نقل المسافرين والتجارة ، فقلت بذلك موارد الملاحة البريطانية ، وفقدت بريطانيا بعض الاسواق التجارية التي سيطرت عليها دول صناعيه أخرى ، وبذلك واجهت خطر الاضمحلال الاقتصادي ، ولولا قوتها البحرية لتعرضت لحصار أجنبي اثناء الصراع الدولي الذي حدث قبل الحرب الكبرى الاولى ، وتصبح أية مناوشة للتجارة الانجليزية مؤدية الى جوع الملايين من السكان وتعطيل المصانع عن العمل . فكان على الحكومة البريطانية ان تعمل جاهدة لتأمين الشعب ضد ذلك الخطر الداهم الذي كان الشغل الشاغل لرجال السياسة البريطانيين ، الذين كرسوا جهودهم

لمواجهة مشكلة الدفاع عن الامبراطورية . والاحتفاظ بالسيادة البحرية التي يعتبرونها صمام الامن .

ولم يكن لانجلترا منافس قوي في السيادة البحرية خلال القرن التاسع عشر ، فقد كانت قطعها الحربية تنتشر في المواقع الهامة في البحار والمحيطات حيث الموانيء التجارية الهامة ، والجزر العديدة النائية ، ومحطات الفحم التي لا غنى عنها لتأمين مواصلاتها ، ومداخل البحار التي تحرص على حراستها كبوغاز جبل طارق وقناة السويس وعدن وسنغافوره ومدينة الرأس في اقصى جنوب قارة افريقيه وجزر فوكلند في أقصى جنوب امريكا الجنوبيه وهي كلها مواقع بريطانيه تهيىء السبيل للسفن الانجليزية لتجول حيث شاءت بين قارات العالم .

وعندما لاحت الأخطار الاقتصادية وبدا لانجلترا ان المانيا وغيرها أخذت تسعى في البر والبحر ، اضطرت بريطانيا — وخاصة بعد عام ١٨٩٨ — ان تضاعف جهودها الحربية ، وعلى الاخص في بناء السفن ، بحيث تصبح قوتها البحرية تعادل القوة البحرية لأقوى دولتين أخريين ، وهو المبدأ الذي عبر عنه الانجليز بقولهم (Power Standard) وقد كان في وسع انجلترا ان تحافظ على هــذا المستوى وأكثر منــه خلال فــترة السلام التي نعمت بها منذ منتصف القرن التاسع عشر ، ولكن كان من العسير عليها في مستهل القرن العشرين ان تحتفظ بهذا المستوى ، بعد ان قامت دول اخرى تنافسها منافسة عنيفة ، فقد قامت كل من فرنسا وروسيا وامريكا وايطاليا واليابات بانشاء بانشاء اساطيل قوية .

على ان المانيا كانت أخطر خصومها في هذا السبيل عندما اخذ امبراطورها ولهلم الثاني يعد العدة منــذ عام ١٨٩٨ لانشاء اسطول بحري كبــير ، وقد أزعج الانجليز ذلك البرنامج الواسع الذي وضعه لالمانيا ، وأخذوا يراقبون في فزع ووجل خطوات المانيا في هذا السبيل .

أخذ الأسطول الألماني يتضخم ويتجمع في بحر الشمال مما زاد الامر أهميه وخطورة ، لان قطع الاسطول البريطاني كانت موزعة بطبيعة عملها حول العالم . ومعنى ذلك أن المانيـــا لن تلبث حـــتى تصبح صاحبة السيادة البحرية بالقرب من الجزر البريطانية ، لذلك حرصت البحرية الانجليزية على مراقبة ما يجري على الساحل الالماني في بحر الشمال . ثم قررت العمل على إدخال عدة تحسينات على بحريتها حتى تضمن لاسطولها التفوق العددي والفني . وكان اول تحسين أدخلته على سفنها هو ابتكار ذلك النوع من السفن الحربية التي تسمى بالدردنوط (Dreadnought) وهي سفن حربيه ضخمه زودت بالمدافع الثقيلة ، ونزلت الى البحر لأول مره سنة ١٩٠٦ .وما كاد هذا النوع يظهر في البحر حتى تنبهت الدول الى خطورته ، فتسابقت جميعها نحو تحسين بحريتها .

على أن المانيا قطعت شوطاً بعيداً في سبيل التفوق ، فرصدت جانباً كبيراً من ميزانيتها للاتفاق على اسطولها حتى تضخم حجم سفنها وزاد عددها . هنا لم تجد انجلترا بدأ من السعي للوصول الى اتفاق مع الالمان للحد من التسابق البحري ولكنها فشلت في ذلك كما سبق أن بينا ، فاضطرت الى مجاراتها في هذا المضمار .

وقد زاد من حدة هذا التسابق البحري ، شعور انجلترا بأن المانيا أصبحت تزاحمها مزاحمة خطيرة في ميدان التجارة ، ففي عام ١٩٠٠ ، كان انتاج الصلب في المانيا ضعف ما تنتجه بريطانيا ، وما وافي عام ١٩١٤ ، حتى أصبح الانتاج الالماني ثلاثة امثال الانتاج الانجليزي وارتفعت نسبة التجارة الخارجية الالمانية ، فوصلت الى ثلثي تجارة بريطانيا ، وفاقت بعض البضائع الالمانية مثيلاتها من البضائع الانجليزية ، ونافستها في ميادينها ، وفي أسواقها ، مما أدى الى اثارة العدواة بين بريطانيا والمانيا .

وزاد النفور بين البلدين بعد وفاة الملكة فيكتوريا سنة ١٩٠١ ، فقد تولى العرش بعدها ابنها ادوارد السابع (١٩٠١ ــ ١٩١٠) الذي كان يكره ابن

اخته ولهلم الثاني امبرطور المانيا ، وساءت العلاقات بين البلدين في دوائر البلاط ، مضافاً الى ذلك ما بيناه من النفور بين الشعبين والحكومتين بسبب الحرب الاقتصادية التي أثارها تقدم المانيا التجاري والصناعي ، وعزمها على التفوق البحري الذي احتكرته انجلترا لنفسها منذ أمد بعيد .

لذلك بدأت السياسة الانجليزية تتحول تحولاً خطيراً ، فتخلت عن عزلتها وبدأت تدخل في سلسلة من الاحلاف ، بدأتها - كما رأينا - بعقد اتفاق مع اليابان سنة ١٩٠٢ يؤمن المصالح البريطانية في الشرق الاقصى ، ثم شعرت كل من انجلترا وفرنسا أنهما في مركز يدعوهما الى إبرام صفقة استعمارية رابحة لكليهما ، لتنتهي حالة التوتر والاحتكاك بينهما بسبب سياستهما الاستعمارية فقد كانت فرنسا ترجو في ذلك الوقت أن يترك لها الحرية للعمل على السيطرة على مراكش ، في حين ان انجلترا كانت تريد ان تقضي على معارضة الفرنسيين للاحتلال البريطاني لمصر ، وتحرم الحركة الوطنية المصرية التي بعثها الزعيم الشاب مصطفى كامل من الاعتماد على فرنسا في المطالبة بالجلاء . وقد كان اللورد كرومر المعتمد البريطاني في مصر يهتم اشد الاهتمام بنجاح المفاوضات التي بدأت بين الحكومتين الفرنسية والبريطانية ، حتى أنه أبرق من القاهرة ينصح المتفاوضين بسرعة الوصول الى اتفاق ، لأن فشلهم في ذلك يعتبر — عند حد تعبيره — «كارثة» ، وقد كتب اللورد لاندسدون في ١٤ مارس سنة ١٩٠٤ الى اللورد كرومر يبشره بأنه «بعد أن اصطدمت المفاوضات بجميع أنواع العقبات لم تلبث أن نهضت وسارت في طريق النجاح» .

وقد اقترن الوفاق الودي باتفاق سري ، عين حدود منطقة نفوذ فرنسا في مراكش ، على الا تنازعها هناك سوى اسبانيا التي اتفق على منحها منطقة الريف الشمالية ، وفي الوقت نفسه سويت الخلافات القائمة بين الدولتين في نيوفوندلند وسيام ومدغشقر . أما من الناحية الدفاعية فقد كانت انجلترا تعلق اهمية كبرى على ذلك الوفاق الودي، اذ يلقى على عاتق

الأسطول الفرنسي حراسة البحر الأبيض المتوسط فتستطيع انجلترا بذلك أن تركز أقوى قطع اسطولها في بحر الشمال .

كان واضحاً إذن ان تلك الاتفاقية ، تعتبر رداً حاسماً على التحدي البحري الالماني ، وتحرج الموقف الدولي في عام ١٩٠٧ ، عندما انضمت انجلترا الى الحلف الروسي الفرنسي ، واضطرت الى مجاراة المانيا في سبيل التسلح ، على الرغم من انها كانت في اشد الحاجة الى المال لتنفيذ المشروعات الاجتماعية تنفيذاً لسياسة الاصلاح الداخلية التي أرادت وزارة حزب الأحرار ان تقوم بها ، ولكنها أمام الخطر الخارجي الالماني ، اضطرت الى إنفاق اكبر جانب من ميزانيتها على التسلح ، ولم تستطع ان تحقق التشريعات التي كان ينادي بها المصلحون الاجتماعيون في الوقت الذي أدركت فيه ان عاصفة الحرب أوشكت أن تهب على اوروبا مما يستدعي الاسراع في تنظيم شئون الدفاع قبل أي شيء آخر .

نظام الحكم والعدالة الاجتماعية

كان الشعب الانجليزي يتمتع خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر بالنظام البرلماني ، في الوقت الذي كانت الشعوب الاوروبية الاخرى تعاني حكم الملكية المستبدة . وكان ملوك انجلترا — بحكم هذا النظام البرلماني — ملوكاً دستوريين ، تركوا السلطة التنفيذية لمجلس الوزراء الذي كان مسئولاً أمام البرلمان . وفي خلال القرن التاسع عشر ارتقت النظم الديمقراطية في انجلترا وقامت حركات الاصلاح النيابي بادخال تحسينات على تلك النظم في الأعوام ١٨٣٢ و ١٨٦٧ و ١٨٨٤ و ١٨٨٥ .

وما وافت خاتمة القرن التاسع عشر حتى أصبح باب التصويت في الانتخابات مفتوحاً أمام أغلبية الشعب . ومضت الديمقراطية قدماً في انجلترا وأصبح البرلمان أكثر تمثيلاً للأمة وشرع الحزبان الكبيران الأحرار والمحافظون يتنافسان على وضع برامج لحزبيهما تستهوي الشعب . واجتهد

كل منهما في صياغة المشروعات التي تدعو لتأمين حياة الطبقات الفقيرة ، وتهيئة الفرص أمام هذه الطبقات لتحسين أحوالها والترفيه عنها . ولكنهما اختلفا في الطرق التي توصل الى هذا الهدف . فالمحافظون وهم الذين يمثلون كبار الملاك الذين تهمهم مصالحهم الزراعية ، كان من رأيهم أن تضمن الدولة للعامل أجراً يستطيع به أن يحيا حياة مريحة ، وانضم اليهم في تحبيذ هذه الوسيلة . رجال الكنيسة الانجليزية ، وبعض الأعضاء من طبقة الأغنياء ، وهم جميعاً كانوا يعارضون معارضة شديدة في قيام المنظمات العمالية التي كونتها اتحادات العمال « Labour Unions » للسعي في تحسين أحوالهم وتنظيم العلاقة بينهم وبين أصحاب الأعمال .

أما حزب الاحرار فهم على الرغم من أنهم كانوا أيضاً يعارضون في قيام تلك المنظمات العمالية إلا أنهم كانوا يرون ان انجلترا سارت في طريق الثروة والقوة لأنها سارت على سياسة عدم التدخل Laissez - Faire Policy أو كما يسميها البعض « سياسة الفردية » أي أنه يجب أن يترك العمال وأصحاب الأعمال أحراراً في وضع شروط العمل فيما بينهم دون تدخل من الحكومة . وكان حزب الأحرار يرى أن الوسيلة المثلى لتحسين حال الطبقات العاملة أن تعمل الدولة على خفض تكاليف الحياة حتى يستطيع العامل أن يشتري ما يكفيه دون زيادة الأجور التي كانوا يتقاضونها ، لذلك كانوا ضد فكرة حماية التجارة بل نادوا بترك التجارة حرة حتى ترد المواد الغذائية الى بريطانيا دون فرض القيود التي تعوق التجارة فيستطيع العامل ان يشتري ما يحتاج اليه بأثمان رخيصة .

ويرجع الخلاف بين المحافظين والأحرار في هذا الصدد الى عوامل اقتصادية ، فكثير من أعضاء حزب الأحرار كانوا من طبقة أصحاب المصانع ورجال الأعمال والتجار وأصحاب السفن . فمصلحتهم بطبيعة الحال في إطلاق الحرية للتجارة لسببين هامين :

أولهما : ايجاد طعام وملبس رخيص للعمال .
ثانيهما : تهيئة الفرصة للسيطرة على أسواق التجارة في الخارج اذ أن التجارة عملية تبادل في السلع بين الأقطار ، فإذا وضعت العراقيل أمام البلاد الزراعية ولم تستطع بيع محصولاتها في انجلترا ، فإنها لن تتمكن من التعامل مع المصانع البريطانية، اذ يصعب عليها دفع حسابها لتلك المصانع .

لهذا كان الأحرار يعارضون في فرض ضرائب مهما تكن . وخصوصاً على الحبوب المستوردة من الخارج . أما المحافظون فكانوا ينشدون حماية التجارة بفرض المكوس الفادحة على مختلف البضائع ، مما يجعل الأعباء ثقيلة على الطبقات الفقيرة من الشعب ، ولذلك بيعت السلع داخل انجلترا بثمن مرتفع حتى ضج الشعب واضطرت الحكومة الى إصدار قانون ينص على إلغاء بعض الرسوم التي فرضت على التجارة الأجنبية وتحسنت حالة العمال بعض الشيء .

وثمة خلاف آخر كان مستحكماً بين المحافظين والأحرار ، فقد كان المحافظون من غلاة الاستعمار ، اذ يعتقدون أن على بريطانيا أن تحتفظ بممتلكاتها وأن تقف ضد أية حركة قومية في البلاد التي تحكمها ، لتظل مهيبة الجانب في نظر رعاياها ، وفي نظر الدول الاخرى التي قامت تنافسها ، وقد أدت تلك السياسة الاستعمارية الى الوقوف في وجه المطالب الوطنية في البلاد التي تسيطر عليها انجلترا ، فرفضت وزارة المحافظين منح الحكم الذاتي لايرلنده . وزجت بانجلترا في حرب طاحنة مع جمهوريات البوير في جنوب افريقيا حيث استطاع البوير ان يصمدوا للانجليز مدى ثلاث سنوات (١٨٩٩ — ١٩٠٢) بل وألحقوا بهم خلالها الهزائم الكثيرة . ولم تستطع انجلترا أن تحطم مقاومة البوير نهائياً الا بعد تضحيات كبيرة في الأنفس والأموال ، ثم اضطرت الى أن تعد جنوب افريقيا بالحكم الذاتي . وأنفقت الملايين من الجنيهات على اصلاح ما أفسدته الحرب في المزارع والمساكن .

وقد كان يمثل سياسة المحافظين رئيسهم « دزرائيلي » الذي تولى الوزارة

(١٨٧٤ – ١٨٨٠) ، ويمثل سياسة الأحرار رئيسهم « جلادستون » ، وكان دزرائيلي من غلاة المستعمرين الذين يعملون على التوسع الامبراطوري بكل الوسائل وهو الذي وقف الى جانب السلطان العثماني ضد تقدم روسيا في البلقان ، في الوقت الذي كان جلادستون يميل الى مناصرة الشعوب البلقانية الصغيرة ، ودزرائيلي هو الذي أقدم على شراء أسهم قناة السويس منتهزاً فرصة انهيار الخديوي اسماعيل والأزمة المالية التي اوقع مصر فيها .

نشأة حزب العمال

وبينما كان المحافظون والأحرار يختلفون على المبادىء الهامة ، كانت هناك حركة سياسية جديدة تسري بين الطبقات العاملة ودوائر النقابات الصناعية ، إذ أخذ العمال في أواخر القرن التاسع عشر في تنظيم أنفسهم وشرعوا يشتغلون بالسياسة ، وقام بعض المفكرين أمثال جورج برناردشو ، وسدني وب ، وغيرهما بانشاء جمعية اطلقوا عليها اسم « Fabian Society »[١] لدراسة الوسائل التي تؤدي الى قيام اشتراكية عملية في البلاد ، وقامت جماعات أخرى تدعو الى الاشتراكية المعتدلة .

وفي سنة ١٩٠٠ ، أخذت بعض الجمعيات الاشتراكية تحاول الاتفاق مع نقابات العمال على تكوين حزب سياسي مستقل ، هو حزب العمال ، وبعد عامين خرج الحزب الجديد الى الوجود ، وعلى رأسه رمزي ماكدونالد وفي انتخابات سنة ١٩٠٦ تمكن حزب العمال من الحصول على تسعة وعشرين مقعداً في مجلس النواب ، ومنذ ذلك الحين صار هذا الحزب عنصراً هاماً في السياسة الانجليزية .

---

(١) اقتبس الفابيون اسمهم من اسم القائد الروماني كونتوس فابيوس Fabius الذي كان معروفاً باستطاعته الوصول الى اغراضه في الغزو عن طريق التأني والتؤدة ، وكان علو الاندفاع ولذلك كان ينجح دائماً .

وزارة الأحرار

حكم حزب الأحرار البلاد عشر سنوات تكون أثناءها ائتلاف ودي بينهم وبين حزب العمال الجديد، فتم بذلك برنامج مزدوج، اصلاح حال الطبقات الدنيا، وتسليح بريطانيا العظمى ضد أعدائها، ولكن كان بين هذين الغرضين تناقض مادي، إذ يحتاج كلاهما إلى أموال طائلة، وتنفيذ احدهما يؤجل الآخر، واضطر الاحرار الى جمع المال عن طريق فرض ضرائب إضافية.

ولما كان للاحرار أغلبية عظمى في المجلس (للاحرار ٥١٤ ضد ١٦٥ للمحافظين فقد استطاعوا ان يقدموا على تنفيذ اصلاحاتهم. ففي عهد وزارة «كامبل بانرمـــان Compbell Bannerman» (١٩٠٥ – ١٩٠٨) «هربرت اسكويث Herbert Asquith» (١٩٠٨ – ١٩١٦) صدرت عدة تشريعات لاصلاح حال الطبقات العاملة كقانون تعويض العمال إذا حدثت لهم أضرار أثناء العمل، وقانون المعاشات «Old Age Pension Law» (١٩٠٩) الذي يمنح معاشاً لمن تعدى السبعين عاماً ويقل دخله عن ٣١,٥ جنيهاً في السنة وغير ذلك من التشريعات الاجتماعية التي ترضى العمال. ولعل أهم هذه التشريعات «قانون التأمين الوطني National Insurance».

الـــذي صدر سنة ١٩١١ لضمان الاشراف الطبي والعلاج لجميع الأسر من طبقة العمال، وكانت المبالغ التي تنفق في هذا السبيل تجمع من اشتراكات يدفعها العمال وأصحاب الأعمال والحكومة. وقد القت تلك الاصلاحات الاجتماعية من جهة، والتوسع في بناء الاسطول من جهة اخرى، عبئاً ثقيلاً على عاتق الميزانية، ففكر وزير المالية لويد جورج في سنة ١٩٠٩ ان تشمل الميزانية فرض ضرائب على الضياع، وعلى الدخل وأخرى رسوماً على الحدائق الواسعة وأماكن الصيد، وأخرى على الكماليات كالسيارات وغيرها.

ولما عرضت هذه الميزانية على مجلس اللوردات الذي يسيطر عليه المحافظون ، كان نصيبها الرفض . فطرح الأحرار الأمر على الشعب في انتخابات جديدة ، وعادوا الى الحكم باغلبية تقل من اغلبيتهم السابقة . ولما كان الأحرار يعتقدون ان مجلس اللوردات يعرقل الاصلاح الاجتماعي ويقف ضد مصلحة الشعب ، عزموا على ادخال تعديلات جديدة على الدستور تحد من سلطة مجلس اللوردات ، فوضعوا قانوناً جديداً عرف باسم « قانون البرلمان » . يقضي بألا حق لمجلس اللوردات في رفض التشريعات المالية التي يسنها مجلس العموم . وان ليس له الا حق المعارضة في تلك (التشريعات) ولكنها تصبح نافذة المفعول وفي حكم القانون بعد مرور سنتين من بدء عرضها على مجلس العموم .

ثار مجلس اللوردات على هذا التعديل ، ورفض الموافقة عليه . فعاد اسكويث مرة ثانية في نفس العام (١٩١٠) الى استفتاء الشعب ليعطي الشعب فرصة أخرى لاعلان رأيه في سياسة الأحرار المالية وعاد الاحرار من جديد الى منصة الحكم . وطلب اسكويث من الملك جورج الخامس ان يعين عدداً من الاشراف الأحرار اعضاء في مجلس اللوردات حتى يضمن بذلك أغلبية من اللوردات توافق على التشريعات الاصلاحية الجديدة . فاضطر اعضاء مجلس اللوردات الى الموافقة على قانون البرلمان سنة ١٩١١ ، قبل أن ينفذ رئيس الوزراء وعيده اذا أصروا على رفض التصديق على الحد من سلطات مجلسهم .

ومنذ ذلك الوقت أصبح مجلس العموم هو المسيطر على شئون الدولة ولم يبق لمجلس اللوردات الا حقه في تأخير نفاذ القانون (الذي يوافق عليه مجلس العموم) مدة سنتين فقط ، وخرج اللوردات من المعركة وقد فقدوا معظم سلطتهم التشريعية .

وعندما أفاقت وزارة الأحرار من الأزمة الدستورية التي أثارها المحافظون

ومجلس اللوردات وجهت اهتمامها الى حركة التشريع الاجتماعي ، ومعالجة المشكلة الايرلندية التي ترتبت على الحركة الوطنية الايرلندية التي قامت تطالب بالحكم الذاتي .

على أنها لم تستطع ان تمضي فيما كانت تهدف إليه . إذ بدأ لها شبح التهديد الالماني يتمثل في الازمات السياسية التي كانت تثيرها المانيا بعد عقد الاتفاق الودي بين انجلترا وفرنسا .

بريطانيا ومستعمراتها

تختلف بريطانيا عن غيرها من الدول الاوروبية الأخرى في ناحية هامة ، هي تكوينها الامبراطوري ، اذ لم تكن لندن عاصمة بريطانيا فحسب ، بل كانت المركز المالي والسياسي لامبراطورية مترامية الاطراف تشمل اجزاء واسعة من العالم ، هاجر الى بقاعها النائية حوالي ٦ مليون من الانجليز ، تركوا بلادهم مغامرين فيما وراء البحار. ولما كان عدد سكان انجلترا في ذلك الحين حوالي ٣٧ مليون فكان واحداً من كل سبعة من الانجليز كان يعيش خارج بلاده. على أن أولئك الانجليز الذين استوطنوا الممتلكات البريطانية قد ظلوا على ولائهم لبريطانيا وبعد اجيال قليلة أصبح عدد سكان الممتلكات البريطانية يقرب من عدد سكان انجلترا ذاتها . ولكن على الرغم من ان الاستعمار البريطاني يحاول اقرار النظام والتقدم الاقتصادي ، الا انه لم يخل من اسباب اثارت سكان بعض المستعمرات على الانجليز . فبين عامي ١٧٧٥ و ١٧٨٣ ثارت ثلاث عشر مستعمرة بريطانية في امريكا وانتزعت استقلالها السياسي ثم كونت من اتحادها معا الولايات المتحدة الامريكية .

أما ايرلنده فقد دأبت على المطالبة باستقلالها حتى اجبرت انجلترا — بعد فشلها ضد المستعمرات الامريكية — الى منحها حكماً دستورياً وبرلمانياً محلياً (١٧٨٢) . ثم الغت انجلترا تلك المنحة في عام ١٨٠١ عندما بدأت كفاحها ضد نابليون ولاح لها خطر الغزو الفرنسي لايرلندا وفي خلال ذلك عاني

الايرلنديون من الانجليز ضروب الذل والاضطهاد . وانتشرت بينهم البطالة والفقر . وهاجر عدد كبير منهم حتى هبط عدد السكان وشعر الوطنيون الايرلنديون أن انجلترا هي السبب في نكباتهم الاقتصادية والاجتماعية .

وكان سؤ الحظ يلازم جميع الجهود التي بذلت لحل المشكلة الايرلندية . ففي سنه ١٨٨٩ حاول جلادستون زعيم حزب الاحرار أن يسن قانوناً يمنح ايرلندا الحكم الذاتي (Home Rule) فلم يوافقه البرلمان وعاود الكرة في سنة ١٨٩٣ فوافق مجلس العموم ورفض مجلس اللوردات. ولم يكن هناك من الحلول ما يرضى عنه الوطنيون الايرلنديون أقل من منحهم الحكم الذاتي . فان كبرياء الايرلنديين لم تكن تتحمل تلك الادارة الحكومية التي فرضتها عليهم بريطانيا فحكومتهم يرأسها حاكم انجليزي عام يقيم في « قلعة دبلن » ويمثلها وزير انجليزي في الوزارة البريطانية ويحميها جيش انجليزي يرابط في ايرلندا . وكان الايرلنديون يندددون بهذه المظاهر التي تجرح شعورهم ويطالبون بأن يكون لهم برلمان ينتخبه الشعب الايرلندي ، وتصبح الحكومة مسئولة امامه .

وكان الوطنيون الايرلنديون الكاثوليك يستحثون حزب الاحرار على منح ايرلندا الحكم الذاتي ، بينما يقف ضدهم البروتستانت في ولاية « الستر Ulster » وهم الذين قاموا يناشدون حزب المحافظين العمل على محاربة استقلال ايرلندا لان هؤلاء البرتستانت كانوا لا يرغبون في ان يصبحوا أقلية في دولة كاثوليكية . واما سبب التجائهم الى حزب المحافظين فلأنهم يعلمون بأن ذلك الحزب يعارض أشد المعارضة في استقلال ايرلندا ، وقد سبق لحزب المحافظين أن حاول الدعاية في ايرلنده لقبول الوحدة مع بريطانيا وعملت حكوماته على ادخال الاصلاحات التي اعتقد أنها قد تستميل الايرلنديين ، كمد السكك الحديدية في بلادهم وشراء الارض من اصحابها الانجليز وبيعها بشروط سهلة للفلاحين الايرلنديين وتحسين الاحوال الاجتماعية

العامة في البلاد . ورغم كل ذلك ظل الانقسام على ما هو عليه بين الايرلنديين حيث اصبحوا معسكرين :

أولهما : بروتستنت الستر Ulster تحت زعامة سير ادوارد كارسون (Carson) الذي ألف كتائب من الشباب البروتستنت للكفاح في سبيل الوحدة مع بريطانيا، بدلاً من الخضوع لسيطرة الكاثوليك الايرلنديين .

وثانيهما : الكاثوليك الذين يطالبون ويلحون في الاستقلال الذاتي وهكذا تجمعت غيوم الحروب الاهلية في ايرلندا بسبب تصميم متطوعي الستر على رفض مشروع الحكم الذاتي .

وقد وقعت بريطانيا في حيرة بين الفريقين لا تستطيع أن تجد لها مخرجاً لحل ذلك النزاع الذي اشتد اواره أثناء الحرب العظمى . ثم انقلب بعد سنة ١٩١٨ الى حركة ثورية دامية مما سنتعرض له عند الكلام على مجموعة الشعوب البريطانية .

وبقدر ما فشل الانجليز في حل المشكلة الايرلندية قبل الحرب العالمية الاولى استطاعوا ان يُوفّقوا توفيقاً عظيماً في بعض ممتلكاتهم الاخرى حيث استعملوا الحكمة السياسية البارعة في استرضاء رعاياهم هناك. فاحتفظوا بولائهم لبريطانيا واعتبروا انفسهم مواطنين بريطانيين، كما حدث ذلك في كندا .

كندا

ففي سنة ١٨٦٠ بلغ عدد السكان في كندا ٣ مليون و ٢٠٠ الف نفس وفي سنة ١٨٦٧ صدر قانون بتكوين كندا من اربع ولايات : هي كوبيك واونتاريو ونوفاسكوشيا ونيوبرنزويك . على ان يكون نظام الحكم فيها مشابهاً لنظام الحكم في بريطانيا . ويمثل الملك في كندا حاكم عام ويقوم في البلاد برلمان مكون من مجلس الشيوخ ومجلس العموم . على ان تحتفظ كل ولاية بكيانها المحلي الخاص . وباتساع البلاد وازدياد عدد السكان تكونت

اقاليم جديدة حتى اصبحت الاقاليم تسعة بدلاً من أربعة اذ تأسست مانيتوبا سنة ١٨٧٠ وكولمبيا البريطانية سنة ١٨٧١ . وجزيرة البرنس ادوارد سنة ١٨٧٣ والبرتاوسسكتشوان (Saskatchwan) سنة ١٩٠٥ .

وقد ظن بعض المتشائمين من الانجليز ان اعطاء كندا فرصة الحكم الذاتي ، يؤدي في النهاية الى فصم عرى الولاء بين الكنديين والتاج البريطاني ، وأن مصير كندا هو أحد أمرين : اما الاستقلال التام أو الاندماج في الولايات المتحدة الامريكية الا أن الايام اثبتت أن الكنديين يتمسكون ببريطانيا ، اذ يعتقدون أن بقاءهم في كنف الامبراطورية البريطانية يضمن رخاءهم وحمايتهم .

وفي مستهل القرن العشرين تمتعت ثلاث مستعمرات بريطانية بالحكم الذاتي نظراً لما لاقاه ذلك النظام من نجاح تام في كندا ، وهي استراليا ونيوزيلندا وجنوب افريقية .

(اولاً) استراليا

ففي استراليا اتحدت الست ولايات المعروفة باسم ويلز الجنوبية الجديدة وفكتوريا ، وكوينزلند ، واستراليا الغربية ، وتسمانيا . ثم تكونت منها جميعاً مجموعة الشعوب الاسترالية « Commonwealth of Australia » وتم ذلك التنظيم في يناير سنة ١٩٠١ . وقد طبقت بريطانيا النظام الدستوري الذي اتبع من قبل في كندا في هذه البلاد حيث كان يمثل الملك حاكم عام . وتأسس البرلمان الذي يمثل الولايات المختلفة من مجلسين . وفي سنة ١٩١١ اصبحت مدينة كنبرا الواقعة في ويلز الجديدة عاصمة لاستراليا كلها .

(ثانياً) نيوزيلندا

كذلك كان الحال في جزر نيوزيلندا التي كان عدد سكانها في سنة ١٩٠١ أقل من مليون فقد تطور نظام الحكم فيها وبلغت ما بلغته استراليا من نظام

ديمقراطي واصبحت من أشد الممتلكات البريطانية تحمساً في الدفاع عن الامبراطورية .

(ثالثاً) جنوب افريقيا

أما جنوب افريقيا فقد كان لها شأن آخر وتاريخ طويل حافل بالاحداث السياسية حتّى استطاعت الحصول على الحكم الذاتي .

ففي سنة ١٨٠٦ انتزع البريطانيون مستعمرة الكاب من الهولنديين في فترة الحروب النابليونية. وكان سكانها (البوير) من سلالة الهولنديين الذين استوطنوا تلك البلاد منذ قرون . فلما هاجمهم الاستعمار البريطاني رفضوا الاذعان. وكانوا كلما ازداد ضغط الانجليز عليهم ازدادوا لهم صموداً ومقاومة ، إذ لم يكن الحكم الانجليزي في مصلحتهم من اية جهة . فالبوير كانوا يستغلون الأراضي ويستعبدون السكان الاصليين (الافريقيين) ويتخذونهم رقيقاً. وجاءت الحكومة البريطانية فاصدرت قانون منع الرقيق وضيقت بتشريعاتها الخناق على البوير ، فاضطرت الاف الاسر منهم الى الارتحال شمالاً حيث استقروا في الاقليم الواقع في وديان نهري الاورانج والفال (Vall) . ولكن ما لبث الانجليز أن تبعوهم الى هناك حيث ظل النضال قائماً بين العنصرين الى ان عقد الصلح بين الانجليز والبوير في سنة ١٨٥٢ اعترفت انجلترا بموجبه بأن تكون الترنسفال موطناً للبوير. ثم سار الانجليز خطوة أخرى في طريق التسامح فانسحبوا من منطقة نهر الاورنج سنة ١٨٥٤ . وهناك اسس البوير حكومة الاورنج الحرة .

إلا أن تلك الاتفاقيات التي تمت بين الانجليز والبوير لم يقدر لها البقاء طويلاً . واصبح البوير مهددين في منطقتهم . وذلك بسبب كشف الماس في الترنسفال (١٨٦٩ — ١٨٧٠)، ثم كشف الذهب (سنة ١٨٨٥) . أما الماس فقد كشف بوفرة في المكان الذي قامت فيه فيما بعد مدينة كمبرلي . واما الذهب فقد وجد في الترنسفال في المكان الذي قامت فيه مدينة جوهانسبرج

فتدفق على تلك الجهات سيل من المغامرين الانجليز اخذوا يزاحمون سكانها من الفلاحين البوير . فازداد الجفاء والتوتر بين الفريقين في جنوب افريقيا وخصوصاً عندما ضم دزرائيلي هذا الاقليم الى الممتلكات البريطانية بحجة حماية السكان الاصليين من الرق ومن استبداد البوير .

ولكن البوير لم يستكينوا للانجليز ، بل قاوموا مقاومة شديدة حتى قررت وزارة الأحرار إعادة الاقليم الى البوير . ولكن الواقع ان الانجليز كانوا يريدون كسب الوقت حتى تلوح الفرصة . وعندما لاحت عادوا الى التغلغل وراء دويلات البوير . وفرضوا الحماية على اقليم (بتشوانالاند) في الشرق وارتادوا الأراضي الشمالية لنهر لمبوبو وهي الأراضي التي تكون منها اقليم (روديسيا) الذي سمي بهذا الاسم تكريماً للمستعمر البريطاني المعروف سيسيل رودس « Cecil Rhodes » .

وقد ادى كشف مناجم الماس بالقرب من كمبرلي ، وكشف الذهب في جنوب الترنسفال في أواخر القرن التاسع عشر ، الى هجرة عدد كبير من المغامرين الى تلك الجهات ، واجتذبت تلك الثروة الطارئة انظار المستعمرين الانجليز ، وتزعم « سيسل رودس » حركة ضمها الى الممتلكات البريطانية في جنوب افريقية .

وكان « سيسل رودس » يسعى في اول الأمر لتدعيم الحكم البريطاني في جنوب افريقيا ، وحاول ان يؤسس علاقات الصداقة بين البريطانيين والبوير الذين آثروا السلامة وظلوا تحت الحكم البريطاني في مستعمرة الكاب . أما البوير الذين فضلوا الهجرة الى الشمال واستقروا في ولايتي الاورانج والترنسفال ، فقد راعهم ما رأوه من موجات الهجرة الى بلادهم ، وحقدوا على البريطانيين الذين بدأوا يتطلعون الى ما في ايدي غيرهم .

وكان على رأس جمهوريتي البوير في الاورنج والترنسفال زعيمهم كروجر « Kruger » الذي هاجر مع مواطنيه البوير من الكاب فراراً من

الاستعمار البريطاني ، واسسوا أورانج الحرة والترنسفال . وعندما اصبح سيسل رودس رئيساً للوزارة في مستعمرة الكاب سنة ١٨٩٠ ، حرض فرقاً من المغامرين الانجليز على مهاجمة الترنسفال بقيادة صديقه الدكتور جامسن « Dr. Jamson » (١٨٩٥) ، واستبسل البوير دفاعاً عن أرضهم ، فارتدت القوات المغيرة على اعقابها وباءت بالخذلان ، وقبض البوير على الدكتور جامسن ، واضطر « سيسل رودس » الى الاستقالة ، وانتهى عهد الصداقة بينه وبين البوير في مستعمرة الراس ، وتألفت جمعية قوية من البوير اطلقوا عليها « الرابطة الافريقية Afrikander Bond » للكفاح في سبيل قضية البوير . وقرر الرئيس كروجر ان يحارب بريطانيا ويعمل على تأسيس اتحاد هولندي في جنوب افريقيا ، واشتعلت تلك الحرب عام ١٨٩٩ .

لم يكن البريطانيون على استعداد لتلك الحرب ، ولذلك استمرت حتى عام ١٩٠٢ ، وأحرز البوير فيها عدة انتصارات أثرت على سمعة بريطانيا في العالم كله ، وكانت تلك الانتصارات تقابل في اوروبا بحماس عظيم وعلى الأخص في المانيا وفرنسا وروسيا ، بل ظهر في انجلترا نفسها بعض الأحرار الذين استنكروا تلك الحرب التي شجعتها وأزكتها وزارة المحافظين مما اثار الرأي العام العالمي على بريطانيا .

غير أن عدم التكافؤ في العدة والعدد ، كان السبب في التجاء المجاهدين الى حرب العصابات التي دامت زهاء سنتين ونصف ذاقت فيها القوات البريطانية مرارة الهزيمة عدة مرات . وأخيراً تمكنت القوات البريطانية من القضاء على مقاومة البوير ، وضم البريطانيون أراضي الاورنج والترنسفال الى مستعمراتهم في جنوب افريقية .

وفي سنة ١٩٠٦ ، سعى الجنرال « سمطس » ، الذي كان قائداً من قوات البوير ، للحصول على الاستقلال الذاتي لولايتي الاورانج والترنسفال ، ثم تقرر في سنة ١٩٠٩ قيام اتحاد جنوب افريقيا الذي يضم الاورنج والترنسفال

والكاب والناتال .

ومما يجدر ذكره أن بعض الدول الاوروبية كانت على استعداد لمد يد المعونة للبوير ، إلا أن السيادة البحرية التي كانت تتمتع بها انجلترا لم تترك فرصة للتدخل الاوروبي المسلح ، وكانت المانيا على رأس تلك الدول التي تتبعت تلك الحرب في حماسة بالغة ، حتى ان الامبراطور ولهلم الثاني ابرق مرة يهنىء «كروجر» ، بانتصار احرزه البوير قبل تسليمهم . وقد حزن كل الحزن عندما علم في سنة ١٩٠٢ بانهزامهم هزيمة حاسمة . وادرك أكثر من أي وقت مضى ، مبلغ المضايقات التي تترتب على سيطرة بريطانيا على البحار ، وكان ذلك سبباً من اسباب تصميمه على بناء اسطول عظيم لالمانيا تستطيع به أن توقف بريطانيا عند حدها .

الفصل الثامن

المـــانيا

احوالها الاقتصادية والدفاعية والسياسية

التفوق الصناعي والتجاري

لما فاز الالمان بوحدتهم ، ادركوا أن دولتهم الكبرى بها من المواد ما يكفي لتكوين دولة قوية فهم شعب مكافح ، زاده الانتصار على فرنسا في الحرب السبعينية اعتداداً بنفسه ، ورغبة في التقدم ومسايرة لأحداث العصر وطموحاً الى السيادة .

وقد إزداد عدد سكان المانيا في مدى قرن حتى بلغ قبيل الحرب الكبرى ٦٧ مليون نسمة ، يعملون في نشاط للتفوق الصناعي .

ومما ساعد على تقدم الالمان الصناعي ، وفرة كميات الفحم والحديد بعد انتزاعهم الالزاس واللورين من فرنسا ، وقد ضمن توحيد الولايات الالمانية لهم التفوق في توزيع منتجاتهم الصناعية في أسواق اوروبا الوسطى ، لذا اندفع الالمان نحو بذل الجهود للتوسع في اقامة المصانع ، حتى تبوأت المانيا مركزاً ممتازاً بين أكبر الدول الصناعية بفضل السياسة الاقتصادية التي اتبعتها الدولة في رسم التخطيط الصناعي والاهتمام بتسهيل سبل النقل المختلفة ،

وتوسيع الموانيء وتسهيل ارساء السفن ، وبذلك اصبحت البحرية الالمانية بعد عام ١٩٠٠ أقوى بحرية في العالم بعد بريطانيا .

اما منتجاتها فقد راجت في اسواق اوربا ، بل غزت المنتجات الانجليزية في انجلترا رغم اسبقية الاخيرة في الثورة الصناعية لذلك لاحظ الانجليز مبلغ المنافسة الالمانية لتجارتهم الخارجية ما بين عامي ١٨٨٠ و ١٩١٤ اذ كانت التجارة الانجليزية تستوعب ٢٣٪ من تجارة العالم فانكمشت الى ١٧٪ بينما زادت حصة التجارة الالمانية من ٩٪ الى ١٢٪ ، واعتقد كثير من الانجليز ان ما خسرته بريطانيا كسبته المانيا .

وأهل القرن العشرين بمظاهر العداوة بين انجلترا والمانيا ، ولم يكن التفوق التجاري الالماني الدافع الوحيد لاثارة تلك العداوة ، بدليل ان الولايات المتحدة قد زادت حصتها من التجارة العالمية من ١٠٪ الى ١٥٪ اثناء تلك الفترة ، ومع ذلك لم يحنق البريطانيون على الولايات المتحدة ولم يقفوا منها موقفهم من المانيا ، ولكن الذي اثار عداوتهم للالمان هو ذلك البرنامج الحربي الضخم الذي وضعه الامبراطور ولهلم الثاني لالمانيا .

وقد اكسب التطور الاقتصادي المانيا التفوق على الدول الاوروبية الاخرى ، اذ غزت البضائع الالمانية اسواق العالم في آسيا وافريقيا وامريكا الجنوبية مما ادى الى خسارة كل من انجلترا وفرنسا وبلجيكا وهولنده وسويسره والسويد ، وغدت المانيا منافساً خطيراً لمنتجات تلك الدول . بفضل جهود في صناعات مختلفة حتى تفوقت الصناعة الالمانية المؤسسة على الدراسة العلمية وانفرد الالمان بانتاج أحسن أنواع الادوية والاصباغ والنترات . وقد زاد النشاط الصناعي بالمانيا بزيادة استخراج الفحم اضعافاً مضاعفة واصبحت منطقة الفحم في وستفاليا اقليماً يضارع في نشاطه الصناعي اغنى مقاطعات انجلترا الصناعية . وتضاعف بذلك انتاج المانيا في صناعات الصلب والحديد .
ومما زاد المانيا تمكيناً في الصناعة ، أن امتدت منافستها لمنتجات الدول

الاخرى فيما وراء البحار ، فقد نافست « شيلي » في انتاج نوع من النترات سد حاجة المانيا ، واصبحت تصدر ما يفيض منه عن حاجتها ، وهو كسب اقتصادي قومي ، اذ فضلاً عن استعمال النترات في تخصيب الارض فقد استخدمته في صناعة المفرقعات خلال الحرب العالمية الاولى مما خفف عنها مؤثرات الحصار البريطاني .

التفوق العسكري

على أن خصوم المانيا كانوا يخشون تقدمها العسكري أكثر من تقدمها الاقتصادي فهم يدركون أنها كادت تصبح أقوى دولة في القارة الاوربية ، ويعلمون تلك النزعة التي تملأ رؤوس الالمان الذين لا يرون المجد والقوة الا في التفوق الحربي ، اذ مرت بالمانيا عدة ظروف جعلتها تؤمن بأن الحرب هي الوسيلة الوحيدة للوصول الى امانيها ، فان حرب التحرير التي خاضها الالمان ضد نابليون (١٨١٣ — ١٨١٤) قد اشعلت نار الوطنية وأثارت فيهم الروح العسكرية الانتقامية . وأمكنهم التوسع في اوربا بفضل انتصارهم وحروبهم ضد الدنمرك سنة ١٨٦٤ وحروبهم ضد النمسا سنة ١٨٦٦ والحرب الفرنسية البروسية التي انتزعوا بها الالزاس واللورين (١٨٧٠ — ١٨٧١) . اضف الى هذا ان اعلان الامبراطورية —عندما توج ولم الأول ملك بروسيا امبراطوراً على المانيا — قد أكــد الالمان أن ميدان الحرب هو الوسيلة الوحيدة لتحقيق اطماعهم . كل ذلك جعل الروح العسكرية تطغى على الالمان ، ولا سيما أن حكومتهم أزكتها بتعميم التجنيد الاجباري ، وبث روح الجندية في الشباب الالماني . وعنيت اشد العناية بتوجيه الصناعة نحو خدمة الاغراض الحربية ، وعملت على الاستعداد الحربي بتنظيم الطرق وتوسيعها ورصفها لتسهيل انتقال القوات الحربية المسلحة ونقل الاسلحة الثقيلة . وهكذا توجهت الجهود كلها لخدمة الروح العسكرية .

وقد رأينا فيما سبق أن بسمرك كان يعمل منذ عام ١٨٧١ على ان تجني المانيا ثمرة انتصارها على فرنسا فتتجه الى العناية بتدعيم دولتها في هدوء وطمأنينة .

وفي سبيل تحقيق هذه السياسة عمل على عزل فرنسا واثارة العداوة بينها وبين الدول الاوروبية ، فشجع فرنسا على غزو تونس لكي تختلف مع ايطاليا ، وشجع انجلترا على احتلال مصر لكي يقوم النزاع بينها وبين فرنسا . ولكن بعد اعتزاله الحكم بدأت متاعب المانيا السياسية . وكان أول هذه المتاعب ، التحالف الحربي بين فرنسا وروسيا سنة ١٨٩٤ ، ثم قيام التحالف بين فرنسا وروسيا وبريطانيا سنة ١٩٠٧ . ادرك الساسة الالمان أن ذلك التحالف يهدد مصالحهم ويجعل التحالف الثلاثي المكون من المانيا والنمسا وايطاليا يواجه تحالفاً خطيراً مكوناً من فرنسا وروسيا وبريطانيا .

ونستطيع أن نلمس مبلغ اهتمام الالمان وتوقعهم الحرب من ازدياد القوات الالمانية كلما كثرت الاحلاف ضدهم فعندما قام التحالف بين فرنسا وروسيا سنة ١٨٩٤ زادت الحكومة الالمانية عدد قواتها الحربية (من ٤٨٧ ألف الى ٥٥٧ الف) ولما تم الاتفاق الودي بين انجلترا وفرنسا زادت القوات الالمانية الى ٦٠٥ الفاً . وبتوالي قيام الازمات السياسية بين المانيا وخصومها ما بين ١٩٠٨ الى سنة ١٩١٤ أخذ عدد القوات الالمانية يعظم حتى بلغ عدد قواتها ٨٣٠ ألفاً (سنة ١٩١٣) .

وكان يشرف على شئون الجيش مكتب حربي يعتمد عليه الامبراطور القائد الاعلى للجيش . ولما كان هذا المكتب الحربي يتألف من كبار الضباط الذين تنحدر اغلبيتهم من طبقة الاشراف البروسيين فقد اطمأن الامبراطور ولهلم الثاني الى تحقيق برنامجه الحربي .

ولما لاح شبح الحرب وتلبدت سماء السياسة الاوروبية بالغيوم بعد عام ١٩٠٠ ، أخذ القواد يعدون العدة للحرب في جبهتين : الجبهة الروسية والجبهة الفرنسية . ولما لم يكن لالمانيا حدود طبيعية منيعة تعتمد عليها فقد قدر قادة الجيش صعوبة المهمة الملقاة على عاتقهم ، اذ قد يخترق الأعداء حدود البلاد من جهات مختلفة . فكان لا بد من انشاء شبكة من السكك

الحديدية لنقل الجنود بسرعة الى الجبهتين الفرنسية والروسية على حسب الحاجة . وكانوا يؤملون أنه في حالة قيام الحرب ، يستطيع فريق من الجيش الالماني أن يصمد في احدى الجبهات ، بينما تهاجم بقية الجيش الالماني العدو الآخر في حرب خاطفة .

وقد ادرك الالمان أن الحرب الخاطفة سلاح في جانبهم ، يكسبهم التفوق والنصر ، بسبب كفاية استعدادهم الحربي في تلك الفترة عن غيرهم من الدول الاخرى ، ولذلك رأت المانيا الا تمنح اعداءها فرصة يستعدون فيها ، وكان على المانيا ان تقوم بهجوم خاطف يأتي بعده النصر في اسرع وقت فان أية حرب طويلة — ولاسيما اذا حوصرت المانيا — سوف تقضي على تجارتها وترهق مواردها وتضعف الروح المعنوية بين رجالها مما يؤدي الى انتصار اعدائها عليها .

نظام الحكم ومشكلة العدالة الاجتماعية

لما تكون الاتحاد الالماني الجديد في عام ١٨٧١ كانت حكومته برلمانية في ظاهرها ، ولكنها كانت من الناحية العملية مطلقة السلطة . اذ لم يصل الالمان الى دستورهم عن طريق الجهاد في سبيله ، كما حدث في انجلترا وفرنسا بل كانت تنقصهم الخبرة الواسعة في تنظيم شئونهم الداخلية والسياسية عن طريق الحكم البرلماني ، وكانوا في الوقت نفسه ، متشبعين بالروح البروسية البيروقراطية واضعين ثقتهم في قادتهم وزعمائهم .

كان امبراطور المانيا من اسرة هوهنزلرن ، فهو ملك بروسيا وقيصر الريخ ، وله سلطة واسعة في الشئون الداخلية اذ من حقه أن يعين كبار الموظفين في الاتحاد الالماني وله حق زيادة الجيش والأسطول . أما سلطته في الشئون الخارجية فقد قررها الدستور الالماني بأن جعل الأمبراطور يمثل الامبراطورية في جميع الشئون الدولية حتى انه يستطيع ان يقرر اعلان الحرب

باسم الريخ ويوقع معاهدات الصلح ويعقد ما يشاء من المحالفات مع الدول الأجنبية .

وقد طغى النظام البروسي على الاتحاد الالماني وذلك لنجاح هذا النظام ونجاح رجاله البروسيين في اعلاء شأن المانيا ، واحرازهم لها النصر السريع الحاسم في حربين كبيرتين . الاولى ضد النمسا سنة ١٨٦٦ ، ولم تستمر سوى سبعة أسابيع . والثانية حربها ضد فرنسا ١٨٧٠ — ١٨٧١ التي نالت النصر فيها بعد ستة اشهر فاعتقد معظم الالمان أن الفضل في تلك الانتصارات السريعة إنما يرجع الى حكامهم الذين تتكون أغلبيتهم من البروسيين .

لم يقتصر نفوذ البروسيين على الجيش بل امتد الى إلادارة الحكومية نفسها حيث كانوا يظهرون كفاية نادرة وتفانياً في العمل ، واخلاصاً عميقاً للدولة . ومنذ ان اصبح بسمرك مستشاراً للامبراطورية ، كان الالمان في جميع بلاد الريخ قد اقتنعوا تماماً بأهمية النظام البروسي وحاولوا الاندماج في نظمه والتطبع بطباع البروسيين في الخلق والنظام .

كانت المانيا الجديدة بعد اتحادها تحتل موقعاً متوسطاً من الناحية الجغرافية وتتخذ لنفسها مركزاً وسطاً من الناحية السياسية . فهي تقع بين الديمقراطيات الغربية أي بريطانيا وفرنسا . وبين الملكيات المطلقة في النمسا وروسيا ، وكانت حكومتها وسطاً أيضاً بين الحكم الاوتوقراطي والحكم الديمقراطي وقد وضعت السلطة التشريعية في يد مجلسين :

الرايخستاج Reichstag

كان مجلسا يمثل الشعب وينتخب اعضاؤه وعددهم ٣٨٢ بالاقتراع العام وكانت سلطة هذا المجلس محدودة لأن الوزارة لم تكن مسئولة أمامه بل أمام الأمبراطور . وكان المجلس ميداناً للمناقشات والجدل السياسي دون أن تتقيد الوزارة برأيه ومع أن الدستور خول للرايخستاج حق اسقاط الوزارة اذا اقترع المجلس على عدم الثقة بها إلا أن المجلس لم يستعمل هذا الحق . اذ

كان باستطاعة مستشار الدولة ان يتجاهل معارضة الأغلبية لأنه مطمئن الى البقاء في منصبه ما دام متمتعاً بثقة الامبراطور .

البندسرات Bundesrath

وهو مجلس اعلا يمثل الولايات الالمانية وكان اعضاؤه يعينهم الامبراطور وكانت مساحة الولاية تراعى عند تعيين عدد الممثلين لها . ولذلك نالت بروسيا ١٧ مقعداً من ثمان وخمسين ، ولذلك كان رايها هو الحاسم في اغلب الاحيان لقوة النفوذ البروسي على ولايات كثيرة . وكانت سلطة البندسرات أوسع من سلطة الرايخستاج اذ كان من حقه التصديق على القوانين والمعاهدات بل كان من حقه أيضاً أن يقرر حل مجلس الرايخستاج بناء على طلب الامبراطور كذلك كان من حقه تعيين بعض كبار موظفي الاتحاد الالماني والفصل فيما يقوم بين الولايات من خلاف ومنع اي تعديل في الدستور .

ومع وجود هذين المجلسين التشريعيين فقد ظلت حكومة الاتحاد الالماني اوتوقرطية أكثر منها برلمانية . فقد كان في وسع الحكومة ان تصادر حرية الرأي والخطابة والصحافة . ووضعت رقابة صارمة على المنظمات الشعبية . على ان الالمانيين من جانبهم كانوا يحترمون نظام الدولة ، ويتفانون في طاعة القانون ، والتزام النظام وحب الزعماء . وقد تجلى ذلك في الاجتماعات التي كانت تقام لسماع خطب قادتهم المملوءة بالحماسة الوطنية والتي تنادي بأن الوقت قد حان لكي تصبح « المانيا فوق الجميع » ، وان تحتل مكان الصدارة بين الدول الاوربية . وقد تزعم هذه الفكرة قبيل الحرب الكبرى « الامبراطور ولهلم الثاني » الذي عمل على التوسع الحربي والاقتصادي والعلمي ودفع بها الى معترك السياسة العالمية تؤيدها قوة صناعية عظيمة .

الاشتراكية الديمقراطية في المانيا

استطاع بسمرك عندما كان مسيطراً على الموقف الداخلي في المانيا ،

ان يكون في مجلس الريخستاج ائتلافاً بين الارستقراطية البروسية العسكرية ، والطبقة البورجوازية الالمانية ، ووقف الفريقان المؤتلفان ضد الطبقة العاملة ، فقد كان من رأيهما اخماد الحركات الاشتراكية التي بدأت تظهر بين العمال .

وفي عام ١٨٧٥ ، اي بعد ان سارت المانيا خطوات واسعة في سبيل الثورة الصناعية ، وبدأ العمال يشعرون بأن الدولة لا توليهم العناية الواجبة من حيث العدالة الاجتماعية ، اتحدت منظماتهم وازدادت خطورتها على الحكم الاوتوقراطي . وتكون حزب جديد باسم (الحزب الديمقـــراطي الاشتراكي) .

وجد جماعات الاشتراكيين الفرصة سانحة لنشر مبادئهم بين العمال ، الا ان بسمرك كان لهم بالمرصاد ، فاخذ يمنع اجتماعاتهم ويفض مؤتمراتهم ، ويصادر صحفهم ، ويلقي القبض على زعمائهم ، فقوى بذلك ساعد اصحاب الأعمال ــ الرأسماليين ــ ورأوا من جانبهم ان يضغطوا على العمال لكي يبتعدوا عن تلك المنظمات الاشتراكية ويوقعون عرائض يقررون فيها انهم لا ينتمون الى الجمعيات والاحزاب الاشتراكية .

وفي يوليه ١٨٧٨ ، حلت الحكومة مجلس الريخستاج ، وجاءت نتائج الانتخابات الجديدة باغلبية تؤيد بسمرك ، وعادت موجة الارهاب ضد الاشتراكيين فنفى منهم عدد كبير خارج برلين ، وصودرت خمسة واربعون صحيفة ديمقراطية اشتراكية . وتوارت الديمقراطية الاشتراكية مؤقتاً ، وغادر زعيمها « برنشتين » برلين الى سويسرا (اكتوبر ١٨٧٨) لكي يواصل هناك جهاده بمساعدة زملائه الذين غادروا المانيا معه[1] . وكان بسمرك قد بلغ قمة سلطانه في ذلك العـــام (١٨٧٨) . إذ كان يرأس

---

(١) كان ادوار برنشتين (Bernstein) احد زعماء الديموقراطية الاشتراكية ، ولد في برلين سنة ١٨٥٠ ، اي بعد ظهور المنشور الشيوعي الذي اصدره كارل ماركس . ولكنه لم يكن متطرفاً في اشتراكيته بل كان ينتقد كارل ماركس في تطرفه ويهاجم نظرياته الاقتصادية ، =

مؤتمر برلين الذي انعقد لتسوية المسألة البلقانية ، وبدا للعالم قوة شخصيته وسيطرته على السياسة الاوروبية .

ولكن بعد عامين ، أي في سنة ١٨٨٠ ، عاد الخطر الذي كان كامناً ، وانتشرت المبادىء الاشتراكية في الدوائر العمالية ، واضطر بسمرك ان يصدر عدة تشريعات لتهدئة العمال ، فصدر قانون التأمين الصحي (سنة ١٨٨٣) ، وقانون التأمين ضد الحوادث (١٨٨٤) ، وقانون المعاش لكبار السن والعاجزين عن العمل (١٨٨٥) .

على أنه رغم إصدار هذه التشريعات التي تحقق بعض ما يطالب به العمال ، اتجه بسمرك لمحاربة الاحزاب التي تهدف الى الاشتراكية او الشيوعية الى ان توفي الامبراطور العجوز واعتلى العرش الامبراطور الشاب وليم الثاني سنة ١٨٨٨ ، وقام الخلاف بينه وبين مستشاره بسمرك الذي اصبح لا يمثل الروح الالمانية الجديدة ، ولم يكن النزاع بينهما حول السياسة الخارجية فحسب ، بل حول السياسة الداخلية التي نحن بصددها ، فبينما كان بسمرك يرى القضاء على الاحزاب والمنظمات الاشتراكية ، كان الامبراطور الشاب يميل الى اكتساب الرأي العام الالماني ، بمحاولة الاصلاح الاجتماعي بين طبقات العمال .

واستمر الخلاف مستحكماً بين ولهلم الثاني وبسمرك حتى حلت انتخابات الريخستاج في فبراير سنة ١٨٩٠ ، وازداد عدد اعضاء الاحزاب المعارضة

= ويعتقد ان التطور الاجتماعي لا يسير طبقاً لها ، بل يرى ان عمل الاشتراكية يجب ان يتجه نحو تنظيم طبقة العمال وتثقيفهم ديموقراطياً حتى يتمكنوا من المطالبة بادخال الاصلاحات في النظام الحكومي وتوجيهه وجهة ديموقراطية اشتراكية ، وبذلك تتحاشى الدولة الكارثة التي يشير اليها كارل ماركس ، كذلك كان برنشتين يرى ان دكتاتورية العمال كما تصورها كارل ماركس ، لا تصلح لتنظيم المجتمع ، وذلك لأنها تفضل مصلحة العمال على غيرهم من افراد الامة .

لبسمارك ، وضرب الامبراطور ضربته ، فأقال بسمرك ، واتجه لكسب الطبقات العاملة الى جانبه ، فأمر بإصدار عدة تشريعات لتحسين أحوالها ، كتحديد ساعات العمل ، ومنحهم الحرية في تنظيم شئونهم وتكوين نقاباتهم ، وادخل عدة تحسينات للتوسع في قوانين التأمين الصحي ، والتأمين ضد الحوادث ، والمعاش ، ثم ضمت كلها في قانون واحد اطلق عليه اسم (مجموعة قوانين التأمين الاجتماعي الامبراطوري) .

لذلك ازدادت المانيا إقتراباً من الديموقراطية وزاد نفوذ الحزب الاشتراكي الديموقراطي بعد عام ١٨٩٠ . واصبح اكثر اعتدالاً عن ذي قبل لأنه جمع عدداً كبيراً من الالمان . وفي سنة ١٩١٢ أصبح لذلك الحزب أغلبية لا بأس بها في الريخستاج (١١٠ مقعداً) . على ان الرجال العسكريين كانوا يكرهون ذلك الحزب لان اعضاءه كانوا دائماً يعارضون في اتساع ميزانية الجيش . كذلك كان الاغنياء يكرهونه لأن اعضاءه كانوا ينادون بفرض ضريبة تصاعدية على الدخل واخرى على التركات . ويكرههم ملاك الاراضي لأنهم كانوا يرغبون في انقاص التعريفة الجمركية على المنتجات الزراعية المستوردة والعمل على استيراد الأطعمة الرخيصة من الخارج . ويكرههم اصحاب الأعمال لأنهم كانوا يطالبون بزيادة أجور الطبقة العاملة . ولكن على الرغم من ان الاشتراكيين الديمقراطيين كان لهم ثلث مقاعد الريخستاج في انتخابات سنة ١٩١٢ ويسيطرون على المجلس بمساعدة حلفائهم من حزب الأحرار ، إلا أن سلطتهم الدستورية على الوزراء كانت محدودة ، اذ لم يستطع هذا المجلس ان يجبر رئيس الوزراء على الاستقالة في سنة ١٩١٣ (بتمان هولوج) على الرغم من اقتراع المجلس على عدم الثقة بوزارته فقد ضرب هذا الرئيس باقتراعهم عرض الحائط بحجة انه معين من قبل الامبراطور وغير مسئول إلا أمامه ولم يملك اعضاء المجلس الا الخطب الحماسية التي لم تثمر ولم نسقط الوزارة .

على أن الديمقراطيين الاشتراكيين لم يكونوا ثواراً بطبيعتهم ، فقد ابوا

ان يزجوا بالمانيا في ثورة داخلية ولذلك بقيت المانيا قوية سليمة ، واتجه الشعب الى العمل على زيادة انتاجه الاقتصادي وزيادة تسلحه . فاتسع نشاط المانيا الاقتصادي ، وتضاعفت تجارتها الخارجية وشعر الشعب بالعزة الوطنية والكرامة القومية . ولكن الحرب الكبرى التي استمرت اربع سنوات هدت عزيمة الالمان وحطمت مقاومتهم واذلت كبرياءهم فقد عانوا من الحصار الدولي ما جعلهم يرضخون لشروط الصلح المجحفة التي فرضتها عليهم معاهدة فرساي .

الفصل التاسع

فرنسا

احوالها الاقتصادية والدفاعية والاجتماعية

مشكلة السكان

تميزت فرنسا بمزارعها الغنية التي تمدها بما تحتاج اليه من المواد الغذائية وبساتينها وكرومها التي جعلتها تصدر ما يفيض عن حاجتها من الفواكه والخمور ، ولذلك كان الفرنسيون يتمتعون في بلادهم بالاكتفاء الذاتي في ضروريات الحياة ، في الوقت الذي كان البريطانيون والايطاليون والالمان لا يستطيعون الاستغناء عن استيراد اغلب ما يحتاجون اليه من المواد الغذائية .

وهذه الثروة الزراعية ، تفسر لنا الى حد بعيد ، الاسباب التي دعت معظم الفرنسيين الى تفضيل الاستقرار في بلادهم ، وعدم الاندفاع في الهجرة كما يفعل الانجليز ومعظم الاوربيين .

وقبل أن تقوم الحرب الكبرى الأولى عام ١٩١٤ ، كان عدد عمال الزراعة ضعف عدد عمال المصانع والمحلات التجارية . ومع ذلك فقد تقدمت الصناعة الفرنسية في اوائل القرن العشرين ، فقد كانت في سنة ١٩٠٠ ثالثة دول العالم في انتاج الحديد ، وصناعة النسيج . واشتهر صناعها بمهارتهم

في ابتكار البضائع الكمالية وادوات الزينة التي تخصصت فرنسا في انتاجها وتصديرها الى الخارج .

وقد كانت فرنسا منذ القرن السابع عشر مهبط السياح من جميع انحاء العالم ، فان ملوكها السابقين منذ لويس الرابع عشر كانوا يعنون باقامة القصور الفاخرة ، والكتدرئيات الفخمة ، وجعلوا من باريس مرتعاً للحياة الناعمة ، جذبت اليها على مدى الاجيال ملايين السائحين في كل عام ، كانوا يسهمون بما ينفقونه في فرنسا في زيادة ايراداتها ، مما ساعدها على الاحتفاظ باحتياطي كبير من الذهب .

وامتازت فرنسا بانها تملك في افريقية وآسيا اراض واسعة تجعلها ثاني امبراطورية في العالم بعد الامبراطورية البريطانية ، ولهذا قامت المنافسة الاستعمارية بين الدولتين في ميادين كثيرة ، في كندا ، ولويزيانا ، وجزر الهند الغربية ، والهند ، ومصر . واستطاعت بريطانيا ان تتغلب على فرنسا في تلك الميادين ، بفضل سيادتها البحرية التي لم تستطع دولة ان تنتزعها منها حتى قيام الحرب العالمية . على ان فرنسا استطاعت ان تشق لنفسها طريقاً استعمارياً آخر ، فاحتلت الجزائر في عام ١٨٣٠ ، ووسعت نطاق فتوحاتها في افريقية وآسيا حتى اصبحت تتحكم في اراض تبلغ مساحتها اكثر من اربعة ملايين ميل مربع ، يسكنها أكثر من أربعين مليوناً من الناس ، ففي عهد الجمهورية الثالثة احتلت تونس (١٨٨١) ، وكانت الممتلكات الفرنسية في افريقيا تنقسم قبل الحرب الى خمسة اقاليم ادارية . مراكش ، والجزائر ، وتونس وافريقية الغربية الفرنسية ، وافريقية الاستوائية .

اما القسم الاسيوي منها فيقع في الجنوب الشرقي من آسيا ، اي على المنطقة التي تسمى بالهند الصينية ، وهي منطقة يسكنها في ذلك الوقت حوالي عشرين مليوناً ، وقد بدات سيطرتها عليها في عهد نابليون الثالث، عندما ارسل حملة بحرية الى تلك الجهات استولت على انام « Anam » وكمبوديا ولاوس وتونكين ، واخذت القوات الاستعمارية الفرنسية تزحف نحو الداخل

حتى اصطدمت بالتوسع البريطاني الزاحف شرقاً من منطقة بورما ، وبدا النزاع الفرنسي البريطاني في تلك المنطقة ايضاً ، حتى ادركه الوفاق الودي سنة ١٩٠٤ الذي وضع حداً لتلك المشكلة ، وجعل وادي نهر ميكونج وجبال رانج حداً فاصلاً بين نفوذ الدولتين .

على ان هجرة الفرنسيين الى مستعمراتهم كانت قليلة ، وكانت هناك فئة من الفرنسيين يعارضون اشد المعارضة في التضخم الاستعماري الذي قد ينتج عنه ارتباك فرنسا من الناحية الاقتصادية والدفاعية ، اذ لاجل المحافظة على هذه الامبراطورية الواسعة واخضاعها للحكم الفرنسي ، لا بد من تجريد عدة حملات تقضي على الثوار ، ووضع حاميات مستديمة للمحافظة على النظام وبناء اسطول للدفاع عنها فيما وراء البحار ، مما يرهق ميزانيتها ويزيد العبء على دافعي الضرائب لان الاستعمار يستلزم قوة الدفاع ، والدفاع يحتاج الى المال والرجال ، كذلك كان بعض المعارضين في التوسع الاستعماري يضعون مشكلة السكان في فرنسا نصب اعينهم ، ففي الوقت الذي يزداد عدد السكان في المانيا وايطاليا وروسيا وانجلترا ازدياداً مضطرداً ، كانت فرنسا تشكو التناقص في عدد السكان بسبب الحروب الكثيرة التي اشتبكت فيها اثناء القرن التاسع عشر ، مما كان يضطرها الى الاستعانة بالايدي العاملة الاجنبية لتسد النقص في الميدان الزراعي والصناعي .

وكثيراً ما هاجر اليها العمال من ايطاليا وبلجيكا واسبانيا وبولنده وغيرها وقد كان بفرنسا في سنة ١٩١٤ اكثر من مليون عامل اجنبي لذلك كان من العبث – في رأي هؤلاء المعارضين – ان تحرم فرنسا من خيرة شبابها تبعثرهم بين القارات البعيدة ، في الوقت الذي كانت فرنسا مهددة بالغزو عبر نهر الرين او جبال الالب ، ومما كان يبعث الخوف في نفوس اولئك الفرنسيين ، ازدياد عدد السكان في المانيا حتى بلغ ضعف عدد سكان فرنسا وهكذا ظلت مشكلة نقص المواليد في فرنسا تحد من نشاطها .

بعد خروج فرنسا مهزومة في الحرب السبعينية ، لم تستقر بها الأحوال الداخلية ، فقد قام النزاع بين الملكيين والجمهوريين على تولي زمام السلطة ، وقد ادى هذا النزاع الداخلي الى تعطيل الاستعداد للحرب الانتقامية التي كان ينادي بها كبار ضباط الجيش ، الذين شعروا اكثر من غيرهم بمبلغ الفرق الشاسع بين القوة العسكرية الالمانية المؤسسة على احدث مخترعات العلم وبين القوة العسكرية الفرنسية التي لم تستطع الصمود امام الالمان اكثر من ستة أشهر .

لذلك حاولت الحكومة الفرنسية في عام ١٨٧٢ ان تعيد تنظيم الجيش على النمط البروسي ، واعلنت التجنيد الاجباري ، واخذت تنفق عن سعة على التسلح ، واستقبل الشعب الفرنسي قانون الجيش بكل حماسة وترحاب على الرغم من انه ينص على ان مدة التجنيد خمس سنوات كاملة ، وظهرت حركة احياء الروح العسكرية بأجلى مظاهرها مما ازعج بسمرك كل الازعاج وجعله يسعى — كما سبق ان بينا — لتوجيه ذلك النشاط الحربي الفرنسي نحو الاستعمار فيما وراء البحار ، وحرمان فرنسا من حلفاء تستطيع ان تأمن اليهم عندما تحل ساعة الانتقام .

وعندما اعتزل بسمرك الحكم سنة (١٨٩٠) بدا ينهار نظام التحالف الذي جاهد في اقامته بين المانيا والنمسا وروسيا ، ونجحت فرنسا في عقد معاهدة مع روسيا عام ١٨٩٤ ، وكانت تلك الاتفاقية كسباً لفرنسا ، لانها ستضطر الى الحرب في جبهتين وهو ما كانت المانيا تخشاه دائماً .

وكان يبدو للفرنسيين في ذلك الوقت أن الوصول الى اتفاق مع انجلترا صعب المنال ، ولكن كان من حسن حظ الدولتين ، ان السياسة الخارجية الفرنسية التي كانت لا تستقر على حال ، اصبحت بعد عام ١٨٩٨ اكثر ثباتاً عن ذي قبل ، اذ تسلم شئون الخارجية وزير حازم هو ديلكاسيـــه

« Delcassé » وهو الذي لعب دوراً هاماً في ازالة سؤ التفاهم الذي نشأ بين انجلترا وفرنسا عقب حادثة فاشوده (١٨٩٨) وسعى حتى تم الوفاق الودي بين الدولتين (١٩٠٤).

وكان امام فرنسا مشكلة كبرى لا بد من التغلب عليها ، وهي الاحتفاظ بصداقة روسيا خوفاً من نجاح الالمان في ضمها نهائياً الى حلفهم ، لذلك اتجهت سياسة فرنسا الى ارضاء روسيا باقراضها بما تحتاج اليه من مال وبعدم معارضة سياستها في البلقان. ولا سيما ان فرنسا كانت في ذلك الوقت تتطلع الى تأييد روسيا لها في سياستها التي تهدف الى الاستيلاء على مراكش ، وقد قال «ديلكاسيه» في مستهل عام ١٩٠٤ « لو تركنا لروسيا حرية التصرف في اوربا ، ووصلنا الى اتفاق مع انجلترا وايطاليا واسبانيا ، فسترون ان مراكش سوف تسقط كالفاكهة الناضجة في حديقتنا ، فانظروا كيف يكون مكسبنا عظيماً ومركزنا متيناً اذا ايدتنا روسيا وانجلترا » .

وفي الوقت الذي كانت تحرص فرنسا فيه على الاحتفاظ بصداقة روسيا ، كانت الاخيرة قد اقحمت نفسها في حرب مع اليابان (١٩٠٤ — ١٩٠٥) خرجت منها بهزيمة منكرة اضعفت مركزها وافقدتها الكثير من هيبتها ، ومع ذلك فقد كانت المانيا حريصة على اعادتها الى التحالف الالماني النمسوي ، بقصد حرمان فرنسا من الاعتماد على الصداقة الروسية ، الا ان فرنسا بذلت ما في وسعها للاحتفاظ بحليفتها روسيا ، ثم سعت حتى نجحت اخيراً في التوفيق بينها وبين انجلترا في الوفاق الثلاثي .

بذلك تغلبت فرنسا على تلك المشكلة الدفاعية ، ثم استطاعت بعد عدة مباحثات مع كل من ايطاليا واسبانيا ان تصل معها الى اتفاق يؤمن حدودها ، واصبحت مطمئنة الى عدم دخول ايطاليا الحرب ضدها ، وعدم اغلاق اسبانيا بوغاز جبل طارق في وجه السفن الفرنسية ، وبذلك ضمنت سلامة مواصلاتها بامبراطوريتها في شمال افريقية في حالة نشوب حرب بينها وبين

اعدائها . وهو ما تهتم به أشد الاهتمام ، لانه يضمن لها استيراد ما تحتاج اليه من افريقية من مواد تموينية او مواد خام او الجنود الجزائريين الذن كانت تستخدمهم بكثرة للدفاع عن فرنسا .

ومع ذلك فلم تكن الحكومة الفرنسية مطمئنة كل الاطمئنان من خطر الغزو الالماني ، فقد صرح كليمنصو « Clemenceau » رئيس وزرائها في سنة ١٩٠٨ بان « خطر الغزو الالماني لفرنسا سيظل ماثلاً ، فنحن نعلم ان الجيوش الالمانية سوف تغزو ارض فرنسا عن طريق بلجيكا بمجرد اعلان الحرب الاوربية » .

وكانت فرنسا تشعر من جهة أخرى بضعف اثر الوفاق الثلاثي في حالة قيام الحرب فعلاً ، لانها لا تستطيع الاعتماد على مساعدة الروس لان روسيا كانت في ذلك الوقت في حالة سيئة من الضعف والانحلال ، ولا تستطيع فرنسا في ذلك الوقت نفسه ان تقدر مدى معاونة بريطانيا لها لو اقتحم الالمان حدودها ، لأن الوفاق الودي بينهما لم يرتفع الى مستوى المعاهدات الرسمية التي تقيد المتعاقدين بضرورة تقديم المساعدة الفعالة .

لذلك شرعت الحكومة الفرنسية في سنة ١٩٠٦ في مفاوضة الحكومة الانجليزية للتفاهم معها على مدى ما تستطيع ارساله انجلترا من القوات البريطانية الى فرنسا للمساهمة في الدفاع عنها عند اعلان الحرب . وكل ما استطاعت انجلترا ان تعد به اخيراً هو ان ترسل قوة لا تزيد عن ٢٠٠,٠٠٠ جندي وان يتولى الاسطول البريطاني حماية الشواطىء الفرنسية في بحر الشمال والمحيط الاطلسي ويتولى الاسطول الفرنسي حراسة المصالح المشتركة بين الدولتين في البحر المتوسط .

مشكلة العدالة الاجتماعية (الحكومة والاشتراكية)

قدمنا فيما سبق ، ان الفرنسيين اعلنوا قيام الجمهورية الفرنسية الثالثة (في ٤ سبتمبر ١٨٧٠) بعد انهزام نابليون الثالث امام الالمان ، ولم يستطع

الجمهوريون ان ينقذوا الموقف ، واضطروا الى قبول صلح فرنكفورت الذي خسرت به فرنسا الالزاس واللورين ، ودفعت تعويضاً كبيراً لالمانيا .

وقد كان من اثر تلك الهزيمة ، ان ضعفت الروح المعنوية بين الشعب الفرنسي مدى عدة اعوام ، وثار الخلاف بين الاحزاب الفرنسية من جمهوريين وملكيين واشتراكيين متطرفين واحرار ومحافظين .

واستطاع الجمهوريون المعتدلون أن يسيطروا على البلاد بمعاونة انصارهم من الطبقة الوسطى ، ومع ذلك فلم تكن لهم اغلبية في الجمعية التأسيسية التي انتخب اعضاؤها في فبراير سنة ١٨٧١ ، فان اغلبية الشعب الفرنسي في ذلك العام ، كانت ترى في انتخاب الجمهوريين عودة الى الثورات والحروب ولذلك كان عدد الاعضاء الملكيين في الجمعية اربعمائة عضو ، يقابلهم مائتان وخمسون من الاحزاب الأخرى ، الا أن الملكيين لم يستطيعوا اعادة الملكية ، فقد كانت باريس نفسها جمهورية النزعة ، وكانت الحكومة المؤقتة التي رأسها (تيير) تميل الى النظام الجمهوري المعتدل الذي يمقت الثورات فارغمته الاحزاب الملكية على الاستقاله (١٨٧٣) ، ومع ذلك فقد انتصر الجمهوريون في نهاية الأمر ، وصدر دستور (١٨٧٥) ، الذي ظلت فرنسا تحكم بمقتضاه حتى عام ١٩٤٠ ، أي عندما دخلت جيوش هتلر باريس ، ونص هذا الدستور على تكوين مجلسين : مجلس النواب ومجلس الشيوخ وينتخب رئيس الجمهورية لمدة سبعة أعوام بتصويت هذين المجلسين مجتمعين ، على ان دستور (١٨٧٥) لم يعط السلطة في الدولة لرئيس الجمهورية ، بل وضعها في يد الوزارة ، وهي مسئولة امام مجلس النواب ، وبهذا اصبحت الحكومة الفرنسية ديموقراطية برلمانية ، ولكنها كانت تخضع للتيارات المختلفة في مجلس النواب وقد نص الدستور على عدم حل المجلس قبل مضي مدته الشرعية وهي أربع سنوات .

وقد جرت عدة انتخابات بعد صدور هذا الدستور ، كان الجمهوريون

يحرزون فيها اغلبية تؤهلهم لتولي الوزارة .

وقد كانت حياة الجمهورية الفرنسية الثالثة مليئة بالازمات الداخلية الحادة وامتلأت النفوس بالاحقاد ، واختلفت الاحزاب فيما بينها اختلافاً شديداً ادى الى عدم استقرار الوزارات الفرنسية ، حتى أن بعض الوزارات لم تستمر أكثر من عام واحد ، بل ان بعضها لم يعش سوى عدة اسابيع وكانت الصحف الفرنسية تفيض بالتهم التي توجهها الى رجال الحكومة تارة ، والى اعضاء البرلمان تارة أخرى ، حتى أصبح يخيل للناس أن الجميع متهمون في شرفهم ونزاهتهم .

لذلك لم تكن الجمهورية الفرنسية الثالثة قوية الدعائم ، ثابتة الاركان ، فقد زعزعتها تلك الانقسامات الكثيرة ، وعجز البرلمان عن حكم الشعب الفرنسي الذي كان في تلك الحقبة من تاريخه ، عصبي المزاج ، متقلب الاهواء .

وقد حدثت في فرنسا في أواخر القرن التاسع عشر ثلاثة أحداث تصور لنا الجو الذي كان الفرنسيون يعيشون فيه في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الاولى .

كان الحادث الأول ، هو حادث « الجنرال بولنجيه Boulanger » الذي عين وزيراً للحربية في عام ١٨٨٦ ، وكان « بولانجييه » يطالب بالاصلاحات العسكرية ، والاستعداد الحربي ، والوقوف موقف الحزم امام الالمان ، والعمل على أن تسارع فرنسا بالانتقام . وقد استهوت شخصيته الجماهير ، فكثر انصاره وأتباعه حتى أصبح الكثيرون يعتقدون أنه سوف ينتخب رئيساً للجمهورية خلفاً للرئيس جريفي « Grevy » الذي اضطر الى الاستقالة بسبب ما اشيع من اتهام زوج ابنته بالاتجار في الاوسمة الا أن « بولنجييه » لم يستغل الفرصة التي سنحت له ، وحقد عليه زملاؤه وحساده واضطر الى الاستقالة من الوزارة سنة ١٨٨٧ ، ولكنه ظل يتزعم حركة

الاستعداد الحربي ، واعتقدت الحكومة وأعضاء مجلس الشيوخ انه يعمل على الاستيلاء على السلطة ، ووجهوا اليه تهمة الخيانة العظمى في سنة ١٨٨٩ ، ولم يستطع بولانجييه ان يثبت في موقفه ، بل تولاه الذعر ، وفر من فرنسا وخابت آمال الجماهير فيه ، وانتهى أمره بالانتحار سنة ١٨٩١ .

اما الحادث الثاني ، فخاص بالفضيحة المتعلقة بشركة قناة بنما ، وخلاصته ان « فرديناند دي ليسبس » منشيء قناة السويس ، كان يرأس شركة لفتح قناة بنما ، ولكن اتضح أن المشروع يحتاج إلى أموال أبهظ مما اشترك به المساهمين واضطرت الشركة الى اعلان افلاسها في عام ١٨٨٩ ، وقد اتضح أن اموالاً كثيرة مما جمعت لهذا المشروع قد تسربت الى جيوب عدد كبير من الوزراء وكبار الموظفين وكبار الصحفيين ، وأن عدداً كبيراً من أعضاء مجلس النواب قد قبلوا من الشركة هدايا ومنحاً طائلة أثرت على ميزانيتها وافقرت خزانتها ففشلت فشلاً ذريعاً . عندئذ اشتد غضب الشعب وسخطه على نظام الحكم وانتهز اعداء النظام الجمهوري الفرصة فوجهوا نقدهم اللاذع الى حكم الطبقة الوسطى ، واتخذوا منه دليلا على فساد الحكم الجمهوري وهكذا اثرت مأساة بنما تأثيراً كبيراً في مركز الجمهورية الثالثة وزعزعت ثقة الشعب فيها الى حد كبير .

والحادث الثالث الذي اساء الى الجمهورية وأظهر انهيارها امام الملأ هو « مسألة دريفوس Dreyfus » وقد كان الكابتن دريفوس ضابطاً يهودياً في الجيش الفرنسي ، وجهت اليه تهمة الخيانة العظمى في عام ١٨٩٤ ، بحجة انه باع اسرار حربية لالمانيا ، وزودها ببعض الاسرار الحربية الفرنسية ، وحكم عليه بالسجن مدى الحياة في جزيرة الشيطان الا أن كثيراً من الاشتراكيين والجمهوريين المتطرفين كانوا يعتقدون ان « دريفوس » بريء من التهمة المنسوبة اليه ، وان محاكمته كانت صورية وتمت دون تحقيق دقيق ، وطالبوا الهيئات العسكرية العليا باماطة اللثام عما جرى في تلك المحاكمة السرية . ورفضت القيادة العليا ان تدلي بأي بيان عن مسألة دريفوس .

واهتم الروائي الفرنسي المشهور « اميل زولا » بابراز براءة دريفوس ووجه اتهاماً صريحاً الى الهيئة العليا في الجيش بأنها قد اخفت المجرم الحقيقي ، وقد حكم على زولا نفسه بالسجن عاماً ولكنه فر من فرنسا ليتابع حملته .

وقد اتضح في عام ١٨٩٨ ، بعد انتحار رئيس المخابرات السرية واعترافه قبل موته بانه زور بعض الوثائق التي ادانت دريفوس وان دريفوس كان ضحية مؤامرة دبرت ضده . وجيء به من منفاه في جزيرة الشيطان ليحاكم من جديد ، ومع ذلك فقد حكمت المحكمة العسكرية بسجنه عشر سنين ، على ان المسألة لم تقف عند هذا الحد ، واصر انصار « دريفوس » على اظهار براءته وتمكنوا بعد ثمان سنوات من احالة قضيته على محكمة مدنية ، هي محكمة النقض والابرام ، وذلك في يوليه سنة ١٩٠٦ ، وصدر الحكم ببراءته وعودته الى الخدمة في الجيش ، بعد ان اتضح ان اتهامه كان مبنياً على الظلم والعسف والتزوير .

تلك امثلة ثلاثة تدل على مبلغ ما كانت تعانيه الجمهورية الفرنسية الثالثة في الداخل من ارتباكات وانقسامات ، وقد اثرت تلك الحوادث على مركز الملكيين ورجال الدين (الاكليروس الكاثوليكي) الذين كانوا أعداء النظام الجمهوري ، وأظهر الشعب شعوره باعطاء اغلبية اصواته في الانتخابات للاحزاب اليسارية في سنة ١٩٠٠ ، وتمكن بعض الاشتراكيين من الوصول للحكم .

ولكن كفة الجمهوريين المعتدلين ظلت هي الراجحة ، لأنهم كانوا يمثلون الطبقة الوسطى التي لا تميل الى الاشتراكية المتطرفة التي تهدد الناس في أملاكهم . وظلت الحكومة الفرنسية ثابتة في موقفها بازاء اليساريين المتطرفين . يؤيدها في ذلك كبار رجال الصناعة ، وأصحاب البنوك ، وملاك الاراضي . ولم يقتصر التأييد على هؤلاء ، بل تعداه الى صغار الفلاحين الذين يملكون عدداً قليلاً من الافدنة ، وصغار التجار واصحاب الحوانيت وغيرهم ممن كانوا يتوقعون الخطر على انفسهم بقيام الفوضى لو سادت

الافكار الثورية وصودرت الاملاك . لذلك ظلت الجمهورية الفرنسية الثالثة جمهورية بورجوازية ، وعلى الرغم من وصول بعض الاشتراكيين الى الحكم بعد عام ١٩٠٠ ، الا انهم لم يستطيعوا تغيير الاوضاع .

على أن الحزب الاشتراكي نفسه ظل يحمل لواء المبادئ الجديدة ومعارضة سياسة الحكومة التي ترصد معظم ميزانية الدولة لخدمة الجيش ، وفي مدها يد المساعدة المالية لروسيا الاوتوقراطية بمنحها القروض الطائلة ، كذلك عارض الاشتراكيون في تركيز معظم ثروة البلاد في أيدي كبار رجال الصناعة وغيرهم من رجال الطبقة البورجوازية . ومع ما بذله الاشتراكيون الفرنسيون من جهود ، الا ان الحكومة لم تستجب لهم ، بل انها لم تحاول ان تصدر قوانين للاصلاح الاجتماعي كما فعلت الحكومة الالمانية ، او حكومة الاحرار البريطانية التي فرضت الضرائب الثقيلة على الاغنياء لتمويل المشروعات الاصلاحية الاجتماعية لإرضاء الطبقة العاملة .

وقد سار الاشتراكيون الفرنسيون في طريق التطرف شوطاً طويلاً ، وظهرت فكرة النقابات العمالية التي اطلق عليها اسم (السندكالزم Syndicalism) وقد جمعت كل منظمة من تلك المنظمات العمالية (Syndicats) جميع العاملين في صناعة معينة ، ثم رأى زعماء كل نقابة منها ان يجمعوا شتات تلك النقابات العمالية في اتحاد عام اطلقوا عليه اسم Confédération Generale du Travail . اي الاتحاد العام للعمل ، وبذلك تستطيع اللجنة التنفيذية للاتحاد العام ان تملي مطالب العمال على الحكومة تحت ضغط التهديد بالاضراب الشامل .

وقد وضع العمال الفرنسيون كل آمالهم في الاتحاد العام للعمل (C. G. T.) ولكنهم شعروا في النهاية بخيبة الامل اذ تبين لهم ان ما قام به زعماء الاتحاد وقادته من جهود لدى الهيئات النيابية والحكومات المتعاقبة ، في سبيل انصافهم لم يجد نفعاً ، وعندما اقدم الاتحاد على استخدام سلاح الاضراب فشل ايضاً ، وباءت بالفشل كل المحاولات التي اضرب فيها العمال ما بين عام ١٩٠٦

و ١٩٠٩ فقد كانت الحكومة تتخذ ازاءها اجراءات تأديبية قاسية ، وتتخذها عن طريق البوليس أو رجال الجيش وبلغت الشدة بالحكومة ، أن أعلنت الاحكام العرفية ، وجندت العمال في الجيش . وذلك بعد الاضراب الذي نظمه الاتحاد سنة ١٩١٠ .

واخيراً لاحت بوادر الحرب امام الفرنسيين ، وبدا لهم أن حرب الطبقات ، وكثرة الاضطرابات ، والمشاحنات الداخلية ، اضعفت الروح المعنوية بين الشعب وشجعت اعداءه في الخارج ، ولذلك بدأت الحركة الاشتراكية تضعف وهي التي كانت تنادي بالتفاهم العالمي ، وتخفيض التسلح وانقاص مدة الخدمة العسكرية ، والتخلي عن فكرة الاستعمار .

وشعر الفرنسيون — أمام الخطر الألماني الماثل أمامهم — ان الجيش هو درع الجمهورية ، وان ما ينادي به الاشتراكيون في هذه الظروف يعتبر خيانة للبلاد في ظروفها الراهنة . وعندما اعلنت الحرب في عام ١٩١٤ ، تحمس لها الشعب حتى ان احد الوطنيين المتحمسين اقدم على اغتيال النائب الاشتراكي (جان جوريس Jean Jaurés) لانه كان يدعو الى التفاهم مع المانيا والتقرب اليها .

وهكذا فشلت فكرة الاشتراكيين المتطرفين الذين كانوا ينادون بتحالف الطبقة العاملة لجميع الشعوب ، فقد انتصرت القومية والاخلاص للوطن على الطائفية والاخلاص للطبقة التي ينتسب اليها الفرد ، وفي كل من الريخستاج الالماني ومجلس النواب الفرنسي ، نسى الاعضاء الاشتراكيون مبادئهم في تأييد الاشتراكية العالمية ، واعطوا جميعاً اصواتهم لاعلان الحرب ووافقو على اتخاذ جميع الاجراءات العسكرية التي وضعتها الحكومة .

الفصل العاشر

روسيـــا

احوالها الاقتصاديه والدفاعيه والاجتماعيه

(١) اتساعها ومشكلاتها الاقتصاديه (المواصلات)

احتفظت روسيا بعد سقوط نابليون وانتهاء مؤتمر فينا سنة ١٨١٥ بحدودها الواسعة في اوربا ، وفي الوقت نفسه كانت تمتد نحو الشرق امتداداً هائلا يوصلها الى المحيط الهادي وبذلك كانت اكثر الامبراطوريات المتماسكة اتساعاً .

وكانت روسيا تحكم اجزاء واسعة في اوربا منها فنلندا التي يسكنها جنس يختلف عن الجنس الروسي السلافي ، ويعتنق مذهباً دينياً مخالفاً للمذهب الذي يعتنقه الروس ، فالفنلنديون من الكاثوليك Roman Catholic بينما يعتنق الروس المذهب الارثوذكسي Greek Orthodox . كذلك كانت روسيا تحكم البولنديين الذين كانوا ايضاً من الكاثوليك ولو انهم ينتمون الى الجنس السلافي . وكان الفنانديون والبولنديون يكرهون الحكم الروسي ويحاولون التخلص من تلك العبودية .

واما في آسيا فقد تغلغل الروس نحو الجنوب الشرقي من القارة حيث حكموا شعوب القوقاز ومغول التركستان ، وامتدت حدودهم حتى اصبحت عند اطراف تركيا وايران وافغانستان مما ادخل الرعب في نفوس البريطانيين في الهند وزاد في حدة الكراهية التي كان الروس والانجليز يتبادلونها خلال القرن التاسع عشر .

وظلت الدول الاوروبية طيلة القرن التاسع عشر ، تخشى الشبح الروسي ، وزاد في قلقها ذلك الغموض الذي كان يكتنف سياسة روسيا ، اذ كان الاوروبيون لا يعرفون كثيراً عما يجري في تلك البقاع الشاسعة ، وكان من العسير عليهم يتجسسوا عن قوتها ، او يقدروا مواردها . اضف الى ذلك حيرتهم في سياسة القيصر المبهمة فهي تارة سياسة لين وتفاهم ، وهي تارة اخرى سياسة عدوانية وتهديد ووعيد .

ولكن على الرغم من سياسة التوسع التي اتبعها القياصرة ، كان الروس يفتقرون الى التنظيم والتجديد ، وربط تلك الامبراطورية المترامية الاطراف بوسائل المواصلات الحديثة كما كانت تفعل الولايات المتحدة عندما بدأت في التوسع غرباً ، ولذلك كانت الحياة الاقتصادية في روسيا تسير على نمط العصور الوسطى .

وتدل الاحصاءات التجارية على مبلغ تأخر روسيا في ميدان التجارة حتى عام ١٩١٤ بالقياس الى الدول الغربية ، فلم تبلغ صادرات تلك الامبراطورية الواسعة ووارداتها ما بلغته بعض الدول الاوربية الصغيرة . فقبل الحرب الكبرى بعام واحد ، كانت تجارتها الخارجية تعادل نصف تجارة هولنده التي لا يكاد يبلغ عدد سكانها $\frac{١}{٢٠}$ من سكان روسيا ومساحتها $\frac{١}{١٠٠}$ من مساحتها في ذلك الوقت ، اضف الى ذلك أن طبيعة التجارة الروسية تدل على مبلغ تأخرها ، فقد كانت روسيا تستورد الفحم والمواد الكيميائية والاسلاك المعدنية والآلات والاسلحة والمنسوجات والمصنوعات المختلفة . اما صادراتها فكانت مقصورة

على بعض المحصولات الاولية كالحبوب والكتان والقنب والخشب والفـــرو والجلد ومستخرجات الالبـــان ، وهي نفس الحاصلات التي تصدرها المستعمرات والدول الزراعية الصغيرة الى الدول الصناعية ، وذلك على الرغم من ان بلادها كانت غنية بالفحم والحديدوزيت البترول والمعادن والقوى المائية . وقد كان من المستطاع ان يساعدها ذلك عـــلى ان تكون من أعظم الامبراطوريات الصناعية في العالمولكن كانت تنقصها رؤوس الاموال والعقول المفكرة المبتكرة ، ولهذا كان اهم المرافق التي تؤسس فيها كالمصانع والسكك الحديدية وغيرها تمولها رؤوس اموال اجنبية ، وتذهب ارباحها الى اصحاب تلك الاموال من الاجانب ، وظلت الحياة الاقتصادية تسير في روسيا على هذا النمط الى ان قامت النهضة الصناعية في المانيا ، وظهرت اليابان كدولة حديثة لها خطرها ، عندئـــذ تنبهت روسيا الى سوء حالتها ، وادركت الفائدة التي تعود عليها لو اتجهت نحو تصنيع بلادها ، وربطت بين اجزاء ولاياتها الشاسعة كما فعلت الولايات المتحدة في القرن التاسع عشر ، وبذلك تصبح روسيا اقوى دولة صناعية واغنى البلاد الزراعية ، ولاسيما اذا استخدمت قوتها في الرجال ومواردها الاقتصادية الكبيرة ، ولكن روسيا ظلت في حاجة الى قادة وزعماء يستطيعون ان يتغلبوا على مشكلاتها الرئيسية من حيث تعميم التعليم واكتساب المهارة الميكانيكية الدقيقة . وقد حاول اسكندر الثاني ان يلغي السخرة في عام ١٨٦١ ولكن ظل كثير من هؤلاء الرقيق عبيد عاداتهم لايريدون ان يبرحوا ارض اسيادهم ، واما من اختار من الفلاحين ان يبحث عن عمل له في المصانع فانه عانى كثيراً من ضروب الذل والفقر ، وكان هؤلاء يعملون في المصانع في ظروف سيئة حوالي اثنتي عشرة ساعة في اليوم ، فساءت حالتهم الصحية والمعنوية .

في مثل هذا المجتمع يستطيع المحرضون ان يجدوا الطريق ممهداً لهم بين العمال ، وتكونت منهم جماعات على هيئة نقابات **Trade Unions** تطالب بحق العمال في الراحة وزيادة الاجور والخدمـــات الاجتماعية ،

وظهرت بينهم بعد عام ١٩٠٠ حركات الاضراب والاعتصام ، وقد كان عام ١٩٠٥ من الاعوام العصيبة التي مرت بروسيا فقد انهزمت امام اليابان ، وضعفت الحكومة ضعفاً بيناً امام الشعب وانتهزت طبقة العمال الفرصة فغادر ثلاثة ملايين عامل مصانعهم محتجين على كثرة العمل وقلة الاجور وشدة الطغيان . واضطر اصحاب الاعمال الى مصالحتهم بمنحهم بعض ما يطلبون ، ولكن ذلك لم يقض على اسباب التذمر ، فقد كانت تلك سياسية واقتصادية معاً .

محاولات الاصلاح

واستطاعت منظمات العمال الروس ان تحصل بالتدريج على معظم مطالبها في الفترة ما بين ١٩٠٠ ، سنة ١٩١٤ . فمنذ عام ١٩٠٣ أدخلت الحكومة نظام التأمين ضد الحوادث ، ومنح المعاونة الطبيةوالاجازات المرضية بالمرتب الكامل ، وارتفعت الاجور خمسين في المائة تقريباً ، ومنذ بداية القرن العشرين ظهرت في روسيا نهضة تعليمية وفكرية ، ولكنها كانت ضئيلة فقد انحصرت في اقلية صغيرة بالنسبة الى عدد السكان ، أضف الى ذلك ان صعوبة الاتصال ، واختلاف اللهجات والعادات والاذواق في بلاد مترامية الاطراف يضعف الوحدة في العقلية والشعور بالقومية حيث كان في روسيا عدة أقليات مختلفة في الجنس والقومية كالبولنديين والفنلنديين واللثوانيين والجرمان واليهود والتتار وغيرهم ممن يكونون حوالي ثلث رعايا القيصر ، وقد حاولت الحكومات الروسية ان تعمل على ادماج تلك الاقليات في القومية الروسية بأية وسيلة ، ولكنها اتخذت لتلك الغاية وسائل عنيفة قاسية زادت من تذمر تلك الاقليات وعداوتها للقومية الروسية ، وفضلت ان تنطوي على نفسها محاولة الابتعاد عن الاضطهاد ، والتماساً للمنفعة الشخصية او الطائفية ، لذلك كان ينقص تلك الدولة الكبرى حكومة مركزية تستطيع ان تكتسب محبة رعاياها جميعاً حتى يشعر كل منهم انه مواطن روسي وفي الوقت نفسه تحرر نشاطهم من القيود الثقيلة المفروضة عليهم فتحل الوحدة والانسجام

محل الضغط والاكراه .

على ان الانقلاب الاقتصادي والصناعي الذي حدث في روسيا بعد عام ١٩٠٠ كان له اثره في ايجاد نوع من الاتصال بين شعوب روسيا وجعلهم أكثر ارتباطاً وتجانساً عن قبل ، ووحد اذواقهم الى حد كبير وساعد على ذلك انتشار الصحافة ، وظهور نهضة ادبية فكرية تزعمها عـــدد من المفكرين والكتاب ، فكان لا بد من انقلاب في نظم الحكم ، ولكن لم يكن احد يقدر ان ذلك الانقلاب سوف يتمخض عن : الشيوعية .

(٢) مشكلة الدفاع

اما عن مشكلة الدفاع في روسيا فقد كان الجيش الروسي قبل القرن العشرين خاضعاً لقيادة ضباط غير اكفاء ، وعلى الرغم من كثرة عدده الا أنه كان ضعيف العُدّة ضعيف التدريب . وكانت اسلحته عتيقة وتموينه مرتبكاً ، لا يصلح لخوض حرب حديثة ، وقد تأخرت روسيا عن غيرها من الدول الاوربية في هذا المضمار ، وظلت تبتاع ما تحتاج اليه من الاسلحة من فرنسا وبريطانيا ومن خصومها الالمان ، وتدفع اثمان تلك الكميات الهائلة التي لا بد من توزيعها على جيشها الكبير من صادراتها الزراعية ، وفي سنة ١٩١٠ فكرت روسيا في ان تؤسس في بلادها مصانع للاسلحة ، لتكون في غنى عن انفاق مواردها في خارج بلادها ، ومع ذلك فانها لم تستطع تحقيق اكتفائها الـــذاتي في التسلح حتى قامت الحرب الكبرى الاولى سنة ١٩١٤ وحاولت روسيا منذ بدايـــة القرن العشرين ان تتبع النهضات الاقتصادية والصناعية في اوربا بمد السكك الحديدية لربط امبراطوريتها وهي الوسيلة التي كانت تتخذها الدول الاوربية للتوسع ومد النفوذ كمشروع المانيا في وصل برلين ببغداد ومشروع انجلترا في وصل القاهرة بمدينة الكاب ، فمدت روسيا سكة حدود سيبيريا ١٩٠٣ ، واتفقت على ان تمتد خطوطها داخل اقليم منشوريا التابع للصين حتى تصل الى الميناء الروسي فلاديفستك ، وقد دفعها التوسع

نحو الشرق الاقصى الى المطالبة فيما بعد بأن يكون لها مجال حيوي في شمال الصين اذ كانت امبراطورية الصين على وشك الانهيار مما جعلها محط انظار الدول الاوروبية الكبرى .

الحرب الروسية اليابانية (١٩٠٤ – ١٩٠٥)

ولكن اطماع اليابان في الصين جعلتها تتحدى روسيا وتعمل على منعها من التقدم في الشرق الأقصى وخصوصاً منشوريا وكوريا لأن تدعيم السيطرة الروسية على منشوريا مع وجود مينائها الحصين فلادفستك على المحيط الهادي يهدد المشروعات التي تعمل اليابان على تحقيقها في الشرق الأقصى ولا سيما ان مد سكك حديد سيبيريا واختراقها لمنشوريا سوف يزيد من نفوذ روسيا في الشرق الاقصى ، فلم يكد يمر عام على اتمام سكة حديد سيبيريا حتى استعد اليابانيون بكل قواهم لطرد الروس من منشوريا ، فأعلنوا الحرب في فبراير سنة ١٩٠٤ واستطاعوا ان يطردوا القوات الروسية من حدود كوريا وفي يوليه حطموا الاسطول الروسي خارج بورت ارثر وفلادفستك واستولوا على ميناء (بورت آرثر) في يناير سنة ١٩٠٥ . فتقهقر الروس وتبعهم اليابانيون حتى امسكوا بهم عند مكدن « Mukden » وهزموهم شر هزيمة . وقد تحطم الاسطول الروسي في مياه الشرق الاقصى ونتج عن ذلك تقوية مركز الجيش الياباني في تلك الجهات .

وقد دلت تلك الهزائم المتكررة امام اليابان على ان الدول الاوربية كانت مخطئة في تقديرها لقوة الروس ، واتضح لها في الوقت نفسه خطر القوة اليابانية . واخيراً وقعت في ديسمبر سنة ١٩٠٥ معاهدة بورتسموث « Portstmouth » بين روسيا واليابان ، تنازلت بموجبها روسيا لليابان عن بورت ارثر ، وشبه جزيرة لياوتنج « Liaotung » والنصف الجنوبي من جزيرة سخالين « Sakhalin » واحتلت اليابان كوريا « Korea » وجلا الروس عن منشوريا التي عادت الى الصين ، وتعهدت روسيا بعدم التدخل في كوريا ومنشوريا .



واعتماداً على تلك المعاهدة وعلى تعضيد بريطانيا بناء على التحالف الدفاعي الذي عقد في سنة ١٩٠٢ ، استطاعت اليابان ان تتدخل سلمياً في كوريا الى ان ضمتها نهائياً في عام ١٩١٠ ، واخذت اليابان منذ هذا الوقت تستغل كوريا اقتصادياً .

والواقع ان الحرب بين اليابانيين والروس لم تكن حرباً متكافئة الفرص اذ كان على الجند الروس لكي يصلوا الى ميدان القتال ان يقطعوا خمسة آلاف

من الاميال مستخدمين خطاً واحداً من السكة الحديد ، بينما كان في استطاعة اليابانيين ان يرسلوا الى الميدان قواتهم الكاملة ، من برية وبحرية . اضف الى هذا انشغال الحكومة الروسية بمقاومة حركة ثورية داخلية قامت اثناء الحرب اليابانية مما ادى الى ايجاد صعوبات جمة عاقت روسيا عن تأدية واجبها الحربي اثناء تلك الحرب . فظهرت امام الدول بمظهر الضعف والاضمحلال .

وكم كانت خيبة امل فرنسا في حليفتها روسيا بعد هزيمتها امام اليابان ، اذ لم يعد الالمان يخشون ذلك الحلف الفرنسي الروسي ، ولذلك اخذوا يضغطون على فرنسا ويحاولون انتزاع بعض مستعمراتها ، ومع ذلك فان فرنسا لم تستطع ان تتخلى عن صداقتها لروسيا ، فقد كانت تخشى انضمام روسيا الى الحلف الالماني النمسوي ، لهذا تمسكت بتلك الصداقة ، بل وعملت — كما رأينا — على التقريب بين روسيا وانجلترا وعقد الوفاق الثلاثي (Tripple Entente) الذي جمع بين بريطانيا وفرنسا وروسيا .

(١) العدالة الاجتماعية (الكفاح ضد الاوتوقراطية)

كان يحكم تلك الامبراطورية الواسعة حاكم مطلق هو قيصر روسيا ، الذي كان يعتمد في حكم تلك الاقطار الموزعة النائية على فريق من النبلاء ، وكان هؤلاء الحكام بعيدين عن مقر الحاكم ولا رقيب عليهم ، لذلك كان نظام الحكم في الولايات الروسية جميعها استبدادياً تعسفياً . وكان لهؤلاء النبلاء سلطان مطلق على فلاحيهم ، اذ كان هؤلاء يعيشون رقيقاً مرتبطين بالارض التي يزرعونها ، كما كان الحال في أوروبا في العصور الوسطى ، وظل هؤلاء الفلاحون مستسلمين في اول الامر نظراً لان نفوذ الكنيسة كان يطغى على تفكيرهم ، ولما كانت الكنيسة اذذاك خاضعة لنفوذ القيصر فقد بقي الشعب ، عدة قرون ، ساكناً خاضعاً لا يشكو ولا يتذمر .

وظلت الطبقة الوسطى في روسيا لا أثر لها على الرأي العام ، نظراً لقلة عدد أفرادها ، ولم يكن لها ما لنظيراتها في الدول الاوربية الاخرى من تأثير

في حياة البلاد ولم تلعب الدور الذي لعبته الطبقة الوسطى في الدول الاوربية الاخرى . فقد كانت طبقة التجار في روسيا من اليهود أو الاجانب ، وكان اليهود الروس مكروهين كل الكراهية من الشعب وفي الوقت نفسه لم يحفزهم داعي القومية أو الوطنية الى القيام بأي حركة شعبية اذ كان اهتمامهم كله موجهاً الى مصالحهم المادية قبل اي شيء آخر .

ولو وازنا بين النظام الاتوقراطي القيصري في روسيا ، وبين نظام الحكم المطلق في بعض ممالك اوربا ، لوجدنا ان الفارق يكاد ينحصر في ان ملوك الغرب كانوا — رغم تمتعهم بالسلطة المطلقة — يعترفون بسلطان القانون ، اما في روسيا ، فيكاد القيصر لا يعترف بوجود القانون ، ومثال ذلك ان القيصر بول الاول (١٧٩٦ — ١٨٠١) كان عندما تذكر كلمة القانون امامه ، كان يشير عندئذ الى صدره ويقول « هنا القانون » وبينما كانت دول الغرب في القرن التاسع عشر تجاهد في سبيل حريتها وتخليص شعوبها من الحكم المطلق ، نجد قياصرة الروس تتشبث بنظمها العتيقة ، وتعمل على اخماد حركات الاصلاح واضطهاد القائمين بها .

على ان بعض القياصرة قد حاول — امام ضغط الظروف — ان يدخل بعض الاصلاحات على النظم القائمة ولكنها كانت في الواقع كالقاء قطرة من الماء على حريق مشتعل ، أضف الى ذلك ان السلطة التي تكمل الحكم الاوتوقراطي في روسيا ، وتسنده وتدعمه ، هي سلطة النبلاء الروس الذين يتولون الحكم المحلي في الاقاليم الروسية المختلفة ، وهي سلطة بيروقراطية تكره التجديد وتحارب الاصلاح ، لأن المبادىء الجديدة التي كان ينادي بها فريق من الاحرار الروس ، تهدم ما كان يتمتع به هؤلاء الحكام من سلطان وتحرمهم من الاثراء والتنعم على حساب الشعب ، وقد وصف بعض المؤرخين تلك البيروقراطية الروسية بأنها كانت كالأرض الرملية ، اذا القيت عليها الماء لوجه الاصلاح امتصتها فلا تجد لها اثراً ، وهناك ظاهرة اخرى تجلت في بعض القياصرة الذين رأوا أن يستجيبوا لدعاة الاصلاح اذ كانوا يعطون قسطاً ضئيلاً

من الحرية للشعب وسرعان ما يقررون الغاء منحتهم عندما يلمسون خطراً على سلطتهم ، فيعود الحكم الاوتوقراطي الصارم وتصادر الحريات ، ويقبض على طلبة الجامعات ، وينفى الاحرار الى سيبيريا .

كانت حكومة القيصر نيقولا الثاني (١٨٩٤ - ١٩١٧) تمر في ازمات شديدة ، فقد قامت ثورات عديدة اشترك فيها طلبة الجامعات الروسية ، والطبقة الوسطى الحرة المذهب ، التي تشبعت بالثقافة الغربية والتي تطالب بتعديل الدستور ، وطبقة الفلاحين التي كانت تطالب بسن قوانين عادلة تنظم تأجير الارض لهم ، وعمال المصانع الذين انتشرت بينهم المبادىء الماركسية ، اضف الى ذلك تذمر القوميات المهضومة الحقوق الخاضعة لحكومة القيصر ، وما تعرضت له الحكومة من سخط عدد كبير من ارباب الفكر المنفيين في سيبيريا ، كل هذه الطوائف الحانقة على النظام القيصري ألّفت كتلة ضخمة من المقاومة هددت النظام القائم ايما تهديد . فقد كثرت حوادث الاضرابات والتظاهر ، وكان رد الحكومة على ذلك ، استعمال العنف والاضطهاد ، كما حدث في يوم الاحد ٢٢ يناير سنة ١٩٠٥ الذي سمي بالاحد الدامي لكثرة ما اهرق فيه من دماء عندما ذهب فريق من المتظاهرين العمال الى قصر القيصر لرفع ملتمسهم بزيـــادة الأجور وانقاص ساعات العمل واصدار الدستور فقوبلوا بوابل من الرصاص قتل منهم سبعين عاملاً وجرح مائتان مما زاد في سخط الشعب على الحكومة القيصرية .

والواقع ان الثورة الروسية سنة ١٩٠٥ لم تكن وليدة عصر نيقولا الثاني ، فقد ورثها فيما ورث من عرش قياصرة الروس ، كما ورث لويس السادس عشر عصر الثورة الفرنسية ، ولم يكن نيقولا الثاني بالرجل الذي يستطيع ان يقود السفينة وسط الزوابع ، فهو مثل لويس السادس عشر يجتمع فيه ضعف الارادة ، الى جانب الميل الى العناد وعدم تقدير اهمية الحوادث وكان يعتقد اعتقاداً راسخاً في الحكم المطلق ولذلك اختار وزراءه ممن يوافقونه على هذا المبدأ .

على انه وجدت المعارضة العنيفة للاوتوقراطية الروسية من كل جانب ولا سيما بعد ان سقطت هيبتها بعد هزيمة روسيا امام اليابان ، ولم يجد القيصر بدأ من قبول نصيحة مستشاريه ، فأصدر في اكتوبر سنة ١٩٠٥ بياناً صرح فيه برغبته في ان يمنح الشعب بعض ضمانات للحرية الشخصية تتمثل في برلمان منتخب (Duma) ، ووعد بأن يكون لهذا البرلمان الحق في التصديق على التشريعات التي تصدرها الحكومة ، وقد قنع الاحرار المعتدلون بهذا التغير الذي طرأ على سياسة القيصر (وقد سمي هؤلاء بالاكتوبريين Uctoberists ولكن فريقاً من متطرفي الاحرار —كانوا لا يصدقون وعود القيصر — نادوا بوضع دستور رسمي للدولة وتقويته باصدار « قانون الحقوق » .

على ان زعماء الاصلاح كانت تنقصهم وحدة الرأي ، واتحاد الكلمة ، مما شجع القيصر على تعديل سياسته نحو الديمقراطية ، ولا سيما ان الشعب الروسي لم يتكتل حول زعامة حكيمة فلما اجتمع مجلس الدوما واظهر اعضاؤه شيئاً من التطرف وحرية الرأي حله القيصر ، ولاقى المجلس الثاني الذي اعقبه نفس المصير ، ورأى القيصر ان يصدر مرسوماً بتعديل قانون الانتخاب بحيث سهل في ذلك التعديل سيطرة كبار الملاك على الانتخابات . وجاء المجلس الثالث وليد تدخل النبلاء والضغط عن الناخبين ، ومع ذلك لم تكن الحكومة تثق فيه ، ولم يكن المجلس يثق فيها ، وظل الصراع قائماً بين الاوتوقراطية والديمقراطية حتى قامت الحرب العالمية الاولى

وقد كان اعضاء مجلس الدوما ينتمون الى عدة احزاب سياسية ، كانت كلها تعارض الاتوقراطية الروسية . ولكنها لم تستطع ان تكوّن جبهة متحدة قوية ضد الحكومة ، فالاكتوبريون كانوا يكتفون بتحقيق ما جاء في بيان اكتوبر سنة ١٩٠٥ الذي اصدره القيصر ، وكانوا يهدفون الى اقامة حكومة على نمط النظام البروسي ، الذي يتعاون فيه البرلمان مع الملك .

واعضاء الحزب الثاني هم الديمقراطيون الدستوريون الذين اشتهروا باسم

(الكادت) « Cadets » ، وكانوا ينادون بأن تكون الحكومة مسئولة امام مجلس الدوما ، وان يملك القيصر ولا يحكم .

وهناك حزبان يساريان : حزب الديمقراطيين الاشتراكيين وحزب الثوريين الاشتراكيين .

واما مسألة الاراضي فقد كان لكل حزب من هذه الاحزاب رأي في طريقة توزيعها : فالاكتوبريون يرغبون في توزيع بعض القطع على صغار الفلاحين بحيث يصبح كل فلاح يملك القطعة الصغيرة التي كان يزرعها في الاراضي الواسعة . واما الديمقراطيون الدستوريون فيطالبون بالغاء ملكيات المزارع الواسعة ولكنهم يطالبون الحكومة بأن تساعد الفلاح على شراء الأرض من الملاك الكبار ، على ان تمده الحكومة بالقرض اللازم الذي يسدده على اقساط طويلة المدى . اما الديمقراطيون الاشتراكيون والثوريون الاشتراكيون فيتفقون على المطالبة بمصادرة جميع الاراضي في روسيا في الحال ولكنهم يختلفون في الطريقة التي توزع بها تلك الاراضي ، فالديمقراطيون الاشتراكيون يرون أن تكون الاراضي كلها ملكاً للدولة على ان تؤجرها للفلاحين ، اما الثوريون الاشتراكيون فهم يعارضون في ان تكون الحكومة هي المالكة للارض ، او ان تنتمي اي ارض لفلاح بعينه ، بل يرون ان يقوم نظام لاستثمار الارض بواسطة جماعات تعاونية من الفلاحين .

ولكن الثورة التي قامت سنة ١٩٠٥ فشلت لسببين هامين . أولهما ان الجيش الروسي كان مخلصاً للقيصر وفي قبضته ، فلم يكن باستطاعة العناصر الثورية ان تغير النظام القائم . وثانيهما اختلاف الاهداف وتنازع الآراء بين الاحزاب التي قامت تنادي بالاصلاح مما سهل للحكومة التغلب عليها جميعاً ، زد على ذلك ان فرنسا والمانيا كانتا تساعدان القيصر ، ففرنسا كانت تخشى ان تفقد حليفاً قوياً لو خلع القيصر ، لذلك قدمت مساعدات مالية كبيرة لتدعيم

الاوتوقراطية الروسية ، واما قيصر المانيا فكان يريد كسب روسيا الى جانبه فقام بتسليم زعماء الثورة الروسية — الذين كانوا قد فروا الى المانيا — لحكومتهم.

واخيراً هدأت الحال في روسيا وانتصر القيصر على العناصر المتطرفة وخضع الفلاحون لمصيرهم ، وقبع العمال في مصانعهم وعاد القيصر الى التحكم في سياسة روسيا حتى قامت الحرب الاوروبية الكبرى سنة ١٩١٤ .

الفصل الحادي عشر

امبراطورية النمسا والمجر

(المملكة الثنائية)

مشكلاتها الاقتصادية والدفاعية والاجتماعية

(١) الامبراطورية المغلقة

ظلت الامبراطورية الرومانية المقدسة حوالي ألف عام — اي من عصر شرلمان (٧٨١ — ٨١٨) الى عصر نابليون بونابرت (١٧٩٩ — ١٨١٤) ، أكبر الدول الأوربية مساحة ، وأعظمها مركزاً ، اذ كانت تعتبر حصن المسيحية حتى نهاية العصور الوسطى ، ثم بدأ مركزها يضعف بظهور الدول القومية وتقدمها ، كانجلترا وفرنسا واسبانيا . واخيراً تنازل الامبراطور فرنسيس الثاني عن لقبه كامبراطور للدولة الرومانية المقدسة في عام ١٨٠٦ واقتنع بلقبه الجديد « فرنسيس الاول امبراطور النمسا » .

وقد اشتملت تلك الامبراطورية على عدد من الاجناس يختلفون في شعورهم وتقاليدهم ولهجاتهم ، فعاش في كنفها اقوام من الجرمان في النمسا ، والمجريين في هنجاريا ، وضمت حولها اقليات تنتمي الى شعوب مختلفة ، فعاش التشيك في بوهيميـــا ، والبولنديون في غاليسيا ، وانتشر السلاف والكروات والسلوفين ، واليوغوسلاف في جسم الدولة كالاعضاء المتنافرة غير المنسجمة ، خاضعين جميعاً لنظام اتحادي يشبه نظام العصور

الوسطى ؛ فكانت تلك الامبراطورية تشتمل على حكومات تختلف في مساحتها وتنظيمها ، فيها ممالك وولايات ودوقيات ، وبارونيات ، ومدن حرة ، واسقفيات ، وغيرها ، كل منها تتبع نظامها الخاص ، ولا يجمعها سوى الخضوع لآل هبسبرج .

وقد قامت تلك المملكة الثنائية — النمسا والمجر — على قمع العنصرية وانكار وجودها في بلادها انكاراً تاماً ، وواصلت الحياة مفترضة ان ٨ مليون تشكي ، و ٥ مليون بولندي ، و ٤ مليون روثيني و ٥ مليون وسبعمائة ألف صربي وكرواتي و ٣,٣٠٠,٠٠٠ روماني و ١,٣٠٠,٠٠٠ سلافي يقنعون بالخضوع لنظام حكومي يباشر فيه السلطة والسلطان عشرة ملايين هنجاري (مجري) في نصف هذه المملكة ، واثنا عشر مليون جرماني نمسوي في النصف الآخر . ولقد كان لهذا الافتراض ما يبرره خلال القرون الماضية ، وذلك ان الامبراطورية كانت متماسكة الاجزاء بروابط مذهب ديني مشترك ، وجيش مشترك ، وتاج مشترك ، حتى صار الناس يعدونها ضرورة دولية لان محوها يؤثر تأثيراً دينياً ، ويترك فراغاً بغيضاً ، اما في القرون الحديثة فقد اكتسح شعور القومية كل هذه الافكار .

وقد حاول الامبراطور (جوزيف الثاني) ١٧٨٠ — ١٧٩٠ تنظيم تلك الامبراطورية واقامة حكومة مركزية تخضع لها اجزاؤها المختلفة ، وتوحيد اللغة بحيث تصبح الالمانية هي لغة البلاد الرسمية ، ولكن محاولتـــه باءت بالفشل ، وعارضتها شعوب الامبراطورية معارضة عنيفة ، ثم اخذت روح القومية تسري بين تلك الشعوب في خلال القرن التاسع عشر ، فقامت الوحدة الايطالية في الجنوب ، والوحدة الالمانية في الشمال ، ومنذ ذلك الوقت اخذت امبراطورية النمسا والمجر في الانحلال واصبحت في طريقها الى الزوال .

انتهت سيطرة آل هبرسبرج على ايطاليا عندما طرد الايطاليون الحاميات النمسوية من لمبارديا والبندقية ، وبانتزاع الاراضي الايطالية من الامبراطورية

النمسوية اصبحت تلك الامبراطورية مغلقة الابواب من جهة البحر ، في عصر كانت البحار والمحيطات هي أهم وسائل النقل والمواصلات ، واثر ذلك تأثيراً سيئاً على نفوذها التجاري الدولي ، واصبح من الضروري للتجارة النمسوية ان تعبر نهر الدانوب الى البحر الاسود عبر رومانيا وبلغاريا ، ومن ثم تمر في المضايق التي تسيطر عليها تركيا لكي تصل الى المحيط الاطلنطي عبر جبل طارق او الى المحيط الهندي عن طريق قناة السويس وعدن . وهكذا كان عليها ان تقطع مسافة لا تقل عن الفين أو ثلاثة آلاف ميل .

اضف الى ذلك ان النمسا كانت مغلقــة من الغرب ومن الشمال ومن الشرق ، تسد عليها ايطاليا وسويسرة والمانيا وروسيا طريقها الاقتصادي ، وكان المنفذ الوحيد امامها هو ان تتوسع نحو الجنوب على حساب دول البلقان الصغيرة ، وبذلك كان عليها ان تنتظر صراعاً بينها وبين روسيا ، فقد كانت الاخيرة تحاول ايضاً ان تجد لها منفذاً خلال ولايات البلقان لكي تصل الى ميناء على البحار الدافئة ، ولذلك قام التنافس بين روسيا والنمسا خلال القرن التاسع عشر على السيطرة على القسطنطينية والدردنيل ، واتخذت المنافسة شكلاً عنيفاً في اوربا الجنوبية الشرقية ، واصبح البلقان مهد الدسائس والمؤامرات الدولية حتى اطلق عليه المؤرخون مخزن البارود في اوربا .

ولما كانت الدول الكبرى تعتبر روسيا اكبر خطر يهدد السلام العام في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، فقد اخذ ساسة اوربا يعملون عــلى المحافظة على الاوضاع القائمة او ما كانوا يسمونه بالحالة الراهنة « Status - quo » وذلك بمحاولة تقوية النمسا . ففي مؤتمر برلين الذي انعقد سنة ١٨٧٨ لوقف الضغط الروسي في شبه جزيرة البلقان تقرر ان تتولى النمسا ادارة البوسنة والهرسك اللتين كانتا تابعتين للدولة العثمانية ، وكانت دولة النمسا والمجر تهتم بهما لأن وضعهما تحت سيطرتها يعطي الحكومة النمسوية فرصة السيطرة على ساحل الادرياتيك من استريا (Istria) الى مضيق اترانتو (Otranto) .

ضم البوسنك والهرسك

ظل ساسة النمسا ينتظرون سنوح الفرصة لكي يضموا هذه الولايات نهائياً ، وقد سنحت تلك الفرصة في سنة ١٩٠٨ ، عندما قامت الثورة التركية ضد حكومة السلطان عبد الحميد ، وتكونت سراً في تركيا جمعية سمت نفسها (جمعية الاتحاد والترقي) ، وكان اهدافها انقاذ تركيا من الخضوع الشائن للدول الغربية ، وتكوين دولة عثمانية عصرية تقوم على اسس متينة من القوة والنظام ، وقد كان مركز هذه الجمعية في جنيف (سنة ١٨٩١) ثم انتقلت الى باريس واخيراً استقرت في سالونيك سنة ١٩٠٨ ، وتكونت جمعية تركيا الفتاة التي اعلنت ضرورة تنفيذ الدستور التركي الذي صدر سنة ١٨٧٦ ، وقررت الثورة ضد الحكم المستبد القائم واستعدت للزحف على العاصمة .

وقد عزمت جماعة تركيا الفتاة ان تشرك جميع الولايات التي كانت تابعة للدولة العثمانية في البلقان في ثورتها ضد السلطان ، فأرسلت تطلب من شعب البوسنة والهرسك ان يرسل مندوبين للاجتماع بأعضاء الجمعية ، وقصدهم من ذلك اثبات الرعوية التركية للبوسنة والهرسك واعتبار تلك البلاد ضمن الامبراطورية العثمانية . الا ان حكومة النمسا والمجر قابلت تلك الحركة بضربة حاسمة ، اذ اعلنت في ٦ اكتوبر سنة ١٩٠٨ ضم البوسنة والهرسك رسمياً الى النمسا وفي الوقت نفسه حرضت حكون النمسا بلغاريا على اعلان استقلالها عن السيادة العثمانية .

وقد اعتقـــد « الوا فون اهرنتال Alois Von Aehrenthal » مستشار النمسا انه سدد تلك الضربة بمهارة وفي الوقت المناسب ، فان روسيا الطامعة في البلقان كانت لا تستطيع معارضتها اذ ذاك ، لانها جاءت في اعقاب هزيمة الروس امام اليابان في عام ١٩٠٥ وخروجها من تلك الحرب ضعيفة الجانب لا تستطيع ان تخاطر بعداوة النمسا . اضف الى ذلك ان وزير خارجية روسيا (السكندر ازفلسكي Izvolski) كان قد وافـــق النمسا في ١٦ سبتمبر سنة ١٩٠٨ على ان تقوم باتخاذ تلك الخطوة في البلقان ، نظير اعتراف النمسا بحق

روسيا في مرور سفنها الحربية في مضيق الدردنيل ، على ان ذلك الاتفاق بين وزيري الدولتين لم توافق عليه الحكومة الروسية، ولم يجد ازفلسكي حرجاً من ان يدعي انه قد خدع . اضف الى ذلك ان الانجليز رغم أنهم وسعوا الوفاق الودي مع فرنسا حتى اصبح تحالفاً ثلاثياً يشمل روسيا ايضاً قد عارضوا في فتح المضايق لمرور السفن الروسية فيها . لقد كان يعلم ازفلسكي ان ذلك سوف يثير الشقاق في معسكر الوفاق ، ويدق اسفيناً في الصداقة الروسية الانجليزية .

وقد أثارت الحركة النمسوية في البلقان الجزع في العواصم الاوروبية ، ففي برلين كان حلفاؤهم الالمان يخشون ان تؤدي اطماع النمسا الى حرب في البلقان لا تستحق بذل الدماء ، الا انهم كانوا يعتقدون ان من واجبهم ان يقفوا الى جانب حليفتهم مهما كان الامر ، اذ لم يكن للالمان حليف يعتمدون عليه غير النمسا ، ثم ان النمسا كانت تفكر في مشروعات للتوسع قد تفيد منها المانيا . فقد كانت الاولى تفكر في مد خط حديدي من سيراجيفو الى سالونيك على بحر ايجه ، وتلك فكرة استعمارية تفتح طريقاً بين صربيا ومنتنجرو (الجبل الاسود) مما يدعم نفوذ النمسا في البلقان ، ويمنع تأسيس وحدة سلافية قد تؤدي الى تكوين دولة من الشعوب السلافية يتعارض وجودها مع اغراض النمسا الاستعمارية ، اضف الى هذا ان اقامة ذلك الخط الحديدي يؤدي الى ايجاد مخرج للتجارة النمسوية ، وهنا تتعارض مصلحة كل من روسيا والنمسا ، وهكذا نرى أن البلقان في عام ١٩٠٨ كان موطناً لصراع سياسي بين معظم الدول الاوروبية حتى توقع الكثيرون أن أول شرارة للحرب سوف تشتعل في البلقان .

وقد مرت ازمة سنة ١٩٠٨ دون اراقة دماء ، واكتفت الدول التي يهمها الامر بتقديم الاحتجاج على اطماع النمسا ، وازداد التوتر بين روسيا والنمسا ، وهما دولتان متشابهتان في التأخر من الناحية الاقتصادية ، وفي شعورهما بالحاجة الى منافذ تجارية على البحار الدافئة .

وهناك مسألة هامة لا بد من الاشارة اليها ، فلو كانت دولة النمسا والمجر قد وقفت وحيدة في سنة ١٩٠٨ لكان من السهل على دول الوفاق أن تحل المشكلة في سهولة ويسر ، فاما ان توافق النمسا على ما قامت به او تقف في سبيلها ، بل كان من الممكن أن تضمن فرنسا وانجلترا للنمسا المنافذ التي تريدها على البحر الادرياتي أو بحر ايجه ، ولكن تحالف النمسا مع المانيا جعل دول الوفاق تنظر بعين القلق والخوف الى امتداد النفوذ الالماني النمسوي داخل البلقان وفي بلاد الشرق الادنى . ولعل ذلك أيضاً كان من أسباب التقرب بين دولتي الوفاق فرنسا وانجلترا ، ولما اصبح الوفاق ثلاثياً يضم روسيا ازداد الموقف الدولي توتراً ، فكانت الأزمة الكبرى التي حدثت عام ١٩١٤ لها جذورها في حوادث عام ١٩٠٨ .

المشكلات الاقتصادية

وبعد ان ضمت النمسا البوسنة والهرسك وجدت نفسها قد ضمت الى امبراطوريتها عدة ملايين من السلاف اضيفوا الى الاقليات الاخرى التي يحكمها الامبراطور فرنسيس جوزيف ، وبذلك زادت مشاكل تلك الامبراطورية الخليطة الاجناس ، في الوقت الذي اشتدت فيه روح القومية بين شعوبها المتعددة التي خضعت القرون الطويلة للنمسويين .

وبالاضافة الى ما كان بين العنصرين الحاكمين فيها من كراهة ونفور فان المجريين كانوا يسعون الى الانفصال عن النمسا ، وفي الوقت نفسه كانوا يعاملون السلوفاكيين والرهثينيين والرومانيين والصربيين معاملة بعيدة عن الانصاف محاولين « تمجير » تلك الاجناس بفرض لغتهم ونظم تعليمهم عليها. وهكذا كانت المشاحنات الداخلية والكراهية العنصرية تهدد شمل تلك الامبراطورية .

ومع ذلك فقد كان من الممكن التخفيف من حدة هذه الحالة لو كان سكان الامبراطورية يعيشون في رغد من العيش ، والبلاد تتمتع بالراحة الاقتصادية ،

ولكن الواقع أن سوء الحالة الاقتصادية وتأخر الصناعة في البلاد ، وعدم الانسجام بين شعوبها المختلفة ، وانحلال الروابط بينها وسوء المواصلات فيها ، أشاع القلق وأذكى فكرة استقلال كل شعب واحتفاظه بقوميته .

ثم ان ساحل دلماشيا – الذي كسبته النمسا بضم (البوسنة) والذي يشتمل على عدد قليل من الثغور – لم تكن له فائدة اقتصادية تذكر ، لأن حاصلات تلك الجهات من صوف واخشاب وفواكه وحبوب ، كانت في الواقع زائدة عن حاجة النمسا ولم تستفد منها كثيراً لأنها كانت احوج الى الفحم والحديد والآلات والاسلحة وغير ذلك من مقومات الدول القومية الحديثة . فقد كان انتاج الحديد في النمسا في عام ١٩١٣ ، لا يزيد عن نصف انتاج اسبانيا وكان أقل من انتاج الدويلات الاوربية الصغيرة امثال السويد ودوقية لوكسمبورج .

ومن اجل ذلك التأخر الاقتصادي قلقت حكومة النمسا والمجر ، ووضعت برنامجها للتوسع في جنوب شرق اوربا ، ولما فكرت المانيا في مد سكة حديد برلين – بغداد ازدادت النمسا اقتراباً من المانيا . واتفقت الحكومتان على تمويل مشروع مد خط حديدي يبدأ من برلين ويمر بفينا وبودابست وبلغراد والقسطنطينية ، ومن هناك يعبر اسيا الصغرى الى بغداد وينتهي عند البصرة على الخليج العربي . وهو مشروع ضخم يفتح الطريق امام الدول الاوربية الوسطى للوصول الى المحيط الهندي ومن الطبيعي ان مثل هذا المشروع يقلق بال الحكومة البريطانية من جراء وصول المانيا والنمسا الى منافذ الهند . وجاءت حركة التذمر الاولى في انجلترا من اصحاب السفن البريطانيين الذين خافوا من منافسة هذا الطريق السريع الى الشرق ، وبذلك يصبح من السهل نقل البريد والبضائع والركاب بوساطة سكة حديد برلين – بغداد ، أضف الى هذا ان ذلك الطريق سيفتح باب الشرق الادنى امام التجار الالمان الذين يصبحون خطراً على التجارة الانجليزية .

والواقع ان ذلك الخط الحديدي الذي كان على وشك الظهور تحت اشراف النمسويين والالمان كان من شأنه ان يقوي نفوذ رجال المال والصناعة من

الالمان في الشرق الادنى والاوسط ، ثم ان الاتصال المباشر بـــين برلين والقسطنطينية يجعل صربيا وتركيا واقعتين في دائرة النفوذ السياسي للدول الوسطى . فاذا ازدادت اطماع تلك الدول في الشرق فانها تهدد الحكـــم البريطاني في الهند . وقد شعر الروس ايضاً بخطر النشاط الالماني ، لأن سيطرة الالمان والنمسويين على تركيا وعلى المضايق يعتبر تهديداً للتجارة الروسية في السلم ويساعد على حصار روسيا في زمن الحرب .

لهذا كله وقفت بريطانيا وروسيا وفرنسا في وجه ذلك التوسع النمسوي في البلقان . وضاع من النمسا الامل الاقتصادي الذي كانت تتطلع اليه من وراء مد هذا الخط .

(٢) مشكلة الدفاع عن الامبراطورية

كانت امبراطورية النمسا والمجر ضحية حدودها غير الطبيعية ، وقد كان همها دائماً موجهاً الى السيطرة على بلاد البلقان ، ولكن شبه جزيرة البلقان كانت مرتعاً للدسائس الدولية ، فقد عني ممثلوا المانيا وروسيا والنمسا وفرنسا وايطاليا وانجلترا في بلغراد وبوخارست وصوفيا وأثينا والآستانة بتتبع مجرى الحوادث في شبه الجزيرة مسجلين كل صغيرة وكبيرة لارسالها الى حكوماتهم ، وامتلأت بلاد البلقان بمبعوثي البنوك ومصانع الاسلحة والادوات الهندسية وبناء السفن يتنافسون على عقد الصفقات . وكانت العروض الدولية المختلفة تعرض على حكومات البلقان ، وشرعت تلك الحكومات توازن بين عروض كتلة الدول الوسطى وكتلة دول الوفاق اذ عرضت كل منهما استعدادها لمعاونة دول البلقان بالقروض لشراء الاسلحة ومد السكك الحديدية واقامة الطرق والثغور ، وكان غرض كل منها أن تضمن لنفسها حقاً شرعياً بواسطة ما لها من دين على تلك الدول الصغيرة ثم تستطيع بعد ذلك ان تتدخل في شئونهـــا وتتخذها مخلباً في السياسة الدولية .

ولما كانت كل من انجلترا وفرنسا والمانيا في مركز لا يسمح لها باحتلال

بلاد البلقان فقد اكتفت كل منها بالعمل على صيانة حدود الدول البلقانية بحالتها الراهنة. على ان الامر يختلف بالنسبة لروسيا والنمسا كما تبين لنا من قبل، لان البلقان هو الممر الذي يمكن لكليهما ان يصلا خلاله الى البحار والى العالم الخارجي ولذلك أخذت كل منهما تعلل على فرض حمايتها على تلك الدول الصغيرة، وانتهزت دول البلقان تلك الفرصة فأخذت توجه المنافسة الدولية لمصلحتها الخاصة.

ولكي تحتفظ امبراطورية النمسا بحدودها البلقانية كان عليها أن تعتمد على قوة الجيش وولاء الاسر الحاكمة. فزادت من عدد جيشها ومن ميزانية دفاعها، ولما كان الجيش بالنسبة للنمسا عنصراً هاماً للمحافظة على الامبراطورية فقد كانت لها مهمة مزدوجة — في هذه الامبراطورية بالذات — هي حراسة الحدود وضبط النظام في الولايات المختلفة وحمايتها.

وقبل سنة ١٩١٤ كان أكثر من نصف رعايا تلك الامبراطورية من السلالة السلافية الذين خضعوا سياسياً واقتصادياً واجتماعيــاً مدة طويلة للعنصرين الحاكمين — النمسويين والهنجاريين — وكان النمسويون ولا يزيد عددهم عن ربع سكان الامبراطورية، ولا يزيد عدد الهنجاريين عن خمسها، فكانت هذه العناصر الحاكمة تخشى دائماً ان يؤول حكم الامبراطورية الى الاغلبية السلافية، ولهذا يرى بعض المؤرخين انه لم يكن من الحكمة أن تقدم النمسا على ضم البوسنة والهرسك الى الامبراطورية، لانهما لو تركتا تحت السيادة الاسمية التركية لكان من المنتظر ان يتحد شعب البوسنة والهرسك مع الصرب، وقد يتجه السلاف الذين يسكنون المجر نفس الاتجاه، وبذلك تقوم حكومة سلافية تبتعد عن الحماية الروسية، ولا سيما ان عدداً من الجمعيات الوطنية في صربيا كان يسعى الى هذا الهدف، وكان الساسة في النمسا يعملون على احباط هذا المشروع، ولا تستطيع صربيا أن تقاوم الضغط النمسوي، وقد ظهر ذلك جلياً في سنة ١٩٠٨ عندما اصبحت روسيا ضعيفة لا تستطيع المغامرة بالدخول في حرب، فاعترف الصربيون اذذاك مضطرين بضم البوسنة

والهرسك الى النمسا ، ووافقوا على وقف نشاطهم ضد المملكة الثنائية (النمسا والمجر) ولكنه كان وعداً اجبارياً يستطيعون أن يحلوا أنفسهم منه عندما تسنح الفرصة .

وقد اتبعت دولة النمسا والمجر السياسة القديمة « فرق تسد »، وساعدها على ذلك المنازعات والضغائن الداخلية ، وكذلك الدسائس التي كانت تقوم بها الاقليات ، ومع ذلك فان دولة النمسا والمجر لم تستطع ان تضارع روسيا في الحذق السياسي والاستعداد الحربي عندما يحين وقت النضال ، فجيش النمسا في سنة ١٩١٤ كان لا يزيد على ٤٧٩,٠٠٠ جندياً فضلاً على أن فرقاً كثيرة من جيشها لم تكن مدربة التدريب الكافي ، ولا مجهزة بأحدث الاسلحة - بل كان يشك كثيراً في اخلاص بعض هذه الفرق للامبراطور النمسوي ، أما الجيش الروسي ، فعلى الرغم من أنه ليس اكثر استعداداً في التسلح من جيش النمسا الا انه كان أكثر عدداً وأشد ارتباطاً وأقوى جأشاً ، ففي سنة ١٩١٤ كان عدد الجيش الروسي أكثر من مليون ونصف ، أي اكثر من ثلاثة أمثال الجيش النمسوي ، وكانت ميزانية الجيش الروسي تعادل ثلاثة امثال ميزانية الجيش النمسوي .

وقد كان امبراطور روسيا يهدف من وراء هذا التوسع الى احياء سمعة روسيا ، التي فقدتها منذ الحرب الروسية اليابانية وكان من المقرر ان يزداد عدد الجيش الروسي واستعداداته حتى تصل الى اوجها في عام ١٩١٧ . ولما كان الجيش الالماني وعدده ٨٧١,٠٠٠ في عام ١٩١٤ يعادل بوجه التقريب عدد الجيش الفرنسي الذي كان يبلغ عدده ٧٣٩,٠٠٠ فقد رأى قواد الجيش الالماني والنمسوي ان الخطر من العدوان الفرنسي الروسي سيظل ماثلاً بعدد الدولتين ، ووضعوا خطتهم للحرب المقبلة مفترضين أنها ستكون في جبهتين لأنهم سيستعدون لاعتداء من الشرق والغرب في وقت واحد وحيث ان حدود النمسا وفرنسا ليست متاخمة ، فان المانيا وحدها هي التي ستتعرض للهجوم المزدوج : وعلى ذلك تستطيع الجيوش النمسوية ان تركز قوتها في الجبهة

الشرقية . الا أنها سوف تكافح في منطقة خالية من التحصينات الطبيعية حيث يصعب الدفاع ويسهل الهجوم .

وهكذا كانت الامبراطورية النمسوية المجرية في الحرب والسلام ضحية حدودها غير الطبيعية .

(٣) مشكلات الحكم (القومية والاشتراكية)

لقد كانت الديمقراطية والقومية اهم الدوافع التي وجهت الامم في القرن التاسع عشر ، ومشكلة الديمقراطية في امبراطورية النمسا والمجر كانت لا تقل خطورة على مستقبل هذه الدولة من مشكلة القومية ، وكان من الصعب على الامبراطور فرنسيس جوزيف — الذي ولي العرش في عام ١٨٤٨ وهو في سن الثامنة عشرة ومكث في الحكم ثماني وستين عاماً — ان يقاوم الحركات الديمقراطية والقومية بين رعاياه . فقد تعلم من « مترنيخ » ان الديمقراطية والقومية ، وهما التياران اللذان سارت السياسة الاوربية في غمارها بعد الثورة الفرنسية، هما اكبر العوامل التي تساعد على انحلال الامبراطورية التي يحكمها. لقد كان فرنسيس جوزيف محافظاً يميل الى الافكار القديمة التي سادت البيئة التي ولد ونشأ فيها . ورغم انه كان يتمتع بحب الناس واجلالهم له ، الا ان هذا الحب لم يبلغ تقديس الروس لقيصرهم على اعتبار انه ابو الشعب الروسي او عبادة الالمان للدولة . اذ لم تكن امة النمسا والمجر شعباً متماسكاً يشترك اشتراكاً وجدانياً مع حكومته وامبراطوره .

لقد كان فرنسيس جوزيف يحكم كامبراطور للنمسا وملك للمجر . وكان للمجريين دستورهم الخاص بهم وبرلمانهم المنفصل ، وعاصمتهم الوطنية « بودابست » ، فهذا النظام الثنائي الذي تأسس بموجب الاتفاقية التي تمت سنة ١٨٦٧ ينص على ان المشكلات الخاصة بالدفاع والسياسة الخارجية تعرض في المؤتمرات التي تعقد من وزراء كلتا الدولتين في فينا وبودابست ، وفيما عدا هذا تستقل كل من النمسا والمجر بتصريف شئونها عن الاخرى ،

هذا الى ما حدث في عام ١٨٦٨ عنــدما منح الكرواتيون الذين يعيشون في هنجاريا حكماً ذاتياً ، ومنح الاستقلال الداخلي التام للبولنديين في غاليسيا .

اما التشلك الذين يعيشون في بوهيميا فلم تأبه حكومة النمسا والمجر لمطالبهم ولذلك كانوا أشد عداوة للدولة الحاكمة ، وقد كانت أهم مطالبهم فتح المدارس التشكية ، وأن تكون لغتهم هي اللغة الرسمية في بلادهم الى جانب اللغة الالمانية ، فلما رفضت مطالبهم ، اتخذ نوابهم في البرلمان النمسوي جانب المعارضة ، وعطلوا بعض التشريعات التي كانت تحيلها الحكومة على البرلمان ، واضطرت الحكومة الى الالتجاء الى احدى مواد الدستور التي تبيح لها اصدار بعض المراسيم المستعجلة في غيبة البرلمان مما أثار نواب الولايات المختلفة ، وجعل الخلاف يشتد بين الحكام والمحكومين ، وظهرت من خلال هــذا الموقف المعقد المضطرب في مستهل القرن العشرين حقائق لا مرية فيها نجملها فيما يلي :

اولاً : استحالة وجود حل لارضاء القوميات المتذمرة ، وصعوبة وضع نظام الحكم ترضى عنه العناصر المختلفة .

ثانياً : ازدياد نفوذ العناصر السلافية : التشك والبولنديين والسلوفاك والروثينيين والسلوفيين والصرب والكروات وغيرهم وازدياد شعور العنصرين الحاكمين النمسويين الجرمان والمجريين بأن نمو القومية عند هذه العناصر قد يؤدي في النهاية الى جعل النمسويين والمجريين اقلية في الانتخابات وبالتالي في البرلمان النمسوي ، ورغم ان عدد الجرمان النمسويين لا يزيد على ربع سكان الدولة ، الا انهم كانوا ينظرون الى تلك البلاد ، كأنها دولتهم هي ، لهم السلطة العليا فيها ، اذ ان الحكم يومئذ كان حكماً استبدادياً ، ومقاليده في ايدي افراد منهم ، واللغة الالمانية هي اللغة السائدة في الجيش والرسمية في الدواوين . ولو طبقت المساواة الديمقراطية النيابية بروحها ومعناها ، لكان الحكم في الدولة حينئذ للسلاف لانهم الاغلبية سواء في عدد اعضاء البرلمان أو في عدد افراد الأمة .

ومع ذلك فلم يحاول احد من السلاف اصحاب الاغلبية ان ينهض في البرلمان منادياً بوجوب تخلي النمسويين — وهم من الجنس الجرمـــاني — عن الحكم للسلاف ، الا ان ذلك كان شعور كل عضو منهم ، ظل مكبوتاً ، ولكن الكراهية كانت متبادلة بين الفريقين ، ولم تستطع شعوب الامبراطورية ان تستفيد من الحكم النيابي لان الدستور الذي وضع للنمسا كان يعطي الامبراطور الحق في حل البرلمان في اي وقت يشاء ، وقد استخدم كل مستشار ولي الحكم في النمسا هذا الحق ، كما كان يستخدمه هنري الثامن في انجلترا ولويس الرابع عشر في فرنسا تماماً .

ثالثاً : ادى نمو الصناعة وتطورها في النمسا الى ظهور طبقة عمالية ، وتأسس حزب اشتراكي جديد مما زاد الموقف الداخلي تعقيداً ولا سيما ان اصحاب رؤوس الاموال كانوا من النمسويين ، بينما كانت اغلبية العمال من العناصر السلافية التي تشعر بأنها تعاني ثلاث مساوىء: فهم كفلاحين وعمال يعانون الفقر وسوء المركز الاجتماعي ، وهم كأجورين يستغلهم الرأسماليون اسوأ استغلال وهم كشعب سلافي ، تضطهدهم الحكومة عندما يحاولون التعبير عن امانيهم الوطنية .

الفصل الثاني عشر

الازمات السياسية التي سبقت الحرب العالمية الأولى

١٩٠٥ ـ ١٩١٣

تميزت السنوات العشر التي مضت بين عقد الوفاق الودي سنة ١٩٠٤ وقيام الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ بقيام سلسلة من الازمات الخطيرة ، كادت كل واحدة منها تجر الدول الكبرى جميعاً الى الاشتباك في الحرب ، وقد قامت هذه الازمات على التوالي في سنة ١٩٠٥ و ١٩٠٨ و ١٩١١ و ١٩١٤ بين كل ازمة واخرى ثلاث سنوات تقريباً . وقد ثارت الازمتان الاولى والثالثة من اجل مشكلة مراكش ، وثارت الثانية والرابعة من اجل البوسنة .

(١) ازمة مراكش الأولى

كانت فرنسا قد اطمأنت الى ان الوفاق الودي بينها وبين انجلترا سوف يطلق يدها لاتمام مشروعاتها بضم مراكش الى امبراطوريتها الافريقية ، وكان دلكاسيه ، وزير الخارجية الفرنسية ، قد سبق له ان فاوض اسبانيا بشأن تقسيم مراكش ، وقنعت اسبانيا بالاستيلاء على الشريط الساحلي من مراكش الذي يواجه الساحل الاسباني عند جبل طارق وهو اقليم الريف ، كذلك اتفقت

فرنسا مع ايطاليا على الا تعارضها في نظير الا تقف فرنسا في سبيلها ان دخلت ايطاليا في حرب مع تركيا لكي تنتزع طرابلس . ولم يبقَ امام فرنسا سوى معارضة المانيا التي كانت تهتم بمراكش ، وتعمل على منع فرنسا من بسط سيطرتها عليها ، وبينما كان الامبراطور ولهلم الثاني ، في رحلته البحرية في مياه البحر الابيض المتوسط ، اذا به يقطع رحلته ، وينزل في ميناء طنجه ويخطب هناك خطبة خطيرة تناقلتها صحف العالم في الحال ، خاطب فيها سلطان مراكش مؤكداً له ان المانيا تعتبره سلطاناً مستقلاً ثم اضاف قوله « واني آمل أن تحافظ مراكش في ظل هذا الاستقلال على سياسة الباب المفتوح لجميع الامم على السواء ، فلا يكون لدولة فيها امتياز على اخرى ، فلا احتكار ولا استعمار ، ولتكن السياسة التي تتبعها مراكش مع الدول اساسها المساواة المطلقة » .

وهكذا كانت كلمة الامبراطور الالماني نذيراً بأن المانيا لا تعترف بما جاء في اتفاقية سنة ١٩٠٤ ، وعلى الاخص فيما يختص باطلاق يد فرنسا في مراكش. ثم اقترح الامبراطور بعد ذلك رسمياً ، عقد مؤتمر دولي لبحث مسألة مراكش ، الا ان « دلكاسيه » وزير الخارجية الفرنسية عارض ذلك الاقتراح ، مطمئناً الى تأييد انجلترا ، ومع ذلك فلم تبد انجلترا اي اعتراض على عقد المؤتمر ورأى دلكاسيه ان رئيس الوزارة الفرنسية — المسيو روفيير Rouvier — وبقية الوزراء الفرنسيين قد رضخوا للاقتراح الالماني ، فاضطر الى الاستقالة . وكان قبول الدول عقد ذلك المؤتمر انتصاراً سياسياً لالمانيا ، ومرد ذلك الى ضعف دول الوفاق في ذلك العام بالذات ، اذ كانت روسيا قد منيت بالهزيمة في حربها ضد اليابان ، وخرجت من الحرب عاجزة كل العجز عن ان تقوم بتقديم أي معونة لحليفتها فرنسا ، وكانت انجلترا في الوقت نفسه لا ترغب في قيام الحرب من اجل مراكش ، أما فرنسا ذاتها فلم تكن من القوة والاستعداد بحيث تعتمد على نفسها .

مؤتمر الجزيرة : Algeciras (١٩٠٦)

تقرر عقد المؤتمر في الجزيرة ، وهي بلدة في اسبانيا بالقرب من جبل طارق ، ولم يكن غرض المانيا من عقد هذا المؤتمر ، ابعاد فرنسا عن مراكش فحسب ، بل كان غرضها ايضاً جس نبض الوفاق الودي الذي عقد بين انجلترا وفرنسا ، ولكن تبين لها ان انجلترا قد وقفت الى جانب حليفتها فرنسا ، كذلك ايدتها حليفتها روسيا ، وجارتها وشريكتها اسبانيا ، كذلك أيدتها ايطاليا لأنها كانت قد عقدت مع فرنسا معاهدة الحياد . ولم يقف في صف المانيا في المؤتمر سوى حليفتها النمسا .

وقد انتصرت فرنسا سياسياً في هذا المؤتمر ، اذ تقرر انشاء قوة بوليسية في مراكش ، يعهد بأمر تنظيمها الى فرنسا واسبانيا ، كل في منطقة نفوذها وان تعمل كل منهما على تنفيذ ما تراه من الاصلاحات . وتأسيس بنك تشرف عليه الدول الاربع : فرنسا واسبانيا وانجلترا والمانيا ، وأن تدير فرنسا وحدها شئون الجمارك في الجزء المجاور لبلاد الجزائر ، وتدير اسبانيا ما يقع منها في منطقة (الريف) .

وهكذا خرجت المانيا من ذلك المؤتمر فاشلة حانقة ، ولم تنجح السياسة التي رسمها المستشار الالماني (بيلوف Bulow) الذي حاول حل الوفاق الودي بين انجلترا وفرنسا ، بما اشار به على الامبراطور ولهلم الثاني من النزول في طنجه وتصريحه بأن المانيا لا تستطيع ان تحتمل اتفاق الدولتين على اطلاق يد فرنسا في مراكش . ثم فشلت المانيا في مؤتمر الجزيرة الذي دعت إلى عقده ظناً منها ان تلك الدول لن تصل الى اتفاق يؤيد بسط النفوذ الفرنسي على مراكش .

فشل معاهدة بجركو Bjorko (يوليه ١٩٠٥)

واخيراً فشلت المانيا في محاولة الاتفاق مع روسيا لتبعدها عن حلف الوفاق. وقد قامت بتلك المحاولة عندما تقابل امبراطور المانيا ولهلم الثاني ، وقيصر

روسيا نيقولا الثاني على يخته الذي كان يرسو أمام بلدة (بجركو (Bjorko الواقعة على خليج فنلنده واعتقد ولهلم الثاني ان تحطيم الاسطول الروسي في مياه الشرق الاقصى وخروج روسيا منهزمة امام اليابان سيضطرها الى التقرب من المانيا ، وبالتالي تستطيع الاخيرة أن تحل التحالف الثنائي بين روسيا وفرنسا وفعلاً امكن لامبراطور المانيا أن يقنع القيصر بتوقيع اتفاق تتعهد فيه روسيا والمانيا ان تضع كل منهما جيشها واسلحتها تحت تصرف الاخرى ان تعرضت احداهما لهجوم احدى الدول الاوربية . وألا تعقد احداهما صلحاً منفرداً .

وظنت المانيا أنها كسبت روسيا ، وابعدتها عن دولتي الوفاق ، الا ان املها سرعان ما خاب ، اذ ما لبث وزراء قيصر روسيا ان اقنعوه بأن يعلن الغاء معاهدة « Bjorko » ، ثم طلبت وزارة الخارجية الروسية من سفيرها في برلين أن يبلغ الحكومة الالمانية استحالة تنفيذ تلك المعاهدة لمناقضتها للمعاهدة الروسية الفرنسية .

وقد اعترفت فرنسا لروسيا بجميلها هذا ، فأقرضتها ما كانت تحتاج اليه من المال ، لتستعين به على اصلاح شئونها الاقتصادية وانتهزت الفرصة للتقريب بين روسيا وانجلترا ، فتم بينهما — كما سبق أن بينا — الاتفاق المعروف في سنة ١٩٠٧ بشأن ايران على ان يكون لروسيا منطقة نفوذ في الشمال ، ولانجلترا منطقة نفوذ في الجنوب .

(٢) أزمة البوسنة سنة ١٩٠٨

أشرنا من قبل الى اقدام النمسا على ضم البوسنة والهرسك نهائياً الى الامبراطورية النمسوية في سنة ١٩٠٨ ، وهما الولايتان اللتان كانت تديرهما بناء على ما قرره مؤتمر برلين ١٨٧٨ . وقد أثار ذلك الحادث غضب الصربيين الذين رأوا نحو مليون من بني جنسهم تضمهم النمسا بجرة قلم ، في الوقت الذي كانوا يؤملون فيه ضم البوسنة والهرسك الى صربيا لاقامة الوحدة اليوغوسلافية المنشودة . على أن صربيا لم تكن في ذلك الوقت تستطيع أن تمنع الكارثة ،

فهي لا تستطيع الاستنجاد بروسيا التي تدعي زعامة السلاف ، لأن روسيا كانت لا تزال في اعقاب هزيمتها في الحرب اليابانية ، كذلك اعلنت انجلترا انها لا تفكر في احتمال نشوب حرب عامة من اجل المسألة البلقانية . وكانت المانيا — في الوقت نفسه — قد اعلنت انها تؤيد حليفتها النمسا وانها لا تتأخر عن معاونتها عسكرياً في حالة الحرب . ولم يستطع الصربيون ان يواصلوا معارضتهم امام ما سمعوه من عزم النمسا على تنفيذ قرارها بكل ما في وسعها من قوة ، حتى اشتهر عن الارشيدوق فرانز فرديناند « Frans Ferdinand » ولي عهد النمسا ، وكونرادفون هوتزندورف « Hotzendorf » قائد القوات النمسوية ، بأنهما يفضلان الاسراع في مهاجمة صربيا « ومحوها من الخريطة الاوربية » .

سكتت صربيا على مضض ، ولكن روح القومية ازدادت اشتعالاً ونشأت الجمعيات السرية للعمل على تحقيق مشروع صربيا الكبرى ، واستحكم العداء بين الصربيين والنمسويين . وعزمت النمسا على التخلص من صربيا عندما تسنح الفرصة ، ونشط سفيرها في بلغراد — عاصمة صربيا — لجمع الوثائق التي تبرر القيام بالهجوم . ولكن لم يتم العدوان في ذلك العام ، ولعل ذلك مرده الى ما تبين من أن المانيا — على الرغم من تصريحها بتأييد حليفتها — عادت واظهرت انها لا تتحمس لدخول الحرب من أجل مسألة صربيا .

السباق البحري

وفي أثناء تلك الحوادث التي كانت تجري في البلقان كان السباق البحري والتنافس العسكري قد بلغ أشده بين بريطانيا والمانيا ، بعد ان فشلت الاولى في الوصول الى اتفاق مع الثانية للحد من التسلح ، لأن المانيا كانت تعمل على اتمام برنامجها البحري في سرعة وعزم . وبلغ انزعاج الانجليز مبلغه في سنة ١٩٠٩ عندما نادى كثير من الكتاب بضرورة اتخاذ اجراءات عاجلة قبل أن يصبح الاسطول الالماني اقوى من الاسطول الانجليزي . ولم تجد الحكومة بداً

من الاستجابة لهذا النداء على الرغم من معارضة رجال الاقتصاد والزعماء الاشتراكيين الذين كانوا يريدون توفير المال للاصلاح الداخلي المطلوب ، ولكن الحكومة رأت ان تتخذ خطوة حاسمة لتقوية الاسطول الانجليزي ، واستطاعت أن تصل الى تقويته ايضاً من الناحية الفنية فصنعت عدداً مـــن المدرعات التي يطلق عليها الدردنوت وهو ذلك النوع من السفن الحربية الكبيرة التي كان من الصعب على المانيا ان تستفيد منه في مياهها ، اذ كان من الصعب مرورها في قناة كييل ، والواقع ان قوة الاسطول الالماني كانت تتوقف على سهولة انتقال سفنه بسهولة من البحر البلطيقي الى بحر الشمال ، فكان على المانيا اذن أن تقوم بعملية توسيع تلك القناة مما استغرق عدة سنوات ، ولعل ذلك كان سبباً في أن المانيا لم تشجع النمسا على مهاجمة صربيا قبل الاستعداد الكامل ولم يتم توسيع قناة كييل الا في يونيه سنة ١٩١٤ ، وفي الشهر الثاني مباشرة ارسلت النمسا انذارها الى صربيا ، وكان ذلك بداية قيام الحرب .

ولم تكن انجلترا بغافلة عما يحدث في البحرية الالمانية ، ولذلك قررت في سنة ١٩٠٩ بناء أربع مدرعات كبيرة ، وأخذت الصحافة والرأي العام في حث الحكومة على مضاعفة العدد . فاستجابت لطلب الشعب . وفي سنة ١٩١١ حدثت الازمة الثالثة :

(٣) حادث اغادير « Aghadir » سنة ١٩١١

ظهرت في جو السياسة الاوروبية ازمة أخرى بسبب ازدياد التدخل الفرنسي في مراكش ، وذلك على أثر قيام حروب داخلية بسبب ثورة احد الامراء على مولاي عبد الحفيظ سلطان مراكش ، وقد استنجد السلطان بفرنسا لترسل اليه نجدة فرنسية ، فانتهزت فرنسا الفرصة وارسلت حملة حربية فرنسية الى « فاس » وكان ذلك في ربيع عام ١٩١١ .

ولما سمعت المانيا بايفاد تلك الحملة هاجت وأرسلت في يوليه سنة ١٩١١ طراداً المانياً الى أجادير على ساحل مراكش المواجه للمحيط الاطلنطي بحجة

حماية المصالح الالمانية التجارية من عدوان العصابات المراكشية المسلحة ولكنها كانت في الواقع تقصد من ارسال الطراد الحربي الى القيام بمظاهرة بحرية رداً على اطماع فرنسا في مراكش .

وكان لتلك المظاهرة الالمانية البحرية رد فعل عاجل في باريس ، ولندن وروما . وظل شبح الحرب ماثلاً عدة اسابيع ، وقفت خلالها انجلترا تؤيد فرنسا ، وألقى لويد جورج خطبة خرج منها عن حدود وظيفته كوزير للمالية لا الخارجية ، وانذر فيها الحكومة الالمانية ، بأن انجلترا لن تقف ساكنة ان وقعت الحرب ، وانها لن تتخلى عن حليفتها فرنسا . وبعد المساومة اكتفت المانيا بأن ترضى بضم جزء صغير من الكونغو الفرنسي الى املاكها في افريقيا في مقابل وضع مراكش تحت نفوذ فرنسا وحدها دون سائر الدول، وبعد مضي عام واحد اتفقت فرنسا مع السلطان مولاي عبد الحفيظ على ان يقبل حماية فرنسا لمراكش ، ما عدا طنجة والمنطقة الاسبانية في ٣٠ مارس سنة ١٩١٢ .

بهذا انتهت مشكلة مراكش وخرجت المانيا منهزمة انهزاماً سياسياً آخر معتقدة ان الحرب هي الميدان الوحيد الذي تستطيع ان تنتصر فيه واصبحت مراكش تحت الحماية الفرنسية يحكمها الجنرال ليوتي Lyautey الذي عين مقيماً عاماً[١] .

ايطاليا وطرابلس

وكانت مشكلة اغادير فرصة ملائمة لايطاليا لتحقيق امنية قديمة وهي الاستيلاء عـــلى طرابلس ، ورأى جيولتي « Giolitti » رئيس وزراء ايطاليا ان يعلن الحرب على تركيا ، وارسل اسطولاً ايطالياً استولى على سواحل

---

(١) ابعد الجنرال ليوتي مولاي عبد الحفيظ عن العرش وخلفه ابنه يوسف ثم اعتلى العرش في سنة ١٩٢٧ السلطان محمد بن يوسف الذي نفاه الفرنسيون وعينوا بدله (محمد بن عرفه) .

طرابلس كما ارسل جيشاً كبيراً الى هناك للاستيلاء على برقة وطرابلس ، وقد قررت حكومة تركيا الفتاة ارسال جيش تركي تحت قيادة أنور باشا للدفاع ، ولكن الحرب انتهت بانهزام الاتراك ، وتنازلت تركيا عن طرابلس بموجب معاهدة لوزان اكتوبر سنة ١٩١٢ وكذلك عن جزر الدوديكانيز في بحر ايجه ، وقبل أن تنتهي الحرب الايطالية التركية بدأت حروب البلقان (١٩١٢ — ١٩١٣) ، حيث كانت الامبراطورية العثمانية على وشك الانهيار .

الحروب البلقانية (١٩١٢ — ١٩١٣)

اثار ضم النمسا للبوسنة والهرسك الشعور القومي في بلاد البلقان ، وتبين البلقانيون مبلغ ضعف تركيا بعد حرب طرابلس ، ورأوا ان ساعة الخلاص من الحكم التركي قد حانت ، وعلى الأخص أنهم كانوا يطمعون في أن تعاونهم روسيا بعد أن توترت العلاقات بينها وبين النمسا وتضاربت مصالحهما في البلقان وفي الوقت ذاته قد تتخير روسيا تلك الفترة — التي ضعفت فيها تركيا — لكي تسوي مسألة المضايق لمصلحتها فيقع النزاع بين الدولتين .

وفي مارس سنة ١٩١٢ شجع الروس كل من صربيا وبلغاريا على توقيع معاهدة تضمن تعاونهما المشترك في حالة اعتداء اية دولة اوربية كبرى على حدودهما وجاء في احدى مواد تلك المعاهدة « يتعهد الطرفان الموقعان على المعاهدة ان يؤيد احدهما الآخر بكل قوته في حالة محاولة احدى الدول الكبرى ضم او احتلال اية حدود من بلاد البلقان الواقعة حالياً تحت الحكم التركي » ، وفي مادة سرية اخرى ملحقة بتلك المعاهدة اعلن الطرفان انه « في حالة حدوث اية اضطرابات داخلية في تركيا مما يعرض المصالح القومية او الوطنية للدولتين المتعاقدتين او احداهما للخطر ، او في حالة قيام مصاعب داخلية او خارجية في تركيا مما يعرض الحالة الراهنة في شبه جزيرة البلقان للخطر وجب على الدولتين المتعاقدتين ان تسارعا الى تبادل الآراء لاتخاذ الخطوات العاجلة لمنع الخطر » .

واول ما يلاحظ على تلك المعاهدة السرية — التي اشترك ممثلو روسيا في العاصمتين البلقانيتين ، صربيا وبلغاريا ، في مفاوضاتها — انها كانت موجهة ضد دولة النمسا والمجر حتى لا تتكرر مأساة ضم البوسنة والهرسك ، وثانياً كانت تلك المعاهدة موجهة ضد تركيا حيث يفهم من ذلك الاتفاق ان كلتا الدولتين تريد نصيباً في ميراث الامبراطورية التركية المنحلة .

وقد عقدت معاهدة مشابهة بين بلغاريا واليونان ، وكانت تلك المعاهدة موجهة ضد تركيا .

وبعد اتمام تلك المعاهدات البلقانية اصبح الموقف ينذر بقيام الحرب ، حتى ان روسيا نفسها التي عاونت على اتمام تلك الاتفاقيات البلقانية بدأت تنزعج من توتر الموقف في البلقان ، ولم يطل انتظار الحرب بعد ذلك ، اذ اعلنت كل من بلغاريا وصربيا واليونان والجبل الاسود الحرب على تركيا (٨ اكتوبر ١٩١٢) لطردها من املاكها الاوروبية في البلقان ، واستطاع المتحالفون البلقانيون ان يحرزوا انتصارات خاطفة سريعة ، وانزلوا الهزائم المتعاقبة بالجيش التركي ووصلت بعض الفرق البلغارية قرب القسطنطينية ، واحتل اليونانيون سالونيك ، واكتسح الصربيون اعالي وادي نهر الوردار واستولوا على (اسكوب Uskub) العاصمة القديمة لصربيا (وموناستير Monastair) مفتاح مقدونيا الوسطى والجزء الشمالي من البانيا حتى ساحل الادرياتيك وهكذا استطاعت دول (الجامعة البلقانية Balkan League) التي ارسلت الى ميادين القتال اكثر من ستمائة الف مقاتل ان تنتزع معظم اراضي تركية اوربا .

ولم ترحب الدول الاوروبية الكبرى بتلك الانتصارات البلقانية على تركيا ، بل ان روسيا من جانبها كانت وجلة من نتائج ذلك الاتحاد البلقاني . ولكن النمسا كانت أشد الدول انزعاجاً من اطراد نمو صربيا التي تضخمت مساحتها وتضاعف عدد سكانها حتى زادوا من مليونين الى ما يقرب من

اربعة ملايين ونصف . واصبح من الواضح أن صربيا سوف توجه اهتمامها بعد ذلك نحو تصحيح وضعها مع النمسا .

امام ذلك الخطر الذي يهدد السلام في البلقان رأت الدول الكبرى أن تتكاتف للوصول الى حل يطمئن له الجميع ، فعقد في لندن مؤتمر على مستوى السفراء في ديسمبر سنة ١٩١٢ تحت رئاسة سير ادوارد جراى ، لاقرار الحدود الجديدة على ضوء الانتصارات البلقانية على تركيا .

وكانت النقطة الشائكة في الموضوع هي مستقبل الساحل الشمالي لبحر الادرياتيك بما في ذلك ميناء دورازو **Durazzo** ، اذ ليس من السهل على الصربيين ان ينتزع منهم ذلك الميناء بعد ان استولوا عليه بالقوة ، ولا سيما أنه يعطيهم باباً ينفذون منه الى البحر ، وكانت النمسا تعارض كل المعارضة في أن يظل ذلك الميناء في حوزة الصرب لأن سياستها كانت تتجه الى انشاء دولة البانيا وتقويتها حتى تتوازن قواها مع قوى الصرب .

اما المانيا فلم تكن على استعداد لان تقحم نفسها في حرب من أجل تلك المشكلة ، وقد قال قيصر المانيا « لست اعتقد أن هناك خطراً على كيان النمسا أو على مركزها من وجود ميناء لصربيا على البحر الادرياتيك » ولذلك قرر القيصر ألا يؤيد النمسا في القيام بأية حركة عسكرية ضد صربيا ويؤثر عنه أنه قال بهذه المناسبة : « لن أحمل على باريس أو موسكو من أجل خاطر البانيا ودورازو » وهكذا احتفظت المانيا لنفسها مؤقتاً بالاستقلال في سياستها الخارجية واخرت قيام الحرب فترة من الوقت .

وعلى الرغم من أن روسيا كانت مسرورة بانتصار حلفائها السلاف في الحرب البلقانية الأولى ، الا أنها كانت تخشى ان تقع القسطنطينية في قبضة احدى دول البلقان المنتصرة ، فيتبدد بذلك حلمها القديم في استيلائها عليها وقد عرف عن فرانانД ملك بلغاريا انه كان يطمع في ان يتوج يوماً ما في كنيسة سانت صوفيا (مسجد ايا صوفيا الحالي) . وفي الوقت نفسه كانت

سياسة سازونوف Sazonov وزير خارجية روسيا تتجه الى تقوية ولايات البلقان ضد النمسا ، ولكنه كان يفضل ان تظل القسطنطينية والمضايق تحت الحكم التركي ، حتى تسنح الفرصة لروسيا للاستيلاء عليها .

وقد قدم سازونوف في ديسمبر سنة ١٩١٣ مذكرة الى القيصر ذكر له فيها « ان روسيا لا ترغب في الحرب ولا في ضم أية حدود جديدة ، ولكنها لا تستطيع أن تسمح بسقوط المضايق أو القسطنطينية في أيدي دولة أخرى ولو كانت احدى دول البلقان الصغرى أمثال بلغاريا » . وأضاف الى ذلك قوله « ان تأمين المضايق لمصلحة روسيا هو في حكم الواقع الآن ، فتركيا ليست بالدولة القوية غاية القوة ، ولا بالضعيفة غاية الضعف ، وهي لا تستطيع اذن ان تكون خطراً علينا ولكنها في الوقت نفسه مضطرة الى ان تقف من روسيا موقف الحذر لأنها اقوى منها . ان ضعف الامبراطورية التركية وعدم قدرتها على التطور مع الحضارة هو في مصلحتنا ، انه خلق بين الشعوب المسيحية الخاضعة لها شعوراً بالولاء نحو روسيا الارثوذكسية مما يقوي مركزنا الدولي في اوربا الشرقية » .

مسألة البانيا

غضبت صربيا أشد الغضب لانشاء دولة البانيا التي الحت في تأسيسها كل من النمسا وايطاليا ، فقد كانت النمسا تخشى من امتداد نفوذ صربيا ووصولها الى تلك الجهات وتحرص على عدم اعطائها الفرصة لتصبح دولة بلقانية كبرى على ساحل البحر الادرياتيك ، وأما ايطاليا فقد كانت تعارض في أن ترى الساحل الشرقي للبحر الادرياتيك في يد دولة منافسة قوية . والحقيقة أن ايطاليا كانت تأمل ان تضم البانيا عندما تسنح لها الفرصة الى الحدود الايطالية وظل هذا الأمل يراودها حتى أقدم على غزوها موسوليني سنة ١٩٣٩ .

حرب بلقانية ثانية (١٩١٢ – ١٩١٣)

كان تأسيس البانيا ضربة موجهة الى صربيا ، لأن البانيا كانت ضمن الدائرة التي فكرت صربيا في ضمها الى صربيا الكبرى ، وعندما ضاع هذا الامل وجهت أنظارها نحو الحدود البلغارية الشرقية واحتلت رقعة واسعة منها ، فأثار ذلك بلغاريا ، فأقدم جيشها على مهاجمة القوات الصربية دون انذار ، فكان ذلك ايذاناً بقيام حرب بلقانية ثانية اشترك فيها الصربيون واليونانيون ضد البلغار وانتهزت رومانيا الفرصة فهاجمت بلغاريا من الخلف ، وانتزعت لنفسها منطقة دبروجه « Dobrudja » جنوب مصب الدانوب ، ودخلت تركيا تلك الحرب ، واستردت أدرنه من البلغار. والواقع أن بلغاريا هزمت هزائم منكرة في كل مكان وانتهت الحرب بمعاهدة بوخارست سنة ١٩١٣ ، واستطاعت صربيا واليونان أن تضم كل منهما جانباً من اراضي تركيا الاوربية ورضيت بلغاريا بصلح حرمها نصف املاكها .

وقد كانت الحروب البلقانية نذيراً للنمسا بفشل سياستها في البلقان فقد كان من نتائج تلك الحروب ازدياد قوة صربيا ، حتى اصبحت الدولة الاولى في البلقان ، واضعاف تركيا التي كان حلفاؤهم الالمان يعلقون املاً كبيراً على صداقتها . ولم يعد امام النمسا الا أن تأخذ برأي العسكريين الذين كانوا ينادون في ذلك الوقت بضرورة البطش بصربيا قبل أن يستفحل امرها . الا أن ساسة النمسا كانوا لا يرتبطون برأي قوادهم العسكريين بقدر ارتباطهم بسياسة حليفتهم الكبرى المانيا .

سياسة المانيا الحربية

كانت النمسا أضعف من ان تتخذ أية خطوة عسكرية بدون ان تسندها المانيا ، ولكن المانيا كانت اذ ذاك تخشى على حليفتها ان تقحم نفسها في حرب تمزقها كل ممزق ، ولا سيما انها عانت كثيراً من جراء انهزام تركيا التي كانت تعتبرها المانيا حليفة طبيعية لها ، حتى أنها اضطرت بعد الهزيمة

التركية في البلقان أن ترسل في الحال أحد قوادها ــ ليمان فون ساندرز Liman von Sanders لكي يعيد تنظيم الجيش التركي على الرغم من الاحتجاجات الشديدة التي وجهتها روسيا الى المانيا .

ومنذ بداية عام ١٩١٣ اصبح القواد الألمان يعتقدون أن الحرب لا مناص منها ، وأن من مصلحة المانيا أن تبدأ بها سريعاً قبل أن يكمل استعداد أعدائها وكان نفوذ هؤلاء القواد قد ازداد حتى خضع لهم الامبراطور نفسه ، ولم يكن للمستشار الالماني بتمان هولوج (Bethman Hollweg) الكلمة العليا التي كانت لسلفه بسمرك ، وكانت اول خطوة للاستعداد في سنة ١٩١٣ ان فرضت الحكومة الالمانية ضريبة جديدة للاغراض العسكرية ، وما وافى صيف ١٩١٤ حتى شعرت المانيا انها استكملت قوتها ، وخاصة انها قد اتمت توسيع قناة كييل لتسهيل انتقال الاسطول الالماني من بحر البلطيق الى بحر الشمال . بينما لم تكن فرنسا تقدر لنفسها استكمال استعدادها الا في عام ١٩١٥ ، واما روسيا فلم يكن مقدراً لها ان تكون على اهبة لاستعداد قبل عام ١٩١٧ .

ومن الغريب أن المانيا لم تفكر في ذلك الوقت في استشارة بريطانيا بل على العكس نجد انها تحاول ان تضمن حياد البريطانيين ، ولو في المرحلة الاولى من مراحل الحرب ضد فرنسا او ضد غيرها ، وكانت بريطانيا في الوقت نفسه على استعداد للمفاوضة لتسوية اية مشكلة تهدد السلام بينهما . ولعل أهم منطقة للصراع بين المانيا وانجلترا في ذلك الوقت كانت في منطقة الخليج العربي ، وهو الصراع الذي نجم عن ازدياد نفوذ المانيا في تركيا ، وقيام المهندسين الالمان في ذلك الوقت باقامة سكة حديد برلين ــ بغداد . وهو الخط الذي كان مقدّرا له أن يصل الى البصرة على الخليج العربي ، والبصرة هي الميناء الذي يعتبر مركز البترول الايراني الذي تتحكم فيه شركة البترول الانجليزية الايرانية ، وكان غريباً أيضاً أن تسلم المانيا في ذلك الوقت بوجهة النظر البريطانية حتى تم وضع صيغة لمعاهدة المانية انجليزية بخصوص

تلك المشكلة ولم يبق سوى توقيعها . واذا بالحرب الكبرى تعلن وتبقى المعاهدة بغير توقيع .

الشرارة التي اشعلت الحرب

كانت العلاقات بين النمسا وصربيا تسير من سيء الى أسوأ ، والولايات اليوغوسلافية المتفرقة حانقة على الحكم الامبراطوري النمسوي ، وتوالت المؤامرات اليوغوسلافية لاغتيال كبار الموظفين النمسويين ، وقد نفذ صبر النمسويين على ما كان يوجه اليهم من اهانات واعتداءات ، وأخذ « بروشتلد Bershtold » وزير خارجية النمسا في يونيه ١٩١٤ يدبر الوسائل السريعة التي تستطيع بها النمسا القضاء على صربيا ، وفي ٢٨ من ذلك الشهر قتل أحد الطلبة الصربيين الارشيدوق فرانز فردناند ولي عهد العرش الامبراطوري النمسوي اثناء زيارة رسمية في « سيراجيفو Sarajevo » عاصمة البوسنة . وكانت الحادثة فرصة ملائمة للنمسا والمانيا لكي تتخذاها ذريعة لاعلان الحرب .

ومر شهر حدثت خلاله اتصالات سرية بين النمسا والمانيا أكدت الاخيرة لحليفتها انها تؤيدها في كل خطوة تخطوها ، ولم تكن الحكومة الفرنسية تقدر عواقب تلك الحادثة ، حتى أن بوانكاريه Poincaré رئيس جمهوريتها وفيفياني Viviani رئيس وزرائها ذاهبين الى بطرسبرج في زيارة رسمية لروسيا وانتظرت حكومة النمسا حتى بدأ الرئيس الفرنسي ورئيس وزرائه يعودون من الرحلة الروسية ، ثم القت قنبلتها السياسية بارسال الانذار المشهور الى صربيا في ٢٣ يوليه .[1] ومع أن صربيا خضعت وقبلت معظم

---

(١) كان الانذار يحتوي على عشر مواد طلبت فيه من صربيا : حل الجمعيات الوطنية التي تقوم بالدعاية ضد النمسا واغلاق الصحف ومراقبة المدارس حتى لا ينفث الاساتذة كراهية النمسا في نفوس التلاميذ ، ومصادرة الكتب المدرسية التي وضعت بقصد الدعاية ضد الامبراطورية النمسوية وعزل القواد والموظفين الذين اشتهر عنهم كراهية النمسا والقبض على شخصين =

المطالب النمسوية التي تكاد تنتزع منها استقلالها ، الا أن النمسا اعتبرت ردها رفضاً للانذار واعلنت عليها الحرب في ٢٨ يوليه .

وقد حاول القيصر الالماني التخفيف من حدة النمسويين قبيل اعلان الحرب الا أنه لم ينجح في محاولته . اما روسيا فقد استعدت لتقف في جانب صربيا ضد النمسا ، واعلن القيصر التعبئة العامة فاعلنت المانيا الحرب على روسيا في اول اغسطس سنة ١٩١٤ ، وانضمت فرنسا الى حليفتها روسيا ، فاعلنت المانيا الحرب على فرنسا في ٣ اغسطس ، وأخذت المانيا تستعد لتنفيذ مشروعها الذي وضعه العسكريون ، وهو غزو فرنسا عن طريق اختراق بلجيكا ولكسمبرج لاكتساح فرنسا قبل ان تستعد روسيا للقتال .

كذلك أخذت الحكومة الالمانية تتصل بالحكومة البريطانية تطالبها بأن تقف على الحياد في نظير أن تتعهد المانيا بضمان استقلال بلجيكا وهولنده بعد الحرب ، ولكن بريطانيا رفضت ذلك التعهد الالماني ، واعتبرت أن خرق حياد بلجيكا مبرر لاعلان الحرب على المانيا ، وأرسلت انذاراً الى المانيا في ٤ اغسطس تطالبها فيه بسحب قواتها من بلجيكا في الحال ولما لم يصلها الرد اعلنت بريطانيا العظمى الحرب على المانيا وفي ٦ اغسطس اعلنت النمسا والمجر الحرب على روسيا . وانضمت منتنجرو (الجبل الأسود) الى صربيا ضد النمسا ، وفي ٩ اغسطس قطعت كل من صربيا ومنتجرو علاقاتهما بألمانيا وفي اليومين التاليين أعلنت فرنسا وانجلترا الحرب على النمسا .

وسرعان ما اصبحت الحرب عالمية بانضمام معظم الدول اليها ، ودخلت اليابان الحرب في صف الحلفاء لأنها كانت ترمي من وراء ذلك الى بسط نفوذها على الصين ، وانتهزت الفرصة لاحتلال المنطقة التي كانت تحتلها المانيا في شبه جزيرة شانتونج في الصين .

= نمساويين جاء ذكرهما في التحقيق ، وان يسمح للنمسا ان تشترك مع صربيا في التحقيق الخاص بمقتل ولي العهد .

الفصل الثالث عشر

الحرب العـــالمية الاولى

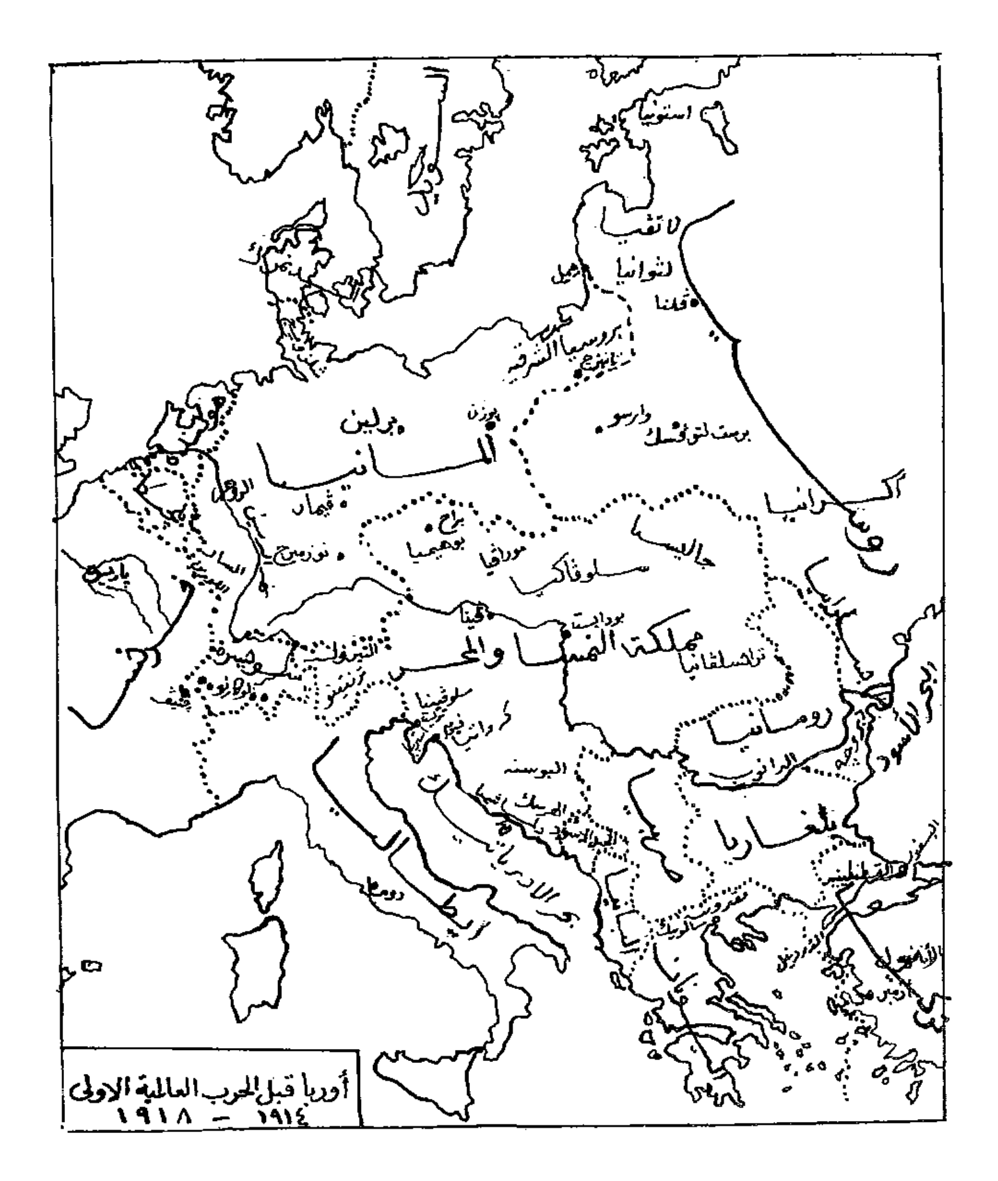
(١٩١٨ — ١٩١٤)

حملة ١٩١٤

كانت ألمانيا قد أعدت عدتها ووضعت خطتها من قبل ، وهي لم تكن تخشى روسيا لأنها كانت تعتقد أن روسيا لا تستطيع نقل جيوشها الكبيرة الى الميدان بسرعة وفي الوقت الملائم ، ولهذا اعتقدت المانيا أنها تستطيع ان تلقي باربعة اخماس جيوشها في هجوم مفاجيء ضد فرنسا ، فتكتسح قواتها في اسابيع قليلة ، ثم تتفرغ بعد ذلك للجبهة الشرقية . ولما كان من الصعب الهجوم على الحصون المرتفعة في الحدود الالمانية الفرنسية فان الحل الوحيد ان تشن هجوماً عبر بلجيكا تنفذ بعده الى باريس .

وقد كتلت فرنسا من جانبها أقوى فرقها تجاه اللورين بقصد مهاجمة الالمان في ذلك الاقليم ، حتى اذا نجحت فرنسا في هذا السبيل فشل الهجوم الالماني على بلجيكا .

ولكن لما حاول الفرنسيون الهجوم في اللورين فشلوا فشلاً ذريعاً ونجح الالمان في اكتساح بلجيكا واستولوا هناك على حصن لييج (Liége) العظيم



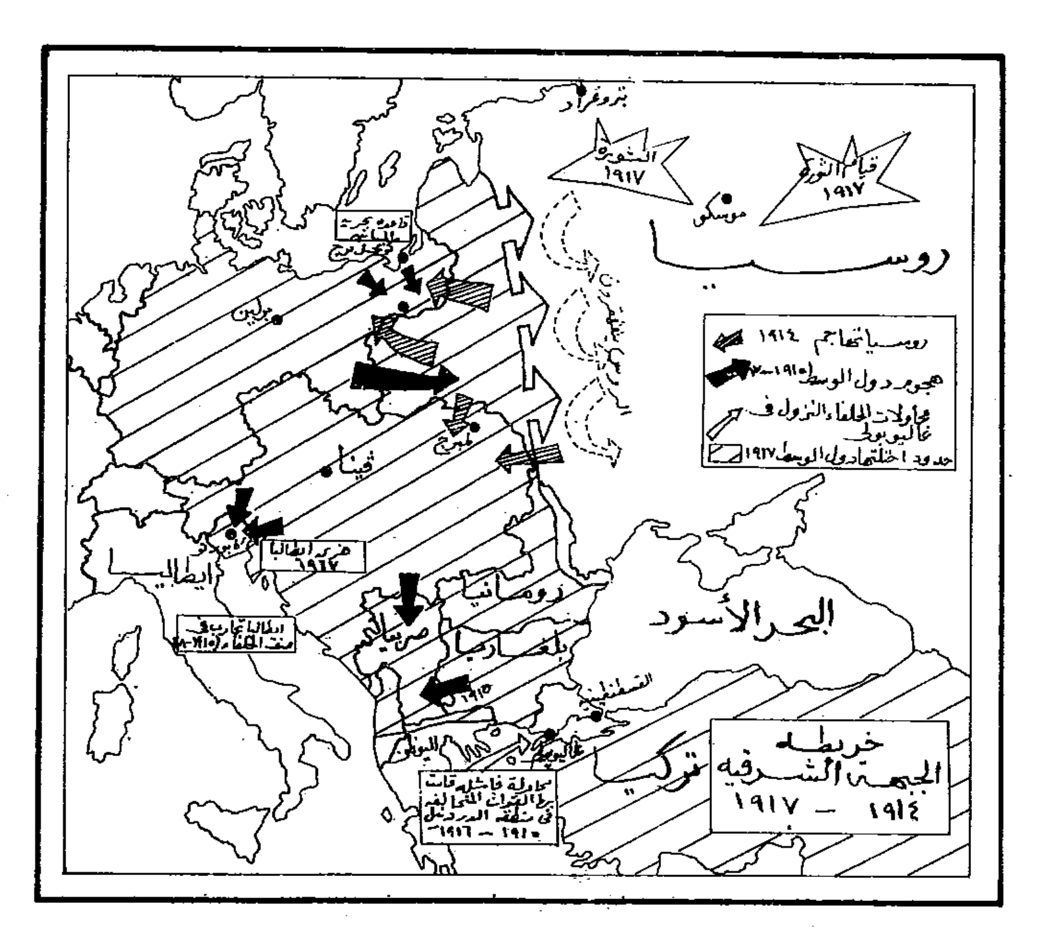
أوروبا قبل الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ - ١٩١٨

بعد حصار دام اثني عشر يوماً ، ولم يستطع الجيش البلجيكي الصغير أن يصمد امامهم طويلاً رغم ما بذله من مقاومة شديدة ، ثم اضطر الى الالتجاء وراء حصون « انتورب » Antwerp (انفرس) . وما انقضى الاسبوع

الثالث على بداية الحرب حتى اصبح الجزء الأكبر من بلجيكا تحت رحمة الالمان ، الذين اضطروا الى فرض الاحكام العسكرية الصارمة في البلاد حتى يأمنوا جانب الوطنيين ، وفر عدد من السياسيين البلجيكيين الى انجلترا حيث عاشوا هناك الى أن انتهت الحرب .

وقد عسكرت القوات الفرنسية على طول الحدود الفرنسية البلجيكية وعسكرت قوة انجليزية قوامها ٨٠,٠٠٠ جندي عند اقصى ميسرة تلك القوات الفرنسية تحت قيادة السير جون فرنش (**Sir John French**) وهي القوة التي تحركت نحو فرنسا في هدوء وسرعة منذ اعلان الحرب . ولكن في ٢٣ اغسطس بدأ الالمان بالهجوم ، فانهزم الفرنسيون امامهم بعد أن استولى الألمان على حصن نامور الذي يعتبر مركز الخط الدفاعي ، ثم ضربوا الفرنسيين في شارلروا « Charlroi » ، فوقع الجيش الانجليزي في مأزق اضطر أمامه الى التقهقر السريع ، وكان التقهقر في حد ذاته أمام عدو منتصر عملية في منتهى الخطورة ، ولكنها نجحت بفضل تصدي احدى قوات المؤخرة لقتال الالمان في « لوكاتو Le Cateau » ، بينما تقهقر بقية القوات الانجليزية لمحاولة القتال من جديد ، وكان الهدف الأول للالمان أن يحطموا الفرقة الانجليزية ، وفي الوقت نفسه أخذوا يكتسحون الحدود .

كان الالمان يطمعون في نصر سريع حاسم على اعدائهم ، ولكنهم فشلوا في تحقيق ذلك الأمل في الجبهة الغربية ، فان مقاومة بلجيكا عطلت تقدم القوات الالمانية فلم يستطيعوا الوصول الى الحدود الفرنسية قبل ثمان عشرة يوماً ، ثم انقذت موقعة المارن (من ٦ — ١٠ سبتمبر ١٩١٤) مدينة باريس ، واصبحت الحرب في الجبهة الغربية « حرب حصار » في الخنادق ، حيث لزمت قوات الحلفاء والقوات الالمانية خنادقها الممتدة مئات الاميال عبر فرنسا ، ولكن بقيت الميزة للالمان ، الذين كانوا اذ ذاك يحتلون جانباً كبيراً من الاراضي البلجيكية والفرنسية ، ويتخذون قواعدهم العسكرية



على بعد خمسة وخمسين ميلاً من باريس ، وعلى بعد خمسة وستين ميلاً من اقرب الموانىء الانجليزية .

الجبهة الشرقية

اما في الجبهة الشرقية فقد استطاع القائد الألماني فون هندنبرج ان يحرز نصراً سريعاً حاسماً على الروس في موقعة تاننبرج (١٦ – ٣١ اغسطس) وهي الموقعة التي طهرت الاراضي الالمانية من الغزو الروسي وانقذت بروسيا الشرقية من الاحتلال ، وكانت ضربة قاصمة لآمال الحلفاء الذين كانوا

يعولون على الضغط الروسي في الشرق لانقاذ الموقف في الغرب . فقد تحطم الجيش الروسي ووقع الكثيرون منه في الاسر على أن الروس – رغم هزيمتهم أمام الالمان في تاننبرج – استطاعوا أن ينجحوا في جبهة أخرى ، في نفس الوقت ، امام النمسويين في غاليسيا حتى استطاعوا الاستيلاء عليها في نهاية العام .

وكان النمسويون قد فشلوا ايضاً في هجومهم على صربيا ، اذ بعد ان نجحوا بعد عذاب في احتلال عاصمتها بلغراد (٢ ديسمبر ١٩١٤) ، تعرضوا لهجوم قام به الصربيون وقوات الجبل الاسود ، فاضطروا الى الجلاء ، ولم يطل بهم المقام في عاصمة الصرب اكثر من خمسة عشر يوماً .

وقد دخلت تركيا الحرب في صف المانيا في اكتوبر سنة ١٩١٤ ولذلك انتقمت بريطانيا لنفسها بأن ضمت قبرص واعلنت الحماية على مصر ، وسارت بلغاريا على نهج تركيا فانضمت الى الالمان في اكتوبر سنة ١٩١٥ ، بينما نجد ايطاليا تتخلى عن تحالفها الاول مع دول الوسط في الحلف الثلاثي وتنضم الى الحلفاء في مايو سنة ١٩١٥ ، وقد حدث في عام ١٩١٥ حادث تاريخي هام هو حملة الدردنيل ، فقد حاول الحلفاء اقتحام المضايق لانشاء ممر بين البحر الابيض والبحر الاسود مع الاستيلاء على القسطنطينية لانقاذ روسيا من عزلتها ، وتمكين الدول الغربية من الاتصال بها حتى يمكن بذلك تطويق المانيا في كل مكان . أضف الى ذلك أن تلك الحملة – لو نجحت – فانها تعزل تركيا عن حلفائها وفي الوقت نفسه تقضي على مشروع سكة حديد برلين – بغداد ، واخيراً فان أي نصر حاسم يحرزه الحلفاء في تلك المنطقة سيكون له اثر كبير في انضمام اليونان ، ورومانيا ، وبلغاريا الى صف الحلفاء .

ولكن هذه الحملة لم تفلح ، وانهزم الاسطول الفرنسي الانجليزي هناك في ١٨ مارس سنة ١٩١٥ ، واما الحملة البرية التي كان المفروض

فيها ان تقتحم شبه جزيرة غاليوبولي فقد فشلت في الاستيلاء على الحصن واضطرت الى الانسحاب النهائي في اواخر عام ١٩١٥ . ولم تستطع روسيا ان تقوم بأي دور لمساعدة حلفائها كما كانوا يتوقعون .

دور ايطاليا في الحرب

وفي الوقت الذي كان الحلفاء فيه يوجهون حملتهم الى الدردنيل ، كانوا يتطلعون الى امكان انضمام ايطاليا اليهم ، لأن ذلك يخفف الضغط عن روسيا باشغال القوات النمسوية في الجنوب ، وفي الوقت نفسه يمكن لبعض قواتهم الاشتراك في الحملة ضد تركيا .

وكانت ايطاليا قد اعلنت حيادها عندما قامت الحرب ، ولم تنضم الى حلفائها السابقين – النمسا والمانيا – بحجة ان النمسا كانت هي المعتدية . ثم اخذت بعد ذلك تفكر في امكان الاستفادة من الحلفاء الآخرين الذين وعدوها بتعويضها بضم الاجزاء التي كانت تنشدها من الحدود النمسوية ، والتي كانت النمسا تأبى عليها تحقيق اطماعها في تلك المنطقة . وفي ٢٦ ابريل سنة ١٩١٥ وقعت كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا مع ايطاليا معاهدة لندن ، التي وعد الحلفاء فيها ايطاليا بمنطقة الترنتينو والتيرول الجنوبي حتى ممر « برنر Brenner » ، وتريستا ، وشبه جزيرة استريا ، وشمال دلماشيا والجزر المواجهة لها ، وميناء فالونا « Valona » في البانيا ، وجزر الدوديكانيز في بحر ايجه ، كذلك سمح لها بموجب المعاهدة ان توسع املاكها في ايرتريا والصومال ، ووعدت بمنحها قرضاً تستعين به ، ونصيباً في التعويضات التي سوف تفرض على الأعداء .

وفي ٢٣ مايو ١٩١٥ اعلنت ايطاليا الحرب على النمسا ، ولكنها لم تعلنها على المانيا الا بعد مضي خمسة عشر اسبوعاً وفي ٥ سبتمبر ١٩١٥ ، طلب اليها الحلفاء أن توقع ميثاق لندن ، الذي يقيدها بالا تعقد صلحاً منفرداً مع الاعداء .

ومع كل ما يعلقه الحلفاء من آمال على اشتراك ايطاليا في الحرب ، فإنها لم تؤد لهم ما كانوا ينشدون . فلم ترسل قوات للمساهمة في حملة الدردنيل ، بحجة أنها في أشد الحاجة لقواتها للدفاع في الجبهة الايطالية نفسها .

أما روسيا ، فقد بدأ نجمها العسكري يأفل في عام ١٩١٥ ، اذ كانت تنقص قواتها الذخيرة والمؤونة والاسلحة الحديثة ، وتسيطر عليها قيادة غير صالحة ، بينما كانت قوات الدول الوسطى تفوقها عدداً وعدة ، ولذلك دارت الدائرة على الروس منذ شهر مايو من ذلك العام ، فهاجمتهم القوات النمسوية الالمانية ، وما يكاد يمضي شهران حتى جلا الروس عن غاليسيا واحتلها النمسويون والالمان . واصبحت القوات الروسية الاخرى التي تعسكر في بولنده معرضة للهجوم من الشمال والجنوب ، مما ادى بالروس الى الجلاء عن « وارسو » و « ايفانجورود Ivangorod » ، وانفتح الطريق امام القوات النمسوية الالمانية فاحتلوا كوفنو وبرست لتوفسك وفلنا ، وهكذا طردت القوات الروسية من غاليسيا وبولنده وخسرت جانباً من لثوانيا ، وبذلك خسرت روسيا مناطق صناعية غنية وأثر ذلك على قدرتها الدفاعية وروحها المعنوية .

وفي ٧ اكتوبر سنة ١٩١٥ عبرت القوات النمسوية الألمانية نهر الدانوب للهجوم من جديد على صربيا ، واشتركت القوات البلغارية في ذلك الهجوم ، فاخترقت الحدود الشرقية الصربية ، ولم يمضي شهران حتى كانت بلجراد ومعظم المدن الصربية الهامة في يد الاعداء ، وفر معظم الجيش الصربي الى الجبل الاسود والى البانيا ، وفي فبراير سنة ١٩١٦ هاجمت القوات البلغارية والنمسوية شمال البانيا واستولت على عاصمتها تيرانا وعلى ميناء (درازو Durazzo) ، واضطرت القوات الصربية (اليوغسلافية) ان تلجأ الى جزيرة كورفو اليونانية لتحتمي هناك بالمدفعية البحرية للحلفاء .

والواقع أن عام ١٩١٥ ، قد تميز بانتصارات متتالية لدول الوسط ،

لا في البر فحسب ، بل في البحر ايضاً ، لأن ألمانيا بدأت تعني بسلاح الغواصات لاغراق اكبر عدد ممكن من سفن الحلفاء.

وفي سنة ١٩١٦ حدثت موقعتان لم يكن لهما نتائج حاسمة : احداهما دارت حول حصن فردان (Verdun) حيث قاوم الفرنسيون الالمان مقاومة شديدة عندما حاولوا الاستيلاء عليها (من فبراير الى يوليه) ، أعقبها موقعة السوم (يوليه الى نوفمبر) ، وهي الموقعة التي دبرها الجنرال دوجلاس هيج « Haig » الانجليزي ضد القوات الالمانية التي كانت تحت قيادة هندنبرج ، وقد كان الغرض من تلك الحملة تخفيف الضغط على فردان . وقد نجحت موقعة السوم التي انتصر فيها الحلفاء في كسب مائة ميل مربع .

وكانت سنة ١٩١٧ مفعمة بالكوارث بالنسبة للحلفاء ، ففي الغرب استطاع النمسويون أن يوقعوا بالايطاليين هزيمة ساحقة في منطقة البندقية عند كابورتو « Caporetto » (اكتوبر ١٩١٧) ، واسرعت القوات الفرنسية والانجليزية لنجدة ايطاليا .

خروج روسيا من الحرب

ثم حدث أكبر حادث كان له أثره في مجرى الحرب عندما قامت الثورة البلشفية في روسيا في نوفمبر سنة ١٩١٧ وضعت حداً نهائياً لاشتراك الروس في الحرب ، اذ عندما نجح البلشفيك في الاستيلاء على السلطة عقدوا هدنة مع ألمانيا وفتحوا باب مفاوضات الصلح في شهر ديسمبر ، وقد رفض تروتسكي « Trotsky » وزير الخارجية الروسية أن يوقع معاهدة « برست ليتوفسك » Brest —Litovsk » واستقال من منصبه ، ولكن لينـين تغلب على معارضته ووقعت المعاهدة في مارس سنة ١٩١٨ وقد فرضت تلك المعاهدة شروطاً مجحفة على روسيا ، اذ تخلت بموجبها عن سيادتها على بولنده والولايات البلطيقية — فنلنده واستونيا ولاتفيا وليتوانيا — واعترفت باستقلال اوكرانيا وهي الجزء الجنوبي من روسيا . وهكذا خرجت روسيا من الحرب .

حملة الغواصات U — boat — Campaign

بدأت ألمانيا في سنة ١٩١٥ تستخدم حرب الغواصات لتحطيم تجارة الحلفاء ، وتحطيم السفن المحايدة التي تحمل البضائع لهم . وقد ارتكب الألمان باستعمالها في ذلك الوقت خطأ فاحشاً فان غواصاتهم كانت من القلة بحيث لم تستطع احراز نجاح كبير في هذا السبيل ، وفي الوقت نفسه كانت نذيراً للحلفاء باتخاذ اجراءات حربية بحرية مضادة . وقد اغرقت الغواصات الألمانية الباخرة لوزيتانيا في ابريل سنة ١٩١٥ وهي من أكبر البواخر ، وغرق معها حوالي الف راكب ، كان منهم أكثر من مائة امريكي ، وقد ثارت حكومة الولايات المتحدة من اجل تلك الكارثة وطلبت الى ألمانيا الا تعود الى التعرض للسفن المحايدة ، وأخذ يقل نشاط الغواصات الألمانية خلال عام ١٩١٦ . ولكن في عام ١٩١٧ اتم الألمان صنع ثلثمائة غواصة ، وأعلنوا أنهم لن يميزوا بين السفن المعادية أو المحايدة في البحار التي تحيط بالجزر البريطانية . وكانوا يدركون أن هذا القرار الخطير قد يجر امريكا الى الحرب ، ولكنهم في الوقت نفسه كانوا يعتقدون أن الامريكان لم يكن لديهم اذ ذاك جيش يعتد به ، واعتقد الألمان أن باستطاعتهم تجويع بريطانيا واجبارها على التسليم قبل ان تستطيع امريكا القيام بدور هام في ذلك النضال .

وقد نجح الألمان في هذا السبيل تقريباً ، ففي شهر ابريل سنة ١٩١٧ (وهو الشهر الذي دخلت فيه امريكا الحرب) أحرز الألمان نجاحاً عظيماً ففي فبراير أغرقوا سفناً حمولتها حوالي اربعمائة الف طن ، واغرقوا مثلها في شهر مارس ثم تضاعف هذا العدد في شهر ابريل (أي ٨٠٠,٠٠٠ طن) ، وفي ذلك الشهر كانت تغرق واحدة من كل اربع سفن تغادر السواحل الانجليزية ولو اطرد الألمان في هذا التقدم وسارت الامور على هذا النحو لحدثت المجاعة الكبرى للانجليز ، ولكن تغير الموقف ، وأخذت الخسارة تقل رويداً رويداً عندما نجح الحلفاء في تحطيم عدد كبير من الغواصات ،

وعندما نجحت طريقة القوافل ، حيث كانت السفن التجارية تبحر كلها في مجموعة واحدة ، يحرسها عدد من المدمرات الحربية التي توجهها ادارة المخابرات التابعة للبحرية البريطانية ، وفي الوقت نفسه عمل الحلفاء على سرعة الانتهاء من تعويض السفن الغارقة ببناء غيرها . وانقذ الانجليز الموقف الداخلي بالعمل على تحسين حالة التموين بمحاولة توسيع زراعة القمح في انجلترا نفسها وزراعة كميات كبيرة من البطاطس .

دخول الولايات المتحدة الحرب

عندما بدأت الحرب الكبرى الاولى سنة ١٩١٤ كان الامريكيون مصممين على عدم التدخل فيها ، فقد كانوا يعتنقون مذهب « منرو » في عزلة امريكا في سياستها الخارجية عن اوربا ، وعدم السماح للدول الاوروبية بأن تتدخل في الشئون الامريكية ، وقد أخذ هذا الرأي يتضاءل أمام الحقيقة الواقعة ، وهي أن العالمين الجديد والقديم ، مهما تباعدا في السياسة فإنهما مرتبطان من الناحية التجارية ، ولم يسع الامريكان إلا أن يعملوا بطريق غير مباشر منذ منذ بداية الحرب على معاونة الانجليز على كسب المعركة ، فقد كانوا يبيعون لهم كميات كبيرة من المواد الخام والذخيرة والمؤونة والبضائع الأخرى ، ولما حاولت المانيا وقف هذه التجارة بواسطة غواصاتها ، كانت مضطرة الى التعرض للتجارة الامريكية ذاتها ، فاعلنت امريكا الحرب على المانيا لأنها لم تحتمل تعريض الأرواح الأمريكية لخطر الموت ، وتعريض التجارة الأمريكية للتدمير .

وقد بدأت الحركة بقطع العلاقات الدبلوماسية مع المانيا ، وفي ٦ ابريل اعلنت عليها الحرب وتقرر وضع موارد البلاد من الرجال والمواد الخام والمصانع تحت تصرف الحلفاء .

وقد بدأ بعض الامريكيين — وعلى رأسهم الرئيس ودرو ولسن — يعتقدون ان من مصلحة امريكا دخول الحرب ، وأن مذهب مونرو لم يعد

صالحاً في الظروف الراهنة عندئذ ، وأن اوربا الجديدة التي ستنشأ بعد تلك الحرب يجب ان تختلف كلية عن اوربا القديمة . وقد كان من رأي هذا الفريق من الامريكيين أن تنشأ عصبة الامم ، ولذا وجب على امريكا ان تستعد لكي تلعب دوراً رئيسياً — كعضو في هذه العصبة — في المحافظة على السلام في العالم ، ودعا الدعاة للحرب في كل مكان ، زاعمين ان على امريكا ان تدخل الحرب لتنهي الحرب ، حتى ان ولسن في خطبته التي أعلن بها الحرب على المانيا في ٢ ابريل قال ان امريكا تهدف الى انقاذ العالم من أجل الديمقراطية .

الرئيس ولسن والمبادىء الاربعة عشر (٨ يناير ١٩١٨)

وفي الحال تأهبت الحكومة الامريكية للعمل ، لا علـى تعبئة الموارد العسكرية فحسب ، بل على تعبئة موارد الصناعة ، والعمل ، والزراعة كذلك ، وسرعان ما ابحرت من الثغور الامريكية القوافل البحرية الضخمة الواحدة بعد الاخرى ، حتى انه في اكتوبر سنة ١٩١٨ كان عدد الجيش الامريكي في فرنسا يربو على ١,٧٥٠,٠٠٠ جندي .

وقد أكد « ولسن » منذ البداية ان الحرب ليست موجهة ضد الشعب الالماني ، ولكنها موجهة ضد حكومته الاستبدادية ، وفي الرسالة التي وجهها الى الكونجرس في يناير سنة ١٩١٨ عرض للمبادىء الاربعة عشر المشهورة كأساس لسلام عادل ، واشتملت المبادىء على نبذ المعاهدات السرية الدولية ، وضمان حرية الملاحة في البحار ، وعلى ازالة الحواجز الاقتصادية بين الامم ، وايجاد مساواة تجارية بين الامم المحبة للسلام ، وخفض السلاح ، وتنظيم المطالب الاستعمارية وفقاً لمصالح سكان المستعمرات ومطالب الدول العظمى ، والجلاء عن بلجيكا وفرنسا ورد الالزاس واللورين الى فرنسا ، وتعديل حدود ايطاليا بما يتفق مع القومية الايطالية ، ومنح شعوب الامبراطورية النمسوية حق تقرير المصير ، والجلاء عن اراضي رومانيا وصربيا والجبل الأسود والسماح للصرب بالوصول الى شاطىء بحر الادرياتيك وحل مشكلات البلقان

على اساس القوميات . ومنح الحكم الذاتي لممتلكات الامبراطورية العثمانية وحق تقرير المصير لشعوب تلك الامبراطورية وحرية المرور في المضايق ، وانشاء دولة بولنده مع ايجاد ممر لها على البحر .

وجعل ويلسن من مبدئه الرابع عشر حجر الزاوية في السلام الا وهو تكوين عصبة من الامم لتوفر الضمانات المتبادلة لتحقيق الاستقلال السياسي والسلامة الاقليمية لكل من الدول الكبيرة والصغيرة على السواء .

ولم تقم القوات الامريكية بدور هام في الحرب حتى عام ١٩١٨ ولكن مجرد اعلان امريكا الحرب على المانيا كان له ثلاث نتائج :

أولاً : ارتفعت الروح المعنوية بين الحلفاء واعتقدوا انهم اذا استطاعوا الصمود عاماً آخر ، فانهم سوف يتلقون الامدادات الامريكية القوية .

ثانياً : استفاد الحلفاء من الامدادات المادية الامريكية فان قوة الحلفاء الشرائية كانت آخذة في الهبوط ، ولكن دخول امريكا الحرب فتح باب الامل للقروض الامريكية اي انهم بالاموال الامريكية التي يقترضونها من الحكومة يستطيعون ان يدفعوا للمؤسسات الامريكية التي يستوردون منها ما يشاؤون .

ثالثاً : احكام الحصار على المانيا لان امريكا كانت تتزعم قبل دخولها الحرب فكرة حق الدولة المحايدة للمتاجرة مع المانيا ولذلك ان الانجليز يضطرون الى اخلاء سبيل بعض السفن المحايدة الذاهبة الى المانيا ، اما بعد دخول امريكا الحرب فلم تعد امريكا تهتم باحترام حياد تلك السفن ، وبذلك استطاع الحلفاء تضييق الحصار على المانيا مما دعا بعض المؤرخين الى القول ان ذلك الحصار كان السبب الرئيسي في تحطيم المانيا في نهاية عام ١٩١٨ .

الجبهة الغربية عام ١٩١٧

في مستهل عام ١٩١٧ كانت لا تزال لدول الوسط الكفة الراجحة فقد كان في قبضتها معظم بلجيكا وشمالي فرنسا وصربيا والجبل الأسود ورومانيا

وبولنده ، حيث كانت كلها تحت الحكم الالماني . وكانت روسيا منهزمة مشغولة بالتقهقر لانقاذ ما يمكن انقاذه . وبقي امام الدول الغربية امل واحد هو قرار الولايات المتحدة بدخول الحرب في صف الحلفاء في ابريل ١٩١٧ .

وقد بدأت العمليات الحربية في ذلك العام بقيام القوات الفرنسية — وعلى رأسها قائدها الجديد نيفل Nivelle — بالهجوم الكبير الذي اشتركت فيه القوات الانجليزية . فرأى القائدان الالمانيان هندنبرج ولودندورف ان تقوم القوات الالمانية بحركة تراجع ماهرة في وسط الخط الالماني الى مواقع معدة من قبل . وسمي الخط الجديد الذي التزمته القوات الالمانية بخط هندنبرج . وقد اعطت تلك الحركة الحربية ميزة كبيرة للالمان اذ احتلوا هذه المرة مواقع حصينة كاملة الاستعدادات متصلة بالقواعد الالمانية الرئيسية ، أضف الى ذلك ان الالمان اثناء تقهقرهم ، قد نسفوا البلاد التي غادروها . وكان ذلك كله مدعاة الى تحطيم الخطط التي وضعها نيفل ، ومع ذلك فقد صمم على ان يهجم في جبهة تمتد من سواسون الى ريمس « Rheims » ففشل الهجوم فشلاً ذريعاً تبعته سلسلة من حركات العصيان في الجيش الفرنسي . وقد حدث كل ذلك في أيام ضربت الرقم القياسي في عدد سفن الحلفاء التي اغرقتها الغواصات الالمانية . وكان من جراء ذلك طرد نيفل من القيادة وتعيين الجنرال بتان « Petain » .

وقد حاولت القوات البريطانية تحت قيادة السير دوجلاس هيج (الذي خلف سير جون فرنش في نهاية عام ١٩١٥ في قيادة الجيش) مواصلة الهجوم وكان من اغراضها التخفيف عن الفرنسيين . وقد تم لها انتصاران عظيمان أولهما استيلاء الكنديين على خط فيمى وثانيهما الاستيلاء على خط مسين « Messines » .

موقعة كمبرى CAMBRAI

وفي نهاية الخريف وقعت معركة كمبرى (Cambrai) التي يطلق عليها

موقعة الدبابات ، فقد هاجمت حوالي ٣٨١ دبابة انجليزية الالمان في الفجر دون سابق انذار ، وقد حدث ذلك الهجوم في جبهة طولها ستة اميال ونجح الحلفاء في اختراق خطوط الخنادق الالمانية ، وفرح الانجليز بذلك النصر على الرغم من انه لم يكن حاسماً .

الجبهة الايطالية

ولما وجد الالمان انهم لم يستطيعوا بعد انتصارهم على روسيا ان يواصلوا تلك الانتصارات على الفرنسيين والانجليز عمدوا الى محاولة ضرب الايطاليين فقامت قوات معظمها نمسوية تؤيدها الامدادات الالمانية وتوجهها قيادة المانية بالهجوم على القوات الايطالية (في اكتوبر ١٩١٧) فطاردتها وهزمتها في موقعة كابورتو « Caporetto » ، واصبح الايطاليون مهددين باختراق الاعداء بلادهم حتى يصلوا الى البندقية ، ولكن أنقذت الامطار العاتية ايطاليا من الخطر ، ووقفت القوات النمسوية في الفلاندرز لا تستطيع المضي في تلك العملية الحربية الخطيرة ، بعد ان اغرقت الامطار الاراضي امامهم وفاضت الانهار من الالب الى الادرياتيك ، ونسف الايطاليون الكباري اثناء تقهقرهم .

مصر والعراق

وقد احرز الحلفاء في العراق والشرق الاوسط نجاحاً عظيماً ضد الاتراك عوضهم قليلاً عما اصاب سمعتهم في الجبهة الغربية ، وقد سبق للاتراك ان هزموا البريطانيين في معركة «كوت العمارة» في اوائل عام ١٩١٦ الا ان الامدادات كانت قد وصلت الى البريطانيين عن طريق الخليج العربي من الهند ومن انجلترا ووضعت القوات البريطانية كلها تحت امرة الجنرال سير ستانلي مود « Stanly Maude » ، وامضت تلك القوات الشهور الاخيرة من السنة تستعد للتقدم نحو نهر دجلة ، ثم بدأت سيرها في شهر ديسمبر ١٩١٦ . وفي شهر فبراير استولى الجنرال « مود » على «كوت العمارة» التي سبق ان انهزم عندها البريطانيون منذ عشرة شهور ، وطارد البريطانيون الجيش التركي

المتقهقر الى ان دخلت القوات الانجليزية مدينة بغداد ، وبذلك اعتقدوا أنهم اعادوا الى انجلترا سمعتها التي هبطت في الشرق ، ووضعوا حداً لأمل المانيا في التوسع نحو الشرق Crang nach Osten وقضوا على الروح المعنوية للاتراك.

وسارت الحوادث في الشرق ضد تركيا حليفة الالمان ففي نوفمبر سنة ١٩١٦ اعلن شريف مكة استقلال مملكة الحجاز واعترفت له دول الحلفاء بذلك الاستقلال . فكان على الاتراك ان يحاربوا الحلفاء والثوار العرب في وقت واحد .

وقد ساعد العرب الانجليز مساعدة غير مباشرة عندما كان الجنرال موري « Murray » يعمل جاهداً في سبيل حماية قناة السويس واقامة سكة حديد عبر شبه جزيرة سيناء لتسهيل الهجوم على فلسطين واخيراً تم الخط الحديدي ولكن فشل الانجليز في الاستيلا على موقع الاتراك الحصين في غزة في ابريل ومايو ، الا ان محاولة الجنرال اللنبي في التقدم نحو فلسطين قد نجحت ، اذ استولى على بير سبع في هجوم مفاجيء في أول نوفمبر وبعد ذلك بخمسة ايام سقطت غزة ، ثم اتجهت القوات الانجليزية شمالاً فاستولت على يافا وفي ١١ ديسمبر دخل اللنبي بيت المقدس . وما انتهى عام ١٩١٦ حتى كان الانجليز يسيطرون على خط حصين يمتد من البحر الابيض المتوسط الى البحر الميت شمال يافا وبيت المقدس بينما تقدمت قواتهم في العــراق حتى اصبحت على بعد مائة ميل من الموصل . وأخذ الاتراك يستنجدون حلفاءهم ، فأرسل لهم الالمان قوة المانية تحت قيادة فولكنهاين « Falkenhayn » الا ان امبراطوريتهم كانت في طريقها الى الانهيار .

حملة ١٩١٨

عندما استهل عام ١٩١٨ كانت القيادة الالمانية تدرك انها على الرغم من انتصارات قواتها الباهرة في بعض المواقع في العام الماضي ، الا ان الهزيمة آتية لا ريب فيها ، اذا لم يسارعوا الى احراز النصر الحاسم في اقصى سرعة ،

فقد فشلت حرب الغواصات ، وبدأت القوات الامريكية تترى نحو فرنسا وهي ولو انها كانت تحتاج الى بعض شهور للتدريب ، الا أنها أصبحت تصل باعداد تضطرد في الازدياد ، واصبح واضحاً ان الامبراطورية التركية آخذة في الانهيار ، وكان الموقف في الامبراطورية النمساوية في أشد حالات الخطورة والتوتر ، وشعوبها تهدد بالثورة الداخلية في كل مكان .

وفي المانيا كان الموقف الداخلي ينذر بالخطر فقد سبب الحصار الطويل تذمراً وقلقاً عند البعض ، ولعب اليهود دوراً خطيراً في هذا الشأن ، وظهر بعض العصيان بين بحارة الاسطول الالماني المعطل منذ اواخر عام ١٩١٧ . كل ذلك جعل الالمان يعتقدون ان الجيش الالماني اذا لم يسارع الى توجيـــه ضربات حاسمة تنهي الحرب ، قبل اشتراك القوات الامريكية بكامل استعدادها فان الهزيمة سوف تحيق بدول الوسط ، ولا سيما ان الفرصة سانحة — بعد تسليم روسيا وخروجها من الحرب — لنقل الجيوش الالمانية التي كانت تحارب في الجبهة الروسية ، الى الميدان الغربي . وبذلك تصبح للقوات الالمانية الاغلبية العددية في ذلك الميدان ، وخصوصاً ان عدداً كبيراً من الجنود البريطانيين كانوا مرابطين في ميادين اخرى : في سالونيك وفلسطين والعراق ومصر . وتلك هي الفرصة الاخيرة للالمان فرأوا أن يجربوا حظهم بمحاولة القيـــام بهجوم خاطف .

وقد قام الالمان فعلاً بثلاث محاولات . وجهوا المحاولة الاولى في ٢١ مارس عند نهاية جنوب الخط البريطاني في فرنسا بالقرب من سان كونتن « St . Quentin » وقد انهزم الفرنسيون هناك وخسروا كل ما كسبوه في موقعة السوم ، بالاضافة الى الخسارة الكبيرة في الارواح والذخيرة والعتاد ، واصبح الخط الحديدي الموصل الى اميان « Amien » مهدداً ، ولو نجح الالمان في الاستيلاء على هذا الخط لانفصلت بذلك الجيوش الفرنسية عن الانجليزية ولكن الانجليز أخذوا يعوضون ذلك بارسال الامدادات من الشبان الذين لم يكمل تدريبهم بعد ، وكذلك الكميات الوافرة من الذخائر التي كانت تصل

تباعاً الى الميدان من بريطانيا والواقع ان الصبر والحماسة التي اظهرهـا البريطانيون في أحلك الظروف كان لهما أكـبر الاثر في كسب النصر في النهاية .

اما الهجوم الثاني فقد وجهه الالمان في ابريل ١٩١٨ ضد نهـاية الخط البريطاني في الشمال جنوب يبر « Ypers » وهو الهجوم الذي كاد ينفذ الى الساحل ويحرم البريطانيين من مواصلاتهم خلال كاليه وبولوني« Boulogne » .

ووجهوا الهجوم الثالث ضد الفرنسيين في شمباني « Champagne » في ٢٧ مايو وهو الهجوم الذي دفع بالالمان مرة ثانية الى المارن عند « Cnateau Thierry » على بعد اربعين ميلاً من باريس ، وكاد يشطر الخط الفرنسي نصفين مما يؤدي الى سقوط باريس .

ولم تنجح تلك الحملات الثلاثة نجاحاً حاسماً . لقد وصلت القوات الالمانية الى مواقع هامة قربتها من العاصمة الفرنسية ولكن الالمان كانوا قد أوهنوا قواهم وبذلوا جهداً انهك جنودهم ، في حين لم تكن لديهم قوات احتياطية .

وعندئذ جاء دور الحلفاء الذين تعلموا الحكمة عند الشدائد ، فاتفقوا على توحيد قيادتهم ، ووفقوا الى اختيار القائد الفرنسي العظـيم المارشال فوش وسرعان ما حدث تغيير حاسم في الموقف من يوليه الى نوفمبر باحراز سلسلة من الانتصارات لا في فرنسا وحدها ، بل في ايطاليا ومقدونيـا وفلسطين والعراق .

وهكذا انقلب الوضع فجأة في ميدان الحرب ، وبدأ الالمان يخسرون الارض التي كسبوها ، ولم ينجح هجومهم لأن طبيعة تلك الحرب كانت تتطلب منهم عند تقدمهم في ارض الاعداء ، أن يظلوا على اتصال محصن بالطرق والسكك الحديدية التي تؤدي الى مراكز الامداد التي تزودهم بالذخيرة والطعام . لأن الجيش — كما قال نابليون — « يسير بمعدته فان خلت معدة الجندي اصبح لا قيمة له » .

وقد لعب سلاح الطيران التابع للحلفاء دوراً عظيماً في وقف هجوم الالمان اذ سيطر على الجو وألحق بالقوات الالمانية الزاحفة خسارة فادحة اثناء تقدمهم .

وقد قام الالمان بهجوم رابع على الفرنسيين في شهر يوليو ، ففشل ذلك الهجوم ، وتمكن المارشال فوش من القيام بهجوم مضاد عرف في التاريخ باسم معركة المارن الثانية . ثم قام الانجليز بهجوم أمام أميان في ٨ أغسطس وكان ذلك الهجوم الانجليزي مفاجئاً حتى أن القائد الالماني لودندرف « Laudendaorff قال عنه في مذكراته بعد ذلك أن يوم ٨ « أغسطس ١٩١٨ » كان أسود يوم في تاريخ الحرب » ، وتلت ذلك اليوم سلسلة من الانتصارات السريعة للحلفاء في ميادين كثيرة ، ولم يمنحوا الالمان وقتاً لمعاودة تنظيم صفوفهم ولذلك كان التقهقر العام المتواصل .

اما في الميادين الاخرى فقد بدا انتصار الحلفاء بتوالي ، ففي جبهة سالونيك قرر الانجليز والفرنسيون والصربيون والايطاليون الهجوم على البلغار الذين انهزموا وسلموا مخالفين بذلك أوامر القائد الالماني الذي يقود قواتهم . وفي نهاية شهر سبتمبر علم لودندورف بتسليم بلغاريا ، وان الحلفاء اخترقوا خط هندنبرج ، وادرك حينئذ أن المانيا سوف تخسر الحرب ولذلك نصح الحكومة الالمانية أن تعقد صلحاً عاجلاً مع الحلفاء بالشروط التي يمكن قبولها . فاتصلت الحكومة الالمـانية بالرئيس ولسن وطلبت اليـه أن يضع شروطـاً للهدنة بين المانيا والحلفاء وبذلك بدأت المفاوضات ثم اعلنت الهدنة في ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ .

على ان القتال ظل مستمراً اثناء المفاوضات ، وأخذ الالمان يتقهقرون نحو بلجيكا في الوقت الذي سمعوا فيه عن انهزام حلفائهم في الميادين الاخرى ، فقد انهزم البلغاريون واضطروا الى طلب الهدنة في نهاية سبتمبر ١٩١٨ ، وتحطم الاتراك في فلسطين والعراق ، وطلبت تركيا الهدنة ووقعتها في شهر

اكتوبر ، وانهارت القوات النمسوية المجرية حتى هزمها الايطاليون في موقعة فيتوريو فينتو « Vitorio Veneto » وبلغ الانحلال بالمملكة الثنائية الى درجة انفصال النمسا عن المجر ، وكونت كل منهما حكومة قائمة بذاتها تطلب الهدنة لنفسها ، وفر الامبراطور النمسوي « شارل » من بلاده .

وكانت المانيا في اكتوبر قد أعلنت أنها تقبل التسوية على اساس شروط ولسن الاربعة عشر ، ولكن ولسن أعلن أخيراً أن الحلفاء لا يسعهم الاتفاق مع « الرؤساء العسكريين ، والحكام المستبدين » الذين وجهوا سياسة المانيا وجهة عسكرية عدوانية ، وكانوا مسئولين عن قيام الحرب ، واضاف الى ذلك قوله أن الهدنة الاخيرة يجب أن تتم بحضور المرشال « فوش » وبالشروط العسكرية التي يمليها .

وامام تلك التصريحات التي تحمل في طياتها عدة معان ، لم يبقَ للامبراطور ولهلم الثاني مكان في الوضع الجديد ، فاضطر الى التنازل عن العرش ، ثم فر الى هولنده . واستقال القائد الالماني « لودندورف » وتبعه عدد كبير من الحكام الالمان .

وعندما تخلى قواد المانيا وحكامها العسكريون عن مناصبهم ، تولت الحكم وزارة أميل الى « الديمقراطية » يرأسها مستشار جديد هو ايبرت « Ebert» وكان أول عمل قام به ، ان ارسل مندوبين عن الحكومة الالمانية الى المارشال فوش ليوقعوا الهدنة ، وقد تم عقدها في عربة قطاره الخاص ، في ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ .

وبموجب تلك الهدنة ، اجبرت المانيا على الجلاء عن الالزاس واللورين ، وعن جميع الاراضي التي احتلتها اثناء الحرب ، وهي فرنسا وبلجيكا والبلقان وبولنده والاجزاء الغربية من روسيا ، وسحبت قواتها المسلحة من حدودها غربي الرين ، واضطرت الى تسليم ذخائرها وطائراتها وسياراتها ومعظم قطع اسطولها وجميع غواصاتها . وان تلغى معاهدتي برست لتوفسك وبوخارست.

اللتين عقدتهما المانيا مع روسيا ورومانيا .

وهكذا انتهت الحرب العالمية الاولى التي استمرت اربع سنوات وخمس عشرة اسبوعاً ، اشتركت فيها ثلاثون دولة ، جندت لها خمساً وستين مليون مقاتل ، لقي مصرعه منهم ثمان ونصف مليون ، وجرح أو أسر تسع وعشرون مليون ، وخسر العالم ملايين الملايين من الاموال، وكشفت الحرب للعالم أنه قد اصبح وحدة اقتصادية وسياسية متماسكة الاجزاء ، لا بد من وجود وسيلة لاقامة العلاقات الودية بين شعوبه وتجنب آثام الحرب وشرورها بعمل تسوية عادلة .

وقد تقرر ان يجتمع ساسة العالم لاجراء تلك التسوية ، واعادة بناء العالم المحطم ، ولكن الساسة الذين اجتمعوا في مؤتمر باريس كانوا هم الساسة المنتصرون في الحرب . فالى اي مدى استطاع هؤلاء أن يجردوا انفسهم من النزعات الشخصية والتحيز القومي ، ليقيموا العالم الجديد على أسس من السلم والعدالة ؟.

تجيب على هذا السؤال ، الاحداث الخطيرة التي حدثت في اوربــا في العشرين عاماً التي مضت بعد تسوية الصلح في سنة ١٩١٩ وقيام الحزب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ .



اوربا بعد الحرب العالمية الاولى
١٩١٤ — ١٩١٨

الفصل الرابع عشر

مؤتمر الصلح

انتهت الحرب عندما اعلنت الهدنة ، ولكن توقيعها لم يعقبه عقد تسويات الصلح مباشرة ، فقد مر شهران بين وقف القتال وبين الاجتماعات المبدئية لعقد مؤتمر الصلح . وذلك لسببين : أولهما احتياج الدول الى بعض الوقت لاختيار ممثليها في المؤتمر ، وثانيهما ان ممثلي اكبر دولتين من دول الحلفاء لم يكن في وسعهما الوصول الى مقر المؤتمر في الحال ، فالرئيس ولسن ، الذي قرر ان يرأس وفد الولايات المتحدة ، لم يكن يستطيع الوصول قبل منتصف شهر ديسمبر . والمستر لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا لم يكن يستطيع فرض نفسه رئيساً لوفد بلاده قبـــل ان يستفتي الشعب البريطاني ، وذلك باجراء انتخابات تبـــين مدى ثقة الامة في حزب الاحرار الذي يرأسه ، وقد اخرته عملية الانتخابات عن الحضور الى المؤتمر اربعة اسابيع .

هذا الى حرص القائمين بالامر في المؤتمر على جمع المعلومات التاريخية والجغرافية والبشرية والاقتصادية ، تقوم باعدادها لجان علمية وفنية . وشرع عدد من الخبراء يعملون عدة شهور في تجميع المعلومات والحقائق التي يحتاج اليها المؤتمر .

واتخذ الحلفاء باريس مقراً للمؤتمر اعترافاً منهم بالدور الخطير الذي لعبته فرنسا اثناء الحرب ، وما صادفته من اهوال وكوارث ، وبدا ممثلو الدول يفدون على باريس في مستهل عام ١٩١٩ ، وقد حرم الحلفاء روسيا من ارسال مندوبين عنها في المؤتمر ، فقد سبق ان عقدت صلحاً منفرداً مع الاعداء (مارس ١٩١٨) ، ثم ساءت علاقاتها بحلفائها السابقين بعد قيام الثورة الشيوعية .

والواقع ان مؤتمر الصلح لم يعقد للمفاوضة في شروط الصلح مع الاعداء ولكن لاملاء تلك الشروط عليهم ، وهي الشروط التي اتفق عليها في غيبتهم اذ لم يكن من حق الدول المنهزمة او الدول التي وقفت على الحياد ان ترسل من يمثلها في المؤتمر عند وضع شروط الصلح .

وفي ١٢ يناير سنة ١٩١٩ ، اجتمع ممثلو كل من الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى وفرنسا وايطاليا اجتماعاً غير رسمي ، تقرر فيه ان تمثل في المؤتمر كل دولة اعلنت الحرب على المانيا او قطعت علاقاتها بها رسمياً ، وان يتراوح عدد ممثلي كل دولة بين واحد وخمسة اعضاء — واقتصرت ميزة الخمسة اعضاء على الخمس دول الكبرى : الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وايطاليا واليابان — اما الدول المغلوبة فلم تمثل في المؤتمر الا حين دعيت لتسمع الحكم عليها .

وهكذا لم تشترك في المؤتمر اشتراكاً فعلياً الا الدول الكبرى المتحالفة والمؤتلفة « Allied & Associated Powers » ، وهي بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة وايطاليا واليابان . اما الدول الصغرى التي سمح بتمثيلها بمندوب او مندوبين فهي تلك التي اقدمت في المرحلة الاخيرة على إعلان الحرب على المانيا كالصين وسيام ومعظم جمهوريات امريكا الجنوبية والوسطى ، وكذلك الشعوب التي كانت خاضعة لالمانيا والنمسا وتركيا ثم ثارت عليها ، قد اعتبرها المؤتمر شعوباً محاربة ولو انها لم تكن اذذاك دولاً منظمة ، ولذلك

انضم الى ممثلي الدول في المؤتمر مندوبون عن بولنده وتشكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا وشعوب بحر البلطيق وبلاد العرب والصهيونيون الذين وعدوا بأن تكون فلسطين وطناً قومياً لليهود ، مثلت كل هذه الشعوب في المؤتمر ولكن الذين وقعوا الصلح هم مندوبو الدول الثلاث الاولى فقط (بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة)[1] .

وقد ادى حرمان الدول المغلوبة والدول المحايدة وروسيا من الاشتراك في اعمال المؤتمر ، الى الانتقاص من صفته الدولية ، وجعله اداة عقـــاب وانتقام ، وقد غلبت هذه الصفة على اعمال المؤتمر عقب الحرب مباشر ، وكانت مصدراً للمشكلات التي نشأت في العالم بين الحربين العالميتين ، الاولى والثانية (١٩١٨ — ١٩٣٩) .

تشكيل المؤتمر

كانت السلطة في اول الامر في يد مجلس مكون من عشرة مندوبين يمثل كل اثنين منهم دولة من الدول الخمس الكبرى ، ثم رؤي ان تصدر القرارات الرئيسية من مندوبي الدول الخمس الكبرى وذلك لضمان سرعة صدورها وسرية بحثها ، وبعد فترة وجيزة انسحبت اليابان من عضوية المؤتمر لعدم اهمية المسائل الاوربية بالنسبة لها والواقع ان الكلمة العليا في تنظيم العالم اصبحت في ذلك الوقت في يد ثلاثة رجال :

كليمنصو CLEMENCEAU

كان اول هؤلاء الثلاثة جورج كلمنصو « رئيس الوزارة الفرنسية ورئيس المؤتمر ، وكان كلمنصو رجلاً مسناً يبلغ الثمانين من العمر ، وقد كان اثناء

---

(١) اقتصرت ميزة الخمسة اعضاء على الخمس دول الكبرى : الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى وفرنسا وايطاليا واليابان ، ومثلت كل من بلجيكا والبرازيل وصربيا بثلاثة اعضاء . ومثلت كل من استراليا وكندا والصين وتشكوسلوفاكيا واليونان والحجاز والهند وبولنده =

الحرب الفرنسية البروسية ١٨٧٠ – ١٨٧١ محافظاً لاحد احياء باريس ، يتقلب في الوظائف حتى اصبح رئيساً للوزراء خلال السنة الاخيرة من الحرب العالمية الاولى ، وكانت عقليته وليدة الظروف التي كانت تسود اوربا طوال حياته ، لذلك كانت تتمثل امامه الذكريات المؤلمة التي عاشت فيها فرنسا بعد الهزيمة الكبرى التي حاقت بها في الحرب السبعينية ، والتي انتزعت منها اجزاء هامة عزيزة عليها ، ولذلك كان كل همه ان ينتقم من المانيا ، ويقص اطرافها ، ويحطم اقتصادياتها ، ويقضي على جيشها ، حتى لا تعود الى تهديد فرنسا في المستقبل ، وقد كان ولسن داهية المؤتمر ، حتى اطلق عليه اسم (النمر) ، وسماه الفرنسيون ابا النصر Pére de La Victoire واخيراً كان كلمنصو كفئاً لرئاسة المؤتمر فقد كان خبيراً بالشئون الاوربية ، ضليعاً في اللغات الاوربية المهمة الثلاثة (الفرنسية والانجليزية والايطالية) ولذلك استطاع ان يسيطر على المؤتمر ، ويقوده الى الوجهة التي تؤمن فيها فرنسا على نفسها ، وتحتفظ بالزعامة التي كان يراها خليقة بها ، ولا سيما ان العالم كان يعتبر المانيا في ذلك العام (١٩١٩) عدوته الاولى نظراً لما جرته على العالم من الخراب الشامل ، وقد استطاع كلمنصو ان يستفيد من هذا الشعور ، ويستغل النصر الدولي على المانيا فيحقق لفرنسا ما كانت ترجوه من سلام دائم ، واسترجاع ما انتزعته منها المانيا في الحرب السابقة .

ولسن WOODROW WILSON

والرجل الثاني هو الرئيس ولسن صاحب الشروط الاربعة عشر التي كان يهدف بها الى ارساء قواعد العالم الجديد على اسس من العدل والسلام ، وهو الذي جنب امريكا شر الحرب بقدر ما استطاع ، وقد عرف قبل مثوله في

= والبرتغال ورومانيا وسيام وجنوب افريقية بعضوين اثنين ، ومثلث كل من بوليفيا وكوبا واكوادور وجواتيمالا وهايتي وهندوراس وليبيريا ونيكاراجوا وبيرو وارجواي بعضو واحد .

المؤتمر بخطبه الرائعة ذات المعاني السامية التي ضمنها قواعد نظام عالمي ديمقراطي يبتعد بمبادئه عن الحرب وينزع الى السلام ، ولذلك عندما ادركت المانيا انها ستخسر الحرب ، كان املها الوحيد أن تكون مبادىء ولسن هي المبادىء التي يسير عليها العالم الجديد ولذلك قبلت (شروط ولسن الاربعـــة عشر) ، ورضيت أن تسلم على أساسها .

وكانت تسيطر على ولسن فكرتان اساسيتان يريد تنفيذهما : الاولى حق تقرير المصير ، والثانية هـــي فكرة التعاون الدولي « Internationalism وهي فكرة تهدف الى ايجاد تعاون دولي منظم بين الامم الحرة ، لتسويـــة المنازعات بالطرق السلمية ومنع الحروب ، ولذلك اشتملت كل معاهدة من معاهدات الصلح على ميثاق عصبة الامم .

ومع شهرة ولسن وما كان لشخصيته من مهابة واحترام ، الا أنه كان غير ملم بما في المشكلات الاوربية من تعقيد ، ولم يكن اثناء المناقشات التي دارت في مؤتمر الصلح دبلوماسياً من الطراز الأول ، ولذلك لم يستطع أن يدافع عن شروطه الاربعة عشر ويقنع بها ممثلي الدول الاستعمارية الكبرى وكان أهم أثر لتلك الشروط أنها خدعت الشعوب الصغيرة وجعلتها تعلق عليها آمالاً كبيرة في مستقبل أكثر حرية وأوفى استقلالاً ، وهكذا لم يستطع « ولسن » أن يحقق لعصبة الامم تلك الآمال التي تعلقت بها أكثر الامم .

لويد جورج LIOYD GEORGE

والرجل الثالث في المؤتمر هو المستر لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا اثناء العامين الاخيرين من الحرب ، وكان يختلف عن زميليه اختلافاً كبيراً ، كان اذكى منهما وأكثر مرونة ، وأوسع أفقاً ، وقد مثل الرأي البريطاني اصدق تمثيل ، فقد كان يرغب في تخفيض قوة المانيا الحربية على شرط ألا يؤدي هذا التخفيض الى تفوق فرنسا الحربي في اوربا ، ولذلك حاول كثيراً ان ينص على أن تجريد المانيا الاجباري من السلاح ينبغي أن يتبعه تجريد الدول

الاخرى من السلاح عن رغبة واختيار ، وكانت انجلترا تتظاهر على لسان لويد جورج بأنها ترى ان التسوية يجب الا تمليها روح الانتقام ، ولكن الرأي العام البريطاني ثار عليه عندما طالب بتخفيض التعويضات التي قرر الحلفاء فرضها على المانيا ، اذ وصلته برقية من ٣٧٠ نائباً من اعضاء مجلس العموم يحتجون عليه ويذكرونه بوعوده للناخبين ايام اشتداد الازمة بين انجلترا والمانيا.

اورلندو ORLANDO

اما شخصية المؤتمر الرابعة ، فهي شخصية المندوب الايطالي السنيور اورلاندو Orlando ، وكان أقل زملائه ظهوراً ، وجه اهتمامه نحو اكتساب أكثر ما يمكن كسبه من الاراضي النمسوية الواقعة في شرق البحر الادرياتي – وهي الارض التي أصبحت تكون الآن يوغوسلافيا – ، وقد تحمل في سبيل الوصول الى هذا الهدف هجوماً عنيفاً من الرئيس ولسن ومن كليمنصو الى ان ظفر بضم التيرول النمسوي الى ايطاليا ، ثم ميناء تريستا بما جاورها من ساحل يشمل ميناء فيوم « Fiume » ، وهو الميناء الذي استولت عليه عنوة حملة ايطالية رغم ارادة مؤتمر الصلح ، على ان ايطاليا كانت تزعم دائماً ان مطالبها لم تلق العناية الواجبة في المؤتمر ، وانها كانت ضحية من ضحاياها معاهدات الصلح .

والواقع أن الكلمة العليا في تنظيم العالم كانت للثلاثة الكبار الذين يمثلون فرنسا وانجلترا والولايات المتحدة ، وقد حرمت ثلاث دول كبرى من الاشتراك بممثليها في المؤتمر ، وهي روسيا وامبراطورية النمسا والمجر والمانيا . أما روسيا فقد اختارت الانسحاب من الحرب والتسليم لالمانيا قبل الحرب بعام واحد ، وظلت مسرحاً للحروب الداخلية بين حكومة البلشفيك أو الشيوعيين الذين كانوا يحكمون في موسكو ، وبين خليط من القوات التي كانت تعارضهم وتهاجمهم .

وقد اجتمع المؤتمرون في جو من الكراهية والخوف ، وكراهية

لالمانيا وحلفائها ، وجشع للحصول على اكبر رقعة من اراضي المستعمرات ، وكسب للتعويضات وخوف من الشيوعية ، كذلك كان الصلح الذي انهى الحرب صلحاً املاه المنتصرون ، ولم يكن عن طريق المفاوضة .

معاهدة فرساي مع المانيا

تعتبر معاهدة فرساي التي املاها الحلفاء على المانيا اهم تسوية تمت بعد انتهاء الحرب ، نظراً لما ترتب عليها من الآثار الخطيرة ، التي احفظت الالمان على اعدائهم ، وجعلتهم يتطلعون غداة توقيعها الى اليوم الذي يستطيعون فيه تمزيقها ، واستعادة ما سلبه الحلفاء منهم ، ولذلك لم ينظر الشعب الالماني الى المعاهدة على انها تسوية نهائية ، بل اعتبرها هدنة يستعد خلالها للانتقام .

وقد جرت العادة في مؤتمرات الصلح على ان يجتمع المنتصرون والمنهزمون على مائدة الصلح ، لكي تمنح الدولة المنهزمة فرصة للدفاع عن نفسها وتبرير مسلكها ، ولكن الحلفاء قرروا ان يكتبوا شروطهم ويسلموها الى المندوبين الالمان كوثيقة واجبة التنفيذ، وقد منح هؤلاء المندوبون فرصة اسبوعين لدراسة شروط المعاهدة ، وابداء ما يعن لهم من ملاحظات — على أن تقدم تلك الملاحظات كتابة— وقد اعترض المندوبون الالمان على معظم شروط الصلح ، ومع ذلك لم يؤخذ برأي واحد من آرائهم، وحاول لويد جورج انصاف الالمان بتخفيف بعض الشروط المجحفة ، وخاصة فيما يتعلق بالتعويضات التي فرضت على المانيا ، الا انه لم يستطع أن يتغلب على معارضة الفرنسيين في تخفيفها . ومما ساعد على انتصار الرأي الفرنسي الذي يمثله « كليمنصو» أن الرئيس ولسن كان قد فقد حماسته ، وأصبح يميل الى انهاء مشروع الصلح بأي طريق . ولو أدى ذلك الى تحطيم شروطه الاربعة عشر.

ويقول بعض المؤرخين أن المانيا لم تمثل في المؤتمر ، لأن الحلفاء كانوا يتوقعون اثارة الخلافات الكامنة فيما بينهم، وكانوا حريضين على أن يظهروا امام الالمان بمظهر الاتحاد في الرأي ، والاجماع على كل مادة من شروط

الصلح وكانوا – بالاضافة الى ذلك – يشعرون بــأن المبعوثين الالمان قد لا يستطيعون كظم غيظهم ، وأن مجرد ظهورهم على مائدة الصلح سيثير روح السخط والكراهية التي كانت تسود الجو في تلك الايام ، ولكن الواقع ان ابعاد المانيا عن مائدة الصلح كان خطأ لا شك فيه ، فان مؤتمرات الصلح من شأنها ان تكون خطوة للتفاهم وتقريب وجهات النظر ، ولكن ابعاد المانيا اعطى الساسة الالمان فرصة وصف معاهدة فرساي بأنها « وثيقة املاها طرف واحد » .

وأعلنوا فيما بعد أنهم لا يتقيدون بأمضاء مندوبيهم عليها ، فقد وقعوها تحت تأثير الرهبة والوعيد ، ولا سيما أن الحصار الذي ضرب على المانيا اثناء الحرب ، لم يرفع عنها نهائياً الا بعد توقيع المعاهدة .

شروط تأديبية

ولعل أشد ما راع الالمان من شروط الصلح هو اجبارهم على الاعتراف في المعاهدة بقرار الحلفاء بأن المانيا هي مسئولة عن الحرب ، وما ترتب على هذا الاعتراف من فرض شروط تاديبية نصت عليها المعاهدة ، كانت مسألة التعويضات اشدها واقساها ، فقد ألقيت على المانيا تبعة كل ما سببته الحرب من خسائر واضرار ، وكان عليها ان تدفع تعويضات عن كل ما سببته من اغراق السفن وضرب المدن ، بل شملت ايضاً احصاءات كبيرة لتعويض اهالي الجنود الذين قتلوا في الحرب ، كما فرض عليها ان تسلم اسطولها التجاري ومقادير كبيرة من الفحم والماشية والآلات وغيرها .

واعطيت فرنسا حق استغلال مناجم الفحم في وادي السار لمدة خمسة عشر عاماً تعويضاً لها عما لحق مناجمها من تدمير ، وانشأت لهذا الاقليم ادارة خاصة خاضعة لعصبة الامم ، وفي نهاية الخمسة عشر عاماً يستفتى أهل السار في مصيرهم ، ولما كان معظم سكان اقليم السار من الالمان ، كان من البديهي

أنهم سوف يفضلون الانضمام الى المانيا[1] .

وأخيراً فرضت على المانيا شروط قاسية كان هدفها سحق العسكرية الالمانية بحيث لا تقوم لها بعد قائمة . فقد احتل جنود الحلفاء جميع البلاد الالمانية في غرب الرين ، واحتلت بعض المواقع في شرقه مدة خمسة عشر عاماً على الاكثر بحجة تأمين تنفيذ المعاهدة ، وبعد مضي تلك المدة تبقى هذه المنطقة وما يجاورها من الاراضي شرقاً الى مسافة خمسين كيلومتراً منزوعة السلاح على الدوام ، خالية من القلاع والجنود ووسائل الدفاع . ثم ارغم الحلفاء المانيا على ان تلغي نظام التجنيد الاجباري ، وألا يزيد جيشها على مائة ألف رجل ، وأن تسلم اسطولها الى الحلفاء ، لكن الالمان كانوا قد عمدوا من قبل الى اغراق أكبر جزء منه في مياه سكابافلوا « ScaPa Flow » بعد ان سلم للحلفاء . كذلك حرمت المانيا من انشاء الغواصات ، ومن الاحتفاظ بقوات جوية أو بحرية مسلحة ، وسلمت كل ما لديها من طائرات الى الحلفاء .

وقد خدع الحلفاء المانيا عندما افهموها ان نزع سلاحها يعتبر مقدمة لنزع سلاح بقية الدول ، وظنت المانيا أن الدول الكبرى جادة في هذا القول ولا سيما أن كليمنصو رئيس المؤتمر تحمس في أول الأمر لتنفيذ هذا المشروع الخاص بنزع سلاح الدول عامة ، ومع ذلك فلم يتقرر سوى نزع سلاح المانيا وحلفائها المهزومين .

الحدود الالمانية الفرنسية

عندما بدأ المؤتمرون في فرساي في رسم خريطة اوربا الجديدة ، كانوا عازمين على قص اطراف المانيا ، واعلنوا ان رائدهم في رسم الخريطة الجديدة هو مبدأ القومية ، وقد اتخذوا وحدة اللغة في معظم الاحيان أساساً للقومية — ومع ذلك لم يتبعوا هذا المبدأ في كل الاحوال — فلم يلتزم الحلفاء مبدأ

---

(١) اجرى الاستفتاء في عام ١٩٣٥ ، وكانت النتيجة عودة السار الى المانيا .

القومية القائم على اساس اللغة في حالة الالزاس واللورين ، فقد أعيدت هاتان الولايتان الى فرنسا ، بحجة أن عواطف أهلهما مع الفرنسيين وان كانوا يتكلمون الالمانية ، والواقع أن فرنسا كانت تؤمل أن تضم اليها جانباً من المانيا نفسها حتى تصل حدودها الى نهر الرين – وهي الحدود القديمة لبلاد الغال – وكان القائد الفرنسي الجنرال فوش يكرر دائماً ان تلك هي الوسيلة الوحيدة التي تؤمن فرنسا ضد عدوتها الدائمة المانيا ، ولم تستطع فرنسا بطبيعة الحال أن تحقق هذا الحلم بسبب معارضة انجلترا وامريكا هذا الاقتراح . ولو أمكن تنفيذه، لكان مدعاة لسخط الرأي العام الاوربي ، لأنه يخالف حق تقرير المصير ، بادخال ثمان ملايين من الالمان في الحدود الفرنسية بطريقة القسر والاجبار .

والى جانب انتزاع الالزاس واللورين من المانيا لينضما الى فرنسا ، كان عليها أيضاً أن تتنازل عن مدينتي بوين Eupen ومالمدى Malmédy لبلجيكا .

الحدود الالمانية – البولندية

كانت مشكلة الحدود الالمانية الشرقية من اعقد الامور ، اذ تختلط على طول حدودها الشرقية العناصر البولندية والجرمانية التي تتبادل الكراهية ، وأخيراً عينت معاهدة فرساي تلك الحدود بين المانيا وبولنده ولكن تسوية تلك الحدود تركت تحت حكم بولندة مليونان ونصف المليون من الألمان .

وفصلت بروسيا الشرقية الالمانية عن بقية المانيا بممر بولندي يصل الى الساحل ، وبذلك احيطت بروسيا الشرقية من كل نواحيها بأرض بولندية .

وكانت دنتزج Danzig مدينة المانية على الساحل ، فأصبحت بموجب التسوية مدينة دولية حرة تحت اشراف عصبة الامم ، واعتبرت منفذاً طبيعياً تطل منه بولنده على البحر . ولذلك اعطي لها الحق في الاشراف على الميناء اما الادارة المحلية في البلدة فظلت في يد سكانها الالمان .

كذلك اقتطع الحلفاء من المانيا اقليم بوزن وجزءاً كبيراً من سيليزيا العليا ،

وضموه الى بولنده ، وذلك بعد اجراء استفتاء في تلك الجهات، اتضح منه ان اختلاط العنصرين في تلك المنطقة يجعل من الصعب ايجاد حل يرضي الجميع. وبذلك مدت بولنده حدودها الى ما وراء البلاد التي يتكلم أهلها البولندية، وكانت حجة ساسة المؤتمر في تبرير هذا الاجراء أن تلك الاراضي التي خسرتها المانيا كانت في الواقع جزءاً من بولنده القديمة قبل تقسيمها في القرن الثامن عشر ، لكن الواقع أن الحلفاء كانوا يهدفون الى تقوية بولنده لتكون حصناً ضد روسيا من جهة ، وضد المانيا من جهة أخرى .

وبالاضافة الى ما خسرته المانيا في اوربا ، كان عليها أن تسلم كل املاكها فيما وراء البحار ، ففي الشرق الاقصى استولت اليابان منها على كيوتشو وشانتونج في الصين . وأعطيت استراليا غانة الجديدة. اما مستعمراتها في افريقية فقد قسمت بين فرنسا وبريطانيا ، فاستولت فرنسا على المستعمرتين الواقعتين في وسط املاكها الافريقية ، وهما مستعمرتي الكمرون وتوجولاند بعد ان ضمت منهما اجزاء الى مستعمرتي نيجيريا وساحل الذهب البريطانيتين . واستولت بريطانيا على اهم مستعمرات المانيا في افريقيا وهي بلاد تنجانيقا .

اهمية معاهدة فرساي مع المانيا

كان لتوقيع معاهدة فرساي آثار بعيدة المدى ، فقد اقتطع المنتصرون من المانيا أكثر من ٢٥,٠٠٠ ميل مربع من أملاكها ، وستة ملايين نسمة من سكانها ، ولكن أكبر خسارة منيت بها المانيا انها حرمت من مواردها في المواد الخام ، فقد نقصت مواردها في الحديد والفحم وزيت البترول والزنك والرصاص والمواد الغذائية نقصاً فاحشاً ، فبضياع الالزاس واللورين خسرت الحديد والبترول ، وبضياع منطقة السار خسرت اكبر مورد في الفحم ، وبضياع ما خسرته من الاراضي في سيليزيا العليا حرمت من اكبر مورد للزنك والرصاص وجانب كبير من موردها في الفحم . وبذلك اجبرها الحلفاء على التخلي عن ٦٥٪ من مواردها في الحديد ، و ٤٥٪ من مواردها في الفحم

و ٧٢٪ من مواردها في الزنك و ٥٧٪ من مواردها في الرصاص وحوالي ١٥٪ من منتجاتها الزراعية الرئيسية و ١٠٪ من مؤسساتها الصناعية .

وخسرت فيما وراء البحار حوالي مليون ميل مربع من الارض يسكنه اثنا عشر مليوناً من السكان ، وكانت اكبر خسارة اقتصادية منيت بها بناء على ذلك ما فقدته من موارد مستعمراتها في المطاط والبترول .

كذلك حرمها الحلفاء من ميزتها الدفاعية الكبرى ، فبعد ان كانت تمتلك اعظم جيش في العالم ، اصبحت قوتها العسكرية لا تكاد تصل الى ١/٨ ما كانت عليه قبل الحرب ، اما اسطولها فلم يعد له وزن بين اساطيل العالم ، بعد ان كان ثاني اسطول بعد الاسطول البريطاني ، وقد تعهدت المانيا بألا يزيد عدد بحارتها بين جنود وضباط عن ١٥,٠٠٠ ، وسلمت للحلفاء جميع غواصاتها وحرمت من أن يكون لها غواصات بعد الحرب . وقد كانت المانيا قبل الحرب تمتلك اسطولاً تجارياً حمولته حوالي ٥,٧٠٠,٠٠٠ طن ، فأصبح بعد الحرب اقل من ٥٠٠,٠٠٠ طن .

ولم يكتف الحلفاء بذلك ، بل رأوا الامعان في تأديب المانيا ، فقد اجبروها على أن تعترف بمسئوليتها عن الحرب ، ومن ثم تولوا محاكمة عدد من زعماء الالمان وقادتهم بحجة انهم من (مجرمي الحرب) ، ثم استبعدوا تلك الفكرة واكتفوا في المادة ٢٢٧ من المعاهدة باتهام « ولهلم هوهنزلزن الثاني » امبراطور المانيا السابق بارتكاب جريمة كبرى ضد الاخلاق الدولية وقدسية المعاهدات ، وقرروا محاكمته امام محكمة خاصة مكونة من خمسة قضاة ، ولكنهم لم يستطيعوا تحقيق تلك الفكرة ، فقد كان الامبراطور قد فر الى هولنده ورأى الهولنديين حماية لاجئهم الكبير فأبوا أن يسلموه الى اعدائه .

اخيراً فرض على المانيا ان تدفع ديوناً باهظة غير محدودة تعويضاً للحلفاء ، الذين كونوا منهم لجنة للتعويضات لضمان قيام المانيا باداء اقصى ما تستطيع اداءه ، وبذلك خالف الساسة مبادئهم التي اعلنوها خلال الحرب ، ليوهموا

العالم أن الحلفاء قوم معتدلون ، وأنهم لن يتخذوا تلك الحرب وسيلة للضغط على الشعوب ، ولن يستغلوا انتصاراتهم في فرض شروط قاسية على عدوهم المغلوب . ففي اثناء الحرب صرح الرئيس ولسن ، بأن الديمقراطيات لن تفرض على اعدائها تعويضات حربية ، وادعى لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا – اثناء الحرب – ان بريطانيا من جانبها لا تؤيد فرض الغرامات على العدو المنهزم . ومع ذلك فقد اتضح ان كل تلك التصريحات والبيانات كانت كاذبة خداعة . اذ ما كادت تنتهي الحرب بانتصار الحلفاء حتى تمثلت فيهم الانانية والقسوة وحب الانتقام ، وتنافس المنتصرون في طلب اقسى التعويضات ، واخذ البريطانيون والفرنسيون والبلجيك والايطاليون ينادون بفرض الغرامات تعويضاً عما نالهم من جراء الغارات الجوية ، وحرب الغواصات ، وضحايا الحرب .

(معاهدة سان جرمان مع النمسا ١٠ سبتمبر ١٩١٩)

بعد ان تم توقيع معاهدة فرساي مع المانيا في ٢٨ يونيه سنة ١٩١٩ ، غادر الرئيس ولسن والمستر لويد جورج باريس ، وتكون مجلس اعلا مكون من خمسة اعضاء، على رأسهم كليمنصو ، يمثلون كلاً من الولايات المتحدة ، وبريطانيا العظمى ، واليابان ، وايطاليا ، لمواصلة عقـــد معاهدات الصلح الاخرى مع دول الوسط . وظل هذا المجلس يعمل حتى ٢١ يناير سنة ١٩٢٠ عندما استقال كليمنصو ، وعندئذ حل « مجلس السفراء » محل المجلس الاعلى لاتمام العمل ، وكان مجلس السفراء مكوناً من سفراء الدول الخمس في باريس : الولايات المتحدة ، وبريطانيا العظمى ، وايطاليا واليابان ومندوب عن فرنسا ، وكانت اول معاهدة وقعها هذا المجلس هي معاهدة سان جرمان مع النمسا .

والواقع ان امبراطورية النمسا والمجر كانت في طريقها الى الانهيار ، اذ لم تعد في نظر الحلفاء دولة واحدة متماسكة ، بل كان مصيرها الى التمزق والتفكك ، وقد بدأ ذلك بانفصال المجر عن النمسا .

وقد تسلم المندوبون النمسويون نص المعاهدة التي املاها الحلفاء على النمسا ، وسمح لهم — كما سمح للالمان من قبل — ان يقدموا ملاحظاتهم عليها كتابة ، وحاول اولئك المندوبون ان يؤكدوا لمؤتمر الصلح ان دولتهم (النمسا) انما هي دولة جديدة نشأت بعد الهدنة ، ولم تكن في حالة حرب مع الحلفاء ، وما هي الا دولة نشأت بعد سقوط امبراطورية آل هبسبرج ، شأنها في ذلك شأن تشيكوسلوفاكيا وبولنده وغيرها من الدول الجديدة التي قامت على انقاض الامبراطورية القديمة على ان الحلفاء لم يقتنعوا بهذا المنطق ورفضوا الاعتراف بما ساقه المندوبون النمساويون من ادلة على انهم يمثلون دولة جديدة لم تعلن الحرب على الحلفاء ، واجبروهم على الاعتراف بمسئولية النمسا عن الخسائر والاضرار التي لحقت بالدول المتحالفة «كنتيجة للحرب التي فرضتها عليهم دولة النمسا والمجر وحلفاؤها » .

وكان الحلفاء قد عزموا منذ البداية على محو تلك الامبراطورية كوحدة سياسية من خريطة اوربا ، وبعد ان انفصلت النمسا عن المجر ، عمل الحلفاء على أن تصبح كل منهما دولة صغيرة داخلية ، ليس لها منفذ على البحر ، فاقتطعوا مساحات كبيرة من حدودها القديمة[1] ليوزعوا منها على خمس دول اخرى ، بعضها جديدة ، كيوغوسلافيا وتشكوسلوفاكيا وبولنده ، وأخرى قديمة وهي رومانيا وايطاليا .

واصبحت المدينتان الكبيرتان — فينا وبودابست — مهددتين بالخراب المالي والتجاري ، بعد ان انفصلت عنهما الاقاليم الصناعية الغنية . فقد اقتطعت من النمسا بوهيميا ومورافيا اللتان يبلغ عدد سكانهما عشرة ملايين نسمة ، أغلبيتهم الساحقة من التشك لتتكون منهم ومن المليونين من السلوفاك ومليوناً آخر من المجريين والروثينيين دولة تشكوسلوفاكيا الجديدة .

---

(١) نقصت مساحة النمسا بموجب معاهدة سان جرمان من ١١٦,٠٠٠ الى ٢٢,٠٠٠ ميل مربع
Benns ; **Europe Since 1914. P. 127**

كذلك اضطرت النمسا الى التنازل لايطاليا عن التيرول الجنوبي ومنطقة الترنتينو وتريست واستريا وبعض الجزر على ساحل دالماشيا ، وعلى الرغم من أن التيرول الجنوبي يسكنه حوالي ربع مليون من النمسويين الذين يتكلمون الالمانية ، الا ان ايطاليا طالبت به في الحاح ، استناداً الى المعاهدات السرية التي عقدتها مع الحلفاء قبيل دخولها الحرب في صفهم ، ولأنها في اشد الحاجة الى ممر برنر « Brenner Pass » عبر الالب لاعتبارات دفاعية هامة .

واستولت بولنده على غاليسيا النمسوية ، ومنحت رومانيا بوكوفينا . اما البوسنة والهرسك وساحل دالمشيا فقد اصبحت كلها ضمن دولة يوغوسلافيا الجديدة . وهكذا فقدت النمسا ما يقرب من ثلاثة ارباع مساحتها وسكانها .

معاهدة تريانون مع المجر (٤ يونيه ١٩٢٠)

بدأت المفاوضات مع المجر في نفس الوقت الذي بدأت فيه مع النمسا ، ولكن توقيع معاهدة تريانون مع المجر لم يتم الا في يونية سنة ١٩٢٠ ، وذلك بسبب ما حدث في تلك البلاد من الاضطرابات السياسية الداخليـــة ، التي عطلت تكوين حكومة مستقرة ، يعترف بها المجلس الاعلى للصلح في باريس وقد تسلم المندوبون المجريون صورة المعاهدة المقترحة في يناير سنة ١٩٢٠ .

وبموجب تلك المعاهدة ، فقدت المجر حدودها القديمة ، التي وزعت على يوغسلافيا ورومانيا وتشكسلوفاكيا وانضم جزء منها الى النمسا نفسها . وحرمت المجر من المنفذ الذي كانت تعتز به على البحر وهو ميناء فيوم ، الذي ترك ساسة المؤتمر مصيره الى المفاوضات التي تقرر اجراؤها بين يوغوسلافيـــا وايطاليا .

بذلك انكمشت مساحة المجر ايضاً ، من دولة مساحتها ١٢٥,٠٠٠ ميل مربع ، ويسكنها عشرون مليون نسمة ، الى دولة مغلقة لا تزيد مساحتها عن ٣٥,٠٠٠ ميل مربع ، ولا يزيد عدد سكانها عن ثمان ملايين ، واضطر ثلاث ملايين مجري الى الانتماء الى حكومات اجنبية عنهم بحكم سكنهم في المناطق التي انتزعت من المجر .

اما بقية شروط المعاهدة ، فتماثل تلك الشروط التي فرضت على النمسا في معاهدة سان جرمان . وقد حاول ممثلو المجر الاحتجاج على تلك الشروط المجحفة ببلادهم ، ولكن ضاعت معارضتهم سدى ، واضطروا الى التسليم بما كتب لبلادهم من مصير ، ووقعوا المعاهدة في قصر تربانون الكبير القريب من حدائق فرساي .

معاهدة نايبي Neuilly مع بلغاريا (٢٧ نوفمبر ١٩١٩)

لم تسلم بلغاريا من اقتطاع بعض اجزائها – ولو أن خسارتها كانت أخف من خسارة حلفائها – ولعل اخطر خسارة حاقت بها هي فقدها تراقيه الغربية التي كانت قد انتزعتها من تركيا في حروب عام ١٩١٣ ، وكانت تعتز بها لانها المنفذ الوحيد الى بحر ايجه ، وقد اضطرت الى تسليمها للحلفاء ، الذين منحوها في الحال لليونان .

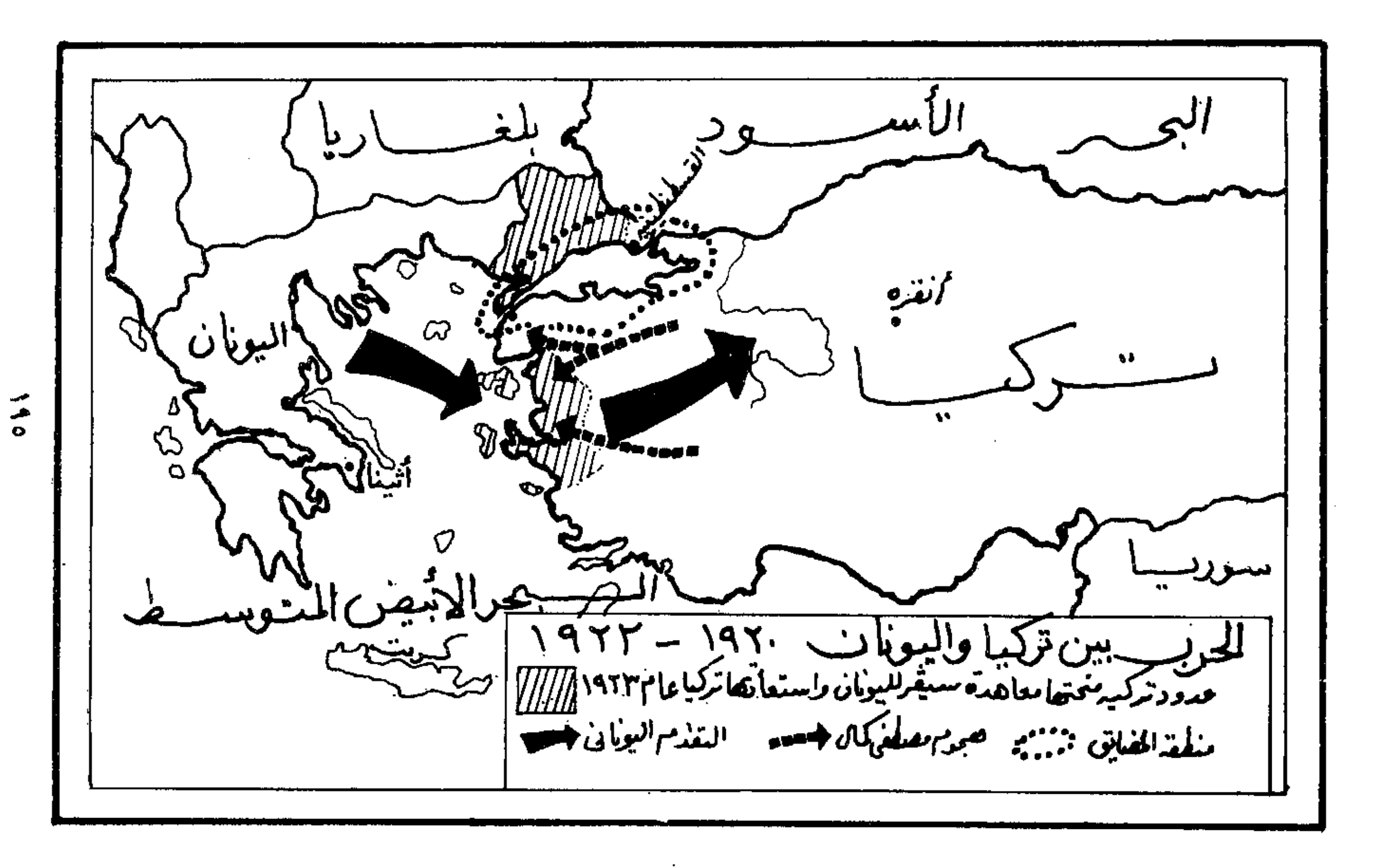
ولاعتبارات دفاعية ، اضطرت – بموجب المعاهدة – الى تسليم ثلاث مناطق صغيرة في حدودها الغربية الى يوغوسلافيا ، لتستطيع الاخيرة ان تسيطر على بعض الممرات الجبلية ، حيث تمتد سكة حديد نيش – سالونيك فتأمن بذلك على مواصلاتها في زمن الحرب .

وقد فرض الحلفاء على بلغاريا تخفيض التسلح ، وتسليم الاسطول ، ودفع التعويضات الباهظة .

وهكذا اصبحت بلغاريا – التي كانت في عام ١٩١٢ –١٩١٣ تتطلع الى زعامة البلقان – من اصغر الدول في تلك المنطقة .

انحلال الدولة العثمانية (معاهدة سيفر Sévre ١٠ اغسطس ١٩٢٠)

كانت معاهدة « سيفر » مع تركيا آخر معاهدات الصلح التي املاها الحلفاء في باريس على الدول المنهزمة ، وهي المعاهدة الوحيدة التي كان لها صدى سريع ، فقد انتفض الاتراك من كبوتهم ، وثارت حميتهم القومية ، وبدأت


البحر الأسود
بلغاريا
اليونان
أثينا
أنقرة
تركيا
سوريا
البحر الأبيض المتوسط
كريت
الحرب بين تركيا واليونان ١٩٢٠ - ١٩٢٣
حدود تركية منحتها معاهدة سيفر لليونان واستعادتها تركيا عام ١٩٢٣
التقدم اليوناني
هجوم مصطفى كمال
منطقة المضايق

مقاومتهم للشروط المجحفة التي فرضت عليهم واضطر الحلفاء الى تعديل معاهدتهم القديمة بعقد معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣ .

وقد تأخر عقد معاهدة سيفر الى شهر أغسطس سنة ١٩٢٠ ، بسبب ما ثار من الخلافات بين فرنسا وبريطانيا من جهة ، وبين ايطاليا واليونان من جهة اخرى على تقسيم التركة العثمانية ، اضف الى ذلك ما حدث في تركيا من قيام حكومتين : احداهما الحكومة الثائرة على المعاهدة في انقره بالاناضول وثانيتهما حكومة السلطان محمد وحيد الدين في القسطنطينية ، وهي الحكومة التي وقعت المعاهدة ورضخت لشروطها .

لقد طالت المباحثات بين الدول الكبرى – وعلى الاخص بين بريطانيا وفرنسا وروسيا – طيلة القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين حول تلك المسألة القديمة التي اطلقوا عليها اسم المسألة الشرقية ، وعندما انضمت تركيا الى المانيا بدأ الحلفاء يفاوض بعضهم بعضاً في تقسيم تلك التركة العثمانية . فتمت عدة اتفاقيات خلال الحرب ، دلت على مدى اطماع دول الحلفاء في ذلك الميراث وعزمها على تقسيمه فيما بينها . ولأول مرة في التاريخ تقبل بريطانيا – بالذات – قبل الانقلاب الشيوعي وتسليم الروس لالمانيا ، ان تستولي روسيا على القسطنطينية وعلى تركية اوربا وبعض الجزر في بحر ايجه ، وجميع الجزر في بحر مرمره ، وعلى الساحل الاسيوي من البسفور ، اما بريطانيا وفرنسا فقد كانت انظارهما موجهة نحو الشرق الاوسط ، فوضعو بريطانيا عينها على جنوب العراق الذي يضم العاصمة (بغداد) . وعلى ساحل فلسطين الذي يضم ميناءى حيفا وعكا . وتطلعت فرنسا الى ساحل سوريا (لبنان الحالية) وولاية اطنه .

اما ايطاليا فقد كانت تطمع في الاستيلاء على جزر الدوديكانيز في بحر ايجه وعلى مساحة من الأرض في جنوب غربي آسيا الصغرى تمتد من اضاليا الى ازمير .

ومهما يكن من أمر تلك الاطماع الدولية في ميراث الدولة العثمانية ، فقد رأى الحلفاء في النهاية انهاء المناقشة بتلك المعاهدة العقيمة — كما وصفها المؤرخون — التي لم تترك لتركيا الا منطقة جبلية صغيرة في الاناضول حول انقرة ، وركناً صغيراً من الارض الاوروبية خلف القسطنطينية .

وقد تنازلت تركيا بموجب معاهدة سيفر عن سيادتها على الشعوب غير التركية التي كانت تحكمها ، واعترفت بالدول الجديدة التي نشأت عن الحرب في مصر والسودان وقبرص وبحر ايجه وبالحماية الفرنسية على المغرب وتونس وتنازلت عن كل حقوقها في بلاد العرب وسوريا وفلسطين والعراق في المؤتمر الذي عقده الحلفاء في سان ريمو بايطاليا في ٥ مايو سنة ١٩٢٠ ، تقرر وضع العراق وفلسطين تحت الانتداب البريطاني مع الالتزام بتنفيذ وعد بلفور بانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ، ووضع سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي . ووافقت على ان تستولي اليونان على بعض الجزر التركية في بحر ايجه ، وعلى جانب من تراقيا الشرقية ، وأن تحكم اليونان — مؤقتاً — ازمير والمنطقة الجنوبية الغربية في آسيا الصغرى لمدة خمس سنوات ، يجري بعدها استفتاء السكان لتقرير مصيرهم .

وتتولى ايطاليا بموجب تلك المعاهدة السيطرة على جزيرة رودوس ، وجزر الدوديكانيز ، ولو أنها وعدت باعادتها فيما بعد الى اليونان .

واعترفت تركيا بالاستقلال الذاتي لكردستان تمهيداً لمنحها الاستقلال التام واقرت بأن ارمينيا « دولة حرة مستقلة » تشتمل على منطقة ارضروم وطرابزون وفان وبتلبس .

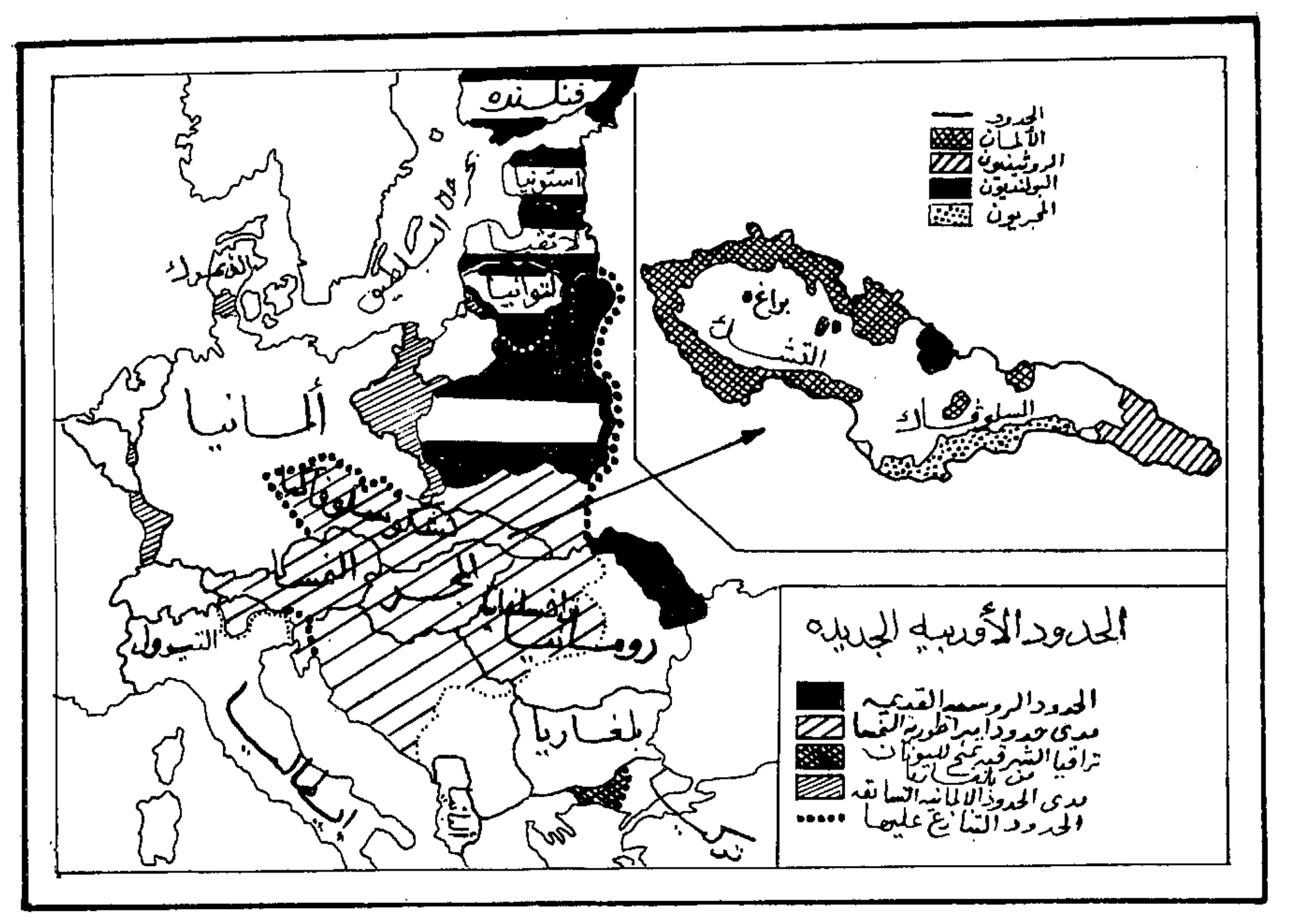
وتقرر في المعاهدة انشاء حكم دولي خاص لمضيقي البسفور والدردنيل فلا يجوز حصارهما ولا ادخالهما ضمن منطقة حرب الا تنفيذاً لقرار من مجلس عصبة الامم . وتركت القسطنطينية للسلطان .

وقد فرض على تركيا ايضاً جزاءات تأديبية كتعويض عما اصاب الرعايا

غير الترك من الخسارة اثناء الحرب وأن تدفع نفقات جيوش الاحتلال بعد الشروع في تنفيذ المعاهدة وتحديد قواتها بما لا يزيد عن خمسين الف مقاتل ، ويلغى الاسطول التركي ما عدا بعض سفن لمراقبة المصايد وما شابه ذلك من الاغراض السلمية ، وان تسيطر الدول المتحالفة على الموانىء والطرق المائية والخطوط الحديدية .

وفي نفس اليوم الذي وقعت فيه المعاهدة ، تم اتفاق ثلاثي بين المندوبين الانجليز والفرنسيين والايطاليين على منح كل من فرنسا وايطاليا منطقتي نفوذ في الاناضول . تمتد منطقة النفوذ الفرنسي الى شمال سوريا ، وتمتد المنطقة الايطالية جنوب وشرق أزمير .

اضطر المندوبون الاتراك الى توقيع تلك المعاهدة في ١٠ اغسطس سنة ١٩٢٠ ، واصبح السلطان العثماني « محمد وحيد الدين » دمية في ايدي السلطات البريطانية ، الذي كان اسطولها راسياً في مياه القسطنطينية . ولكن الشعب التركي لم يستكن الى ما فرضه عليه الحلفاء وعز عليه أن يرى اليونانيين يستقرون في منطقة ازمير وتراقيا وجزر الارخبيل ولا يكتفون بذلك بل يهاجمون الحدود التركية في اوائل يناير سنة ١٩٢١ بقصد احتلال اسكى شهر ، الا ان الاتراك — وقد قيض الله لهم بطلهم مصطفى كمال (كمال اتاتورك) — صمدوا للقوات اليونانية في واقعة اينونو (١١ يناير ١٩٢١) ، وانهزم الجيش اليوناني شر هزيمة وتقهقر نحو بروسه ، وعلى الرغم من توالي المحاولات اليونانية لغزو الاراضي التركية الا أنها باءت كلها بالفشل واضطر الحلفاء الى تعديل معاهدة سيفر فعقدوا لذلك مؤتمراً في لوزان (١٩٢٣) ، وكان يمثل تركيا وفد يرأسه وزير خارجيتها عصمت اينونو الذي خلف مصطفى كمال في رياسة الجمهورية — وبموجبها وافقت تركيا على التخلي عن سيادتها على البلاد العربية ، وعلى حياد المضايق وحرية الملاحة فيها لجميع الدول على السواء ، وفي مقابل ذلك وافق الحلفاء على الغاء الامتيازات الاجنبية في تركيا ، وإعادة « أورفه وتراقيا الشرقية وأزمير واضاليا وكيليكيه » الى تركيا ، ووضع اتفاق خاص بشأن تبادل السكان بين ترك اليونان ، ويونان الاناضول .


الحدود الأوربية الجديدة
الحدود الروسية القديمة
مدى حدود امبراطورية النمسا
تراقيا الشرقية تمنح لليونان من بلغاريا
مدى الحدود الألمانية السابقة
الحدود المتنازع عليها
الحدود
الألمان
الروثينيون
البولنديون
المجريون
فنلنده
استونيا
لتوانيا
ألمانيا
رومانيا
بلغاريا
التيرول
براغ
التشيك
السلوفاك

الدول القومية الجديدة

فاز بعض الشعوب بالاستقلال الذي كانت تنشده ، في التسويات التي تمت ما بين عامي ١٩١٩ و ١٩٢٠ . ففي الوقت الذي فقدت روسيا كل ما كسبته في اوربا منذ عهد بطرس الاكبر ، تظهر دول جديدة تحول بين روسيا وبحر البلطيق ، وكانت من قبل ولايات تتبع روسيا ، وبذلك لم يعد لروسيا اتصال بالبحار الاوربية الا بالبحر الاسود ، وهو بحر يكاد يكون مغلقاً لأن مفتاحه – أي البسفور والدردنيل – سيظل في يد تركيا عدوة روسيا الدائمة .

فنلنده

ظهرت فنلنده ، التي طالما تطلعت إلى الاستقلال عن حكم القياصرة الروس . وظهرت لاتفيا واستونيا كجمهوريتين ديمقراطيتين ، وظهرت أيضاً جمهورية لتوانيا التي لم تستقر فيها الاحوال بعد الحرب مباشرة بسبب استيلاء البولنديين في عام ١٩٢٠ على « فلنا » التي يعتبرها اللتوانيون عاصمة لجمهوريتهم .

بولنده

تعرضت دولة بولنده في اواخر القرن الثامن عشر لمحنة تقسيم ارضها بين الدول الكبرى المجاورة لها في الأعوام ١٧٧٢ و ١٧٩٣ و ١٧٩٥ ، ثم بعثت من جديد اثناء الحروب النابليونية باسم دوقية وارسو الكبرى ، ثم

الغاها موتمر فينا سنة ١٨١٥ وقسمت ارضها بين روسيا وبروسيا والنمسا .

اما دولة بولندة التي اعادها الحلفاء الى الوجود ، فقد كانت عودتها الى الحياة تبدو مستحيلة قبل الحرب ، اذ كانت تلك العودة تتطلب انحلال الامبراطوريات الثلاثة : روسيا والمانيا والنمسا . ولما حدثت تلك المعجزة التي كان ينتظرها البولنديون ، اصبحت دولتهم لا تنقص كثيراً عن أقوى الدول الاوربية من حيث المساحة وعدد السكان ، اذ بلغت مساحتها حوالي ١٥٠,٠٠٠ ميل مربع ، يسكنها حوالي ثلاثون مليون نسمة . ولكن بولنده كانت تعاني في اعقاب الحرب من سوء الحالة الاقتصادية ، وعدم الاستقرار الحكومي ، واختلاف الأحزاب البرلمانية فيما بينها اختلافاً جعل اقامة حكومة دستورية ناجحة من اصعب الامور . ثم قيض الله لها بطلها الاشتراكي الكبير « المارشال بلسودسكي Pilsudski » الذي جاهد اثناء قيام الحرب العالمية الاولى . وكون جيشاً بولندياً في بولنده النمسوية لمحاربة روسيا على أمل الحصول على الاستقلال لبلاده ، ولما تقهقر الروس وغادروا بولندا في عام ١٩١٧ ، وجه بلسودسكي قواته ضد الالمان وأخذ يحاربهم حتى أسر . وعندما انتهت الحرب أصبح بلسودسكي رئيساً للدولة .

ولما أعلنت الجمهورية البولندية (نوفمبر ١٩١٨) في وارسو ، قامت الخلافات الداخلية بين « بلسودسكي » وأحد منافسيه « دموسكى »

وانقسم الشعب ايضاً ، وصار لكل زعيم انصار يؤيدونه ، يؤيد « بلسودسكي » الاشتراكي جماعات العمال ورجال الجيش والفلاحون الراديكاليون ويؤيد خصمه الطبقة البورجوازية والزراع .

وأخيراً بعد عدة أعوام من الانقسامات الداخلية والاغتيالات أصبح بلسودسكي دكتاتوراً في بولندا يعمل على تدعيم الدولة التي بعثت من جديد .

يوغوسلافيا

وقد تكونت يوغوسلافيا من دولة صربيا ومما انضم اليها من الولايات

السلافية المجاورة . ولم تسر الحياة فيها سهلة لينة للشعب اليوغوسلافي الذي كان يتوق لتلك الوحدة . فقد ثارت بها الخلافات بعد تسوية باريس بين عناصرها الثلاث : الصرب والكروات والسلوفين . الذين يختلفون في المذهب والوعي السياسي . فالصرب يعتنقون المذهب الآرثوذكسي ومتأخرون في ثقافتهم واقتصادياتهم . أما الكروات والسلوفين فيعتنقون المذهب الكاثوليكي . وهم أكثر تقدماً من الصربيين أضف الى ذلك وجود أكثر من مليون مسلم يسكنون اقليم البوسنة .

وكان الكروات يفضلون قيام دولة اتحادية « Fedral State » بحيث تتمتع كرواتيا داخلها بالحكم الذاتي . ولكن الأغلبية الصربية صممت على ايجاد ادارة مركزية في العاصمة اليوغوسلافية . واختلفت نظرية الفريقين نحو المسائل الدينية والتعليمية والاقتصادية مما أدى إلى نشوب الاحتكاك بين الفريقين . حتى أن مجلس النواب في بلغراد لم يكن يخلو يوماً من الشجار والتماسك بين الأعضاء من العنصرين . وقد بلغ الخلاف قمته في عام ١٩٢٨ . عندما قتل زعيم الكرواتيين اسطفان راديك « Stefan Rodic » مع عدد من مساعديه . مما جعل الملك اسكندر يقدم على حل البرلمان . والغاء الدستور . ومصادرة حرية الرأي . وأعلن نفسه دكتاتوراً معتمداً على تأييد الجيش . وبعد خمس سنوات من الحكم المطلق . كانت البلاد على حافة الهاوية . فقد استحكمت بها أزمة اقتصادية خطيرة . ولجأت المعارضة إلى وسائل العنف والمؤامرات مما أثار الذعر في البلاد . وفي سنة ١٩٣٤ اغتيل الملك أثناء رحلة له في فرنسا وراح ضحية الحادث وزير الخارجية الفرنسي الذي كان يرافقه في مرسيليا . وحكم بعده ولده القاصر بيتر (بطرس) — (١٠ سنوات) . وظلت يوغوسلافيا مضطربة حتى اكتسحها هتلر .

رومانيا

أما رومانيا فقد تضاعفت مساحتها وعدد سكانها بما أضيف اليها من أراض واسعة ، حتى أصبحت كأنها دولة جديدة . وقد حاولت حكومتها

ان ترضي رعاياها جميعاً لتكسب تأييدهم باصدار تشريعات للاصلاح الزراعي هدفها تفتيت الملكيات الزراعية الكبيرة لمصلحة الشعب ، ولكنها بهذا التصرف أثارت عليها الاقطاعيين فبدأوا يحاربونها .

وقد كانت رومانيا تتمتع بعد الحرب مباشرة بمظهر النظام الديمقراطي دون جوهره . فالذين كانوا يتعاقبون على الحكم فيها ، هم جماعة من السياسيين المحترفين . الذين كانوا يتخذون كراسي الحكم وسيلة للاثراء وتحقيق الاهواء الشخصية أضف الى ذلك ما حدث من الخلاف بين الرأي العام وبين البلاط . اذ بعد وفاة الملك فرديناند الاول (١٩٢٧) خلفه على العرش ابنه « كارول » الذي لم يلبث أن أبعد عن العرش بسبب افتتانه بامرأة لا تتمتع بسمعة طيبة وعين بدله ابنه « ميشيل » . ولكن في عام ١٩٣٠ ، استطاع الملك كارول أن يسترد حقه في تولي العرش بمساعدة فريق من ضباط الجيش . وأخذت حكومته تحكم البلاد حكماً استبدادياً .

تشكوسلوفاكيا

وظهرت كذلك دولة تشكوسلوفاكيا على الخريطة الاوربية ، بعد ان اقتطع لها الحلفاء اجزاء جمعوها من الامبراطورية المنحلة – النمسا والمجر – كما سبق أن بينا . وسارت تشكوسلوفاكيا بعد تأسيسها قدماً نحو الحكم الديمقراطي بفضل زعيمها الاول ورئيس جمهوريتها « توماس مازاريك Ttomas Mazarik » الذي لقبه الشعب بحق « ابو الوطن » ، وعلى الرغم من المتاعب القومية الناشئة من الخلاف الذي كان قائماً بين الكاثوليك والاشتراكيين من جهة وبين التشك والسلوفاك من جهة اخرى وبين هؤلاء جميعاً وبين الألمان في اقليم السوديت ببوهيميا ، فقد استطاع مازاريك في الفترة التي كان فيها رئيساً لدولته (١٩٢٠ – ١٩٣٥) أن يتغلب على تلك المصاعب ويرسي قواعد الحكم النيابي ويهيء أسباب الراحة الاقتصادية لشعبه في النواحي الصناعية والزراعية .

وقد كان مازاريك استاذاً في جامعة براج وزعيماً من زعماء القومية . وفي خلال الحرب الكبرى ذهب الى الولايات المتحدة ووطد صداقته بالرئيس ولسن ، وعندما بدأ موتمر الصلح ، ذهب إلى باريس ليدعو إلى تأسيس تشكوسلوفاكيا ومما ساعده على تحقيق هذا الهدف ، تأييد الرئيس ولسن ، وما قامت به القوات التشكية من خدمات لقضية الحلفاء ، فقد كانت تلك القوات مجندة ضد ارادتها في الجيش النمسوي ، ولكن عندما سنحت لها الفرصة ، انضمت الى الجيش الروسي وكان لا يزال يحارب في صف الحلفاء ، وقد نظم التشكيون أنفسهم في روسيا كجيش قائم بذاته ، وظلوا يحاربون في صف الحلفاء في الجبهة الشرقية الى أن قامت الثورة الشيوعية وسلم الروس للألمان ، وعندئذ رأت تلك القوات التشكية أن تواصل الحرب ضد الألمان والنمسويين ، فعملت على مغادرة روسيا بأي طريق ، ولم تجد أمامها سوى أن تخترق سيبيريا ، حتى وصلت المحيط الهادي ومن هناك ابحرت إلى كندا ، ثم إلى اوربا من جديد ، لتشترك في حروب الجبهة الغربية . وهكذا ظل التشكيون في صف الحلفاء حتى تم النصر النهائي ، وظهرت تشكوسلوفاكيا إلى الوجود .

وقد ضمت تشكوسلوفاكيا – كما سبق أن بينا – عدداً من الجنسيات المختلفة حتى أنها كانت تطبع عملتها النقدية بسبع لغات . وكانت الأقلية الألمانية التي تضمها تشكوسلوفاكيا تتطلع إلى الانضمام إلى ألمانيا . وقد حدثت عدة مناوشات داخلية بين التشك والسلوفاك ، وبين هؤلاء وبين الألمان مما كان يهدد الأمن الداخلي ، ولكن الرئيس مازاريك استطاع بحصافته ودهائه ، أن يصون الوحدة القومية مدى عشرين عاماً ، ويكون من تشكوسلوفاكيا دولة ديموقراطية صناعية .

النتائج العامة لتسويات الصلح

بعد أن سكنت العاصفة التي هبت على العالم كله ، وانتهى موتمر السلام

في باريس من فرض معاهداته على الدول المغلوبة على امرها ، تتضح امامنا عدة نتائج على جانب كبير من الأهمية نجملها فيما يلي :

١ ــ أحدثت الحرب تطورات خطيرة في كيان معظم دول العالم ، وعجلت سير هذه التطورات بين الشعوب التي ثارت قبل الحرب على الأوضاع التي كانت تعيش فيها .

وقد كانت هذه التطورات في اوربا أبعد أثراً وأسرع خطى ، وكانت أبرز هذه التطورات شأناً ، سقوط ثلاث أسرات حاكمة عريقة ظلت قروناً عديدة تحكم مساحات واسعة من الأرض حكماً استبدادياً اوتوقراطياً : وهي أسرة رومانوف في روسيا ، والهابسبرج في امبراطورية النمسا والمجر ، وهوهنزلزن في المانيا .

واستتبع ذلك ، القضاء على سيادة الطبقات الحاكمة القديمة وحرمانها من الامتيازات التي كانت تتمتع بها ، لأن معظم الشعوب بدأت تتطلع إلى إدخال النظم الاجتماعية الجديدة ، التي تنادي بتقليل الفروق بين الطبقات ، واقامة ديموقراطيات سياسية ، تساعد على اشتراك الشعوب في توجيه دفة الحكم .

وقبل عام ١٩١٤ ، كان الحكم الملكي سائداً في اوربا ، ولم يكن بها من الجمهوريات الكبيرة سوى فرنسا وسويسرا ، ولكن بعد انتهاء الحرب ، أصبح في اوربا سبع عشرة جمهورية ، أما الدول التي احتفظت بنظام الملكية فهي الدول التي رأى ملوكها ارضاء الشعور العام بتطبيق الحكم الدستوري ، بحيث يملكون ولا يحكمون ، ويتركون تبعات الحكل في أيدي وزارات مسئولة أمام المجالس النيابية . كذلك نجد لأول مرة في التاريخ الأوربي ، وزراء ينتمون إلى الأحزاب الاشتراكية أو العمالية .

٢ ــ ولكن سرعان ما فشلت بعض الحكومات الديموقراطية الجديدة في التغلب على المشكلات العديدة التي صادفت بلادها في أعقاب الحرب ،

وبدا لبعض الزعماء أن الحكم النيابي الذي يسير وفقاً لأحدث الدساتير قد فشل فشلاً ذريعاً في بلادهم ، وبدلاً من أن يسير بها قدماً نحو الاستقرار وتحقيق العدالة الاجتماعية ، أصبح معطلاً للمشروعات الاصلاحية المنشودة ، لذلك ظهر في بعض تلك الدول زعماء اتخذوا من الحكم الدكتاتوري سبيلاً إلى التغلب على المشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في بلادهم ، ثم وجه بعضهم سياسة حكومته الخارجية نحو الانتقام لما انزله الحلفاء ببلادهم في تسويات الصلح ، وكان أشهر هؤلاء الدكتاتوريين ، موسوليني في ايطاليا ، وهتلر في ألمانيا ، ومصطفى كمال (اتاتورك) في تركيا .

٣ — وقد ظهر نوعان جديدان من الحكومات التي اتخذت لنفسها نظاماً سياسياً اقتصادياً خاصاً (Politico — economic) ، هما البلشفية في روسيا ، والفاشستية في ايطاليا . وقد حاول الكثيرون من الزعماء في بعض الدول الأخرى أن يسير على نهج موسه ليني في النظام الذي ابتدعه لايطاليا . وكانت المجالس النيابية موجودة ، ولكنها اتخذت ستاراً تخفي وراءه دكتاتورية حزب واحد يتسلط عليه زعيم أو دكتاتور ، يحكم بأمره ويتحكم في انتخابات البلاد ، ويملي رأيه على صحافتها ، ويتسلط على جيشها ، ولم تسلم من هذه النظم الدكتاتورية سوى الديموقراطيات القديمة ، أي بريطانيا وفرنسا ، وامريكا . فإن شعوبها لا تستسيغ النظام الدكتاتوري الذي ساد اوربا بعد الانهيار الاقتصادي الذي حدث عام ١٩٢٩ .

٤ — أدى انتشار روح القومية ، والتعصب لها بعد الحرب إلى غرس بذور الشك والارتياب بين الحكومات المختلفة وصعوبة التعامل الدولي ، وإيجاد علاقات سياسية واقتصادية بين الدول ، وبدأت الدسائس السياسية تعمل على خلق جو من الارتباك وسوء الظن . كذلك كان نشوء الدول القومية الجديدة عاملاً من عوامل الاضطراب الاقتصادي ، لأن تلك الدول الناشئة ، حاولت تطبيق فكرة الاكتفاء الذاتي ، والاستغناء بقدر الامكان عن الاستيراد ، واقامت الحواجز الجمركية على بلادها ، فازدادت الأزمة

الاقتصادية العالمية تفاقماً ، لأن سياسة الانعاش القومي كانت عقبة في سبيل انعاش التجارة الدولية .

ومن الناحية الدفاعية ، شرعت بعض الدول التي تخاف على كيانها ، تسعى إلى عقد الأحلاف العسكرية من جديد ، ولم تلبث أوربا أن انقسمت إلى معسكرات متعادية ، وعادت ميزانيات الجيوش تتضخم ، وأصبح عدد القوات الاحتياطية المدربة يفوق عددها قبيل الحرب أي في عام ١٩١٣ . وفشلت المنظمات الدولية — كعصبة الامم ومحكمة العدل الدولية — في مهمتها التي انشئت من أجلها وهي تدعيم السلام وحل المشكلات الدولية عن طريق التباحث والتفاهم . وبعد أقل من عشرين عاماً أصبح العالم — مرة ثانية — مهدداً بحرب عالمية جديدة .

٥ — على الرغم من سعي مؤتمر الصلح في ارضاء القوميات الأوربية بتأسيس دول جديدة تضم شتات الشعوب التي خضعت قروناً طويلة للامبراطوريات الكبيرة ، لم تسلم كل تسوية من شوائب قومية ، داخل تلك الدول القومية ، لأنها لم تستطع أن تكون قوميات خالية من العناصر الغريبة . فقد ضمت بولنده — مثلاً — في حدودها أقليات من الألمان والروس ، وضمت تشكوسلوفاكيا أقليات من الألمان والمجريين ، وضمت يوغوسلافيا أقليات ألمانية ومجرية وبلغارية ، وضمت رومانيا واليونان أقليات بلغارية ، وضمت ايطاليا أراض بها أقليات نمسوية ويوغوسلافية .

٦ — وأخيراً ، قلبت الحرب العالمية التوازن الدولي في العالم ، إذ لم تعد الدول الأوروبية وحدها أقوى دول العالم ، فقد ظهرت عليها الولايات المتحدة ، كأغنى دولة ، وأقواها جيشاً ، وأكثرها نفوذاً . كذلك خطت اليابان خطوات واسعة نحو التقدم السياسي والصناعي والتجاري وشرعت تنافس الغرب في التوسع والاستعمار .

البحث عن السلام : عصبة الامم

شعر العالم بعد نهاية الحرب العالمية الأولى ، التي ضاع ضحيتها حوالي ثمان ملايين من البشر ، أن الوقت قد حان لوضع حد لهذه المجازر البشرية ، وذلك باقامة هيئة دولية دائمة تعمل على حفظ السلام ، ونشر الأمن والطمأنينة في أرجاء العالم ، والسعي في حل المشكلات وإنهاء المنازعات بين الشعوب المتمدينة بطريقة سلمية .

وقد دعا الرئيس ولسن — في شروطه الأربعة عشر — لفكرة انشاء عصبة أمم يكون الغرض منها « تحقيق التعاون العالمي ، وضمان تنفيذ الالتزامات الدولية ولتدعيم السلام في جميع أنحاء العالم » ، ولم يكن « ولسن » أول الداعين لمثل هذا النظام العالمي ، فقد سبق لعدد من المفكرين المحبين للسلام أن بحثوا عدة اقتراحات تنطوي على مشروعات مماثلة في طبيعتها لهذه العصبة ، ذلك لأنهم كانوا يرون أن الحرب تجر الخراب على العالم ، ومن مصلحة الدول جميعاً أن تحل مشاكلها بالتعاون والتفاهم ، وبما أنه ليس في وسع أية دولة أن تنبذ الحرب ما لم تنبذها أيضاً باقي الدول ، وعلى ذلك فيجدر بالدول كلها أن ترتبط جميعاً بدستور أو ميثاق أو نظام يكون موضع احترامها جميعاً .

واهتمت بتلك الفكرة كل من فرنسا وانجلترا ، ولكنها اختلفت في كل منها ، فقد نظر اليها الفرنسيون على أنها عصبة من الحلفاء يتفقون على توحيد مواردهم وإنشاء جيش موحد لهم ، وهذا الرأي الفرنسي — الذي لم يجد تأييداً خارج فرنسا — كان معناه تكوين نوع من التحالف الدائم لتأمين فرنسا وحلفائها . أما الانجليز فقد فكروا في تكوين مجلس دائم يجتمع في فترات محددة ، حيث يتفق أعضاء هذا المجلس على استخدام جيوش الدول الممثلة في العصبة ، للقضاء على كل نشاط حربي تقوم به أية دولة يثبت لمجلس العصبة عدوانها .

وجاء الرئيس ولسن ، فاقتبس اقتراحه في إنشاء عصبة الأمم من وجهة النظر الانجليزية ، وعزم في مؤتمر باريس على أن يكون دستور العصبة وميثاقها جزءاً لا يتجزأ من معاهدات الصلح ، ولذلك اشتملت كل معاهدة من المعاهدات الخمس الكبرى على قسمين هامين : كان القسم الأول من كل معاهدة هو عبارة عن الست والعشرين مادة التي يتألف منها ميثاق عصبة الأمم ، وفي القسم الأخير من كل معاهدة جزء خاص بشئون العمال لأن « الغرض من إنشاء عصبة الأمم هو تأييد السلام العام ، وأن هذا السلام لا يقوم إلا على أساس العدالة الاجتماعية » وكان من المقرر أن هذه العصبة تضم مندوبين يمثلون الدول المتحالفة المنتصرة ويسمح للدول المحايدة بأن تنضم إلى الجمعية . وعلى ذلك انضم إلى الجمعية كأعضاء أصليين خمس وأربعون دولة ذات سيادة ، منها الدول التي وقعت المعاهدات وهي اثنتان وثلاثون دولة من الدول المتحالفة ، ومنها ثلاث عشرة دولة محايدة دعيت للانضمام إلى العصبة .

وقد أبدت بريطانيا وأمريكا عند اعداد ميثاق العصبة ، رغبتهما في أن تنضم ألمانيا وغيرها من دول الأعداء إلى العصبة ولكن فرنسا قاومت الفكرة أشد المقاومة ، واستعملت ضدها حق الفيتو .

وقد نص ميثاق العصبة على أن تدير شئونها هيئتان تشريعيتان ، وسكرتارية دائمة . أما الهيئتان التشريعيتان فأولهما الجمعية العمومية التي تجتمع مرة واحدة في العام في جنيف ، وثانيهما مجلس العصبة أو هيئتها التنفيذية ، وهو يجتمع مراراً أثناء السنة ، بحسب المشكلات التي تعرض له .

ولكل دولة مشتركة صوت واحد في الجمعية العمومية سواء في ذلك أكبر الدول وأصغرها ، أما مجلس العصبة فيتكون من عنصرين : الأعضاء الدائمين الذين يمثلون الدول الخمس الكبرى ، أي الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى وفرنسا وإيطاليا واليابان ، والأعضاء غير الدائمين وهم أربعة مندوبين عن الدول التي يختارها مجلس العصبة ، وقد زاد عدد الأعضاء غير

الدائمين فيما بعد إلى تسعة أعضاء .

١ – وكان للعصبة عدة وظائف رئيسية ، أهمها تدعيم السلام العام ، وتحكيم العقل في حسم المنازعات الدولية بدلاً من الالتجاء إلى الحرب ونص الميثاق على أن مجلس العصبة له أن ينظر في المنازعات التي لا يمكن تسويتها بأحكام قانونية ، متبعاً في ذلك وسائل التهدئة والمصالحة الدبلوماسية وتعهدت كل دولة من دول العصبة أن تحيل كل نزاع من هذا النوع على المجلس ، وألا تقوم بأي إجراء حربي إلا بعد أن يصدر المجلس قراره في النزاع ، فإذا خالفت عهدها تعرضت لجزاءات تأديبية يشترك في فرضها سائر أعضاء العصبة .

أما المنازعات التي يمكن الفصل فيها بأحكام قانونية فتحال على محكمة قانونية ، ولذلك نص في الميثاق على انشاء « محكمة العدل الدولية » .

٢ – الوظيفة الثانية من وظائف العصبة – وهي ما لم تستطع القيام به – وهو الوصول بالتدريج إلى نزع سلاح الدول المنضمة اليها ، وقد رأينا كيف أن مؤتمر الصلح قد نص في المعاهدات على نزع سلاح كل الدول المغلوبة ، والزمها بتخفيض مواردها الحربية إلى الحد الذي يكفي لحفظ النظام الداخلي فقط ، وعهد إلى العصبة أيضاً أن تشرف فيما بعد على تنفيذ نزع سلاح الدول المنتصرة أيضاً تحقيقاً لما تعهدت به في شروط الصلح ، وهو تعهد لم تف به أية دولة من الدول بطبيعة الحال .

٣ – كذلك كان لزاماً على الدول الأعضاء أن تودع في سكرتارية العصبة كل ما تبرمه من معاهدات مع الدول الأخرى ، حتى تضمن عصبة الأمم ألا تتعارض شروط المعاهدات مع ميثاق العصبة ، وهو اجراء من شأنه أيضاً أن يمنع عقد الاتفاقات السرية بين الدول .

٤ – ومن الوظائف الهامة التي كان المفروض أن تضطلع بها العصبة حماية حقوق الأقليات ، لمنع اضطهادها في الدول التي عرفت بالتعصب

ضد الأقليات الجنسية أو الدينية ، وكان لكل عضو الحق في إثارة أية مشكلة تتعلق بالظلم الذي يقع على الأقليات في أية دولة من دول العصبة .

٥ ـ وكان على عصبة الأمم أن تهتم بمعاملة الشعوب التي شاء حظها أن تخضع للاحتلال أو للانتداب . فقد قررت معاهدات الصلح أن تدير الدول المنتصرة ما استولت عليه من الأراضي التي كانت تابعة من قبل للدول المنهزمة ـ ألمانيا والدولة العثمانية ـ وقد كان المفروض أيضاً أن تراعى دول الانتداب « رفاهية هذه الشعوب المتأخرة » لأن العمل على رقي هذه الشعوب « أمانة مقدسة في عنق المدنية » وعلى ذلك كان لزاماً على الدول المنتدبة أن تقدم حساباً سنوياً عن الخطوات التي تخطوها في هذا السبيل ، حتى تستطيع هذه الشعوب أن تصل إلى المستوى الذي يجعلها تقف على قدميها في صفوف الدول المحررة التي تستأهل الاستقلال .

وقد أثبتت الأيام أن آخر شيء كانت تفكر فيه الدول الكبرى هو رفاهية هذه الشعوب التي وقعت تحت الانتداب .

محكمة العدل الدولية Court of International Justice

رأت عصبة الأمم أن تعهد بتسوية المسائل الدولية التي يمكن الفصل فيها بالطرق القضائية إلى محكمة دائمة انشأتها لهذا الغرض في سنة ١٩٢١ ، اطلقت عليها اسم « محكمة العدل الدولية ، وجعلت مقرها في « لاهاي » بهولنده وتتألف هذه المحكمة من أحد عشر قاضياً أصلياً ، وأربعة قضاة نواب ، من كبار رجال القانون المتضلعين في مادتهم ، يختارهم المجلس الأعلى للعصبة والجمعية العمومية ، من أكبر عدد ممكن من الدول ، لمدة تسع سنوات[١] . وكان من حق الدول أن تلجأ إلى هذه المحكمة فيما

---

(١) كانت اول هيئة لمحكمة العدل الدولية التي بدأت العمل في ١٥ يونيه سنة ١٩٢٢ مكونة من قضاة ينتمون الى كل من البرازيل وكوبا والدنمرك وفرنسا وبريطانيا العظمى وايطاليا واليابان وهولنده واسبانيا وسويسره والولايات المتحدة .

ينشأ بينها من منازعات ترى حلها بوساطة تحكيم القانون، وفي هذه الحالة تتفق الدول المتنازعة على قبول قرار المحكمة دون جدال .

مكتب العمل الدولي In ternational Labour Organization

تضمّن القسم الأخير من كل معاهدة من معاهدات الصلح فصل خاص بشئون العمال ، ينتهي بانشاء منظمة دولية ــ متفرعة من عصبة الأمم ــ يطلق عليها اسم « مكتب العمل الدولي » ، ذلك لأن من اغراض عصبة الامم ، « تأييد السلام العام ، وأن هذا السلام لا يقوم آلا على أساس العدالة الاجتماعية » .

لذلك كان من واجبات هذا المكتب أن يعمل على تحقيق العدالة الاجتماعية لطوائف العمال ، فيعقد المكتب التي تمثل فيه الدول المختلفة لبحث ساعات العمل ، والشروط التي يخضع لها أصحاب الأعمال والعمال على السواء ، ومشكلة البطالة ، وتعويض العمال ، والتأمين الصحي ، وتشغيل النساء والاطفال . والعمل الليلي . وعقد اتفاقات دولية تضمن تنفيذ القرارات المتفق عليها .

وكان المكتب الدائم لهذه المنظمة يجتمع في جنيف مرة على الأقل كل ثلاثة أشهر ، ويتألف من اثنين وثلاثين عضواً ، ثمانية منهم يمثلون العمال ، وثمانية يمثلون أصحاب الأعمال ، وست عشرة مندوباً يمثلون الحكومات المختلفة .

هل نجحت عصبة الامم

يعتبر انشاء عصبة الامم فاتحة عهد جديد في تاريخ السياسة الدولية ، ولكن طبيعة دستورها ، والظروف التي احاطت بالعالم بعد الحرب العالمية الأولى ، أضعفت من قيمتها وجعلتها تفشل في تحقيق أهم هدف قامت من أجله . وهو منع الحرب وتدعيم السلام ، وقد بدا عليها الهزال من اول

عام انشئبت فيه ، فإن ثلاثاً من أعظم دول العالم ، وهي الولايات المتحدة ، وروسيا ، وألمانيا ، لم تكن أعضاء في العصبة .

وقد كان رفض الولايات المتحدة الدخول في عضوية عصبة الامم اول ضربة وجهت إلى تلك المنظمة العالمية ، وكان ذلك مفاجأة للعالم الذي شاهد الجهود التي بذلها ممثلها الرئيس ولسن في سبيل وضع ميثاق تلك العصبة .

وعلى الرغم من أن الشعب الأمريكي كان فخوراً بشروط ولسن الأربعة عشر التي وضعها أساساً لنظام عالمي جديد ، الا أن اغلبية الرأي العام في الولايات المتحدة عارضت في تسوية الصلح وميثاق العصبة وغلبت « وودرو ولسن » على امره .

وكان اول بوادر سخط اغلبية الشعب الأمريكي على سياسة « واسن » ، فوز الحزب الجمهوري في الانتخابات التي جرت في أواخر عام ١٩١٨ على الرغم مما بذله ولسن لحمل الشعب على تأييد الحزب الديموقراطي الذي ينتمي اليه . ومن أسباب معارضة الكثيرين لسياسته ، انه ذهب الى مؤتمر الصلح دون استشارة أعضاء لجنة الشئون الخارجية ، واختياره جميع أعضاء الوفد الأمريكي من حزبه الديموقراطي .

ولما عاد « ولسن » الى الولايات المتحدة في يوليه ١٩١٩ لعرض ما وصل اليه مؤتمر الصلح في باريس واجهته معارضة شديدة ، ففي مجلس الشيوخ هاجم معاهدة فرساي وميثاق العصبة جماعة من الداعين لعزلة امريكا ، واستطاعوا ان ينجحوا في عدم التصديق عليها .

واتخذ الحزب الجمهوري المناوىء للرئيس « ولسن » من معاهدة فرساي أداة لمهاجمة الحزب الديموقراطي ، وتجريح الرئيس « ولسن » .

وكان من الطبيعي ان ينضم إلى صفوف معارضيه اولئك الامريكيون الذين يمتون الى اصل الماني او ايطالي او ارلندي ، كذلك عارضه الأحرار محتجين بأن المعاهدة فيها اجحاف كبير بالالمان ، وعارضه آخرون بحجة ان المعاهدة

فيها تساهل كبير ، وقامت جماعة اخرى من المحافظين الذين يفضلون سياسة عزلة امريكا تمانع في دخول عضوية العصبة خشية ان تتورط الولايات المتحدة في المشكلات الاوربية وما يترتب عليها من نزاع وحروب . وهكذا حرمت العصبة من عضوية دولة كبرى لها خطرها في السياسة العالمية .

ويعتقد بعض المؤرخين انه لو تم انضمام الولايات المتحدة الى العصبة لكان له اثر كبير ، فقد كان من المفروض ان تتضامن داخل العصبة كل من الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا ، وهذا التضامن كان من شأنه — لو حدث — أن يمنع او يؤخر قيام الحرب .

وعلى الرغم من ضعف عصبة الامم ، الا انها استطاعت ان تؤدي بعض الخدمات المطلوبة منها ، وازداد الاقبال عليها عاماً بعد عام ، ففي عام ١٩٢٠ ، كان عدد الاعضاء الاصليين ، اثنتين واربعين دولة ، وفي عام ١٩٢١ انضمت اليها ثلاث دول من دول البلطيق ، وفي العام التالي انضمت اليها دولة المجر ، وفي عام ١٩٢٣ ، انضمنت ارلنده الحرة والحبشة ، وفي سنة ١٩٢٦ انضمت المانيا واخيراً دخلت روسيا عضوية العصبة في سنة ١٩٣٤. وما جاء عام عام ١٩٣٥ ، حتى كان عدد الدول الاعضاء في العصبة قد بلغ اثنتين وستين دولة .

وقد حاولت العصبة منذ تأسيسها ان تثبت وجودها ، واستطاعت فعلاً ان تقوم بدور هام في سبيل فض بعض المنازعات التي قامت بين الدول المختلفة — ولو انها كانت منازعات بين بعض الدول الصغيرة — كالخلاف الذي حدث بين فنلنده والسويد حول جزر الآند « Aland » (١٩٢٠) ، وبين بولنده والمانيا على حدود سيليزيا العليا (١٩٢١) ، وبين اليونان وبلغاريا حول حوادث الحدود (١٩٢٥) وبين بيرو وكولمبيا في أمريكا الجنوبية حول الحدود (١٩٣٣) .

على ان عصبة الامم كانت تبدو هزيلة ضعيفة الاثر عندما تتعرض لمشكلة

تختص باحدى الدول الكبرى ، فعندما قام نزاع بين بريطانيا والعراق حول زيت البترول في الموصل ، استطاعت عصبة الامم ان تفض ذلك النزاع ، ولكن على حساب العراق .

وعندما قام النزاع في عام ١٩٢٣ بين بولنده وليتوانيا حول مدينة « فلنا » ، وكانت فرنسا تؤيد بولنده ، لم تستطع عصببت الامم ان تبت في فض النزاع ، بل ترك الامر لاتفاق عقد بين فرنسا وبريطانيا وايطاليا على تأييد استيلاء بولنده على « فلنا » .

وفي نفس العام ثار نزاع آخر بين ايطاليا واليونان ، عندما اقدمت الاولى على احتلال جزيرة «كورفو » اليونانية متجاهلة بذلك عصبة الامم ولما كانت العصبة اضعف من ان تتخذ قراراً عنيفاً ضد ايطاليا ، فقد توسطت فرنسا وبريطانيا لدى ايطاليا حتى تم الجلاء عن جزيرة كورفو .

ومنذ عام ١٩٣٠ ، اخذت سمعة العصبة تتدهور بعد ان سجلت الفشل تلو الفشل . وكانت اظهر حادثة في هذا الشأن ما قام بين اليابان والصين من النزاع حول « منشوريا » فقد كان اليابانيون يطمعون في تلك البلاد ، الا ان الصينيين ثاروا ضد الاطماع اليابانية ، واخذوا يحضون على مقاطعة البضائع اليابانية ، وامتلأت منشوريا بالعصابات وسادت الفوضى وعم الارهاب . عندئذ رأت اليابان أن تبلغ عصبة الامم استعدادها لمفاوضة الصين مباشرة لتسوية النزاع بين الدولتين ورفضت الصين ان تعترف بأن لليابان حقوقاً في منشوريا ، ولم تجد بدأ من الالتجاء الى عصبة الامم .

وظن الصينيون ان العصبة ستحل مشكلتهم على خير وجه ولكن العصبة لم تستطع منع اليابان من احتلال منشوريا عام ١٩٣١ ، ولما رفضت عصبة الامم الاعتراف بحكومة منشوريا الجديدة التي تألفت تحت رعاية اليابان ، غضبت الاخيرة واعلنت انسحابها من عصبة الامم .

كذلك عجزت الجمعية عن منع ايطاليا من القيام بحملتها على الحبشة سنة

١٩٣٥ ثم جاء دور المانيا النازية التي اخذت تكيل الضربة تلو الضربة للعصبة ، وتهزأ بها وبقراراتها ثم غادرتها غير آسفة .

وكما انسحبت المانيا منها وهي في عنفوان قوتها ، انسحبت ايطاليا عندما رأت أن العصبة لا يمكن ان تخدم مصالحها . وعندما انسحبت تلك الدول من عضوية العصبة ، ولم يعد لها كيان كأداة تمنع قيام الحرب ، أصبحت في نظر الكثيرين مركزاً لتحالف دولي بين المشتركين في العصبة ضد الخارجين عليها ، واخيراً فان العصبة قد اخفقت في أهم غرض انشئت من اجله وهو المحافظة على السلام العالمي ، وذلك لسببين أولهما انها لم تكن لها أو تحت تصرفها قوة عسكرية دولية تعتمد عليها في تنفيذ قراراتها . وثانيهما — هو ما سبق أن بيناه — وهو عدم انضمام الولايات المتحدة الى العصبة وتأخير انضمام الدول الكبرى الاخرى كروسيا والمانيا .

وكانت فكرة تجنيد قوة دولية لخدمة اغراض العصبة تحول دونها صعوبات كثيرة ، وعندما فكر البعض في الاقدام على هذه الخطوة ، تجمعت عدة اسئلة كان من الصعب الاجابة عليها : اذ ما هو السبيل الى تجنيد تلك القوة ؟ واين تعسكر ؟ ومن أي السلطات تتلقى أوامرها ؟ وكيف تتوفر لها الغلبة في القوة حتى تستطيع منع موسوليني مثلاً من غزو الحبشة او منع هتلر من اجتياح السوديت وتشكوسلوفاكيا ، أو منع ستالين من اعلان الحرب على فنلندا ، وكيف يتأتى اذن أن تجند العصبة جيشاً أقوى من الجيش الايطالي أو الياباني أو الروسي أو الالماني .

كذلك ضعفت العصبة وانهارت ، لأنها في حالات خطيرة كثيرة ، لم تتخذ قرارات حاسمة لكي توضع موضع التنفيذ ، وكانت معظم قراراتها تصدر لمصلحة الدول الكبرى التي اتخذتها في كثير من الاحيان اداة لتحقيق سياستها .

الفصل الخامس عشر

روسيا السوفيتية

انسحاب روسيا من الحرب

بينما كانت الحرب الكبرى تقترب من اوربا ، كانت الاحوال في روسيا على غير ما يشتهي الحلفاء ، وعندما اعلنت الحرب كانت جماعات مختلفة من الروس يستعدون لاحداث انقلاب في اسس الحكم .

وكان أكثر تلك الجماعات اعتدالاً هم جماعة الاكتوبريين الذين اطلق عليهم هذا اللقب لأنهم كانوا يطالبون القيصر نيقولا الثاني بأن يحقق ما جاء في تصريحه في ٣٠ اكتوبر سنة ١٩٠٥ ، حيث وعد بأن لا يسرى اي قانون بغير رضاء الهيئة التشريعية في البلاد وهي الدوما ، وتعهد بأن يحترم الحرية الشخصية ومنح مجلس الدوما سلطة واسعة في سن القوانين .

واغلبية جماعة الاكتوبريين كانوا من الاشراف الاحرار الذين كانوا يؤيدون قيام حكومة تكون مسئولة بعض الشيء امام مجلس الدوما ، كما هو الحال بالنسبة لمجلس اللندتاج Landtag في بروسيا .

وهناك حزب « الديمقراطيـين الدستوريين » الذي يطلق عليهم اسم

« الكـــادت Cadets » وأعضاء هذا الحزب من الجامعيين وأرباب المهن والرأسماليين وبعض النبلاء المتطرفين ، وهذا الحزب كان يطالب باتساع سلطة مجلس الدوما وبالمسئولية الوزارية ، وبعبارة أخرى يطالبون بحكومة نيابية على نمط الحكومة الانجليزية .

على أن اعضاء هذين كانوا يهدفون معاً الى اتخاذ خطوات وئيدة نحو الحكم الدستوري ولكنهم كانوا يفضلون تحقيق ذلك بالوسائل السلمية الهادئة عن طريق المجلس التشريعي القائم . وكانوا لا يزالون يعتقدون ان التاج القيصري يمثل وحدة البلاد وعلى ذلك يرون الابقاء عليه محافظة على الوحدة القوميـــة الروسية .

اما المتطرفون ، فهم « الثوريون الاشتراكيون » ومعظم انصارهم من الفلاحين ، يقودهاً عدد من المستنيرين من أهل الريف الذين تصدوا للاصلاح ، وكان هؤلاء يهدفون الى نقل الارض من الملكية الخاصة الى الملكية العامة ؛ وبذلك تصبح الارض ملكاً للشعب كله ، لأن الارض التي سمح للفلاحين بشرائها عند تحريرهم سنة ١٨٦١ ، كانت من القلة بحيث لم تسد حاجاتهم ؛ لأن اطراد الزيادة في عدد السكان ، جعلت الاراضي التي منحت للفلاحين تتفتت تدريجياً حتى أصبح لا قيمة لها بالنسبة لأولئك الزراع الفقراء . وكان الأمل الوحيد امامهم هو تلك الضياع الواسعة التي كانت لا تزال في حوزة التاج أو الكنيسة او الطبقة الارستقراطية من الاشراف والاقطاعيين . وكان حزب الثوريين الاشتراكيين يرى أن تحقيق هذه الاهداف لا يتأتى الا عن طريق الثورة والارهاب .

اما الحزب « الديمقراطي الاشتراكي » ، فقد انتشرت مبادؤه بين عمال المصانع ، الذين كانوا على استعداد للتجاوب مع الدعاية الاشتراكية ، لشعورهم في ذلك الوقت بالظلم الاجتماعي ، فقد حرموا من التصويت في الانتخابات ، وفرض عليهم نظام صناعي يحرم عليهـــم انشاء نقابات أو منظمات تنطق

باسمهم ، لذلك كانوا يحلمون باليوم الذي تنتقل فيه السلطة اليهم ، وذلك عندما يضعون ايديهم على المصانع ، ويطردون الرأسماليين ، ويدخلون ما يشاؤن من التعديل على نظام العمل ، من حيث تقليل عدد ساعاته ، وزيادة الاجور ، ولذلك كان همهم الاكبر ، أن يقوموا بثورة تسقط الامبراطورية القيصرية لتحل محلها الجمهورية الاشتراكية التي تحقق لهم الآمال .

البلشفيك والمنشفيك

وقد انقسم الديمقراطيون الاشتراكيون على انفسهم في سنة ١٩٠٣ ، وكان الخلاف في أول الامر بسبب التنظيم الداخلي للحزب ، ثم اتسعت هوة الخلاف حتى اصبح الحزب فريقين ، وقد اجتمع اعضاء هذا الحزب في لندن سنة ١٩٠٣ ، وانقسمت الآراء فيما بينهم على تنظيم الحزب ، وعلى مسألة التعاون مع الاحزاب الاخرى التي تميل الى الاعتدال في طلب الاصلاح . ففريق منهم يتزعمه « لينين » كانوا يعارضون أي تعاون مع الاحزاب المعتدلة البورجوازية ، ولا يوافقون بتاتاً على سياسة الاعتدال او الاصلاح بالتدريج ، بل يريدون أن تصل الطبقة الكادحة الى اهدافها في الحال .

أما الفريق الثاني فكانوا يرون تطبيق النظام الاشتراكي بالتدريج لضرورة البدء بتعليم الطبقة الكادحة حتى تفهم واجباتها وتتشرب روح الاشتراكية ، ولا تنقلب الحال الى الفوضى . وكان هذا الفريق لا يمانع في التعاون مع الاحزاب الاخرى .

ولما أخذت الأصوات على هذين الرأيين ، انضمت الاغلبية الى الزعيم « لينين » ولذلك أصبحوا يعرفون باسم « البلشفيلو **Bolsheviki** » (وهي كلمة روسية مشتقة من **Bolshivstvo** ، اما الفريق الآخر فاصبحوا يعرفون باسم « المنشفيك **Mensheviki** » بمعنى الاقلية .

وهكذا كان البولشفيك يريدون تحقيق الاهداف الاشتراكية عن طريق

الثورة وأما المنشفيك ، فكانوا يرون تحقيقها عن طريق التطور .

ولم تكن حكومة القيصر بغافلة عما يبيته زعماء البلشفيك ، فاضطهدتهم وطاردتهم ، فتفرقوا وهاجروا وعلى رأسهم « لينين » الى خارج البلاد قبل عام ١٩١٤ .

عوامل الهزيمة وبداية الثورة

وعندما قامت الحرب الكبرى ، نسيت تلك الاحزاب خلافاتها مؤقتاً وظهرت روح جديدة من الولاء الوطني للقيصر اثناء محنة الحرب ، واختفت المعارضة من مجالس الدوما ، ولكن ذلك الاجماع والولاء لم يستمر طويلاً ، اذ حدث في العام التالي ، ان اكتسح الالمان الجيوش الروسية من غاليسيا وبولنده ، فأخذ الوطنيون الروس يستنكرون عجز القيادة الروسية ، وعدم كفاية القائمين بالامر على تسيير دفة الحرب ، ويندّدون بالفساد الذي استشرى في دواوين الحكومة ، وانتشرت الاشاعات عن فساد الأسلحـــة ومتاجرة النبلاء فيها .

والواقع ان روسيا لم تكن مستعدة كاملاً للحرب ، فقد كانت تنقصها مصانع الاسلحة والمعدات ، ووسائل النقل الحديثة وتسهيلاتها والقيادة الحكيمة الحازمة .

وفي خلال الثلاث سنوات الاولى من الحرب ، جندت الحكومة الروسية حوالي خمسة عشر مليوناً من الجنود ، وهو عدد لم تستطع الحكومة بما لديها من امكانيات حربية ضعيفة — ان تجهزه بكل ما يحتاج اليه في ميادين القتال من مؤونة واسلحة ، فهي في الوقت الذي جندت الملايين من الفلاحين ، وحرمت الارض من الايدي العاملة فيها أثرت بذلك في المحصول السنوي الذي كان من الواجب أن يتضاعف ليسد حاجة البلاد اثناء الحرب ولم تستطع أن تنتفع من أغلب هؤلاء المجندين ، لأنهم — وهم على حالتهم من الجوع ونقص الذخيرة — يصبحون عالة على الميدان وعاملاً من عوامل الهزيمة .

ومما قتل الروح المعنوية في الشعب والجيش على السواء ، ما كانت تتناقله الالسنة بين الشعب عن سوء حالة الجيش ، وبين الجيش عن سوء حالة الشعب ، فالشعب في القرى والمدن يسمع الكثير عما يعانيه الجنود من سوء التغذية ، وقلة الاسلحة وفسادها . والجيش في الخنادق يتهامس بما تصل اليه الانباء والاشاعات عن المجاعات والاضطرابات في ارض الوطن .

توالت الهزائم على الجيش الروسي ، ووقع ملايين الجنود في الميادين ما بين قتلى وجرحى وأخذت جماهير غفيرة من المهاجرين الذين لا مأوى لهم يتجهون شرقاً ، تتبعهم القوات المنهزمة ، واضطربت البلاد ايما اضطراب وتصايح الناس مطالبين بمحاكمة القواد الروس وكبار رجال الحكومة ، الذين انزلوا بروسيا تلك الكوارث لعدم كفايتهم وفساد ذممهم ووقعت المظاهرات العنيفة في المدن والاضطرابات الخطيرة في مصانع الذخيرة .

ومع ذلك فقد اختار القيصر في فبراير سنة ١٩١٦ « بوريس ستورمر Boris Sturmer » رئيساً لوزرائه ، وهو رجل محافظ من كبار الاقطاعيين الارستقراطيين ، وهو في الوقت نفسه من نسل الماني ، ومعروف بميوله الالمانية ، حتى أنه اتهم بتدبير انهزام الجيش ليمهد بذلك لعقد صلح منفرد بين روسيا والمانيا ، اضف الى ذلك ان الاسرة المالكة الروسية كانت واقعة اذذاك تحت تأثير الراهب « جريجوري راسبوتين » الذي اعتقد الكثيرون أنه كان على صلة وثيقة باحدى المنظمات الالمانية في بتروغراد .

وقد اتضح للاحزاب المتطرفة والمعتدلة على السواء خلال عام ١٩١٦ ، ان انتصار روسيا في الحرب اصبح املاً بعيد المنال ، ما دام القائمون بالامر هم من الطبقة الارستقراطية ، وفي نهاية ذلك العام كانت الاستعدادات قائمة في كثير من الدوائر للقيام بحركة انقلاب يشترك فيها بعض العسكريين في كل من بتروغراد وموسكو . وكانت كل الخطط تتجه الى اجبار القيصر نيقولا الثاني على التنازل عن العرش .

وفي الوقت نفسه كانت تسري في الجيش الروسي نفسه — وهو الذي يتكون معظمه من ملايين الفلاحين — روح التذمر والسخط والقلق والبؤس ، بالاضافة الى ان قيادة الجيش كانت ضعيفة فاسدة خائنة .

وفي شتاء عام ١٩١٦ — ١٩١٧ اخذ الجيش الروسي يسير نحو الانحلال اذ توفرت فيه اذذاك عوامل الهزيمة ، وهي عدم الرغبة في مواصلة القتال وانعدام النظام ، وعدم الثقة في قيادة الجيش ، ومحاولة الهروب من الجندية ، لذلك كان الجيش الروسي اول عامل من عوامل الثورة التي قامت في روسيا في ربيع عام ١٩١٧ .

كذلك كانت ظروف البلاد الاقتصادية تدعو الى التذمر بين الطبقات ، فقد ارتفعت الاثمان ارتفاعاً فاحشاً ، ونقصت كمية الفحم نقصاً ادى الى اغلاق كثير من المصانع ، وكانت حركة المواصلات بالنسبة للاهالي تدعو الى المضايقة اذ انها كانت تقف عدة اسابيع لتتمكن القطارات العسكرية التي تحمل الجنود والذخيرة من الوصول الى الميدان . واخيراً فان انتزاع جموع غفيرة من الفلاحين من المزارع لتجنيدهم في تلك الحرب العنيفة واحتياج الحكومة لاطعام تلك القوات الهائلة ، كل ذلك كان يهدد بظهور شبح المجاعة في المدن الكبيرة . وجاء الشتاء ببرده القارس ، في الوقت الذي كان الشعب لا يجد ما يستدفىء به من وقود او ملابس ، لذلك تعالت الصيحات مطالبة « بالخبز والوقود » .

سقوط القيصرية

في ٨ مارس سنة ١٩١٧ حدثت مظاهرات في بتروغراد وسارت جماهير الشعب في الشوارع تنادي « الخبز ... الخبز » ، وفي نفس اليوم اضرب حوالي تسعين الف عامل ، واندمجوا في تلك المظاهرات ، وانتهزت بعض العناصر المتطرفة الفرصة للاستفادة من ذلك الموقف ، وسرعان ما ارتفعت الاعلام الحمراء واللافتات الثورية التي تحض على قلب نظام الحكم .

وفي يوم الاحد ١١ مارس حدثت حركة عصيان بين الجنود قامت بها احدى حاميات المدينة، عندما صدرت اليها الاوامر بمقاومة المتظاهرين وسرت تلك الحركة بين معظم رجال الحامية حتى بلغ من انضم الى حركة العمال حوالي ٢٥,٠٠٠ جندي، وما لبثت عناصر الثورة من جنود وعمال ان سيطرت على العاصمة سيطرة تامة .

اما اعضاء مجلس الدوما الذين لم يجرؤوا على تحدي القيصر علناً ، فقد اجتمعوا إجتماعاً غير رسمي، وقرروا تعيين لجنة موقتـــة تتسلم السلطة . وفي الوقت نفسه كان العمال المضربون قـــد كونوا مجلس السوفييت، وانتخب ذلك المجلس لجنة تنفيذية مؤقتة لتسلم السلطة ايضاً، وهكذا اصبح في المدينة لجنتان ثوريتان : احداهما معتدلة، والاخرى متطرفة ، وكل منهما تدعي السلطة، احداهما لجنة الدوما المؤقتة والثانية اللجنة التنفيذية السوفيتية .

الحكومة الروسية المؤقتة

وقد حدثت محاولات لإدماج اللجنتين في حكومة واحدة مؤقتة على ان تكون اغلبيتها من وزراء بورجوازيين، ويحتفظ فيها بمنصبين فقط لممثلي السوفييت ولكن اللجنة التنفيدية السوفييتية صرحت بأن ممثلي السوفييت ، لا يستطيعون الاشتراك في الحكومة المؤقتة لان الحكومة كلها كانت «بورجوازية» على الرغم من مظاهرها بتأييد الثورة.

واخيراً تكونت الحكومة المؤقتة ، وكان اعضاؤها من الاكتوبريين ، ومن الديمقراطيين الدستوريين، ودخل الوزارة (كرنسكي **Kerensky**) وهو اشتراكي معتدل من اعضاء مجلس الدوما .

وفي اليوم الرابع عشر من شهر مارس حاول القيصر ان يصل إلى بتروغراد ولكن العمال اجبروا قطاره على التوقف لانهم نزعوا القضبان الحديدية، وفي الوقت نفسه كان القيصر قد ارسل جيشاً تحت قيادة الجنرال ايفانوف للاستيلاء على بتروغراد ولكن اغلبية تلك القوات انضمت الى الثورة. فاضطر القيصر الى اصطناع المسالمة، بأن حاول تأليف وزارة دستورية مسئولة ،

ولكن فات الاوان لامثال تلك الحلول ، وصمم الرأي العام اذذاك على أن يعلن القيصر تنازله عن العرش .

ومع ان الرأي العام كان مجمعاً على تخلي القيصر عن منصبه ، الا أنه حدث اختلاف على الخطوة التي تلي ذلك التنازل ، فأغلبية اللجنة الحكومية المؤقتة كانت تميل الى اقامة الدوق ميشيل وصياً على العرش حتى يصل ولي عهد القيصر الى سن الرشد . وقد نصح القواد للقيصر أن يتنازل عن العرش ، لأن ذلك هو السبيل الوحيد لانقاذ الموقف ، واخيراً اقتنع القيصر وأعلن تنازله ، مبدياً رغبته في أن يلي العرش بعده أخوه ميشيل بدلاً من انتقاله الى ابنه الكسيس[1] .

على أن الملكية لم يعد لها انصار بين صفوف الشعب ، فالسوفييت في بتروغراد كانوا يطالبون باقامة جمهورية ، وذهب وفد من نواب الدوما الى الدوق ميشيل ، يبلغه أن الشعب يطلب منه التنازل عن الوصاية ، وتسليم الحكم الى الحكومة المؤقتة حتى تجتمع الجمعية التأسيسية لتقرير ما سوف يتبع في المستقبل . وقد اضطر الدوق الى تلبية نداء الثورة وناشد الشعب الروسي ان يخضع للحكومة المؤقتة الى ان يتم عقد الجمعية التأسيسية .

نحو الديموقراطية

عندما تولت الحكومة المؤقتة مناصب الحكم ، تبدأ الثورة الروسية في مظهرها البورجوازي على الصعيد الحكومي ، وكانت الحكومة تمثل ائتلاف الاحزاب المعتدلة ، وكان رئيسها البرنس جورج لفوف « Lvov » ووزير خارجيتها بول مليوكوف « Miliukov » المؤرخ الروسي الكبير زعيم الحزب الديمقراطي الدستوري ، ووزير حربيتها هو الكسندر جوتشكوف « Guchkov » زعيم الاكتوبريين . واصبح كرنسكي ، وزيراً للعدل ، وبالجملة فقد كانت

---

(١) بعد ستة ايام من هذا التنازل قبض على القيصر واسرته وانتهت اسرة رومانوف التي حكمت روسيا منذ عام ١٦١٣ .

تتمثل في الوزارة العناصر البورجوازية ، ففيها ممثلو اصحاب الاملاك الزراعية والرأسمالية واصحاب الاعمال وارباب المهن ، فهي حكومة بورجوازية في تكوينها واهدافها . لأنها كانت ترمي الى تأسيس دولة دستورية ديموقراطية برلمانية . بل ربما كانت الوزارة تضمر في نفسها الرجوع الى الملكية ايضاً ، ثم تهدف الى جانب ذلك الى متابعة الحرب بالتعاون التام مع الحلفاء ، وحماية الملكية الخاصة ، وتسوية مسألة الارض بواسطة الجمعية التأسيسية ، وعدم اغتصاب الارض بغير تعويض اصحابها ، ولا يتم تغيير في نظام الحكم الا عن طريق جمعية دستورية ينتخبها الشعب .

وظن الناس في الخارج ان روسيا اصبحت دولة ديمقراطية ، وسرعان ما اعترفت بهذا النظام الجديد كل من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وايطاليا واليابان .

مواصلة الحرب في صف الحلفاء

وفي الوقت الذي ظن العالم ان الامر قد استتب في روسيا على هذا النحو ، كانت طبقات الروس الشعبية المتطرفة ، قد بدأت تنظم نفسها لكي تضرب ضربتها ، فتكونت في جميع انحاء البلاد جمعيات سوفييتية ، اختارها العمال في المناطق الصناعية ، واختارها الفلاحون في المناطق الزراعية ، وتأسست مثل هذه الجماعات أيضاً بين رجال الجيش الاحرار وازداد نفوذ الاحزاب التي تضم أعداداً هائلة من العمال والفلاحين ، الذين كانت اهدافهم تختلف عن أهداف الاحزاب الممثلة في تلك الحكومة ، إذ كانوا يريدون استمرار الثورة الاجتماعية ، بالاضافة الى قلب نظام الحكم ، والتخلص من البورجوازية . والفلاحون بنوع خاص كانوا يريدون الاستيلاء على الاملاك الواسعة وتقسيمها بدون اعطاء اي تعويض لملاكها أما العمال ، فكانوا يهدفون الى طرد الرأسماليين وتأسيس نظام اشتراكي يضمن سيطرة العمال انفسهم على المصانع ، وكانت كل هذه الطبقات الكادحة من فلاحين وعمال قد سئموا الحرب واصبحوا

يتوقون الى عقد صلح لا تخسر فيه روسيا ارضاً ولا تدفع تعويضاً .

وقد لاحت لتلك الطبقات فرصة تعبر فيها عن وجهة نظرها عندما تقرر عقد « موتمر جماعات السوفييت » في ابريل ١٩١٧ ، وكان اعضاء هذا المؤتمر يمثلون حزب الديمقراطيين الاشتراكيين من المنشفيك ، والمعتدلين من حزب الثوريين الاشتراكيين ، وهي احزاب لم تشترك بممثليها في الحكومة المؤقتة القائمة وقد قرر المؤتمر عدة قرارات منها المطالبة بأن تتخلى الحكومة الروسية عن الروح الاستعمارية ، والعمل على تحقيق مبدأ حق تقرير المصير ، وعقد صلح عادل لا يرمي الى ضم بلاد جديدة ولا تخسر فيه روسيا شيئاً من اراضيها ، ولا تدفع تعويضاً ينزل الخراب بماليتها ، وقرر المؤتمر تأييد الحكومة المؤقتة القائمة ، على شرط ان تسير وفق تلك المبادىء التي قررها المؤتمر .

ومع أن تلك الصيحات قد بلغت اسماع الحكومة القائمة ، الا انها لم تلق اليها بالاً ، بل نجد أن ميليوكوف وزير الخارجية الروسي يرسل في اول مايو مذكرة الى حكومات الحلفاء ، يقول فيها ان روسيا قد عزمت على ألا تعقد صلحاً منفرداً ، ولكنها تصر على مواصلة الحرب ، حتى تنتصر انتصاراً حاسماً وانها لن تتخلى عن حلفائها .

وقد أثارت تلك المذكرة غضب السوفييت في بتروغراد ، وعقدت الاجتماعات في العاصمة وفي موسكو للاحتجاج على تصرف الحكومة وحمل المتظاهرون الاعلام الحمراء منادين بسقوط « مليوكوف » ، حتى انه اضطر الى الاستقالة من منصبه .

ورأت الحكومة المؤقتة أنها في حاجة الى تدعيم مركزها بادخال بعض وزراء يمثلون الاحزاب السوفييتية من المنشفيك ، وبعض المعتدلين من الحزب الاشتراكي الثوري ، وفعلاً ضمت ثلاثة اعضاء من كل حزب منهما وظل البرنس « لفوف »رئيساً للوزارة ، وكان ابرز اعضائها «كيرنسكي » وزير الحربية الجديد وخطيب مجلس عمال بتروغراد ، وكان اول اهداف تلك الوزارة مراجعة سياسة « مليوكوف » الحربية .

لنين في روسيا

لقد اتخذ زعماء المنشفيك قرارهم بالاشتراك في الحكومة المؤقتة ، لانهم كانوا يريدون القضاء على نشاط البلشفيك ، وخصوصاً بعد أن وصل الى روسيا الزعيم الشيوعي نيكولاس لينين « Lenin » في ١٦ ابريل سنة ١٩١٧[1] .

وقد ولد لينين سنة ١٨٧٠ في سمبرسك « Simbrsk » في اواسط وادي نهر الفولجا ، من أب كان مفتشاً للتعليم في منطقة سمبرسك ، ووالدته كانت مدرسة باحدى مدارس المنطقة ، وكان له اخ ارهابي ، حكم عليه بالاعدام لأنه اشترك في المؤامرة التي انتهت بمقتل القيصر اسكندر الثالث في عام ١٨٨٧ وقد أثرت تلك الحادثة التي ترتب عليها اعدام اخيه في نفسه أثراً بالغاً ، لأنه كان معجباً به ، وهو وان لم يكن في ذلك الوقت يميل الى الوسائل الارهابية، الا أنه كان يشارك أخاه في آرائه المعادية للقيصرية ، وقد تجلت ميوله المتطرفة عندما كان طالباً في كلية الحقوق بالجامعة كازان « Kazan » ، فقد طردته الجامعة لاتهامه بالميول المتطرفة واثارة الطلبة على الحكم القيصري (١٨٨٧) ، واضطر الى الرحيل الى بتروغراد ليتم دراسته ، وهناك سنحت له الفرصة لكي يشبع ميوله فاتصل بالجماعات التي تعتنق مبادىء كارل ماركس في الاشتراكية المتطرفة واصبح عضواً في الحزب الديمقراطي الاشتراكي ، واضطهد كغيره من المتطرفين وحكم عليه بالنفي ثلاث سنوات في سيبيريا بسبب نشاطـــه الثوري بين طبقات العمال في العاصمة . وعندما انتهت مدة سجنه سنة ١٩٠٠، فضل الرحيل الى سويسره ، ليؤسس صحيفة سماها (الشرارة Iskara) ليشر فيها آراءه ويقوم بتهريبها الى روسيا ، وقد امضى عاماً من حياته (ابريل ١٩٠٢ – ابريل ١٩٠٣) في لندن ، حيث واصل هناك اصدار صحيفته بمعاونة بعض الديمقراطيين الاشتراكيين من الانجليز ، وفي شهر اغسطس

---

(١) لم يكن اسم لنين الا اسماً مستعاراً اتخذه لنفسه خلال الثورة الاولى التي قام بها فريق من نواب العمال السوفييت بزعامة تروتسكي وفريق من ممثلي العمال الديمقراطيين الاشتراكيين او البلشفيك بزعامة لنين ، اما اسم لينين الحقيقي فهو فلاديمير اوليانوف Ulianov

Ch. Hill : Lenin and The Revolution London P. 32 .

١٩٠٣ حضر لينين مؤتمر الحزب الديمقراطي الاشتراكي الذي انعقد خارج روسيا وحدث فيه الانقسام الكبير في الحزب ، بين البولشفيك والمنشفيك .

وقد كان « لينين » السبب الاول في ذلك الخلاف ، واصبح زعيماً لحزب البلشفيك ، وقد تزعم اثناء المؤتمر فكرة رفض التعاون مع الاحزاب الاخرى المعتدلة ، ولذلك يعتبر لينين — الى حد كبير — هو أبو البلشفية .

عاد لينين مرة أخرى الى العاصمة اثناء ثورة ١٩٠٥ ، ولكنه لم يقم فيها بدور هام ، واقتصر مجهوده على اثارة العداوة والبغضاء ضد مجلس الدوما وضد الاحزاب المعتدلة . وعندما فشلت ثورة ١٩٠٥ اضطر الى مغادرة البلاد وعاش في الخارج من سنة ١٩٠٦ الى سنة ١٩١٧ ، ولم يفتر نشاطه في منفاه ، بل أخذ يعمل في المنظمات السرية .

وعندما قامت ثورة عام ١٩١٧ كان لينين يعيش في سويسرا بمدينة زيوريخ ، وعندما اعلنت الحكومة المؤقتة العفو عن المجرمين السياسيين ، اصبح الطريق مفتوحاً امامه للوصول الى روسيا . وقد سهلت له المانيا سبيل اختراق حدودها[1] أملاً في أن يسبب وصوله اثارة خلافات في روسيا تؤدي الى التسليم في النهاية . وما كاد لينين يصل الى بتروغراد ، حتى بدأ نشاطه في مهاجمة الحكومة ، موجهاً اليها اللوم الشديد ، لعجزها عن معالجة شئون التموين ، وشئون الحرب ، وتقصيرها في تكوين الجمعية التأسيسية الدستورية التي يطالب الشعب بها .

واستطاع لينين بالتدريج أن يجمع حوله الاتباع والانصار من المتطرفين المتحمسين ، وانضم اليه ايضاً لفيف كبير من محترفي السياسة وسرعان ما أضبح « لينين » الزعيم الأول دون منازع للبلشفيك ، بينما احتل المكان الثاني

---

(١) كان الحلفاء قد عرضوا عليه أن يمر خلال خطوطهم الى روسيا فرفض .

في الحزب « ليون تروتسكي Trotsky » ، على الرغم من انه لم ينضم الى الحزب البلشفي إلا بعد ثورة مارس .

تروتسكي

كان تروتسكي يهودياً من الطبقة المتوسطة يعتنق الآراء الاشتراكية الثورية . وقد نفي مرتين الى سيبيريا ، واستطاع الفرار في كل مرة . وعندما قامت الثورة كان تروتسكي يعيش في نيويورك . بعد أن قضى عدة سنين في المنفى حيث عاش مدة في فينا وأخرى في باريس . وعندما حاول العودة الى روسيا ، قبض عليه في هاليفاكس ، ولكن شفع له «كرنسكي Krensky » فسمح له بأن يبحر الى روسيا .

كان هؤلاء الزعماء البلشفيك يعلمون أن الشعب الروسي يتحفز للثورة على الحكومة المؤقتة ، لأنه لم يجد فارقاً كبيراً بينها وبين الحكومة القيصرية القديمة ، فهي لم تلب نداء الشعب بمصادرة الاراضي وتوزيعها ، ولم تتخذ أية خطوة نحو القضاء على النظام الرأسمالي في الصناعة ، ولم تحاول الاسراع في عقد الجمعية التأسيسية لوضع الدستور الجديد ، بل راعهم أن تلك الحكومة ماضية في مواصلة الحرب رغم ضعف استعداد روسيا الحربي ورغم ما منيت به القوات الروسية من هزائم وخسائر في الارواح .

أما البلشفيك ، فقد اصدروا بياناً خلاباً أوضحوا فيه برنامج حزبهم الذي يتلخص في الاسراع بعقد صلح عام ومصادرة الضياع الواسعة في الحال بغير دفع أي تعويض لأصحابها ، وأن تصبح المصانع للعمال أنفسهم يديرونها ويسيطرون عليها ، وأن يراقب الشعب الانتاج وتوزيعه ، وأن تحل مجالس السوفييت التي تتكون من العمال والفلاحين والجنود مكان الشركات والمؤسسات ، وأن تحرم الطبقات الرأسمالية من الحقوق السياسية التي كانت تتميز بها .

الانهيار العسكري

وبينما كان البلاشفة ينادون بمبادئهم الجديدة كان «كرنسكي» وزير الحربية يبذل أقصى ما في طاقة روسيا ليواصل الحرب، معتقداً ان احراز اي نصر روسي في ميدان الحرب ضد دول الوسط، يقوي مركز الحكومة المؤقتة، ويرفع الروح المعنوية عند العسكريين والمدنيين على السواء. والقى بآخر سهم في جعبته، في اواخر شهر يونيه ١٩١٧ في كلتا الجبهتين النمسوية والالمانية فقد قام الجيش الروسي بالهجوم ونجحت الخطة في الايام الاولى من شهر يوليه، الى أن وقعت الواقعة في اليوم التاسع من ذلك الشهر عندما شدد الالمان هجومهم في اتجاه «تارنوبول Tarnopol»، عندئذ اخذت القوات الروسية تتحطم امامهم وتنهار، وفقد الجنود أعصابهم، فرفضوا القتال واطلقوا النار على ضباطهم لأنهم أصروا على الصمود امام الالمان وأخذت خطوط الروس تتكسر عند غاليسيا، وشرع الجنود يفرون مذعورين.

وبينما كان هذا يحدث في ميدان القتال، كانت أحوال روسيا الداخلية تسير نحو الانقلاب، ففي ١٦ يوليو بذل البلشفيك اول محاولة جدية لهم لتنظيم الثورة الداخلية، في بتروغراد، وقد اشترك في اشعالها في اول الأمر عدد كبير من رجال الحامية في العاصمة ممن تشبعوا بالدعاية البلشفية، فاشتركوا مع مجموعات مسلحة من العمال في مظاهرات صاخبة حاملين لافتات كتب عليها «تسقط الحرب»، «يسقط الوزراء الرأسماليون» وانتشرت الاعلام الحمراء بين الجماهير.

وقد حاول «كرنسكي» ان يخمد الثورة بالقوة فأمر ستة آلاف جندي باداء تلك المهمة، وبعد يومين من الصراع المميت تمكن جنود كرنسكي من القبض على ناصية الحال وهزم البلشفيك وانصارهم من رجال الحامية.

وقد اتضح للبلشفيك اذذاك أنهم على الرغم من كسبهم الانصار في بتروغراد الا أنهم لا يزالون في حاجة الى تأييد الاقاليم لهم ونشر الدعاية البلشفية

بين رجال الجيش نفسه ، عندئذ قرر « لينين » أن يتخلى عن المناداة باسقاط الحكومة المؤقتة في الحال ، وبذل اقصى الجهود لنشر الدعاية بين رجال الجيش نفسه وعدم الاقتصار على حامية بتروغراد .

وعندما حدثت الهزيمة الاخيرة التي اشرنا اليها امام الالمان وقامت الثورة في العاصمة ، كانت الحكومة المؤقتة تجتاز أزمة دقيقة نتج عنها استقالة ليفوف « Lvov » واختيار «كرنسكي» رئيساً للوزارة وفي الوقت نفسه بدأ المحافظون من أحزاب اليمين الذي يؤيدون الحكم الملكي المطلق يحاولون الظهور ، ولم يرَ البلشفيك بـداً من العمل على الدعاية « لدكتاتورية الطبقة العاملة البرولتاريات » .

كان الموقف الحربي يسير من سيء الى اسوأ ، واخذ الجنود يهددون بمغادرة الخنادق ، وتقدم الالمان فاستولوا على ريجا « Riga » وهددوا بتروغراد نفسها . واستعدت حكومة «كرنسكي» للانتقال الى موسكو وقامت في القرى حركات ثورية للاستيلاء على الاراضي ، وسارت في المدن مظاهرات صاخبة تطالب بالطعام ، وكانت حالة البلاد المالية والصناعية قد هوت الى الحضيض . واجتمعت الدعاية الرجعية والدعاية البلشفية والدعاية الالمانية على تحطيم معنوية الشعب الا أن الدعاية البلشفية فاقت كل دعاية وانتشر بين الناس نداؤهم المعروف « السلام للجيش والارض للفلاحين والمصانع للعمال » .

ازداد انصار البلشفيك ،في سرعة خارقة ، فانضم اليهم الفلاحون الذين لم يكن الانتصار على المانيا يهمهم بقدر الانتصار على كبار الملاك والاستيلاء على اراضيهم ، وانضم اليهم العمال املاً في السيطرة الكاملة على الصناعة والمصانع ، وانضم اليهم الجنود الذين كانوا يعاملون اسوأ معاملة ، والذين عانوا الهزيمة المرة في الحزب ، املاً في انهاء الحرب والعودة الى قراهم لكي يأخذوا بنصيبهم في الارض التي ستصادر .

ثورة نوفمبر ١٩١٧

ادرك لينين عندئذ ان الوقت قد حان لكي يضرب ضربته فدعا اللجنة المركزية للحزب البلشفيكي الى اجتماع سري في شهر اكتوبر ، تقرر فيه القيام بثورة مسلحة ضد الحكومة القائمة وذلك بعد ان عقد اجتماع المؤتمر العام للسوفييت في ٧ نوفمبر ، وقد كانت اغلبية الأعضاء الذين انتخبوا لتمثيل منظماتهم في ذلك المؤتمر يعتنقون مبادىء الشيوعية .

أعد البلشفيك لكل شيء عدته حتى ينجح الانقلاب ، وفي مساء ٦ نوفمبر اعلنوا ان اعداء الثورة بدأوا يرفعون رؤوسهم ، وان القواد القيصريين يريدون القضاء على « المؤتمر العام للسوفييت والجمعية الدستورية » ، وسرعان ما احتلت القوات البلشفية أبنية المرافق العامة في بتروغراد اثناء الليل ، كمحطات السكك الحديدية ومكاتب التلغراف والتليفونات ، والكبارى وغيرها من المرافق . وعندما اصبح الصباح صدر بلاغ بلشفيكي يعلن سقوط الحكومة المؤقتة . وقبض على جميع اعضاء تلك الحكومة فيما عدا « كرنسكي » الذي استطاع الفرار . وقد اقر مؤتمر السوفييت العام ذلك الانقلاب وكون في اليوم نفسه حكومة مؤقتة جديدة اطلق عليها اسم المجلس السوفييتي لوكلاء الشعب « Soviet of The Peoples' Commissars » وانتخب لينين رئيساً لهذا المجلس ، وتروتسكي وزيراً للخارجية .

معاهدة برست — ليتوفسك Brest—Litovsk

بعد مضي اسبوعين على ثورة نوفمبر ارسل « تروتسكي » مذكرة الى الممثلين الدبلوماسيين في العاصمة الروسية ، يقول فيها ان الحكومة السوفييتية تنوي « أن تقترح على جميع الشعوب وحكوماتهم عقد هدنة سريعة في الميادين تمهيداً لعقد صلح ديمقراطي » . وقد تجاهل الحلفاء مذكرة « تروتسكي » أما دول الوسط الذين كانوا يريدون خروج روسيا من الحرب ، فقد قابلوا اقتراح السوفييت بسرور وترحيب . وفتح باب المفاوضات في ٣ ديسمبر في مدينة

برست ليتوفسك ، ثم أعلنت الهدنة بين روسيا ودول الوسط (المانيا والنمسا وتركيا وبلغاريا) .

وقد حاول البلشفيك ان تجري مفاوضات الصلح في ستوكهلم بالسويد لتسير في جو محايد بعيداً عن الاراضي التي تسيطر عليها دول الوسط ولكن الالمان رفضوا ذلك الاقتراح ، وعقد اجتماع الصلح في ١٠ يناير سنة ١٩١٨ في برست ليتوفسك « Brest - Litovsk » ، وأهم المشكلات التي كانت تعوق نجاح المؤتمر ، هي مصير البلاد التي احتلتها القوات الالمانية والنمسوية ، وقد طلب البلشفيك بجلاء تلك القوات عن بولنده وكورلاند » ولثوانيا على ان يستفتى اهل تلك البلاد في الحكم الذي يفضلونه ، وقد رفضت دول الوسط هذا الطلب ، ولم يجد لينين بداً من التسليم بشروط الالمان حتى تفرغ البلشفية من تنظيم نفسها اولاً داخل روسيا .

واخيراً وقعت معاهدة برست – ليتوفسك في ٣ مارس سنة ١٩١٨ ، وبمقتضاها (١) وافقت روسيا على التنازل عن بولندا ولثوانيا وترك تقرير مصير تلك البلاد للبت فيه بين المانيا والنمساويين اهالي تلك البلاد (٢) الجلاء عن لتوانيا واستونيا وفنلندا (٣) الجلاء عن اكرانيا والاعتراف بالمعاهدة التي ابرمتها جمهورية الشعب الاكراني ودول الوسط (٤) التنازل لتركيا عن عن اردهان وقارس وباطوم (٥) الامتناع عن نشر الدعاية البلشفية في الاراضي التي تسيطر عليها دول الوسط .

وهكذا عقد البلشفيك صلحاً كلفها ان تفقد حوالي خمسمائة الف ميل مربع من الارض ، يسكنها حوالي ٦٦ مليوناً من الانفس ، ولكن البلشفيك كانوا اذذاك يتطلعون الى فترة سلام يستطيعون خلالها ان يقوموا بتجربتهم الخطيرة في قلب نظام الحكم واقامة دكتاتورية الطبقة العاملة .

اما بالنسبة لدول الوسط ، فقد ادى لهم انسحاب روسيا من الحرب وانغماسها في ثورتها الخطيرة خدمة مؤقتة ، اذ أعفاها من الحرب في جبهتين ،

ومهد الطريق لنقل عدد كبير من قواتها الى الميدان الغربي للاشتراك في المعارك الحاسمة التي خاضتها في عام ١٩١٨ .

تدخل الحلفاء

وعندما اصبح كل شيء هادئاً في الميدان ، لم يكن كل شيء هادئاً في داخل روسيا ، اذ كان امام البلشفيك صعوبات خطيرة لا بد لهم من التغلب عليها ، فقد كان اعداؤهم يحاولون الانتقاض عليهم في كل مكان ، واستمر الكفاح محتدماً بينهم وبين معارضيهم ثلاث سنوات ، من سنة ١٩١٧ الى سنة ١٩٢٠ ، وكانت في الواقع معركة حياة او موت ، نشبت بينهم وبين الاشراف ، ورجال الدين ، والجمهوريين المعتدلين ، والضباط السابقين من انصار القيصرية .

ولم يكن مقدراً لتلك المعركة بين البلشفيك واعداءهم في الداخل ان تستمر طويلاً ، لولا أن وجد الحلفاء وسيلة للتدخل ، فقد غاظهم ذلك التسليم للالمان في احرج الاوقات ، وعزموا على تقوية ساعد الاحزاب البورجوازية التي تؤيد مواصلة الحرب والعودة الى الجبهة الشرقية . وفي الوقت نفسه رأوا الاسراع في ارسال الرجال ، والمال ، والذخيرة الى روسيا لاستعمالها ضد الروس « الحمر » .

ورأى الحلفاء – بادىء ذي بدىء – أن يحرموا الالمان ، او البلشفيك من المواد الحربية الضخمة التي سبق لهم أن بعثوا بها الى « مورمانسك Murmansk » واركانجل « Archangel » لتكون تحت تصرف الروس قبل تسليمهم ، ولذلك مدوا دائرة الحصار نحو الحدود الروسية ، وارسلوا فرقاً من جنودهم الى مورمانسك ، واركانجل وفلاديفستك .

وكانت فرنسا اشد دول الحلفاء سخطاً وحنقاً على الانقلاب الروسي ، الذي قضى على التحالف الفرنسي الروسي ، واضاع عليها الديون الطائلة

التي اقرضتها للحكومات الروسية السابقة ، والتي جاء البلشفيك فأعلنوا عدم ارتباطهم بها .

وعندما تحطم الجيش التركي ، وانسحبت تركيا من الحرب (نوفمبر ١٩١٨) اقتحم الفرنسيون البحر الاسود وضربوا « اودسا » بالقنابل واستولوا عليها ، بينما احتلت بعض الفرق البريطانية بعض اراضي القوقاز واستولت على « باكو » . وذلك لتشجيع العناصر الروسية المعادية للبولشفيك على اتخاذ تلك الاقاليم مواطن للتآمر على قلب نظام الحكم السوفييتي .

كذلك انتهزت جماعات من الوطنيين في استونيا ، ولاتفيا ، وليتوانيا ، وفنلندا ، والقوقاز ، تلك الفرصة لتعلن استقلال تلك الولايات ، وتشجعت رومانيا واخترقت بعض قواتها اقليم « بسارابيا » .

قوى الأمل في نفوس العناصر الروسية المعارضة « الروس البيض » ، واقدمت على تنظيم قواتها بمساعدة تلك الفرق الاجنبية ، لاقامة « حكومات بيضاء » وفعلاً تأسست حول مورمانسلك واركانجل (حكومة روسيا الشمالية المؤقتة) ، وقام الاميرال « اسكندر كولجاك Kolchak ، القائـــد السابق للاسطول الروسي في البحر الاسود ، بتأسيس حكومة روسية اخرى في « اومسك » بسيبيريا ، وذلك بمعاونة الحلفاء والجنود التشك ، وقام غيره من القواد الروس المعادين للنظام الجديد بتأسيس حكومات اخرى في جنوب روسيا ، وجنوب اكرانيا ، والقرم .

إعدام القيصر (١٨ يوليه ١٩١٨)

ولما اشتد النضال بين الحمر والبيض ، وجد البلشفيك أن وجود القيصر نيقولا الثالث واسرته في معتقلهم بالقرب من بتروغراد ، قد يشجع العناصر المعادية للثورة ويفتح لهم باب الأمل للرجوع الى الحكم القيصري ، فأرسلت القيصر واسرته الى احدى بلدان منطقة أورال ، وفي صيف عـــام ١٩١٨ استطاعت بعض قوات البيض ان تتخذ طريقها الى تلك المنطقة ، فأسرع بعض

انضباط السوفييت الى مقر القيصر واعدموه مع اسرته رمياً بالرصاص .

ولما وجد البلشفيك أن المؤامرات الاجنبية والداخلية تحيط بهم أعـــدوا لكل شيء عدته، واعتمدوا في الدفاع على قوتين، أولهما فرقة « الشيكا Sheka » وثانيهما الجيش الاحمر. اما فرقة الشيكا فقد تكونت بعد ثورة نوفمبر مباشرة ، كحامية لحفظ النظام في العاصمة، ولكنها سرعان ما تحولت الى اداة ارهاب لمجابهة العناصر المعادية للثورة السوفييتية وكان من حق اعضاء الشيكا ان يقبضوا على العناصر التي تعتبر معادية للحركة السوفييتية لمحاكمتهم واعدامهم رمياً بالرصاص .

اما الجيش الاحمر فقد بذل « تروتسكي » اقصى ما لديه لتنظيمه واعداده حتى يستطيع ان يتغلب على قوات الروس البيض التي سلحها الحلفاء بأحدث الاسلحة، وسرعان ما اصبح الجيش الاحمر على اهبة الاستعداد لصد الخطر الاجنبي على البلاد .

وفي سنة ١٩١٩ . بدأ هجوم القوات الروسية المعادية حتى اصبحت على مرمى النظر من مدينة « بتروغراد » — التي سميت فيما بعد بمدينة لينينجراد — ولكن الجيش الاحمر هزمها وردها على اعقابها .

وأخيراً اضطر الحلفاء الى سحب قواتهم في اواخر عام ١٩١٩ ، وفي العام التالي ، رفعوا الحصار عن روسيا ، ولم يبقَ الا مدينة فلاديفستك على المحيط الهادي التي بقيت فترة من الوقت تحتلها القوات اليابانية [١].

وتمكن البلشفيك في عامي ١٩١٩ و ١٩٢٠ من طرد الحكومات المعادية التي تألفت في اكرانيا وروسيا البيضاء ، وقبضوا على زمام السلطة في ولايات القوقاز واذربيجان وارمينيا وجورجيا ، حيث تألفت بها حكومات اتبعت النظام السوفيتي الجديد .

---

(١) كان اليابانيون قد ارسلوا بعض قواتهم الى سيبيريا بعد تسليم روسيا للالمان لاعتقادهم بأن الفرصة سانحة لاقتناص تلك الممتلكات النائية .

اما سيبيريا فقد استطاعت القوات الحمراء ان تستولي فيها على اومسك وتومسك واركتسك والمنطقة التي تقع غربي بحيرة بيكال — والتي تكون منها جمهورية مستقلة اطلق عليها اسم « جمهورية الشرق الاقصى » ، وفي نوفمبر سنة ١٩٢٢ قررت الجمعية التأسيسية التي تكونت في تلك الجمهورية الانضمام الى « جمهورية السوفييت الاتحادية الاشتراكية الروسية » .

حكومة الاتحاد السوفيتي

كان مؤتمر السوفييت العام قد اصدر في ربيع عام ١٩١٨ دستوراً تأسست به « جمهورية السوفييت الاتحادية الاشتراكية الروسية U. S. S. R وتقرر أن تكون موسكو عاصمة قومية بدلاً من لينتجراد ، وأصبحت روسيا دولة اتحادية تستمد قوتها من الطبقة العاملة ، وذاع بين الناس شعار لينين المأثور « السلطة كلها للسوفييت » ، وأن النظام الجديد يجب ان تحرم منه الطبقة البورجوازية .

وفي سنة ١٩٢٢ ، اجتمع في موسكو وفود من مختلف الولايات البلشفية — وكانت تلك الولايات حينئذ لا تزيد على اربعة — ووقعت معاهدة فيما بينها ، على ان يبدأ العمل بما جاء فيها ابتداء من يوليه ١٩٢٣ .

اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية U. S. S. R. (يوليه ١٩٢٣)

كانت تلك الدول الروسية الاربعة التي وقعت معاهدة انشاء « اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية ، هي جمهورية روسيا السوفييتية الاتحادية الاشتراكية ، وروسيا البيضاء ، وأكرانيا ، واتحاد جمهوريات القوقاز .

ولم يشأ البلشفيك أن يحتفظوا بكلمة (الروسية) كصفة لاتحاد الجمهوريات السوفييتية ، وذلك لترك الباب مفتوحاً للولايات التي تسكنها أغلبية غير روسية للانضمام الى ذلك الاتحاد السوفييتي ، وإغرائها بأن ذلك الاتحاد يضم الولايات على أساس العقيدة السوفييتية لا على اساس سيادة العنصر الروسي .

وفي سنة ١٩٢٤ ، انضمت الى الاتحاد جمهوريتان آسيويتان همـــا أوزبكستان Uzbekistan وتركمنستان Turkmenistan ثم أخـــذت ولايات اخرى تنضم الى اتحاد الجمهوريات السوفييتية حتى بلغت ست عشرة جمهورية بعد الاتساع الروسي (١٩٣٩ — ١٩٤٠)[١] .

دستور الاتحاد السوفييتي (٣١ يناير ١٩٢٤)

وبعد أن تم تكوين « اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية » اقترح الحزب الشيوعي ، المسيطر على سياسة الاتحاد ، تعديل الدستور الذي صدر عام ١٩١٨ والذي تأسست به جمهورية السوفييت الاتحاديـــة الروسية ، ويتضمن الدستور الجديد طائفة من المبادىء تصبح اساساً للعلاقات التي تربط بين اجزاء الاتحاد السوفييتي الجديـــد ، وترضي القوميـــات بين شعوب الولايات السوفييتية ، كضمان المساواة في الحقوق والواجبات للجمهوريات المختلفة ، واستقلال تلك الجمهوريات استقلالاً ذاتيـــاً ، وهذا يعني انها تمارس على اراضيها سلطة الدولة فيما عدا الشئون الخارجية العليا التي تتولاها الهيئات العليا في الاتحاد السوفييتي[٢] ، وضمان حقها في استخدام لغتهـــا الوطنية ، وانشاء مجلس « سوفييت القوميات » يمثل فيه جمهوريات الاتحاد على قدم المساواة .

ونظام الحكم في الاتحاد السوفييتي ، نظام هرمي ، قاعدته الكبرى صغار

---

(١) اصبح الاتحاد السوفييتي يتكون من : جمهورية روسيا السوفييتية ، واكرانيا ، وبيلوروسيا واوزبكستان وكازاخستان وجورجيا واذربيجان وليتوانيا ومولدافيا ولاتفيا وقرغيزيا وتاجيكستان وأرمينيا وتركينيا واستونيا والجمهورية الكاريلوفينية

(٢) تتولى الهيئات العليا لسلطة اتحاد الجمهوريات السوفييتية تمثيل الاتحاد في شئون العلاقات الدولية ، ومسائل السلم والحرب ، وتنظيم شئون الدفاع ، والقيادة العامة لجيوش الاتحاد ، وشئون التجارة الخارجية على اساس احتكار الدولة لها ، ووضع الخطط التي يسير عليها الاقتصاد الشعبي في الاتحاد السوفييتي ، وادارة النظام النقدي ، وعقد القروض واعطائها ، وادارة البنوك والمشروعات التي لها اهمية لجميع بلاد الاتحاد السوفييتي .

الفلاحين وعمال المدن والمثقفون ، منظمين في لجان أو مجالس محلية يدعى كل منها (سوفييت) — ومعناها باللغة الروسية « مجلس » — وقد ظهرت « سوفييتات » العمال منذ ثورة ١٩٠٥ عندما كان العمال ينتخبون مندوبين عنهم للعمل على تحقيق مطالبهم ، واختفت تلك السوفييتات بعد قمع ثورة ١٩٠٥ الى ان ظهرت في انقلاب عام ١٩١٧ .

وتنتخب سوفييتات القرى مندوبيها في سوفييتات المراكز ، ويبعث سوفييت كل مركز بمندوبين الى سوفييتات الاقاليم ، وتختار هذه مندوبيها في سوفييت الجمهورية . ويختار هذا المجلس ممثليه في المؤتمر السوفييتي العام للاتحاد السوفييتي الذي يعتبر قمة الهرم الانتخابي السوفييتي .

تعديل الدستور سنة ١٩٣٦

وفي سنة ١٩٣٦ أدخلت عدة تعديلات على الدستور ، أهمها تأسيس السوفييت الاعلى للاتحاد من مجلسين : سوفييت الاتحاد ، وسوفييت القوميات ، وينتخب مواطنو اتحاد الجمهوريات السوفييتية «سوفييت الاتحاد على حسب الدوائر الانتخابية بمعدل نائب واحد عن ٣٠٠,٠٠٠ نسمة من السكان وهو يمثل المصالح العامة لكل المواطنين بصرف النظر عن قوميتهم . اما مجلس سوفييت القوميات » فينتخب مواطنو الاتحاد اعضاءه على حسب الجمهوريات الاتحادية والجمهوريات ذات الحكم الذاتي ، والاقاليم القومية بمعدل ٢٥ نائباً عن كل جمهورية اتحادية ، و ١١ نائباً عن كل جمهورية ذات حكم ذاتي ، و ٥ نواب عن كل منطقة من المناطق التي تتمتع بالحكم الذاتي ونائباً واحداً عن كل دائرة قومية ، وبذلك يعبر مجلس سوفييت القوميات عن المصالح النوعية لكل ما في الاتحاد السوفييتي من أمم وقوميات ذلك لأن الاتحاد السوفييتي يشتمل على أنواع مختلفة من التشكيل الاداري : الجمهورية المتحدة ، والجمهورية ذات الاستقلال الذاتي ، والمنطقة ذات الاستقلال الذاتي ، والاقليم القومي .

والجمهورية ذات الاستقلال الذاتي هي دولة تشكل جزءاً من جمهورية متحدة من جمهوريات الاتحاد السوفييتي ، اذ يوجد في جميع الجمهوريات المتحدة اقليات لها خصائصها القومية ، وقد حرصت هذه الاقليات على ان يكون لها كيان داخلي خاص تتمتع فيه بحقوق الدولة ذات الاستقلال الذاتي وتستعمل لغتها الوطنية ، ولكل جمهورية ذات استقلال ذاتي ، دستورها الذي يراعي خصائصها القومية ، وينطبق في الوقت نفسه على دستور اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية . وكل جمهورية ذات استقلال ذاتي ترسل نوابها مباشرة الى « مجلس سوفييت القوميات » ، وفي الوقت نفسه تشترك في الانتخابات العامة الخاصة بالجمهورية الاتحادية التي تنتسب اليها .

وهناك — فضلاً عن الجمهورية ذات الحكم الذاتي — نوع آخر من أشكال تنظيم الدولة ، هو « المنطقة » ذات الحكم الذاتي التي تتميز عن المناطق الادارية العادية بتركيبها القومي الخاص ، فهي التي تعين اللغة التي يجب استعمالها في الدواوين والمدارس وترسل نوابها مباشرة الى « مجلس سوفييت القوميات » .

أما أصغر التشكيلات في تنظيم الدولة القومي لشعوب الاتحاد السوفييتي ، فهو « الاقليم القومي » ، ويوجد منها في الاتحاد السوفييتي عشر أقاليم قومية تنتسب كلها الى « منطقة » في جمهورية روسيا الاشتراكية الاتحادية ومعظمها يقع في مناطق الشمال النائية ، وهذه الاقاليم ترسل نوابها مباشرة الى مجلس سوفييت القوميات .

وأهم تعديل طرأ فيما بعد على دستور ١٩٣٦ ، هو التعديل الذي اقترحه « مولوتوف » سنة ١٩٤٤ بمنح الجمهوريات الاتحادية حق انشاء علاقات خارجية بينها وبين الدول الاجنبية وأن تعقد معها الاتفاقات وتتبادل معها الممثلين السياسيين ، وان تمثل تمثيلاً مستقلاً في الهيئات الدولية والمؤتمرات ، وكذلك سمح للجمهوريات الاتحادية أن يكون لها وحدات عسكرية باسمها في الجيش السوفييتي .

ومع كل هذه التعديلات التي يبدو منها منح الجمهوريات المختلفة استقلالاً في شئونها الخارجية ، الا أنها – في الواقع – لا تستطيع أن تخالف السياسة العليا التي ترسمها السلطات المركزية ، وذلك لأن الحزب الشيوعي يسيطر سيطرة تامة على شئون الحياة في جميع انحاء الاتحاد السوفييتي . وللحزب الشيوعي مجلس عام له لجنة تنفيذية مؤلفة من ٧١ عضواً ، ولكن السلطة النهائية في يد المكتب السياسي أي المجلس الاعلى للحزب (Pulitbureau) الذي يتألف من اثني عشر عضواً ، وتكونت في المجلس الاعلى لجنة الخمسة التي كان يتزعمها « ستالين » وهؤلاء الخمسة هم الذين يسيطرون في الواقع على جميع الاعضاء وعلى تطوير شئون السياسة السوفييتية .

أشكال الملكية في الاتحاد السوفييتي :

وقد نص الدستور الجديد على أن الاساس الاقتصادي للاتحاد السوفييتي « يتكون من النظام الاقتصادي الاشتراكي ، ومن الملكية الاشتراكية لأدوات الانتاج ووسائله » ، ومعنى ذلك أن الملكية الفردية لأدوات الانتاج ووسائله قد الغيت ، وأن الناس يشتغلون في المصانع بدون رأسماليين وأن عمال الزراعة يشتغلون في الارض بدون كبار ملاك الاراضي . واصبحت ملكية الارض نوعين : الاول ملكية الدولة ، حيث توجد مزارع تقوم الحكومة بادارتها ويشتغل بها عمال مأجورون ، والثاني الملكية التعاونية او ملكية المزارع المشتركة Collective farms وتشتمل على وحدات زراعية كبيرة ، يشتغل فيها الفلاحون المتعاونون تحت رقابة حكومية صارمة ، وتفرض عليها انواعاً خاصة من الزراعة ، وتمدها الحكومة بالآلات الزراعية وما الى ذلك ، والواقع ان جميع الفلاحين تقريباً هم اعضاء في تلك المزارع المشتركة او كما يسميها الروس (الكولخوزات) ، وجميع ما فيها من ادوات زراعية ، وماشية ، وابنية خاصة بالاقتصاد الجماعي تعتبر كلها ملكاً اشتراكياً اجتماعياً تعاونياً ، اما الارض التي يشغلها الكولخوز فهي ملك للدولة ، اي ملك للشعب بأسره .

وكل اسرة من الكولخوز لها ان تستفيد ــ الى جانب نصيبها من الدخل الاساسي للمزرعة ــ من قطعة ارض صغيرة جداً ملحقة بسكنها تستغلها دون ان تستخدم عمالاً غرباء لزراعتها . ولا تعتبر الارض ملكاً خاصاً للكولخوزات او الهيئات التعاونية ، وكل ما هنالك ان الدولة قدمتها لها للتمتع المجاني بهـــا لمدة غير محددة، اي الى الابد . وقد انشيء في القرى الكولخوزية عدد من الأندية والمدارس ودور الحضانة ، ويعتقد الروس انه بفضل الكولخوزات ، ازدهر الانتاج الزراعي ازدهاراً قوياً ، وتحسنت حياة الفلاحين تحسناً جذرياً ، من النواحي الثقافية والصحية والاقتصادية .

ويجري توزيع دخل الكولخوز (من نقود ومنتجات) بين اعضائه وفق المبدأ الاشتراكي بنسبة كمية العمل الذي بذل ونوعه ، ومتوقف ذلك على حالة المحصول وانتاج الماشية . وعلى هذا يعمل الفلاح على المساهمة مع رفقائه في إنماء دخل الكولخوز بمجموعه ، فالمصلحة الشخصية والمصالح الجماعيةـــ صنوان لا يفترقان .

الدكتاتورية في النظام السوفييتي :

عندما قامت الثورة الروسية على القيصر ، وانقسم الثائرون فيما بينهم الى معتدلين ومتطرفين ــ منشفيك وبولشفيك ــ استطاع الاخيرون ــ كمـــا راينا ــ ان ينتصروا في النهاية ، ويؤسسوا حكومتهم على المباديء الاشتراكية في اعلا مراحلها .

وقد كان لينين ــ زعيم البلشفية ــ متأثراً في النظام الذي ابتدعه لروسيا بتعاليم كارل ماركس ، الذي ظهر في المانيا في منتصف القرن التاسع عشر ، داعياً الى اشتراكية متطرفة ، سميت فيما بعد بالشيوعية ، وقد اضطهدت الحكومة الروسية «كارل ماركس» واغلقت صحيفته ، فهاجر الى باريس واتصل هناك بالاشتراكيين الفرنسيين ، وتقابل مع فردريك انجلز الالماني الذي امضى بعض حياته في انجلترا متصلاً بالاشتراكيين الانجليز ، وفي سنة

١٨٤٥ ، طرد كارل ماركس من باريس ، فاختار الذهاب مع صديقه ومريده « انجلز » الى بروكسل ، وهناك طلبت اليه الجمعية الشيوعية التي اتخذت مقرها في باريس ، ان يضع لها لائحة تصبح دستوراً تعمل على تحقيقه ، فقام بوضع تلك اللائحة سنة ١٨٤٨ .

وفي اثناء الثورات الالمانية التي قامت في تلك السنة ، عاد كارل ماركس الى المانيا حيث اصدر صحيفة اشتراكية صادرتها الحكومة ، وبعد ان فشلت ثورات عام ١٨٤٨ ، هاجر الى لندن حيث قضى بقية حياته ، وهناك الف كتابه المعروف راس المال Das Capital .

والاشتراكية التي دعى اليها كارل ماركس، تقوم على اساس ان مجرى التطور التاريخي يتكيف حتماً بفعل القوى الاقتصادية عن طريق اهم مصدر من مصادر الثروة ، وهي عوامل الانتاج ، فالطبقة التي تستطيع امتلاك وسائل الانتاج ، تتمكن من الاستيلاء على مقاليد الحكم ، اعتماداً على سلطانها الاقتصادي ، لأن وسائل الانتاج ، واساليب توزيع الثروة ، هما اساس الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وهذا التفسير الاقتصادي لتاريخ البشرية ، جعل « ماركس » يعتقد ان اشتراكيته التي يدعو اليها ، انما هي اشتراكية علمية « Scientific Socialism » ، لها قواعد وقوانين وكان من رأيه ان القوة الاقتصادية قد انتقلت على ممر التاريخ من طبقة الى اخرى ، فقد انتهت الشيوعية البدائية في العصور السحيقة ، وحلت محلها النظم الاقطاعية التي يمثلها اصحاب الاراضي الذين يعتمدون على الحكم الاستبدادي الاقطاعي ثم جاءت — في العصر الذي عاش فيه كارل ماركس — البورجوازية الراسمالية فحلت محل النظم الاقطاعية ، وهنا ينادي « ماركس » بأنه قد حان الوقت للطبقات العمالية الكادحة (البروليتاريا Proletariat)[1]

---

(١) هي كلمة لاتينية قديمة معناها الطبقة التي لا تملك شيئاً ، ويقصد بها كارل ماركس العمال المأجورين أو الدهماء الذين لا يملكون اية وسيلة للانتاج ، فلا ارض عندهم ، ولا ادوات ولا مواد اولية ، ولا شيء بالمرة ، ويعيشون تحت رحمة الطبقة التي استحوذت على هذه الاشياء .

لكي تقهر الطبقات البورجوازية وتنتزع ما في ايديها ، وتقيم دكتاتورية جديدة تخلف دكتاتورية الراسماليين . واعتقد « ماركس » ان النظام الراسمالي يحتوي في داخله على عوامل هدامة ، فقد قام على المنافسة الحرة في سبيل الحصول على الارباح الخاصة ، وهي منافسة تؤدي الى نجاح الممتازين من اصحاب رؤوس الأموال ، في اكتساح منافسيهم في ميدان الاعمال الحرة ، وبذلك تتجمع الثروة وتتركز في ايدي اقلية ضئيلة ، لأن كبار الراسماليين يبتلعون صغارهم ، وهؤلاء الصغار من الزراع واهل المهن الحرة سوف يفضلون الانضمام الى الطبقة العمالية ، ثم ان فقر الغالبية العظمى من الشعب ، يؤدي الى التدهور الاقتصادي وفشل الصناعة ، ثم ينهار النظام الراسمالي كله وهذه الحالة تمهد السبيل لقيام الثورة الاشتراكية في الدول الصناعية الكبرى ثم تمتد منها الى غيرها من الدول .

واستطاع كارل ماركس ان يبث افكاره بين العمال في عدة دول ، لأنه كان يدعو العمال في جميع اقطار الارض الى التكاتف ضد طبقة الراسماليين ، لتأسيس اشتراكية دولية ، واول محاولة له في هذا الشأن ، انه دعا الى اجتماع في لندن حضره مندوبون من عمال فرنسا والمانيا وايطاليا وبولنده في عام ١٨٦٤ ، لتوحيد كلمة العمال في مختلف الاقطار ومن هنا نشأ ما نسميه « الحركة الشيوعية الدولية » ، وبذلك تأسس ما يعرف في التاريخ باسم « الدولية الاولى — The first International — غير ان الاحوال في اوربا في تلك الايام خيبت آمال انصار تلك الدولية الاولى ، وتفرقت كلمة العمال ، وقامت المنازعات بين منظماتهم ، حتى انحلت نهائياً عام ١٨٧٤ . وعندما اقتربت الحرب العالمية الاولى ، كانت الحركة الدولية الثانية قد بدات في الظهور ، الا ان القومية قد تغلبت على المصالح الطائفية — اي على الاشتراكية العالمية — ، واتضح عندما بدات الحرب ان العاطفة الوطنية قد طغت على روح الولاء للفكرة العالمية الدولية التي تهدف الى تكتيل جهود العمال في كل دولة للقضاء على الرأسماليين .

كذلك لجأت دول كثيرة الى الاستجابة لبعض مطالب عمالها ، فصدرت التشريعات التي قصد بها تحقيق الاصلاح الاجتماعي ، وتمكن عدد من الاشتراكيين في الدول الديمقراطية من الوصول الى البرلمان ، وعاونوا على الاستجابة لمعظم مطالب العمال دون الالتجاء الى الثورة المصحوبة بالعنف ، وهدم اسس النظام الاجتماعي .

على ان هناك فئة قليلة ظلت على ولائها للنظرية الماركسية الأصلية التي تنادي بالثورة المصحوبة بالعنف ، وبعد الحرب العالمية الاولى ، اطلقت هذه الاقلية على نفسها اسم « الحزب الشيوعي » تمييزاً لطابعها الذي يستند على المذهب الماركسي ، بدلاً من الطابع الاشتراكي المعتدل الذي تميزت به معظم الاحزاب في الدول الاوروبية .

نظام لينين :

كان « نيقولاي لينين » ، اول من استجاب لآراء كارل ماركس واعتنقها ، ولكنه اختلف معه في الوسائل التي يمكن ان تؤدي الى الثورة ، وحاول ان يتطور بآراء « ماركس » من نظريات فلسفية خيالية ، الى نظام واقعي للحكم ، كذلك راى « لينين » ان من الصعوبة بمكان ، ان يقوم الشعب كله بالثورة بمحض ارادته ، وعلى ذلك وجب ان تقوم الثورة على يد فئة منظمة قليلة العدد ، يتزعمها المتحمسون للمذهب الشيوعي ، على ان يقوم هؤلاء برسم خطة تكفل النجاح للثورة ، ولكن لم يلبث ان تبين في اول مرحلة من مراحل التطبيق العملي ، مدى الهوة التي تفصل بين النظرية ومفهومها الخيالي ، وبين التطبيق العملي في عناصره المادية المحسوسة ، فبدأ يعمل على اقامة « ديكتاتورية العمال المؤقتة » كنظام تتبعه روسيا في فترة الانتقال من النظام الرأسمالي الى الشيوعية .

ولم تنطبق نظريات كارل ماركس على الثورة الشيوعية في روسيا ، لأن ماركس اعتقد ان الثورة التي تنبأ بها ، سوف تبدأ في اكبر الدول الصناعية ، نتيجة انهيار النظام الراسمالي ، ولكن روسيا كانت — كما راينا — من اقل

الدول تقدماً في الصناعة ، لأن نظامها الراسمالي لم يكن قد تدهور الى الحد الذي وصفه « ماركس » .

والواقع ان الثورة الروسية قامت نتيجة عاملين لم يخطرا على بال كارل ماركس ، ولا يمتان الى فلسفته بصلة ، واول العوامل التي أدت الى قيامها هي ظروف الحرب وفشل الحكومة خلال الحرب العالمية الاولى مما ادى الى سقوط القيصر . ولولا هذا ، لظل الحكم القيصري ثابتاً لمدة طويلة في روسيا والعامل الثاني هو ان لينين — بمقدرته العظيمة وكفايته الممتازة — قد اخذ على عاتقه ان يقوم باحداث الانقلاب ، واكبر الظن انه لولا وجوده لما قدر للثورة ان تتجه نحو الشيوعية .

وعلى الرغم من انه اطلق على نظامه اسم دكتاتورية الطبقة الكادحة — البرولتريات — الا انه كان يرى ان دور هؤلاء العمال الذين يحكم باسم ديكتاتوريتهم لم يأت بعد ، لأنهم — كما قال — جهلة ، وغير مدربين ، وليسوا اكفاء للقيام بأعباء الدكتاتورية الحكومية ، فقد اثرت على نفوسهم تلك القرون الطويلة التي رزحوا اثناءها تحت نير الراسمالية وعلى ذلك ليس من المعقول ان يوكل اليهم الحكم في هذه الفترة ، بل تتولى هذه المهمة عنهم صفوة من جماعة البلشفيك . وقد قال « ماركس » ذات مرة مخاطباً العمال « عليكم ان تجتازوا خمس عشرة سنة ، او عشرين ، او خمسين سنة ، من حروب اهلية ومعارك في النطاق العالمي لا لتغيروا العلاقات القائمة فحسب ، بل ولتغيروا انفسكم كذلك ولتصبحوا اكفاء للسيادة السياسية » .

وهكذا تطورت فكرة الشيوعية الروسية من « دكتاتورية العمال الكادحين» الى « دكتاتورية الصفوة الممتازة » كضرورة مؤقتة ، لتحقيق ديكتاتورية العمال الاشتراكية ، ومع مرور اكثر من خمسين سنة التي نادى بها «كارل ماركس» لم يجد « لينين » ان العمال انفسهم جديرون بالحكم ، ولكن الضرورة المؤقتة ظلت حقيقة ثابتة حتى الآن ، وتحكمت تلك الصفوة الممتازة في شئون الدولة .

وقد عرف ستالين – خليفة لينين – الديكتاتورية العمالية المنشودة بأنها « سيادة الطبقة الكادحة على البورجوازية ، سيادة تستند على العنف ، ولا يحدها قانون ، سيادة تتمتع بعطف وتأييد طبقة الجماهير الكادحة التي طالما استثمرها الراسماليون » .

والواقع ان الدكتاتورية في الاتحاد السوفييتي ليست لتلك الجماهير الكادحة ، ولكنها تتركز في الحزب الشيوعي ، فهو القوة القائدة للمجتمع السوفياتي والطليعة المثقفة والمسلحة بالنظرية الماركسية اللينينية . وقد جاء في النظام الداخلي للحزب الشيوعي الذي اتخذ في مؤتمر الحزب التاسع عشر « إن المهمات للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي هي اليوم : ان يبني المجتمع الشيوعي بالانتقال تدريجاً من الاشتراكية إلى الشيوعية ، وان يرفع باستمرار مستوى المجتمع المادي والثقافي ، وان يربى اعضاء هذا المجتمع على روح الدولية (الأممية) والعلاقات الاخوية مع الكادحين في جميع بلاد العالم ». والحزب الشيوعي هو الذي يوجه نشاط الاتحاد السوفييتي فقد اقتنع الشعب من خلال تجاربهم بأن الحزب هو مرشدهم وزعيمهم ومعلمهم الامين .

وقد وصف ستالين الحزب الشيوعي في كتابه « اسس اللينينية » بأنــه وحده القائد الاساسي في نظام دكتاتورية البروليتاريا .

وتتمثل الدكتاتورية الشيوعية ايضاً في تحكّم الحكومة السوفييتية في حرية العمل ، وحرية الصناعة ، وحرية البحث ، فهي التي تفرض على المصانع أنواع المصنوعات المطلوبة ، وعلى الفنانين ألواناً خاصة من الفنون . وعلى المربين نوع التربية التي يبثونها في النشىء ، وأنواع الكتب المدرسية التي تتداولها أيدي التلاميذ ، بحيث توجه التربية في الاتحاد وجهة شيوعية لأن الماركسية هي الفلسفة الرسمية المعترف بها في جميع مناحي الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

والحكومة هي التي تمتلك وتسيطر على الصحف والمؤلفات والمسارح

والاذاعة والسينما والتلفونات والبرق والمعامل والمناجم والارض والسكك الحديدية والمصارف (البنوك) وغيرها .

اما من الناحية الاقتصادية ، فان حكومة الاتحاد السوفييتي هي التي تمتلك وتدبر جميع وسائل الانتاج والتوزيع ، فالتجارة الخارجية تحتكرها الدولة ، وتديرها وزارة التجارة الخارجية ، وتقوم بعمليات التجارة الخارجية منظمات للتصدير والاستيراد ، وتهتم كل منظمة منها بفئة معينة من البضائع .

وقد اتبعت الحكومة في الشئون الزراعية نظاماً آخر : فالمزارع المشتركة او الجماعية التي تستغلها جماعات تعاونية من الفلاحين ، عليها ان تبيع للحكومة نصف محصولها بالسعر الذي تحدده الحكومة ، أما ما تبقى من المحصول فيقسم بين الفلاحين ، بنسبة العمل الذي اداه كل منهم . وإلى جانب تلك المزارع المشتركة (الكولخوزات) نوع آخر يتبع الدولة مباشرة ، وهو مؤسسات زراعية اشتراكية ، يطلق على كل منها اسم (السوفخوز) والسوفخوزات التابعة للدولة تختص في زراعة الحبوب والقطن وتربية الماشية وزراعة الأشجار المثمرة والشاي والحمضيات وغير ذلك . وتمتاز بأنها لا تقتصر نشاطها على فرع واحد من الزراعة ، بل تتعاطى فروعاً متعــددة منها ، فسوفخوزات الحبوب مثلاً تخصص مكاناً كبيراً لتربية الماشية ، كما تخصص سوفخوزات تربية الماشية مكاناً كبيراً لزراعة الحقول . وتغل تلك المؤسسات الحكومية دخلاً كبيراً ، وقد ساعدها على ذلك الغاية بتطبيق النظريات العلمية ، وبموجب برنامج الدولة ، تقدم السوفخوزات إلى الكولخوزات البذور المصطفاة والماشية الأصيلة بشروط يسيرة .

ولم تعد الزراعة وحدها مصدر الثروة في روسيا ، بل نمت فيها الصناعة نمواً سريعاً ، وجرى التصنيع مستنداً الى الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج . ففي عام ١٩٤٠ ، كانت صناعة الاتحاد السوفياتي تنتج أكثر مما كانت صناعة روسيا القيصرية تنتجه عام ١٩١٣ ، بما يقرب من اثني عشر ضعفاً ، وزاد

انتاج صناعات الانشاءات الميكانيكية خمسين ضعفاً ، وكان الاتحاد السوفييتي قبل الحرب العالمية الثانية ، يشغل المرتبة الأولى في اوربا والثانية في العالم من حيث تطوره الصناعي .

شيوعية ستالين :

وقد استمد ستالين — الذي خلف لينين سنة ١٩٢٤ — سلطاته وقوته من مركزه كسكرتير الحزب مدة طويلة ، وعضو المكتب السياسي « Polibureau الذي كانت سلطته تعلو على سلطة مجلس الوزراء وعندما مات لينين ، قام في داخل الحزب نزاع بين « ستالين » و « تروتسكي » .

وكان لينين قد عين ستالين سكرتيراً للحزب ، ومنذ ذلك الوقت أخذ يعمل على اظهار نفسه ليكون الرجل الثاني بعد « لينين » . ولكن كانت امامه عقبة كؤود ، هي شخصية « تروتسكي » الذي كان اسمه يقترن دائماً باسم « لينين » عندما تذكر الثورة الروسية ، وكان الجميع في خارج الاتحاد السوفييتي يعتقدون أن « تروتسكي » هو الخليفة الطبيعي للزعيم لينين في الحكم ، الا أن وفاة لينين أعقبها قيام خلاف على السياسة الداخلية والخارجية في داخل الحزب الشيوعي بين انصار ستالين وانصار تروتسكي ، وانتهى الخلاف بهزيمة « تروتسكي » في مؤتمر الحزب الشيوعي الذي عقد في اواخر سنة ١٩٢٤ ، ثم تقرر عزله كوزير للحربية ، وطرد من مجلس العمل والدفاع ، وطرد جميع انصاره من الجيش والبحرية .

على ان تروتسكي وانصاره ظلوا على موقفهم من معارضة سياسة اقتصار الثورة الشيوعية على الاتحاد السوفييتي ، ومناداتهم بالعمل على تعميم الثورة في العالم ، لأنه كان يعتقد ان من المستحيل على دولة شيوعية ان تعيش بجانب عالم راسمالي ، بينما كان ستالين يرى عدم ملاءمة ظروف الاحوال للسعي في « تدويل » الشيوعية ، واخيراً انتهى الخلاف بانتصار وجهة نظر « ستالين ». وتقرر طرد تروتسكي من اللجنة المركزية للحزب في سنة ١٩٢٧ ، ثم نفيه

من البلاد في سنة ١٩٢٩ . وتبع ذلك قيام سلسلة من الاتهامات والمحاكمات وجهت الى زعماء البلشفيك القدامى للتخلص منهم حتى يخلو الجو لستالين .

وعادت الاتهامات والمحاكمات مرة اخرى في سنة ١٩٣٧ — ١٩٣٨ ، واستمرت حتى سنة ١٩٣٩ ، جوكم اثناءها مئات من كبـــار العسكريين والمدنيين ورجال الكنيسة وضباط البحرية والوزراء السابقين ، منهم من سجن ومنهم من لقى حتفه ، وكانت اخطر تهمة وجهت اليهم هي التآمر مع الاجانب ضد سلامة الوطن .

وعندما قامت الحرب العالمية الثانية كان « ستالين » زعيم الاتحاد السوفيتي دون منازع .

السياسه الخارجيه للاتحاد السوفييتي

الكومنترن Comintern

اتجهت سياسة الحكومة السوفييتية في الثلاث سنوات الأولى بعد ثورة نوفمبر ١٩١٧ الى السعي في تحطيم جميع الحكومات الراسمالية في دول العالم ، وتأسيس ديكتاتورية الطبقة الكادحة (البروليتاريا) على غرار نظام الحكم السوفييتي ، وانشاء اتحاد دولي بين جميع الجمهوريات السوفييتية التي يمكن تأسيسها بعد نجاح الثورات الشيوعية في تلك الدول . وبذلك يتم انشاء مجتمع شيوعي عالمي .

وقد حرص زعماء الشيوعية على نشر تلك الفكرة ، لانهم في السنين الأولى من تأسيس الاتحاد السوفييتي ، كانوا يشعرون بأن مركزهم الدولي لا يزال غير مأمون العواقب ، ولا سيما انهم كانوا يعتبرون جميع الحكومات الراسمالية اعداء لهم ، ورأوا من الضروري اقامة نظم سوفييتية في الخارج ، لما في ذلك من تدعيم للمذهب الذي اوصلهم الى الحكم ، لذلك كان هدف سياستهم الخارجية في تلك السنوات ، نشر الدعاية للثورة الاشتراكية في الدول الاخرى .

ولتسهيل مهمة تلك الدعاية الشيوعية ، راى الزعماء الشيوعيون تكوين الاتحاد الدولي الثالث « The Third International » الذي سمي فيما بعد « الكومنترن » فقد دعا الشيوعيون الروس جميع الاحزاب الشيوعية في انحاء العالم الى اجتماع يعقد في (موسكو) في مارس ١٩١٩ لتكوين ذلك الاتحاد الدولي الثالث[1] وذلك بقصد جمع كلمة العمال من مختلف الشعوب ووضع برنامج مشترك يمهد السبيل لاقامة حكومات (البروليتاريا) على أنقاض الحكومات الرأسمالية . واجتمع في موسكو مندوبون عن الأحزاب الشيوعية في العالم ، لمناقشة الوسائل التي تؤدي الى اهداف « الكومنترن » ، وكانت أهم الوسائل لتحقيق الفكرة هي : (١) نشر الدعاية العالمية للمبادىء الشيوعية (٢) توحيد وتقوية الاحزاب الشيوعية في مختلف الاقطار (٣) تزعم الحركات العمالية والاشتراكية التي تقوم في بعض الدول وتوجيهها الوجهة المنشودة (٤) تعجيل تطور الحوادث في بعض الدول وتوجيهها نحو الثورة العالمية على الرأسمالية ، تحت اشراف الكومنترن .

وبدأ فعلاً نشاط تلك المنظمة بمعاونة الحكومة السوفييتية ، فقد لعبت دوراً هاماً في تشجيع الحركات الثورية التي قامت في بعض الدول الاوربية ، كالثورات التي قام بها الشيوعيون في المانيا والمجر عام ١٩١٩ . وفي ايطاليا عام ١٩٢٠ .

على أن ذلك النشاط الشيوعي الدولي لم ينجح عندما حاول الكومنترن الاتصال بدوائر العمال في بريطانيا وفرنسا والنمسا وتشكوسلوفاكيا .

---

(١) كان كارل ماركس أول من دعا الى تكوين (الاتحاد الدولي الاول) في سنة ١٨٦٤ واستمرت هذه المنظمة تعقد اجتماعاتها السنوية حتى عام ١٨٧٦ ، وقد توقف نشاطها كنتيجة لرد الفعل الذي حدث في اوربا ضد الاشتراكية ، ثم بدأت الاشتراكية تنهض من جديد ، فتأسس الاتحاد الدولي الثاني في عام ١٨٨٩ . وعندما لاحت الحرب العالمية الاولى ، وقف النشاط الدولي الثاني ، عندما تغلبت الوطنية والقومية على الاشتراكية العالمية .

كذلك بذل الشيوعيون مجهودات كبيرة لنشر الشيوعية في الاقطار الآسيوية ، على أمل أن تتحدد وتنضوي تحت زعامة الاتحاد السوفييتي بحجة « السعي في مكافحة الاستعمار والرأسمالية » ولكي يكتسب البولشفيك ثقة تلك الشعوب الشرقية ، اعلنوا استنكارهم للوفاق الودي الانجليزي الروسي الذي عقد سنة ١٩٠٧ ، وهو الوفاق الذي قسم ايران الى منطقتي نفوذ ، احداهما روسية في الشمال ، والاخرى انجليزية في الجنوب ، وتنازلت الحكومة السوفييتية عن معظم الامتيازات التي اكتسبتها الحكومات الروسية القيصرية في الصين ، وحرّضت الافغانيين على مقاومة السيطرة البريطانية ، وفي سبتمبر عام ١٩٢٠ دعا البلاشفة الى عقد « مؤتمر شعوب الشرق » في باكو ، وحضر المؤتمر ما يقرب من تسعمائة مندوب يمثلون حوالي اربعين شعباً ، ولكن لم يؤت ذلك المؤتمر الثمرة التي كان السوفييت يتوقعونها ، لأن المندوبين الذين حضروا المؤتمر ، كانوا لا يمثلون حكوماتهم ، بل يمثلون بعض العناصر المتطرفة في بلادهم ، ولم يصل السوفييت الى الهدف الذي كانوا يرمون اليه ، وهو تكوين تحالف شيوعي للشعوب الشرقية .

العودة إلى التفاهم

وشعر السوفييت منذ عام ١٩٢١ ، بأن محاولاتهم لنشر الشيوعية العالمية قد باءت بالفشل ، وأن عليهم أن يكرسوا جهودهم لنجاح السياسة الاقتصادية الجديدة التي وضعوها لبلادهم ، وتدعيم قوتهم ، وتحسين مركز بلادهم الاقتصادي ، ورأوا أن ذلك لا يتأتى الا بالتقرب الى العالم البورجوازي الذي كانوا يرفضون التعامل معه ، ولم يكن لدى تلك الدول مانع من التفاوض مع البلشفيك ، لذلك تم أول اتفاق تجاري بين روسيا وانجلترا في عام ١٩٢١ وفي الوقت نفسه اتفق الطرفان على ان تمتنع روسيا عن اثارة الآسيويين ضد بريطانيا ، في مقابل ان ترفع بريطانيا الحصار الاقتصادي عن الموانيء الروسية ، وما انتهى العام حتى اتمت روسيا عقد مثل هذه الاتفاقيات

التجارية مع احدى عشرة دولة . ومع ذلك لم تستطع تلك الاتفاقيات التجارية ان تكفي حاجة روسيا الاقتصادية ، لأن كثيراً من الدول الغربية كانت تحجم عن التعامل مع الحكومة السوفييتية بسبب القرار الذي اصدره البلشفيك عام ١٩١٨ بعدم اعتراف روسيا بالديون الاجنبية عليها .

واضطر وزير الخارجية الروسية أن يعلن أن حكومته على استعداد لمباحثة الدول بشأن الديون ، في مؤتمر دولي ، وبعد تردد طويل ، وبفضل المساعي التي بذلها لويد جورج ، دعيت روسيا لحضور مؤتمر دولي اقتصادي يعقد في جنوا في عام ١٩٢٢ ، وقد حضر المؤتمر ممثلو الدول صاحبة الديون على روسيا ، فيما عدا الولايات المتحدة ، ولكن مؤتمر جنوا لم ينجح لأن الدول طالبت روسيا بالاعتراف بالديون التي انكرتها ، وأن تدفع تعويضات للممتلكات الاجنبية التي صودرت في روسيا بعد قيام الثورة ، بينما صممت روسيا على عدم الاعتراف بديون الحرب ، والاكتفاء بالاعتراف بالالتزامـــات التي تعهدت بها الحكومة الروسية القيصرية لبعض الدول قبل قيام الحرب ، وبعد مباحثات استمرت عدة اسابيع لم يصل المؤتمرون الى اتفاق .

ومما زاد الحلفاء السابقين حنقاً على روسيا السوفييتية ان ممثلي روسيا والمانيا في المؤتمر ، قد اتفقوا فيما بينهم على توقيع معاهدة رابلو « Rapallo » ابريل ١٩٢٢ وتم بمقتضاها اعفاء المانيا مؤقتاً من ديونها التي تستحقها روسيا وفتحت الباب لعقد اتفاقات تجارية بين البلدين ، فاكتسبت روسيا بهذا الاتفاق كسباً ادبياً آخر ، وهو اعتراف المانيا بالنظام الجديد في روسيا .

وعندما تولت الحكم في بريطانيا وزارة العمال برئاسة « رمزي ماكدونالد (١٩٢٤) سارعت تلك الوزارة بالاعتراف بالحكومة السوفييتية بدون اي تحفظ . وبعد ايام قليلة اعلنت ايطاليا – وعلى رأسها موسوليني – الاعتراف بالحكومة السوفيتية ، وتبع ذلك عقد اتفاقيات تجارية بين روسيا وكل من بريطانيا وايطاليا .

وتتابعت بعد ذلك اعترافات الدول بالحكومة السوفييتية ، ولم يكن ينتهي عام ١٩٢٤ ، حتى بلغ عدد الدول الاوروبية التي اعترفت بها خمس عشرة دولة ، من بينها فرنسا ، والنرويج ، والنمسا ، واليونان ، والحجاز ، والصين ، والدنمرك ، والمكسيك ، وفي السنة التالية ، اي عام ١٩٢٥ حصلت روسيا على اعتراف معظم الدول الكبرى ، بما في ذلك الولايات المتحدة .

على أن الحكومة السوفييتية قد ساءها عقد معاهدات لوكارنو « Locarno » في عام ١٩٢٥[1] بين الدول الاوربية الكبرى ، وهي المعاهدات التي اعتبرتها روسيا تهديداً خطيراً موجهاً اليها ، ولذلك كان أول هدف للسياسة الخارجية الروسية ما بين عامي ١٩٢٥ و ١٩٣٣ ، هو انشاء حاجز من الدول الصديقة على الحدود الروسية ، يضمن السلامة من العدوان ، وما وافى صيف عام ١٩٣٣ حتى كانت روسيا قد عقدت مع عدد من جاراتها الغربية والجنوبية ومع عدد آخر من الدول مواثيق الحياد وعدم الاعتداء .

الخوف من ألمانيا واليابان

وبعد عام ١٩٣٣ بدأت روسيا السوفييتية تشعر بأنها في اشد الحاجة لتوثيق علاقاتها بأكبر عدد ممكن من الدول الكبرى . وذلك نظراً الى السياسة العدوانية التي شرعت تتبعها المانيا النازية في الغرب ، والسياسة الاستعمارية التي كانت تتبعها اليابان في الشرق ، لذلك غير الشيوعيون رأيهم في عصبة الامم التي

---

(١) كان حوض نهر الرين بعد انتهاء مؤتمر الصلح مثار خلاف خطير يزعزع السلام في تلك البقعة الهامة من العالم ، وقد رأى كل من ارستيدبريان « Brian » وزير الخارجية الفرنسي وسترسمان وزير الخارجية الالماني ، واوستن تشمبرلن وزير الخارجية البريطاني ، ان يحلوا مشكلة الرين في مؤتمر يعقد في لوكارنو بسويسرا (٥ - ١٦ اكتوبر ١٩٢٥) ، ودعوا الى المؤتمر كلا من ايطاليا وبلجيكا وبولنده وتشكسلوفاكيا وقد تم في هذا المؤتمر عقد سبع معاهدات ، منها اربع معاهدات تحكيم بين المانيا وبلجيكا وفرنسا وبولنده وتشكوسلوفاكيا ومعاهدتي دفاع بين فرنسا وبولنده وتشكوسلوفاكيا ومعاهدة ضمان مشترك - او ميثاق الرين - بين فرنسا والمانيا وانجلترا وايطاليا وبلجيكا .

كانوا يعتقدون من قبل أنها اداة في يد الدول الرأسمالية الكبرى للتآمر ضد روسيا السوفييتية ، وامام الخطر الالماني النازي من جهة واليابان من جهة اخرى، رأت روسيا ان تنضم الى عصبة الامم لتتمتع بالامن الجماعي عن طريق عضويتها في العصبة ، وتم لها ما ارادت في عام ١٩٣٤ وفي العام التالي ، عقدت اتفاقيات عسكرية دفاعية مع كل من فرنسا وتشكوسلوفاكيا ضد المانيـــا .

وفي عام ١٩٣٨ ، عندما فشلت بريطانيا العظمى وفرنسا في منع العدوان النازي على حدود تشكوسلوفاكيا ، كانت الحكومة الروسية ترتاب في نيات هاتين الدولتين — بريطانيا وفرنسا — ظناً منها انهما يحاولان ان يوجها اطماع هتلر وعدوانه شرقاً نحو روسيا . وامام هذه الظروف ، قرر الشيوعيون العمل على تأجيل قيام أي نزاع بين روسيا السوفييتية والمانيا النازية ، واستطاعوا ان يصلوا الى عقد معاهدة عدم اعتداء مع المانيا في اغسطس سنة ١٩٣٩ .

وكانت لتلك الخطوة — في نظر الشيوعيين — فائدة مزدوجة ، لأنها تمنح روسيا وقتاً هي في أشد الحاجة اليه لكي تستكمل استعداداتها الحربية ، وفي الوقت نفسه ، تثير بهذا الاتفاق غضب انجلترا وفرنسا ضد المانيا ، وتبدأ الحرب لا محالة بعيداً عن روسيا .

وسنرى عند معالجة تاريخ المانيا النازية كيف تطورت الحوادث وعادت المانيا الى معاداة روسيا عندما قرر هتلر الهجوم عليها .

وقد أعلن الاتحاد السوفييتي أن مبادىء السياسة الخارجيـــة السوفييتية تتلخص في : النضال في سبيل السلم المديد والتعاون مع جميع الشعوب وفي سبيل المساواة في الحقوق والاستقلال لجميع الأمم الكبيرة والصغيرة وعدم التدخل في الشئون الداخلية للبلدان الأخرى . وان ليس في الاتحاد السوفييتي طبقات او جماعات لها مصلحة في الحرب . وإمكان التعايش السلمي والتعاون بين نظامين اجتماعيين واقتصاديين مختلفين .

ولذلك يهتم زعماء الاتحاد السوفييتي بتنظيم العلاقات الاقتصادية الروسية بالعالم الخارجي ، وانحصرت التجارة الخارجية في يد الدولة ، وتديرهـا وزارة التجارة الخارجية التي تعمل على تطوير علاقات الاتحاد السوفييتي التجارية والاقتصادية مع الدول الأخرى ونجحت بفضل الازدياد المستمر في الانتاج الصناعي والزراعي وفي توسيع نطاق التجارة الخارجية مع العـالم الخارجي من جهة حجم البضائع وتنوعها .

ويؤكد زعماء الاتحاد السوفييتي ان التجارة الخارجية السوفييتية ترمي إلى توسيع نطاق التعاون الاقتصادي مع جميع الدول ، وان التجارة الخارجية تتمشّى مع مبدأ تعزيز السلام والمساواة بين الجميع . وينتقدون محاولات الدول الغربية الكبرى التي تعمل على فرض الحصار الاقتصادي على الكتلة الشيوعية .

الفصل السادس عشر

ايطاليـــا الفاشستية

بعد ان فازت ايطاليا بوحدتها التي كانت تنشدها ، ظلت مملكة مستقرة تحت حكم آل سافوى ، ولكن توحيدها ، واستقرار الامور فيها ، لم يحولا دون قيام الصعوبات الاجتماعية والاقتصادية التي واجهتها ، ولم يفدها الحكم البرلماني الذي كانت تتمتع به ، اذ لم تكن للحياة النيابية اثرها في اصلاح شئون الدولة ، لأن الروح الدستورية الحقيقية لم تكن موجودة في ذلك الوقت ، بل كانت الحياة النيابية فاسدة ، لا تؤتي ثمرتها . ولما كان البرلمان الايطالي ينتخب بطريقة التمثيل النسبي كثرت الاحزاب الايطالية ، وكثرت المشاحنات الحزبية مما شغل المفكرين عن البحث في وسائل الاصلاح . ولذلك ظلت المشكلات الاقتصادية التي تعانيها ايطاليا قائمة دون حل . في الوقت الذي كانت مشكلة اطعام سكان ايطاليا الذين يتزايد عددهم عاماً بعد بعد عام ، ومعالجة مشكلة الفقر أمراً يحتاج الى حل سريع . أضف الى ذلك أن ايطاليا كان ينقصها الفحم والحديد وزيت البترول لكي تتابع نهضتها الصناعية .

وقد انضمت ايطاليا الى الحلفاء في الحرب الكبرى الاولى على أمل أن اشتراكها سوف يعود عليها بالخير العميم ، واعتقدت ايطاليا بعد اشتراكها

في الحرب أنها قدمت لحلفائها أجل الخدمات ، وأنها ضحت برجالها وأموالها . اذ فقدت خلال الحرب ما يقرب من ٦٥٠٠٠٠ نفس وجرح من رجالها حوالى المليون ، وأنفقت من الأموال ما أثقل كاهل خزانتها ثم خرجت من الحرب منتصرة مع المنتصرين ، الا أن حلفاءها لم يعترفوا لها بكل ما كانت تدعيه من حقوق على الساحل الشرقي لبحر الادرياتيك ، وفي الشرق الادنى وفي افريقيا ، ولم يقر مؤتمر الصلح وجهة نظرها فيما تطالب به في شرق البحر الادرياتي ، وفي الشرق الادنى ، وفي افريقية .

وقد بذل مندوبو ايطاليا في المؤتمر جهوداً كبيرة في سبيل تحقيق المطالب الايطالية ، فصمموا اولاً على أن تعترف الدول بميناء فيوم Fiume أرضاً ايطالية ، واحس الايطاليون ان المؤتمرين لن يعترفوا بحق ايطاليا فيها ، فقام جماعة من قوات الشباب الايطالي بزعامة الشاعر الايطالي دانزيو بالاستيلاء على فيوم في الوقت الذي كانت المناقشة حول مسألتها محتدمة في مؤتمر الصلح . ولم يستمر احتلال الايطاليين لفيوم مدة طويلة فقد وصلت يوغوسلافيا مع الحكومة الايطالية في سنة ١٩٢٠ الى حل للمشكلة في معاهدة راپالو Rapallo ، واخرجت الحكومة الايطالية قوات دانزيو من المدينة على الرغم من احتجاج الوطنيين في ايطاليا على ذلك التصرف الذي اعتبروه خضوعاً مهيناً من حكومتهم لأوامر بريطانيا والولايات المتحدة .

واعتقد الايطاليون أن الحلفاء كانوا انانيين في توزيع اسلاب الحرب ومع ذلك فان ايطاليا قد ضمت في تسوية الصلح حوالي تسعة آلاف ميل مربع من الأرض في أوربا وأكثر من مليون ونصف ميل مربع في جهات أخرى . ولكن الايطاليين اعتبروا نصيبهم من الغنيمة ضئيلاً لا يوازي ما قدموه من تضحيات . ولا يوازي ما تركته الحرب من اعقاب سيئة في بلادهم ، فقد ارتفعت اسعار المواد الغذائية ، وازدادت الضرائب ، ونـدر الوقود ، واضمحلت تجارتهم في الداخل والخارج .

هذا الى أن ايطاليا قد منيت منذ اعلان الهدنة في عام ١٩١٨ بحكومات

ضعيفة غير مستقرة كانت تستقيل لأتفه الأسباب ، وقــد تعاقبت خمس وزارات في أربع سنوات ولم تكن لأية حكومة منها سياسة مرسومة سواء في الداخل او في الخارج ، ولم تكن من القوة والثبات بحيث تستطيع ان تحمل الناس على احترام القانون . ولا سيما ان العمال الايطاليين كانوا يعتقدون أن دخولهم ايطاليا الحرب كانت نكبة على البلاد ، واخذوا يسائلون انفسهم عما جنته بلادهم بعد انتصار الحلفاء ، وتملكت نفوسهم روح التذمر والاستياء الشديد ضد الحكومات التي تعاقبت بعد الحرب .

وفي هذا الجو العاصف أخذت أغلبية الجماهير تميل نحو الاشتراكية المتطرفة وينزع البعض منها الى الشيوعية ، وكثيراً ما كانت تطوف في الشوارع مظاهرات صاخبة تهتف باسم « لينين » وكثرت الاضرابات بين العمال ، واعتصم الآخرون بمصانعهم حتى تجاب مطالبهم ، وامتنع الكثيرون عن دفع ايجار الارض وانتشرت المشاغبات التي كانت تنتهي غالباً بسفك الدماء .

سارت الامور من سيء الى أسوأ ، وانتشرت البطالة بين الناس ، وفشل الجنود العائدون في ايجاد عمل لهم ، وكسدت التجارة الخارجية كساداً كبيراً وتراكمت ديون الحكومة ، وقام النزاع الخطير بين الرأسماليين والاشتراكيين ، وتزايد الشعور بين الناس بالحاجة الى حكومة قوية تنقذ البلاد مما تردت فيه ، وتعيد اليها استقرارها السياسي والاقتصادي ، وتطلع اصحاب الأملاك والرأسماليون الى حكومة قوية تحميهم من الفوضى ومن الاشتراكية الراديكالية وتطلع العاطلون الى حكومة تضمن لهم العمل ، كذلك سرت بين الجامعيين ، وأرباب المهن ، والشباب روح التذمر والأسف على الحالة السيئة التي وصلت اليها البلاد منذ عام ١٩١٤ . وبالجملة كان جميع المواطنين في ايطاليا يتوقون الى عهد جديد . وزعيم قوي ، يتسلم دفة الحكم بيد من حديد ، لانقاذ السفينة التي كادت تغرق . ويقوم بتطهير الادارة ، وتوجيه سياسة البلاد وجهة قومية.

وفي هذه الفترة الحاسمة من تاريخ ايطاليا ، ظهر موسوليني ، وتقدم للقيام بهذه المهمة ، ووجدت إيطاليا فيه الزعيم الذي كانت تنشده .

بنيتو موسوليني (١٨٨٣ — ١٩٤٥)

ولد موسوليني في سنة ١٨٨٣ . من أب قروي حداد ، كان يعيش في شمال ايطاليا : وقد بدأ حياته العملية مدرساً بعد أن تعلـم في احدى مدارس المعلمين . ولكنه ضاق بمهنته ودفعه طموحه الى السفر الى سويسرا للاستزادة من التعليم . والتحق بجامعتي لوزان وجنيف ، وفي سويسرا اتصل موسوليني بالمنظمات الاشتراكية واشترك في نشاطها ، وحرر في صحفها ، ورأت الحكومة السويسرية أنه تطرف في اشتراكيته . واتهمته بأن يشترك في التحريض على حركات الاضراب . وأمرته بمغادرة سويسرا في الحال .

ولما عاد الى ايطاليا . وضعته الحكومة تحت المراقبة ، لما عرف عنه من النزعات الثورية ولكنه لم يتخل عن نشاطه في تدبير الاضطرابات حتى قبض عليه سنة ١٩٠٨ . ولما خرج من السجن ذهب الى التيرول ، موطنه الاصلي ، ولكن الحكومة النمسوية طردته من هناك ، فعاد الى ايطاليا ليواصل نشاطه ، وقبض عليه مرة أخرى سنة ١٩١١ ، لاثارته الرأي العام ضد الحملة التي قررت ايطاليا ارسالها الى طرابلس .

وفي السنة التالية ، خطب موسوليني عدة خطابات حماسية في مؤتمر عقده الاشتراكيون ، أهلته لرئاسة تحرير صحيفة أفانتي **Avanti** لسان حال الحزب الاشتراكي الايطالي .

وعندما أعلنت الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤ ، كان موسوليني يدعو الى حياد ايطاليا ، ولكن سرعان ما غير رأيه ، وتغلبت فيه الروح القومية على النزعة الاشتراكية ، وشرع يدعو الى اشتراك ايطاليا في الحرب ، ولما كانت تلك الدعوة تناقض رأي الحزب الاشتراكي ، فقد قرر الحزب فصله ، وأعفي بالتالي من رئاسة تحرير صحيفته ، فانضم الى تحرير صحيفة تصدر في ميلان كانت تدعو الى وجوب اشتراك ايطاليا في الحرب ، وهي جريدة (ال بوبولوديتاليا **là Popold' italia** وظل موسوليني رغم طرده من الحزب الاشتراكي يدعي

بأنه لا يزال اشتراكياً .

وفي سنة ١٩١٥ ، التحق موسوليني بالجيش ، واشترك في الحرب حتى جرح في عام ١٩١٧ ، وعندما عوفي من جراحه ، أُعفي من الخدمة ، وعاد الى جريدته يحمل فيها على من سماهم دعاة التردد والهزيمة .

بدأ نجم موسوليني في الصعود ، وبرزت شخصيته كزعيم وخطيب ، يستطيع أن يسيطر على سامعيه فيلهبهم حماسة ووطنية .

وعندما انتهت الحرب ، دعا الى اجتماع كبير ضم عدداً كبيراً من المهتمين بحل مشكلات ايطاليا التي تضاعفت بعد الحرب وحضره عدد كبير من الثائرين على قرارات مؤتمر الصلح ، وكان من بين هؤلاء جماعة من الفاشيين[1] Fasci d, Azione الذين كونوا في (أكتوبر ١٩١٤) منظمات تدعو الى اشتراك ايطاليا في الحرب في صف الحلفاء ، وقاد موسوليني حملتهم اذ ذاك ، بالدعاية لها في صحيفته حتى أصبحت لسان حال الفاشست وعندما انتهت الحرب ، كون موسوليني من هؤلاء الفاشيين في ميـــلان جماعة تسمى Fasci di Comibatimento أي (الجماعة المكافحة) .

وأخذت هذه الجماعة تحت زعامة موسوليني تدعو الى القيام بمشروعات اصلاحية ثورية ، لانقاذ ايطاليا من أزماتها المستحكمة ، فطالبت بفرض ضرائب ثقيلة على رؤوس الاموال ، والتركات ، ومصادرة بعض أموال الكنيسة لمصلحة الشعب ، وتحديد ساعات العمل بثمان في اليوم ، والغاء مجلس الشيوخ ، ودعوة جمعية وطنية لوضع دستور جديد للحكم ، وتأسيس المجالس الاقتصادية بحيث يكون لهـــا حق التشريع ، ووضع تخطيط للمشروعات العمرانية ومنح العمال حق ادارة بعض الصناعات (كصناعة القضبان الحديدية) والعمل على ضم « فيوم » و « دالماشيا » الى ايطاليا .

---

(١) كلمة Fasci مأخوذة عن الكلمة اللاتينية Fasces ومعناها (حزمة العصي) مربوطة في الفأس

وعلى الرغم من قوة شخصية موسوليني ، الا أن قوة الحزب الاشتراكي طغت على الفاشست في عام ١٩١٩ ، وقد تبين ذلك من نتائج الانتخابات التي أجريت في تلك السنة ، اذ أحرز الاشتراكيون أكثر من ثلث المقاعد في مجلس النواب . وفي سنة ١٩٢٠ ، بلغت الحركة الاشتراكية أعلى قمتها ، وبلغ من اعتداد زعمائهم بأنفسهم وعدم اهتمامهم بحكومتهم أن طالبوا بالانضمام الى الشيوعية الدولية ، التي نادت بها روسيا عقب قيام الثورة الشيوعية ، ونجاح الشيوعيين في تسلم زمام الحكم .

وقد حدثت بايطاليا عدة حركات ثورية خطيرة ، فزحف بعض المتحمسين من الفلاحين الكاثوليك من قراهم على الضياع الكبيرة ، واحتل نصف مليون عامل من العمال الاشتراكيين مئات المصانع في المدن بقصد ادارتها بأنفسهم ولحسابهم ، ولم تستطع حكومة جيولتي Gioliti في ذلك الوقت أن تواجه تلك المشكلات .

ولم يشأ الاشتراكيون أن يستولوا على الحكم بالقوة — كما فعل الشيوعيون في روسيا — لان أغلب زعماء ايطاليا الاشتراكيين كانوا من المعتدلين الذين يعارضون في اغتصاب الحكم بغير الطرق الدستورية ، وقد بلغ بهم حب الاعتدال الى التوسط لدى العمال لاجلائهم عن المصانع التي احتلوها واعتصموا بهـــا .

على أن الحزب الاشتراكي الايطالي لم يستطع أن يحافظ عـــلى نفوذه ووحدته ، فقد خرج على الحزب جماعة من المتطرفين الذين يريدون تطبيق الاشتراكية في أعلا مراحلها ، وكونوا لأنفسهم حزباً جديداً هو « الحزب الشيوعي الايطالي » الذي كان يدعو الى دكتاتورية الطبقة العاملة .

انتصار الفاشستية

وفي الوقت نفسه ، كان كبار الملاك ، واصحاب المصانع ، والاغنياء ، يخافون من احتمال نجاح تلك الحركة الاشتراكية المتطرفة ، ومن وقوع ايطاليا

في براثن الشيوعية ، لذلك نجد تلك الطبقـة البورجوازية ترى في ظهور موسوليني ، ودعوته الجديدة ، باباً للأمل في القضاء على الاشتراكيين والشيوعيين .

ازداد الفاشست ثقة في أنفسهم ، فقاموا بحملات ارهاب مسلحة على اجتماعات الاشتراكيين والشيوعيين ، فكانوا يهاجمون صحفهم ، ويشعلون مؤسساتهم ، وبهذه الوسائل الارهابية الفعالة نجح الفاشستيون في بلوغ بعض أغراضهم ، وأحرزوا التأييد الأدبي والمادي من رجال الاعمال الايطاليين وغيرهم من أصحاب المصالح الذين كانوا يخافون قيام ثورة كالثورة الشيوعية في روسيا .

وعندما أجريت انتخابات عام ١٩٢١ . فاز الفاشست بخمسة وثلاثين مقعداً في مجلس النواب[1] . ومنذ هذا الوقت أخذ موسوليني يعمل في تنظيم حركته استعداداً لاقتناص الحكم عندما تسنح الفرصة .

وفي نوفمبر سنة ١٩٢١ ، خرج « الحزب الفاشستي الوطني » الى الوجود ، وعني موسوليني بأن يضفي عليه بعض المظاهر التي تجـذب العين ، فوضع لأعضائه لباساً خاصاً هو القميص الأسود المحلى بشارة خاصة ، وتحية خاصة هي رفع اليد اليمنى على نمط التحية الرومانية القديمة .

وعلى الرغم من قلة ممثلي الحزب الفاشستي في البرلمان ، الا ان الدعاية التي كان موسوليني وأعضاء حزبه يقومون بها طغت عـلى جميع الأحزاب ، فأضعفتها بالتدريج .

وكانت حكومة الاحرار التي تلي الحكم في ذلك الوقت تخشى من الثورة الاشتراكية ، أكثر مما تخشاه من الحزب الفاشستي ، ولذلك عمدت الى التقرب من الفاشست ، حتى أنها فكرت في تأليف حكومة ائتلافية ودعت موسوليني

---

(١) كان عدد الاعضاء الاشتراكيين ١٢٢ ، وعدد الشيوعيين ١٦ .

الى الاشتراك فيها . ولكنه رفض .

كان موسوليني يشعر بازدياد قوته ، فكان يصرح خلال عام ١٩٢٢ بأن المستقبل للفاشستيين ، وانهم قد يزحفون على روما في القريب العاجل ، واخذ يمطر مجلس النواب بوابل من المطالب والمقترحات ، طالب بتعديل قانون الانتخابات ، واتباع سياسة خارجية حازمة ، والقيام باصلاحات مالية واسعة النطاق ، ثم طالب بأن يشترك الفاشست في الحكم بخمس مناصب وزارية رغم مخالفة ذلك لنسبة عدد ممثلي حزبه في مجلس النواب .

على ان تهديدات « موسوليني » في المجلس كانت تقابل بالزراية والاستخفاف وعدم الاكتراث ، وذلك على الرغم من ان الميليشيا الفاشستية كانت تسيطر بالتدريج على مدن ايطاليا الكبرى في الشمال .

الزحف على روما

وفي أكتوبر سنة ١٩٢٢ ، دعا موسوليني الى عقد « مؤتمر الفاشست الوطني » في نابلي ، وتقرر في المؤتمر أن يلجأ الحزب الى استعمال القوة ، وزحفت الميليشيا الفاشستية المكونة من عدة آلاف من الشبان المسلحين على روما . وهنا لجأت الحكومة الى الملك فكتور ايمانويل ليصدر مرسوماً باعلان الاحكام العرفية . ولكن الملك رفض الموافقة على اقتراح حكومته ، لانه اعتقد أن ذلك الصراع سوف يؤدي في النهاية الى قيام حرب أهلية خطيرة . ولم يرَ « لويجي فاكتا Luigi Facta » رئيس الوزارة بدأً من الاستقالة ، وعندئذ طلب الملك من موسوليني أن يؤلف الوزارة .

قبل موسوليني دعوة الملك لتأليف الوزارة ، ومند هذا التاريخ بدأت الدكتاتورية الفاشستية في ايطاليا . والواقع أن ظروف ايطاليا في ذلك الوقت ، كانت تدعو معظم الطبقات الى تأييد حكومة موسوليني ، فقد كان كبار الملاك واصحاب الأراضي يعيشون في خوف مما كان يجري حولهم بسبب انتشار الافكار الشيوعية ، فكانوا يتطلعون الى وجود حكومة قوية تحمي الملكيــة

الخاصة . كذلك كان الطلاب وأساتذة الجامعـــات وأرباب المهن والشباب ساخطين على ما وصلت اليه حالة البلاد منذ عام ١٩١٤ من فوضى وسوء حال. فكانت أمنيتهم الأولى أن تلي الحكم حكومة وطنية حازمة تقوم بتطهير الادارة ، واصلاح أداة الحكم ، وتوجيه سياسة البلاد وجهة قومية .

موسوليني في الحكم

عندما قبل موسوليني الحكم لم يكن يعتمد على البرلمان في تأييد سياسته ، اذ لم يكن لحزبه أكثر من ٦٪ من المقاعد ، ولذلك عزم على تغيير قانون الانتخاب ، ونجح في اصدار تشريع ينص على أن الحزب الذي ينال أغلبية الأصوات في الانتخاب له الحق في ثلثي مقاعد مجلس النواب .

وفي انتخابات عام ١٩٢٤ ، نال الفاشست أغلبية الأصوات ، ومع ذلك فقد ارتفع في المجلس صوت المعارضة قوياً مدوياً ، وكان أعنف المعارضين في المجلس هم أعضاء الحزب الاشتراكي الذي كان أشد الاحزاب مهاجمة للفاشستية . ولم ين زعيم ذلك الحزب « ماتيوتي Mateotti » عن استنكار الوسائل الارهابية الغامضة التي يلجأ اليها الفاشست . وكان جزاء ماتيوتي أن هاجمته العصابات الفاشستية واغتالت حياته ، وازدادت موجة الارهاب التي التي كان يحركها ذوو القمصان السوداء ، واضطر المعارضون الى الانسحاب من البرلمان .

وبعد كفاح عنيف مع أحزاب المعارضة في داخل البرلمان وخارجه طغت شخصية موسوليني على الجميع ، لأن الشعب الايطالي اعتقد أنه عثر اخيراً على الزعيم المنشود . وأصبح ذلك الزعيم هو كل شي في الدولة ، وانطوى الملك فكتور عمانويل على نفسه ، فلم يحاول الوقوف في وجه الفاشستية ، ولذلك لم يجد موسوليني ما يدعوه الى الغاء الملكية .

أما البرلمان ، فقد ضاعت هيبته التشريعية ، وانقلب الى جمعية تعرض الحكومة عليها ما تشاء ، وتستمع الى خطب موسوليني فتصفق له ، ولم يعد

مجلس الوزراء يعبأ بمسئوليته الوزارية أمام المجالس التشريعية .

ولم يكتف موسوليني بالقضاء على الروح الدستورية البرلمانية ، بل عمد الى سلب سلطة مجلس الوزراء لنفسه ، بأنه تولى ثمان مناصب وزارية من خمسة عشر ، فأصبح الباقون لا حول لهم ولا قوة ، ولا يستطيعون الاعتماد على أنفسهم وكان هو من جانبه يعاملهم كسكرتاريين اداريين أكثر منهم وزراء اصحاب سلطة تنفيذية ، ولم تعد الدولـــة سوى الدوتشي Il Duci (أي الزعيم) فباستطاعته أن يصدر المراسيم التي تكتسب صفة القانون ، وباستطاعته أن يوجه السياسة الداخلية والخارجية ، معتمداً على أن الجيش أصبح في يده بصفته قائد القوات المسلحة ، وعلى ثقة الجماهير فيه بعد أن تأثرت بالدعاية الفاشستية الجديدة .

وبانحلال النظام البرلماني في ايطاليا، ازداد الحزب الفاشستي قوة ، ولذلك كان المجلس الأعلى للحزب الفاشستي ، هو مصدر السلطات ، وقد احتل زعماء هذا المجلس المناصب الوزارية ، ولكنهم تركوا الأمر والنهي للدوتشي ، وكان على كل من ينضم الى الحزب أن يقسم القسم التالي « أقسم أن أطيع بغير منـــاقشة أوامر الدوتشي ، وأن أخدم أغراض الثورة الفاشستية بكل قوتي وأضحي في سبيلها دمي ان لزم الأمر » .

أخذت الأحزاب الأخرى تتضاءل الى أن تلاشت نهائياً في عام ١٩٢٦ ، وظل الحزب الفاشستي هو الحزب السياسي الشرعي الوحيد ، وبذلك تحقق ما أنذر به موسوليني قبل ذلك بعدة سنوات عندما قال « يجب أن تسقط كل الاحزاب وينتهي أمرها ، أريد أن أرى حطام تلك الاحزاب السياسية حولي — وعندئذ — تقف الفاشستية وحدها تمثل قوة ايطاليا وسيادتها الدائمة » .

ولما كان موسوليني يعتقد أن مستقبل البلاد في أيدي الشباب عني عناية قصوى بتدريب الشباب الايطالي على النظام والكفاح المسلح . ومن أجل هذا كون منهم جماعات منظمة يشرف عليها زعماء الحزب اشرافاً كاملاً فالأولاد

من سن السادسة الى الثامنة ينظمون في جماعات يسمونها أبناء الثعلب Figli della lupa ، ومن سن الثامنة الى سن الرابعة عشر ينظمون في جماعات يسمونها الباليلا Balila [1] ، ومن سن الرابعة عشرة الى الثامنة عشرة في جماعات الحرس الامامي Avanguaradia . ومن سن الثامنة عشرة الى الواحد والعشرين ينضمون الى جماعة شباب الفاشيت Giovani Fascisti وقد بلغ عدد أفراد هذه الجماعات في سنة ١٩٣٩ حوالي خمسة ملايين شاب ثم انتظمت الفتيات أيضاً في جماعات خاصة بهن حتى بلغ عددهن في عام ١٩٣٩ حوالي ٢,٧٠٠,٩٠٠ فتاة .

كانت الحكومة الايطالية من الناحية النظرية ملكية ، ولها برلمان ولكن الواقع أن موسوليني عطل سلطة الملك ، وسيطر على البرلمان حتى توقف عن عمله ، وعلى الرغم من أن موسوليني كان مسئولاً أمام الملك وحده . الا أنه قد أنذر الملكية بطريق غير مباشر عندما صرح في احدى المناسبات بأنه « لو حاولت الملكية الوقوف ضد الحكومة الحاضرة ، فلا يسعنا الا الغاءها » .

وفي سنة ١٩٣٦ أعلن موسوليني أن مرحلة التجربة قد انتهت ، وأن هيئة المجلس الوطني ستحل محل مجلس النواب ، ومنذ ذلك الوقت أصبح أساس التمثيل في هذا المجلس الناحية الاقتصادية لا الناحية السياسية .

حكومة نقابية

رأى موسوليني أن يؤسس في ايطاليا أول دولة نقابية أي تعتمد على تعاون الهيئات النقابية والهيئات المستنيرة في البلاد ، لأنه كان يستنكر تقسيم الشعب الى وحدات انتخابية ، تعتمد على تقسيم البلاد الى دوائر اقليمية جغرافية ، ترسل الى البرلمان نائباً نجح في الانتخابات بوسائل غير طبيعية ، أضف الى

---

(١) كلمة Balila لقب أطلق على طفل ايطالي من جنوة حارب في صفوف الجيش الايطالي ضد النمسويين سنة ١٧٤٦ .

ذلك أن انتخاب نواب يمثلون الوحدات الاقليمية يضعف روح الوحدة السياسية والقومية للبلاد . أما الانتخابات المثالية فهي التي تمثل مصالح البلاد الاقتصادية ، لأن اهتمام كل مواطن ينصب على حياته الاقتصادية .

ولن تعدم ايطاليا الوسيلة لتنظيم نظام الحكم على أساس اقتصادي ، اذ سبق للعمال الايطاليين أن اهتموا قبيل الحرب بفكرة النقابات العمالية المؤسسة على مذهب السندكالزم Syndicalism ، بأن كانت كل منظمة عمالية تجمع كل العاملين في صناعة أو مهنة معينة . وقد أدت هذه الهيئات النقابية واجبها الوطني أثناء الحرب واشتركت في الكفاح تحت زعامة « ادموندو روسوني Rossoni » ، وفي سنة ١٩١٩ ، انضم السندكاليون الوطنيون الى الفاشستيين في كفاحهم ضد الشيوعية ، وشرع روسوني Rossoni في تنظيم نقابات فاشستية Syndicates لمجابهة حركة الاتحادات الاشتراكية، وكـان يتمنى لو استطاع اصلاح نظام الحكم الايطالي ليكون التمثيل النيابي قائماً على المصالح الاقتصادية والتمثيل الاجتماعي للشعب لا على تقسيم البلاد الى وحدات سياسية جغرافية .

وقد بنى أنصار هذا المذهب فكرتهم على آراء الفيلسوف الفرنسي «جورج سوريل» Sorel (١٨٤٧ – ١٩٢٢) وهو من فلاسفة الحكم في العصر الحديث ، كفر بالاحزاب البرلمانية ، ورأى استحالة الاصلاح على يد أي حزب منهما ، ولكنه يؤمن بقوة العوامل الاقتصادية ، والاعتماد على الطبقات الاقتصادية لانشاء المجتمع الجديد ، على ألا تكون تلك الطبقات من النبلاء أو علية القوم ، ولا من الطبقة البورجوازية ، ولكن من طبقة الفقراء التي تضع ثقتها في حكومة تتولاها (نخبة مختارة) . وأن على هذه الطبقة الفقيرة أن تسعى في تنظيم النقابات واعدادها ليوم (الاضراب العام) الذي يهيء لتلك النقابات Syndicates الفرصة للقضاء على الطبقة العليا والوسطى .

وقد نص الميثاق الذي وضعه موسوليني على عدة تشريعات في مصلحة العمال (١) أن

يتقاضى العمال الذين يشتغلون بالليل أجراً أكبر من أولئك الذين يشتغلون بالنهار (٢) وأن يكون يوم الاحد عطلة يتمتع بها كل عامل على الاطلاق (٣) وأن يتمتع كل عامل بأجازة سنوية بأجر كامل (٤) وأن تقوم الحكومة بمشروع الضمان ضد الحوادث والمرض والبطالة وما شابه ذلك (٥) وأصبح ممنوعــاً تغيير العقود بين أصحاب العمل والعمال عند انتقال ملكية العمل من شخص الى آخر أو من شركة الى أخرى ، او اذا استدعى العامل للخدمة العسكرية او اذا كان غائباً بسبب مرض طويل الأمد .

وفي عام ١٩٣٠ تأسس المجلس الوطني الذي يتألف من ممثلي سبع هيئات نقابية ويختار اعضاؤها من الثلاث عشرة نقابة Syndicatses التي أشرنا اليها وفي عام ١٩٣٤ ، أعيد تنظيم الشعب في اثنين وعشرين هيئة نقابية خاضعة تمام الخضوع للحكومة ، ولا تستطيع أن تقوم بأي نشاط الا بموافقة « المجلس الفاشستي الاعلى » ، الذي يرأسه موسوليني وبجانب الهيئات النقابية تألفت لجنة مركزية لتنسيق نشاط تلك الهيئات . ثم كان على رأس ذلك الهرم الاقتصادي وزارة تشرف على تنظيم نشاط تلك النقابات والجمعيات المهنية ، ووزيرها موسوليني نفسه .

ولعل أهم فارق يميز النظرية الاقتصادية للدولتين الشيوعية والفاشية ، أن الاولى تعمل على تحطيم رأس المال الخاص وحل الطبقة الرأسمالية ، أما الدولة الفاشستية فهي ترمي الى الغاء حرب الطبقات ليحل محلها التعاون بين العمل ورأس المال ، حتى ولو أدى الأمر الى تدخل الحكومة لاجبار الفريقين على التعاون المنشود .

سياسة ايطاليا الخارجية والافريقية

كانت أهم أهداف الحكومة الفاشستية أن تعمل على معالجة أسباب الضعف في السياسة الخارجية التي سارت عليها الحكومات الايطالية التي حكمت قبل

ظهور الحركة الفاشستية ، وقد وضع موسوليني نصب عينيه أن تكون لايطاليا قوة برية وبحرية وجوية تتناسب مع آماله الكبيرة ، ولهذا وضع جميع القوات المسلحة تحت سيطرته منذ سنة ١٩٣٣ .

ولعل أخطر الاحداث في علاقات ايطاليا الخارجية بعد الحرب الكبرى هو قيام النزاع بين ايطاليا وفرنسا ، عندما تقاطر آلاف المهاجرين الايطاليين على فرنسا في خلال السنوات الأولى من حكم موسوليني[١]، وقد رحبت فرنسا بأولئك المهاجرين ومنحتهم حق المواطنين ، وازداد كرمها بالنسبة لمن غادر ايطاليا بسبب كراهيته أو خوفه من الفاشستية . وازداد العداء شدة لأن شباب الفاشست كانوا يطالبون لايطاليا بتونس وكورسيكا وسافوى ونيس ، وكلها تابعة لفرنسا ، وكان الفاشست يعتقدون أن الفرنسيين هم السبب في رفض مطالب ايطاليا في مؤتمر الصلح ، وحرمانها من حق الانتداب على أي أي ولاية أو قطر من الأقطار . كذلك كانت الدولتان تتنازعان السيطرة على غربي البحر الابيض المتوسط ، وتقوم المنافسة بينهما في التسلح البحري .

وكثير ما كانت العلاقات تتوتر بين الدولتين بسبب النزاع بين ايطاليا وحلفاء فرنسا وبخاصة يوغوسلافيا ، فتقوم كل منهما بمناورات حربية عند الحدود الفرنسية الايطالية ، ثم يمر الحادث بسلام[٢] .

بعد ذلك رأى موسوليني أن يتخذ عدته لتدعيم قوة ايطاليا في شرق اوربا ، ففي ١٩٢٣ ضم جزر الدوديكانيز وفي سنة ١٩٢٤ استولت ايطاليا على فيوم Fiume ، ثم عقد عدة معاهدات للصداقة والحياد وبعض الاتفاقيات التجارية مع عدد من حكومات وسط وشرق أوربا .

ففي عام ١٩٢٥ وقع مع يوغوسلافيا اتفاقية بمقتضاها اكتسبت يوغوسلافيا

---

(١) لم يكن موسوليني ينظر بعين الارتياح الى تقاطر الايطاليين على فرنسا بحثاً وراء الرزق .
(٢) لم تكن فرنسا هي الدولة الوحيدة التي تدعي ايطاليا أنها سلبتها حقها بل كثيراً ما أشار موسوليني الى أن الانجليز قد سلبوا منها مالطه ... الخ .

بعض الحقوق التجارية في ايطاليا ، وصار من حق المؤسسات اليوغوسلافية أن تستورد العمال من ايطاليا ، وقد عارض بعض اليوغوسلافيين في التصديق على تلك المعاهدة ولذلك لم تنفذ الا في عام ١٩٢٨ ، وسبب تلك المعارضة هو ظهور حركة قامت بها بعض العناصر السلافية الجنوبية للمطالبة بانتزاع جزء كبير من اقليم دالماشيا من ايطاليا وضمه الى يوغوسلافيا وبظهور تلك الفكرة ازداد التوتر في العلاقات بين البلدين ، وخصوصاً عندما هاجمت ايطاليا ألبانيا ووضعتها تحت حمايتها .

وبعد عام ١٩٢٨ ، بدأت ايطاليا في تدعيم صداقتها بألمانيا ، والنمسا والمجر وبلغاريا وتركيا بينما ساءت علاقاتها بفرنسا وبولنده . وفي الاحتفال بالذكرى التاسعة للزحف على روما (١٩٣١) أعلن موسوليني أن ايطاليا تؤيد ضرورة اعادة النظر في مسألة تعويضات الحرب وديونها وضرورة نزع التسلح واعادة النظر في معاهدات الصلح لمصلحة الدول الوسطى وايطاليا .

تهدئة ايطاليا

وفي عام ١٩٣٢ طالب وزير الخارجية الايطالية (جراندي) بضرورة الاسراع في اعادة توزيع الاستعمار في شمال افريقيه ، وقد حاولت الدول الاستعمارية تهدئة ايطاليا ، وكانت قد دعتها من قبل للاشتراك في الحكومة الدولية التي تحكم مدينة طنجة وهي مدينة حرة على ساحل مراكش الغربي ، وفي سنة ١٩٣٤ حاولت انجلترا ارضاء ايطاليا على حساب مصر ، فساعدتها بنفوذها على ضم واحة جغبوب المصرية الواقعة بين حدود مصر وبرقة .

ايطاليا والحبشة

ثم جاء دور الحبشة ، فقد سمعت ايطاليا أن هيلاسلاسي يبذل جهداً كبيراً في سبيل ترقية جيشه ، وتهيئته للدفاع عن البلاد بمناسبة الاستعدادات الهائلة التي يقوم بها الايطاليون في الصومال الايطالي وفي اريترية على حدود

الحبشة ، وقد حدثت عدة مناوشات عند تلك الحدود في أواخر عام ١٩٣٤ ، ولم تجد الحبشة بداً من أن تلجأ الى عصبة الأمم . ولكن ايطاليا لم تعر عصبة الأمم اهتماماً ، وأخذت تعزز قواتها في افريقية .

ولكي تأمن ايطاليا شر فرنسا مؤقتاً عقدت معها ميثاقاً في روما (يناير ١٩٣٥) وقد رحبت فرنسا في ذلك الوقت بتحسين علاقاتها بجارتها ، لانها كانت اذذاك تخشى العدوان الالماني في الشرق ، وبمقتضى هذا الميثاق (موسوليني – لافال) تنازلت فرنسا لايطاليا عما يقرب من ٤٥,٠٠٠ ميل مربع من الأراضي المتاخمة لليبيا ، وعن جزء صغير من الصومال الفرنسي المتاخم لاريتريا . وبذلك اكتسب الايطاليون نصيباً كبيراً من صحراء شمال افريقية ، واكتسبوا ممراً يوصلهم الى خليج عدن ، أضف الى هذا أن ايطاليا منحت نصيباً في السكك الحديدية الفرنسية التي تصل أديس بابا عاصمة الحبشة بميناء جيبوتي قاعدة الصومال الفرنسي ، واتفق لافال مع موسوليني على أن تطلق فرنسا يد ايطاليا في التوسع في الحبشة كما تشاء .

ولم يعدم موسوليني تلمس الاسباب للاعتداء على الحبشة ، فاتهمها بالعدوان على المستعمرات الايطالية المجاورة لها ، ولم ينس ايضاً أن يدعي أن من حق ايطاليا أن تنتقم للهزيمة التي منيت بها أمام الحبشة في موقعة (عدوة) في عام ١٨٩٦ .

وقد شجع ايطاليا على تنفيذ مشروعها العدواني على الحبشة أن عصبة الامم قد ضعفت ولم تعد قادرة على ارغام دولة قوية على منع العدوان وخصوصاً بعد أن انسحبت دولتان قويتان من العصمة هما اليابان وألمانيا ، وكذلك كان الاتفاق الفرنسي الايطالي قد طمأن موسوليني من ناحية فرنسا ، ووجد الفرصة سانحة أمام ايطاليا لتتشبه بغيرها من الدول الاستعمارية الكبرى في اقدامها على مهاجمة الدول الضعيفة .

جاهدت الحبشة في عصبة الأمم جهاد اليائس ، وأخذت اللجان الدولية

تحاول الوصول الى حل للمشكلة . بينما كانت القوات الايطالية تتغلغل في الحدود الحبشية .

وأخيراً في مايو من عام ١٩٣٦ — أي بعد سبعة أشهر من ابتداء الهجوم — دخل الايطاليون اديس أبابا ، وكانت المقاومة شديدة وعنيفة . جعلت الايطاليين يلجأون الى استعمال الغازات السامة ضد الاحباش — وفي ٩ مايو كان هيلا سلاسي يتخذ طريقه الى أوربا على سفينة حربية انجليزية . وأعلنت ايطاليا رسمياً ضم الحبشة وأضيف الى الملك فكتور ايمانويل لقب « امبراطور الحبشة ».

وقد أعلنت ايطاليا خروجها من عصبة الأمم سنة ١٩٣٧ . وكانت تلك الحرب الايطالية الحبشية اكبر دليل على فشل تلك العصبة .

وقد صدر في عام ١٩٣٦ مرسوم بتوحيد الحبشة وايرتريا والصومال الايطالي وسميت جميعها باسم « افريقيا الايطالية الشرقية » ووضع موسوليني مشروع الست سنوات لزيادة الانتاج في الحبشة اذ كان من المنتظر أن تمد الحبشة ايطاليا بكميات كبيرة من القطن والبن واللحوم والصوف والأخشاب والمعادن. وظل ذلك الأمل يراوده حتى دهمته الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ .

وبعد أن انتهت الحرب الحبشية ، ازداد التقارب بين ايطاليا وألمانيا ، وتوترت علاقاتها ببريطانيا العظمى وفرنسا والاتحاد السوفييتي . وكانت ألمانيا اسرع الدول الى الاعتراف بالامبراطورية الايطالية الجديدة في شرق أفريقية . ثم تعاونت ايطاليا وألمانيا على مد يد المساعدة للجنرال فرانكو في الحروب الاهلية التي بدأت في اسبانيا سنة ١٩٣٦ . واخيراً وصل الفريقان ، المانيا وايطاليا ، الى اتفاق عام أطلق موسوليني عليه اسم (المحور) Axis . وعلى الرغم من المجهودات التي قام بها تشمبرلين وزير خارجية انجلترا لتهدئة ايطاليا ومراضاتها في البحر المتوسط فان محور روما — برلين كان معتزاً بسلطانه ، يحاول أن يثبت اقدامه فتصبح له المكانة الأولى في توجيه سياسة أوربا الخارجة.

وبدأ موسوليني يظهر عدم اهتمامه بحماية النمسا ضد الزحف الألماني ،

ثم وافق ألمانيا على ضرورة اعادة مستعمراتها لها ، واشترك في الميثاق الالماني الياباني ضد الشيوعية ، وفي سنة ١٩٣٨ أيد ألمانيا في حركتها الفجائية التي انتهت بضم النمسا ، ثم أيدها بعد ذلك بقليل في المفاوضات التي جرت بشأن ضمها الى الريخ الألماني ، وفي سنة ١٩٣٩ اعترف بما قامت به المانيا من ابتلاع بوهيميا ومورافيا وضم منطقة « ممل » ، وفي نفس العام أتم عقد التحالف العسكري الرسمي المنشود مع هتلر .

ومنذ ذلك الوقت ، ازداد صياح الايطاليين بضرورة ضم تونس ، مدعين أن عدد الرعايا الايطاليين فيها يزيد حوالي ٢٠,٠٠٠ نفس عن عدد الفرنسيين هناك وأن السلطات الفرنسية تضطهد الايطاليين هناك ، وتفرض عليهم التجنس بالجنسية الفرنسية . ثم تعالت الصيحات الفاشستية بضرور ضم كورسيكا التي ابتاعتها فرنسا من جنوه في عام ١٧٦٨ وضم سافوي ونيس التي استولت عليها فرنسا في معاهدة ١٨٦٠ . واكثر من ذلك ان موسوليني الغى الميثاق الذي عقده مع فرنسا عام ١٩٣٥ بحجة ان البرلمان الفرنسي لم يصدق عليه ، ومع ذلك فان موسوليني لم يفكر في إعادة الاراضي الصحراوية التي استولى عليها بموجب الميثاق .

ظلت فرنسا ثابتة أمام العواصف الايطالية التي بدأت تهب على تونس ، ولما طال انتظار موسوليني فكر في توجيه هجومه نحو البانيا .

العلاقات الايطالية ــ الالبانية منذ سنة ١٩١٩

عرفنا ــ فيما سبق ــ أن تأسيس دولة ألبانيا ، كان نتيجة من نتائج الحروب البلقانية التي دارت في عامي ١٩١٢ ، ١٩١٣ ، وعندما اعلنت الحرب العالمية الاولى ، كانت ألبانيا من الناحية الرسمية ، دولة ايدة . الا أن النمسويين والايطاليين والصربيين ، لم يحترموا حيادها ، ودارت بعض المعارك فوق أرضها .

وعندما عقد مؤتمر الصلح ، كانت ايطاليا تطمع في أن تكون ألبانيا من

نصيبها عن طريق الانتداب الذي تمتعت به انجلترا وفرنسا على الولايات العثمانية في الشرق الاوسط ، الا أن الرئيس واسن عارض في ذلك ، وطلب من الالبانيين أن يعملوا على تكوين حكومتهم مستقلة عن كل الدول .

وقد تكونت في عام ۱۹۲۰ حكومة مؤقتة غير مستقرة ، وعلى الرغم من أن البانيا انضمت الى عصبة الأمم في نهاية سنة ۱۹۲۰ ، ان حدودها – كحكومتها – غير مستقرة . الى أن تم تعيين تلك الحدود في عام ١٩٢٦ .

وقد ظهر في عام ۱۹۲۲ شاب مسلم ، استطاع أن يصل الى رئاسة الحكومة ، وهو « أحمد زوغو » وبعد عامين ، أقام أحد رجال الدين الارثوذكس وهو الأسقف « نولي » Bishop Noli ثورة ضد زوغو واضطره الى الفرار من البلاد ، ولكن لم يكد ينتهي العام حتى فشلت حكومة الاسقف « نولي » ولم يستطع حفظ النظام . وعندئذ عاد « أحمد زوغو » الى البانيا وفر « نولي » الى ايطاليا ، وفي أوائل عام ١٩٢٥ أعلنت الجمهورية وانتخبت الجمعية التأسيسية « أحمد زوغو » رئيساً للجمهورية لمدة سبعة أعوام.

ورأى « أحمد زوغو » أن يوثق علاقاته الاقتصادية بايطاليا ، وانتهزت ايطاليا الفرصة للتدخل في شئون البانيا الداخلية ، فأسست البنك الأهلي الألباني . ولبت طلب « زوغو » فأقرضت حكومته ما طلبته من مال ، بضمان موارد الجمرك الالباني . وأخذت بالتدريج تعمل على التدخل في شئون ألبانيا ، والسيطرة على مضيق « أترانتو » .

وشعرت ألبانيا بالخطر الذي حاق بها ، لأن السيطرة الايطالية على مضيق « أترانتو » قد يعوق حريتها في الدخول الى مياه البحر الابيض المتوسط الا أن سياسة « زوغو » في الاستدانة المالية بايطاليا ، لم تدع فرصة لألبانيا للتخلص من الأطماع الايطالية ، ففي عام ١٩٣٦ ، ذهب « زوغو » بنفسه الى ايطاليا

لعقد قرض جديد لتمويل بعض المشروعات الاصلاحية ، وفي هذه المرة لم يكن موسوليني مستعداً لتلبية رغبته بدون مقابل، وعلى ذلك تم عقد « معاهدة تيرانا » (نوفمبر سنة ١٩٢٦) التي اعطت ايطاليا الحق في التدخل في شئون ألبانيا الداخلية والخارجية عندما تجد ألبانيا نفسها في حاجة الى هذا التدخل ، وذلك في مقابل معاونة ايطاليا لألبانيا على الاحتفاظ بحدودها سليمة ، ونظامها القائم لا تمسسه يد العدوان من الداخل أو الخارج .

وقد تضايقت يوغوسلافيا من توقيع هذه المعاهدة ، وشرعت تقوم ببعض الاستعدادات العسكرية على حدود ألبانيا ، حتى توترت العلاقات بين الطرفين ، واستعدت ايطاليا للوقوف بجانب ألبانيا وحمايتها من أي عدوان يقوم بـه اليوغوسلاف ، واضطرت يوغوسلافيا الى عقد تحالف عسكري مع فرنسا ، وتم ذلك فعلاً في شهر نوفمبر ، ولم يسع البانيا تجاه هذا الحلف الا أن تدعم علاقاتها بايطاليا فتعقد معها ميثاقاً دفاعياً .

وفي عام ١٩٢٨ ، أعلن أحمد زوغو نفسه ملكاً باسم « زوغو الأول » ، وازدادت السيطرة الايطالية على اقتصاديات البانيا وأصبح البنك الايطالي مشرفاً على نظام العملة الالبانية ، وتجددت معاهدة تيرانا في عام ١٩٣١ .

على أن الشعب الالباني ، كان يشعر بذلك الخطر الفاشستي يتغلغل في أخص شئونه ، واضطر « زوغو » الى محاولة التخلص من النفوذ الايطالي، فرفض في عام ١٩٣٢ اقتراحاً ايطالياً يقضي بتوحيد الجمارك الالبانية والايطالية وأغلق جميع المدارس الخاصة التي كان يديرها الايطاليون في البانيا ، ثم شرع في اضعاف نفوذ الضباط الايطاليين الذين كانوا يعملون في الجيش الالباني ، وأخذ يعمل على الحد من الهجرة الايطالية الى ألبانيا .

ولما أحست ايطاليا بأن البانيا تسعى إلى الافلات من السيطرة الايطالية

أرسل « موسوليني » بعض القطع البحرية الى مياه درازو بالقرب من تيرانا وهناك رسا الاسطول دون اخطار سابق كالمعتاد . ليكون ذلك بمثابة مظاهرة ارهابية لها معناها السياسي .

واضطرت البانيا الى احناء رأسها للعاصفة ، واستأنفت علاقاتها الاقتصادية مع ايطاليا الى أن أقدم موسوليني على ارسال حملته الكبيرة على ألبانيا ودخلت قواته تيرانا في ٨ ابريل سنة ١٩٣٩ ، واضطر أحمد زوغو الى الفرار ، ومنذ ذلك الوقت أضيف لقد جديد « لفكتور امانويل » الذي أصبح ملك ايطاليا وألبانيا وامبراطور الحبشة .

* * *

الفصل السابع عشر

المانيا النازيــــة

جمهورية فيمار Weimar

بعد ان انهزمت المانيا هزيمتها الكبرى في الحرب العالمية الاولى ، وبعد ان خرج الامبراطور ولهلم الثاني ليستقر في منفاه بهولنده، أنهار النظام القديم ، وحدثت عدة ثورات داخلية تحولت المانيا بعدها الى النظام الجمهوري .

واعتقد بعض الزعماء الالمان المعتدلين أن الفرصة قد حانت لادخال النظم الديمقراطية في المانيا ، ووضع دستور للبلاد يضمن البعد بها عن الدكتاتورية البروسية التي لا تؤمن الا بالحرب وسيلة لانشاء الامبراطورية الالمانية الكبرى ، وسعى لتنفيذ هذه الفكرة ثلاثة من زعماء الحزب الديمقراطي الاشتراكي « Social Democratic » ، وهم ايبرت « Ebert » وشيرمان « Scheidemann » ونوسكي « Noske » .

وفي ربيع عام ١٩١٩ تم انتخاب الجمعية التأسيسية من مختلف الاحزاب لتضع دستوراً لالمانيا ، فاجتمعت في فيمــار « Weimar » واصدرت لالمانيـــا دستوراً اقر الحكم الجمهوري . وانتخب الزعيم الاشتراكي (ايبرت) رئيساً للجمهورية .

ولكن الحكومة الاشتراكية الجديدة ، كانت معرضة لتجارب قاسية وصعوبات جمة ، كان من العسير عليها أن تجتازها في سهولة ويسر ، فقد انتشرت المبادىء المتطرفة بين افراد الطبقة العاملة ، وحاول الشيوعيون قلب نظام الحكم محاكاة لما حدث في روسيا بعد هزيمتها ، ولكن الحكومة — على كل حال — استطاعت أن تقضي على محاولات الشيوعيين ومؤامراتهم ، الا أنها بعد ذلك واجهت معارضة من نوع آخر حمل لواءها فريق من الرجعيين من أحزاب اليمين . ولم يشأ هؤلاء الرجعيون أن ينشطوا الا بعد ان استطاعت الحكومة اخماد الحركات الشيوعية ، فقدكان هؤلاء الرجعيون يخافون الشيوعية أكثر من خوفهم من هؤلاء الجمهوريين البورجوازيين الذين يحكمون المانيا في ذلك الوقت . وعندما تبين لهم زوال الخطر الشيوعي . حاولوا في مارس ١٩٢٠ أن يضربوا ضربتهم ، فقام القائد الالماني الجنرال البارون فون لوتفتز « Luttwitz » بالاستيلاء على برلين .

واضطر الرئيس ايبرت أمام المفاجأة الى الفرار الى « درسدن » ثم الى « شتوتجارت » . ولكن لم ينل هذا الانقلاب تأييداً ممن كان زعماؤه ينتظرون تأييدهم . فقد رفض اعداء النظام الجمهوري ومعظم رجال الجيش ، وطبقة اصحاب الاملاك ، أن يقحموا أنفسهم في نضال مع الجمهورية لا تعرف نتيجته ، وفي الوقت نفسه هبت الطبقة العاملة ضد الانقلاب الرجعي الذي يهدف الى اعادة النظام الملكي الاستبدادي القديم ، ونظمت اضراباً شاملاً ، وقفت معه حركة البلاد ، فانقطع الماء والغاز والكهرباء ، ووقفت حركة المواصلات . عندئذ لم ترَ حكومة الانقلاب بداً من التخلي عن الحكم بعد اسبوع واحد وفر رئيسها « لوتفتز » الى السويد وعادت حكومة فيمار الجمهورية الى الحكم من جديد .

ومع ذلك لم تكن حكومة « فيمار » تعتمد على تأييد الشعب الالماني ، فقد ارتكبت سلسلة من الاخطاء السياسية أساءت الى سمعتها والى نظامها الجمهوري ، وكانت أولى هذه الأخطاء أن رجالها المدنيين كانوا في نظر الشعب

هم الذين سلموا بشروط الحلفاء ، ووقعوا الهدنة . وكان الواجب أن يتركوا العسكريين الذين خسروا الحرب يوقعونها ليسجلوا الهزيمة على انفسهم ، بدلاً من أن تترك لهم فرصة الادعاء بأن حكومة الجمهورية قد طعنتهم من الخلف ، وقبلت الهزيمة ورضخت لشروط الهدنة .

كذلك اتهموا الجمهورية بأنها تساهلت مع اعدائها من مؤيدي النظام الملكي القديم ، وكان معظم هؤلاء من القضاة والضباط وغيرهم من اصحاب الوظائف الهامة في الدولة يمقتون النظام الجمهوري ، وكان أخطر ما في الامر أنها كانت تعتمد على الجيش لحمايتها ضد العناصر الشيوعية ، ولذلك لم تشأ أن تحدث اضطراباً في الجيش باخراج فريق من قواده وضباطه ، ولكنها بذلك سمحت لفريق من أكبر انصار النظام الامبراطوري القديم بالاستمرار في السيطرة على البقية الباقية من الجيش الالماني .

واخيراً فان معاهدة فرساي المجحفة التي فرضها الحلفاء على المانيا قد وقعها ممثلو الحكومة ، واعتبرها الالمان وصمة في جبين النظام الجمهوري الجديد ، وزاد الطين بلة ، أن جمهورية « فيمار » جاءت مع الانهيار الاقتصادي الذي عانى منه الالمان كثيراً ، بالاضافة الى التعويضات الفادحة التي فرضها الحلفاء على المانيا .

فرنسا تحتل الرين :

وبينما كانت الجمهورية تحاول حل الازمة الاقتصادية التي استحكمت حلقاتها ، جدت ازمة كبرى عندما قررت الحكومة الفرنسية ان تحتل اقاليم الرين ووادي الروهر (يناير سنة ١٩٢٣) لاستثمار المناجم هناك وفاء لسداد التعويضات المطلوبة من المانيا ، وفي الوقت نفسه كان « بوانكارية[1] » رئيس

---

(١) كان بواكاريه رئيساً للجمهورية الفرنسية من سنة ١٩١٣ الى ١٩٢٠ ، ثم اصبح رئيساً للوزراء في عام ١٩٢٢ ، وكان دائماً على رأس المنادين بتحطيم المانيا حتى لا تقوم لها قائمة .

الوزارة الفرنسية ، يرجو من وراء ذلك ارهاق ألمانيا الى ابعد الحدود ، وتحطيم اقتصادياتها حتى لا تقوم لها قائمة ، وبذلك تأمن فرنسا شرها الى ابعد مدة ممكنة . وقد أثار ذلك شعور الالمان ، فأضرب عمال المناجم في تلك المناطق بتحريض وتشجيع من الحكومة الالمانية التي ارادت أن تفوت على فرنسا ما كانت ترجوه من فائدة ، وعمت الاشتباكات الدموية ، الى ان استطاعت فرنسا السيطرة على الموقف ، وترتب على ذلك انهيار الاقتصاد الالماني .

وواجهت الحكومة ازمة اقتصادية أخرى هي مشكلة التضخم النقدي ، لانها كانت قد حاولت — امام الديون الفادحة التي فرضها الحلفاء على المانيا والتي بلغت حوالي ٦٦٠٠ مليون جنيه — أن تعمل على تدهور قيمة المارك الالماني باصدار كميات هائلة من الماركات ، فكانت تلك السياسة وبالاً على الشعب الالماني اذ تدهور سعر المارك بدرجة لم يسبق لها مثيل ، فقد كان الجنيه الانجليزي قبل الحرب يساوي عشرين ماركاً المانيا ، وفي ديسمبر سنة ١٩٢١ اصبح قيمته ٧٧٠ مارك ، وفي اغسطس ١٩٢٢ اصبح يساوي ٣٠٠٠ ، ثم أخذ المارك الالماني في التدهور المريع حتى اصبح الجنيه الانجليزي يساوي في سبتمبر ١٩٢٣ حوالي ٤٨٠,٠٠٠,٠٠٠ مارك ، وبعبارة اخرى اصبح المارك الماني لا قيمة له على اثر احتلال فرنسا لمنطقة الروهر .

وقد ترتبت على تلك الكارثة المالية نتائج اقتصادية وخيمة ، اذ فقد الكثيرون ثرواتهم وخصوصاً أفراد الطبقة المتوسطة ووقفت حركة التجارة ، وأصبح من العسير عقد القروض أو امضاء العقود ورفض الفلاحون نقل منتجاتهم الى المدن واغلق معظم التجار محلاتهم التجارية ، وانتشرت المجاعات في اماكن كثيرة من البلاد ، وكثرت المظاهرات ، وظهرت حركات في بعض الولايات ترمي الى الانفصال كما حدث في وادي الرين وبافاريا ، وتمكنت بعض العناصر الشيوعية من السيطرة على الحكم في سكسونيا وغيرها ، وبالجملة فقد أصبح الموقف في المانيا ينذر بأفدح الكوارث .

محاولة الاصلاح :

ولما اشتد الخطب ، عمدت الحكومة الالمانية الى اتخاذ اجراءات حازمة لانقاذ ما يمكن انقاذه ، ففصلت عدداً كبيراً من الموظفين دون أن تدفع لمعظمهم اي تعويض ، وخفضت مرتبات الباقين ، واصدرت لها عملة جديدة لتتغلب على ما اصاب المارك من التدهور . ونححت بفضل سياسة التقرب الى الحلفـــاء في اصلاح عملتها في عام ١٩٢٤ ، ومعاودة النهوض من جديد . وقد ساعدها على ذلك أن بريطانيا كانت تعارض في سياسة الارهاق التي اتبعتها فرنسا مع المانيا ، وكان من حسن حظ الاخيرة أن اقصى الفرنسيون المسيو بوانكاريه عن رئاسة الوزارة نتيجة لانتخابات مايو ١٩٢٤ ، وترتب على ذلك تغيير سياسة الحكومة الفرنسية الجديدة برئاسة الزعيم الراديكالي « ادوار هريو » « Her iot » ، وقبلت نصائح حلفائها بتخفيف الضغط عن المانيا واتبـــاع سياسة جديدة هي سياسة المصالحة والتهدئة .

شترسمان :

وقد ساعد على ذلك تعيـــين الهر سترسمان Stressmann مستشاراً للجمهورية الالمانية ووزيراً لخارجيتها في سنة ١٩٢٤ ، وكان من رأيه أن تعمل الحكومة على انهاء عزلة المانيا ومحاولة اعادتها الى مكانتها السابقة على قدم المساواة مع غيرها من الامم ، وذلك عن طريق اتباع سياسة التفاهم والملاينة وعلى الاخص مع فرنسا . وقد نجح فعلاً في تحسين علاقات المانيا الاقتصادية والسياسية بأعدائها القدامى . ويتمثل ذلك في ثلاثة أحداث هامة :

أولاً : تسوية دوز Dawes Plan (١٩٢٤)

في عام ١٩٢٤ ألفت لجنة التعويضات لجنة فرعية من الخبراء العالميين يرأسها « شارل دوز » الخبير المالي الامريكي ، وهي اللجنة التي كانت تنظر الى مسألة التعويضات في ضوء المصلحة العامة ، لا على اعتبار انها نوع من

فرض العقاب أو ارهاق الشعب الالماني ، وعلى ذلك كانت تبحث في الوسائل التي تكفل لالمانيا أن تدفع على قدرة طاقتها ، وبعد دراسة الموقف اقترحت لجنة « دوز » عدة اقتراحات كان أهمها (١) وجوب الجلاء عن الزوهر (٢) انشاء بنك مركزي إلماني يحتكر اصدار الاوراق المالية لمدة خمسين سنة تشرف عليه هيئة مكونة من سبعة خبراء من الالمان وسبعة آخرين من الاجانب . (٣) عقد قرض أجنبي لالمانيا قدره ٨٠٠,٠٠٠,٠٠٠ من الماركات الذهبية بقصد تثبيت قيمة العملة (٤) وجوب اعادة الوحدة المالية والاقتصادية الى المانيا.

وقد وافقت الحكومة الالمانية على تلك المقترحات وتبعتها ايطاليا وبريطانيا وبلجيكا ، ثم وافقت فرنسا اخيراً بعد زحزحة بوانكاريه من الحكم كما ذكرنا آنفاً . وبدىء في تنفيذ مشروع دوز في سبتمبر ١٩٢٩ ، حيث جلت القوات الفرنسية عن الروهر ، وحصلت المانيا على القرض المقترح . وتأسس البنك المركزي الذي اصدر اوراقاً مالية جديدة . واصبح المارك الجديد له قيمته الثابتة التي اعادت الثقة من جديد في النقد الالماني .

ثانياً : معاهدة لوكارنو (١٩٢٥)

وقد شجع ذلك الاستقرار الاقتصادي المستشار الالماني جوستاف برونن‍ج « Gustav Breuning » على السعي في خلق استقرار سياسي في العلاقات بين المانيا والدول الغربية ، وعلى الاخص بينها وبين فرنسا على اساس جديد . لذلك اتصل برونن‍ج بحكومتي لندن وباريس ليعرض عليها رغبة المانيا في عقد أواصر الثقة بين المانيا والحلفاء، وانها على استعداد للاعتراف بالحدود الحالية بين المانيا وكل من بلجيكا وفرنسا . وكان برونن‍ج يرجو من تحسين العلاقات الالمانية مع الحلفاء أن تؤدي الى جلاء قوات الحلفاء عن اراضي المانيا .

وقد تحمس البريطانيون لذلك الاقتراح مما ادى الى عقد مفاوضات جرت بير شترسمان ، والسير اوستن تشمبرلين ، وارستيد بريان (الـذي خلف بوانكاريه) وكان يميل الى تهدئة الموقف الفرنسي الالماني ، وانضمت الى فرنسا

وبريطانيا في المفاوضات التي جرت في لوكارنو بسويسرا الدول ذات العلاقة ، وهي بلجيكا وايطاليا .

وقد مهد جلاء الفرنسيين عن الروهر لخلق جو من التفاهم انتهى بعقد معاهدة لوكارنو بين المانيا وبلجيكا وفرنسا وايطاليا وبريطانيا ، اعترفت المانيا بموجبها بالحدود الغربية بينها وبين فرنسا وبلجيكا كما ورد تماماً في معاهدة فرساي ، اي انها سلمت بحق فرنسا في الالزاس واللورين ووافقت على أن تظل ارض الرين منطقة منزوعة السلاح . وتعهدت كل من فرنسا والمانيا ألا تلجأ احداهما الى الحرب كوسيلة لتغيير ما بينهما من حدود أو عهود .

وهكذا بدأت تتغير نظرة الحلفاء الى المانيا ، لدرجة أنهم لم يجزعوا لتعيين الفيلد مارشال هندنبرج رئيساً لجمهورية المانيا بعد وفاة الرئيس «ايبرت» سنة ١٩٢٥ ، واعتبروا أن هذا التعيين مجرد تكريم لجندي قديم بذل اقصى ما لديه لبلاده ، وأن الروح العسكرية العدوانية لم تعد سبيل الرئيس الجديد في سياسته ما دام قد اقسم يمين الولاء للدستور الديمقراطي الجديد الذي وضعه الجمهوريون على نمط الدساتير الغربية ، ووافق الحلفاء في لوكارنو على تأييد المانيا لتدخل عصبة الامم .

ثالثاً : عضوية عصبة الامم

في سنة ١٩٢٦ قبلت المانيا عضواً في عصبة الامم ، وبذلك اتيح لها عرض قضاياها الخاصة بالتعويضات والتسلح والحدود على العصبة ، مما مهد السبيل امام « شترسمان » لمفاوضة الانجليز والفرنسيين لانهاء الجلاء عن ارض الرين في ٣٠ يونيه ١٩٣٠ ، اي قبل الميعاد الذي حددته معاهدة فرساي بأربع سنوات ونصف ، ونجح كذلك في اخراج المانيا من عزلتها التي فرضتها عليها معاهدة فرساي .

وهكذا بدأت المانيا تنهض من كبوتها ، وتستفيق من الصدمة التي اصيبت بها ، وشرعت في تحسين اقتصادياتها ، وعرفت كيف تستفيد من مشروع

« دوز » فقد تدفقت عليها في تلك الفترة رؤوس الاموال الاجنبية — وخاصة الامريكية — من أن تشتري ما يلزمها من المواد الخام ، فانتعشت الصناعة ، وفي مقدمتها صناعة التعدين ، والصناعة الحربية في الروهر ، ونهض الاقتصاد الالماني وازدادت الصادرات ازدياداً مضطرداً حتى بلغت المستوى الذي كانت عليه قبل الحرب ، وعمدت مؤسسات الصناعة الامريكية الى تمويل الصناعات الثقيلة في المانيا ، وتوطيد الصلات بين الصناعة الامريكية والصناعة الالمانية ، كما نشأت صلات اقتصادية وثيقة بين اتحاد الصناعة البريطانية وجمعية الصناعة الامبراطورية الالمانية . وبذلك تمكنت المانيا في مدة وجيزة أن تستعيد صناعاتها الحربية وأخذت المصانع تخرج كميات وفيرة من الاسلحة والدبابات والطائرات والسفن الحربية . وشقت السفن التجارية الالمانية البحار حاملة البضائع الالمانية ذات السمعة العالمية العظيمة .

النكسة الاقتصادية ونهاية جمهورية فايمار :

وبينما كانت روح التفاؤل تسود الجو بين المانيا والحلفاء ، مات شترسمان (٣ اكتوبر ١٩٢٩) فخسرت المانيا بوفاته سياسياً من الطراز الأول وفي السنة نفسها حلت الازمة الاقتصادية العالمية، وكان نصيب الولايات المتحدة منها شديداً وعنيفاً حيث زادت بها المنتجات الزراعية والصناعية بدرجة كبيرة جداً ولم توفق الى توزيعها في الاسواق العالمية فتوقفت حركة النمو الصناعي مما ترتب عليه ضياع كثير من الاموال في الصناعة على البنوك ، واقبل الناس يسحبون اموالهم منها لفقدان الثقة بها ، وحدث انهيار اقتصادي كبـــير في في نيويورك ، وتبعتها بقية المدن في امريكا وغيرها في انحاء العالم ، وذلك لأن حكومة الولايات المتحدة بدأت بدورها تمنع أموالها عنها بل وتطالبها بما عليها من ديون .

بذلك ساء حظ المانيا عندما بدا للامريكيين انهم في اشد الحاجــة الى الاموال الطائلة التي أقرضتها لها نيويورك ، وكانت المانيا مدينة لها بمبالغ

ضخمة ، وسحبت الاموال الامريكية في الحال فتأثرت بذلك دوائر الاعمال المالية في المانيا ، واضطر البنك المركزي الالماني الى استخدام ماله الاحتياطي ، وعجز عن مد يد المساعدة للبنوك الاخرى ، فاضطر عدد منها الى تصفيـــة حسابه ، وغلق ابوابه ، وتفشت البطالة لاضطرار المصانع الى الاستغناء عن معظم عمالها ، حتّى اربى عدد المتعطلين على ستة ملايين .

وكافح برونتج « Breuning » المستشار الالماني الذي خلف شترسمان في سبيل مواجهة تلك الازمة الخطيرة ، ولكن الموقف كان اعقد من ان يحل بأي اجراء يمكن ان تتخذه الحكومة ، وترتب على ذلك انتشار روح القلق والسخط بين العمال ، وسارت مظاهرات المتعطلين في الشوارع ، وخشي عقلاء الالمان من انتشار الشيوعية بين الطبقات الساخطة ، ولا سيما أن بعض المتطرفين كانوا يرفعون الاعلام الحمراء ظناً منهم أن فيها مخرجاً لهم ، وازداد نقد الاشتراكيين لسياسة الحكومة ، ولما استخدم برونتج سياسة القمع ازداد سخط الشعب حتّى ابعد عن الحكم عام ١٩٣٢ .

واستدعى الرئيس هندنبرج السياسي المعروف فون بابن ليرأس الحكومة ولكنه فشل هو الآخر وعزل في نفس العام . وود الوطنيون المخلصون لو استطاعت المانيا ان تهتدي الى زعيم قدير ينقذ المانيا من ذلك الموقف الدقيق . وهنا نصح فون بابن الرئيس هندنبرج بأن يستدعي « اودلف هتلر » زعيم الحزب الاشتراكي الوطني (النازي) ليكون مستشاراً للريح الالماني . وبذلك بدأت صفحة جديدة في تاريخ المانيا .

اودلف هتلر والحزب الاشتراكي الوطني

عندما تعرضت المانيا للمحنة الاقتصادية القاسية ، وفشلت جمهوريـــة فيمار في مواجهتها والتغلب عليها ، اتجهت الانظار الى الحزب الاشتراكي الوطني الذي يرأسه « اودلف هتلر » لأنه الحزب الذي أعلن من قبل أن مبادئه تتلخص في بعث الأمه الالمانية واحياء مجدها الحربي ، والقضاء على الشيوعية ،

وسحق اليهود الذين سيطروا على أهم مرافق الدولة في حين انهم لا يشعرون بالولاء لبلادهم ، ثم الدعوة الى تأسيس حكومة اكثر قوة وأشد حزماً تستطيع ان تضرب بالمعاهدات القائمة المجحفة عرض الحائط .

نشأة هتلر (١٨٨٩ – ١٩٤٥) :

ولد هتلر في ٢٠ ابريل ١٨٨٩ في قرية نائية بالنمسا بالقرب من حدودها مع المانيا ، وكان أبوه يعمل موظفاً صغيراً في الجمارك النمسوية ومات الاب وهو لم يناهز الرابعة عشرة من عمره فلم يستطع أن يتم تعليمه بعد وفاة أبيه ، فذهب الى فينا بقصد الالتحاق باحدى الاكاديميات الفنية ، ولكنه فشل في الالتحاق بها فاكتفى بالعمل نقاشاً ورساماً ، وفي اثناء اقامته في العاصمة النمسوية انكب على قراءة الكتب التي تعالج الاشتراكية الماركسية ، والكتب التي تتعرض لليهود ، وخرج من دراساته بكراهية شديدة للماركسية وعداوة أشد لليهود ، وكان يعتبر الجنس الآري وخاصة الالمان سادة الجنس البشري .

وقبيل إندلاع الحرب العالمية الاولى ، رحل هتلر الى ميونيخ (١٩١٣) حيث كان يعيش من تزيين جدران البيوت وبيع الصور التي يرسمها ، ولما اعلنت الحرب تطوع في جيش بافاريا الالماني طوال سنوات الحرب ، وبعد انتهاء الحرب انضم الى حزب العمال الاشتراكي الوطني في ميونيخ بعد أن أعجب بمبادئه التي تتلاءم مع آرائه وميوله ، فقد كان ذلك الحزب يطالب باتحاد جميع الالمان في المانيا الكبرى . كما كان يطالب بحرمان اليهود من مناصب الدولة وسحب الجنسية الالمانية منهم ، والا يكون هناك دخل بلا عمل ، واهم من ذلك كله العمل على الغاء معاهدة فرساي . وسعى هتلر لانهاض ذلك الحزب الذي اصبح منذ ربيع عام ١٩٢٠ يسمى باسم حزب العمال الاشتراكي الوطني او الحزب النازي وانتخب هتلر في يوليه ١٩٢٠ رئيساً للحزب .

وفي سنة ١٩٢١ بدأ هتلر يغشى المجتمعات فيخطب الجماهير ضد اليهود والرأسماليين والفرنسيين ومعاهدة فرساي وجمهورية فيمار ويطالب بانشاء

جيش وطني قوي فكان لخطبه النارية صدى عنيف في نفوس سامعيه اذ كان الالمان بطبيعتهم يكرهون اليهود ويرون الا حق ليهودي في ان يكون مواطناً المانياً ، وكانوا في الوقت نفسه يتوقون الى سماع زعيم الماني يفصح عما يجيش في صدورهم من السخط على اعداء المانيا في الداخل والخارج ، ويبعث في نفوسهم الامل في احياء الامة الالمانية من جديد ، لذلك انضم الكثيرون الى الحزب الاشتراكي الوطني الذي صار يعرف باسمه المختصر (النازي) .

وعندما تعرضت المانيا لمحنتها الاقتصادية والسياسية في سنة ١٩٢٣ كنتيجة لاحتلال الفرنسيين لاقليم الرور Ruhr ، واعلان المستشار شترسمان انتهاء المقاومة السلبية في ذلك الاقليم ، واستئناف دفع التعويضات ثارت ولاية بافاريا على الروح الانهزامية التي عالجت بها حكومة فيمار تلك الازمة . وانفردت بافاريا برفض اوامر الحكومة المركزية . ورفض تنفيذ اية تعليمات من برلين . وعندما طلبت الحكومة وقف صحيفة « فولكشر بوياختر » التي يصدرها « هتلر » بسبب هجومها اللاذع على الجمهورية ، رفض (جوستاف فون كاهر) حاكم الولاية تنفيذ هذا الطلب ، وتحدى الدستور الألماني بالزام الضباط والجنود باداء يمين الولاء لحكومة بافاريا ، وخشي المسؤولون في برلين ان تنفصل بافاريا عن الريخ وقد تكوّن إتحادا مع النمسا .

تحرج الموقف بين حكومة بافاريا وحكومة برلين . واعتقد هتلر ان ظروف الفوضى التي شاعت في المانيا والتي تهيىء فرصة لقلب الجمهورية قد لا تتكرر ، ولا سيما ان اتباعه المتحمسين كانوا يطالبون بالاقدام على العمل وحذره بعضهم بأنه اذا لم يضرب ضربته فوراً فسوف يتفرق الكثيرون من حوله . لذلك رأى أن يضغط على تكومة بافاريا ليجعلها في موقف تضطر فيه الى العمل معه .

واختار لذلك يوم ٨ نوفمبر ١٩٣٢ ، وهو الذي حدد لاجتماع منظمات العمال في ضواحي ميونيخ ، حيث كان مقرراً أن يخطب فيه (كاهر) ويحضره

قائد جيش بافاريا ورئيس البوليس . واتاح الاجتماع الفرصة لاجتماع الشخصيات الكبرى الثلاثة واسرهم في احدى القاعات واجبارهم بالقوة والمخادعة على الانضمام الى الثورة النازية ، ثم قادهم هتلر الى المنصة حيث القى كل منهم كلمة موجزة ، واقسم يمين الولاء للحكومة التي وعدهم هتلر بأنهم سيتولون فيها المناصب الرئيسية .

وجاءت بعد ذلك انباء عن صدام بين جنود العاصفة والجنود النظاميين عند ثكنات سلاح المهندسين ، فقرر هتلر ان ينطلق الى هناك ويحسم الامر بنفسه . وكانت تلك غلطة خطيرة ، فقد تسلل كاهر وزميلاه من مكان الاجتماع ، واعلن كاهر ان التصريحات التي انتزعت منه ومن زميليه تحت تأثير السلاح ملغاة وغير صحيحة ، وسرعان ما بلغت انباء الانقلاب برلين وجاءت الاوامر للجيش بقمع الفتنة .

وفي خلال ايام قلائل اعتقل هتلر مع زعماء حركته وتم حل الحزب النازي وبدا أن الحركة الاشتراكية الوطنية (النازية) قد ماتت ، ولكن هذا الظن لم يدم طويلاً ، اذ استطاع هتلر اثناء محاكمته التي استمرت اربعة وعشرين يوماً أن يحيل هزيمته الى نصر فقد سحر الشعب الالماني بذلاقة لسانه وحماسته المتدفقة ، فاشتهر أمره في كل انحاء المانيا بعد أن كانت شهرته مقصورة على بافاريا وكان هتلر قد تكلم بعبارات أذهلت السامعين فقال ان الجيش الذي يكونه النازي يزداد يوماً بعد يوم وستأتي الساعة التي تتحول فيها هذه الفصائل الى كتائب ، والكتائب الى ألوية ، والالوية الى فرق ، وأن اعلام المجد الالمانية سترفرف من جديد ولن يكون هناك تساهل في الحكم المقدس العظيم الذي يستعد للقيام به .

واخيراً حكم بسجن هتلر خمس سنوات ، وبعد اقل من تسعة اشهر اطلق سراح هتلر ليستأنف كفاحه من جديد . واستطاع خلال سجنه اتمام كتابه « كفاحي » الذي حدد فيه نوع الدولة الالمانية التي ينوي أن يؤسسها بعد

توليه الحكم . وفي كتابه انطلق بأفكـــاره في كل موضوع يمكن تصوره ، فكتب عن الثقافة والتعليم والمسرح والسينما ، والفن والادب ، والتاريخ وغير ذلك من الموضوعات وابرز اعتقاد النازية في التفوق العنصري للجنس الآري وشرح فيه رأيه في الحكم البرلماني وفساد الانتخابات التي توصل الى الحكم اغلبية متنافرة ، وشرح فيه قضية اليهود وانانيتهم واعتبرهم كارثة على كل بلد يحلون فيه .

الطريق الى الحكم

عندما تبين لهتلر أن الظروف قد اصبحت مواتية له للوصول الى الحكم ، أخذ يسعى في تنظيم حزبه تنظيماً فاشستياً على غرار ما فعله موسوليني في ايطاليا ، فاتخذ شارة الصليب المعقوف رمزاً على الحزب الاشتراكي الوطني ، يضعها العضو على ذراعه فوق كم قميصه الأيمن ، واعتمد هتلر على تنظيماتـــه البوليسية والعسكرية فكون (فرق الزوبعة) التي كانت مهمتها في مبدأ الامر حماية اجتماعات النازيين ، ومهاجمة اجتماعات الشيوعيين لفضها بالقوة . كذلك كون فرقة بوليسية صغيرة سماها (فرقة الدفاع) لحماية زعماء الحزب ، وتنفيذ المهمات التي يعهد بها اليها الزعيم .

وسعى هتلر لنشر مبادئه في انحاء المانيا ، فقسم البلاد الى ستة وعشرين قسماً ، أسس في كل واحد منها عدة خلايا من النازيين المتمرنين على الدعاية والخطابة . ولذلك استطاع النازيون في سنة ١٩٣٠ أن يحرزوا نجاحاً كبيراً في الانتخابات ، فقد اجتذب برنامجهم عدداً كبيراً من الانصار الذين كانـــوا يبحثون لخلاص البلاد من الانهيار الاقتصادي الذي اصيبت به في ذلك الوقت . وانضم اليها أيضاً الجنود القدماء الذين واجهوا نكبة الهزيمة بعد الانتصار ، ثم شعروا بعد انتهاء الحرب بسواء حالهم وحال مواطنيهم في الوقت الذي أثرى فيه اليهود وامتلأت خزائنهم بالمال . وانضم ايضاً طلاب الجامعات الذين رأوا زملاءهم الذين تخرجوا عاطلين لم تستطع الحكومة أن تحل مشاكلهم .

ومن طبقة ارباب المهن انضم الكثيرون الذين كانوا يعانون من منافسة اليهود لهم في الطب والمحاماة والبنوك والتجارة .

كل اولئك وغيرهم وجدوا في النازيين أبطالاً مغامرين ينادون بتوحيد جميع الالمان (بما في ذلك المان النمسا وتشكوسلوفاكيا وبولنده وهولنده والالزاس) ، في دولة موحدة كبيرة تستعيد لالمانيا مستعمراتها ، ويعملون على مساواتها بالدول الكبرى في التسلح ، والغاء معاهدات الصلح ورفض ما فرض على المانيا من تعويضات وعقوبات ، أضف الى ذلك برامج الاصلاح الداخلي التي ضمنها النازيون في برنامجهم كابعاد اليهود والعناصر الاجنبية من حياة المانيا الاقتصادية والاجتماعية ، ومصادرة ارباح الحرب ، والغاء الربح غير المكتسب ، وتأميم الشركات الكبرى ، وضمان العمل لكل مواطن ، وقصر الضرائب على الاغنياء ، وغير ذلك مما كان النازيون يضعون خطوطه للريخ الثالث[1] الذي يريدون تأسيسه .

فلا عجب اذا احرز الحزب النازي ١٠٧ مقعداً في الانتخابات عام ١٩٣٠ بعد ان كانوا لا يحتلون في الريخستاج سوى اثني عشر مقعداً . وزادهم ذلك قوة وتمكيناً ، وقفز الحزب النازي ليحتل المكان الثاني — بعد الحزب الديمقراطي الاشتراكي — في مجلس الريخستاج .

انهيار الحكومة البرلمانية

وعلى الرغم من الخسائر التي اصابت احزاب الوسط ، الا أن وزارة زعيمها « برونج » ظلت تحكم البلاد فترة من الزمن معتمدة على تأييد الديمقراطيين الاشتراكيين الذين أولوها ثقتهم ، ولكن الازمة الاقتصادية اخذت تشتد وتتفاقم في عام ١٩٣١ مما دعا الرئيس هندنبرج الى اصدار عدة

(١) كان النازيون يعتقدون أن الريخ الأول هو الامبراطورية الرومانية المقدسة ، والريخ الثاني هو الامبراطورية التي اسسها بسمرك سنة ١٨٧١ .

مراسيم استثنائية ، وفي العام التالي ١٩٣٣ ، انتهت مدة رئاسة هندنبرج للجمهور التي حددها الدستور بسبع سنوات ، فاقترح برونتج على زعماء الاحزاب مد رئاسة هندنبرج خوفاً من زج البلاد في معركة انتخابية عنيفة في تلك المرحلة الدقيقة التي تتطلب الاتحاد والهدوء حتى تخرج المانيا من ازمتهـا السياسية والاقتصادية سليمة .

وما سمع هتلر بذلك الاقتراح حتى هاج وعارضه أشد المعارضة ، ورفض الرئيس هندنبرج أن يستخدم حقوقه الاستثنائية في مد أجل رياسته ، فلم يكن هناك بد من اجراء انتخابات الرياسة في ١٣ مارس ١٩٣٢ ، ودخل « هتلر » منافساً خطيراً لهندنبرج . ولما لم يستطع أحدهما أن ينال الاغلبية القانونية ، اعيدت الانتخابات في ١٠ ابريل وفاز بها « هندنبرج » .

على ان « برونتج » لم يستطع الاستمرار في الحكم اذ أصبحت حكومته من الضعف بحيث لم تستطع أن تتغلب على مشكلة المتعطلين الذين زاد عددهم عن ستة ملايين ، ولم تستطع أن تسد عجز الميزانية الفاحش ، فاضطر الى الاستقالة (٣٠ مايو ١٩٣٢) . ووقع اختيار « هندنبرج » على الكولونيل « فرانز فون بابن Franz Von Papen » ، وهو من نبلاء وستفاليا وكان ملكي الميول والآراء .

ولما كان فون بابن يعلم تماماً أنه لن يستطيع السيطرة على الاغلبيـة في الريخستاج فقد طلب حل المجلس واجريت انتخابات جديدة استطاع « هتلر » اثناءها أن يضاعف نوابه فأصبح له في المجلس ٢٣٠ مقعداً ، وهو عدد لم يستطع بلوغه أي حزب من الاحزاب في تاريخ الجمهورية ، ومع ذلك . فقد رفض الرئيس هندنبرج أن يدعو « هتلر » ليتولى منصب المستشار ، ولم يسع فون بابن الا أن يحل هذا المجلس خوفاً من أن يصدر قراراً بعدم الثقـة ، واجريت انتخابات جديدة جاءت ايضاً بأغلبية نازية الا أن الشيوعيين قد احرزوا في هذه المرة نجاحاً ملحوظاً اذ فازوا بمائة مقعد ، واصبحوا قـوة

خطيرة ، لأن دعايتهم بين العمال قد اكسبتهم ضعف ما كان لهم من المقاعد في المجلس .

هتلر مستشار الريخ

وإخيراً لم يجد الرئيس هندنبرج بداً من تعيين « اودلف هتلر » مستشاراً للريخ في يناير سنة ١٩٣٣ .

وعندما تسلم « هتلر » مهام منصبه عزم على ان يسيطر سيطرة تامة على زمام الحكم ، فحل الريخستاج حتى يقضي على المعارضة ، ودعا الى انتخابات جديدة ، وفي خلال الخمسة اسابيع المحددة للاستعداد عمد هتلر وحكومته الى اشد وسائل العنف والاضطهاد ضد المعارضين ، ولا سيما الشيوعيين والديمقراطيين الاشتراكيين ، فتعرضت صحفهم للمصادرة أو الاغلاق ، ومنعت اجتماعاتهم أو هوجمت بكل عنف ، واصبحت الاذاعة الالمانية مقصورة على الحزب النازي ، وقبل اجراء الانتخابات بخمسة أيام شب حريق متعمد في بناء الريخستاج[1] ، وأخذ النازيون يوجهون تهمة احراقه الى الشيوعيين وسرعان ما عمدت الحكومة الى القاء القبض على زعمائهم ومنهم ثمانية وعشرون نائباً شيوعياً حرموا من عضوية المجلس ، وساد الرعب بين زعماء المعارضة ، واستطاع « هتلر » أخيراً أن يفوز بأغلبية ساحقة في الريخستاج الجديد (٦٤٨ مقعداً) .

وظهر « هتلر » لأول مرة بلباسه النازي في الريخستاج الجديد يطالب اعضاء المجلس أن يصدروا قراراً بمنحه سلطات دكتاتورية مدى اربع سنوات وبعد ان استجاب له المجلس ، انفض الى أجل غير مسمى[2] . واستطاع هتلر على هذا النحو أن يقبض على السلطة في المانيا مفوضاً من ممثلي الامة في الريخستاج الالماني .

---

(١) وقد اتهم الكثيرون الحزب النازي بتدبير احراقه ، لاثارة الرعب في العناصر الشيوعية .
(٢) في يناير سنة ١٩٣٧ جدد الريخستاج هذا القرار لمدة اربع سنوات اخرى .

لماذا نجحت الثورة النازية ؟

نجحت الثورة النازية في التسلط على المانيا لعدة عوامل ، كان اولها عامل الأزمة الاقتصادية التي اجتاحت العالم منذ عام ١٩٢٩ ، وتأثرت بها المانيا في عهد « جمهورية فيمار » الأخير ، عندما انتشرت البطالة وعم البؤس مما احنق الشعب على الحكومة القائمة معتقداً أن ضعفها كان السبب فيما آلت اليه الحال في المانيا ، والعامل الثاني هو نجاح هتلر في بعث الروح القومية العسكرية . ودعايته لتمجيد الجنس الجرماني باعتباره سيد الاجناس ، ولما انبعثت الروح القومية على هذا النحو حدث رد فعل ضد الاستكانة التي حدثت في المانيا عقب الهزيمة ، وقبول الشروط المجحفة التي فرضتها معاهدة فرساي ، وضد المبادىء التي بشر بها بعض الزعماء امثال شترسمان وبرونتج الذين كان من رأيهم أن السبيل الوحيد المفتوح امام المانيا هو الاعتراف بالهزيمة وتلبية جميع المطالب التي فرضها المنتصرون على المانيا ، واخيراً ضد احزاب الوسط التي ايدت تلك السياسة ، وفضلت التسليم والاعتراف بالامر الواقع .

ومما هو جدير بالذكر أنه عندما اعلنت الهدنة كانت بعض الفرق الالمانية لا تزال تحتل بعض اراضي الحلفاء ، بينما لم يكن هناك جندي اجنبي واحد يحتل أي ارض المانية ، وقد عاد الجنود الالمان الى بلادهم عقب اعلان الهدنة رافعين اعلامهم تتقدمهم موسيقاهم تعزف الاناشيد الوطنية ، ولم يقر في أذهانهم مطلقاً أنهم انهزموا ، بل سارت بينهم جملة واحدة هي (لم نهزم في الميدان **Im Felde unbesiegt**) . وكان العسكريون يبررون تسليم المانيا بأنه كان اجراء ضرورياً — لا لأنها انهزمت فعلاً - ولكن بسبب (طعنة في الظهر) على يد العناصر الخائنة : انصار الماركسية واليهود .

والواقع ان الشعب الالماني لم ينزع بعد انتهاء الحرب الى الديمقراطية حباً فيها واقتناعاً بها ، ولكنه اضطر بعد التسليم الى الانحناء للعاصفة ، والاعتماد على « جمهورية فيمار » في انقاذ ما يمكن انقاذه ولا سيما ان الرئيس ولسن اصر على أن يختفي الامبراطور من حياة المانيا ، وأعلن أن الحلفاء لن يعقدوا

صلحاً مع من كانوا السبب في اثارة الحرب .

فلما تأسست الجمهورية سكن الالمان الى الروح الجديدة ، ظنا منهم ان الحلفاء سوف يتساهلون مع رجالها الديمقراطيين الذين كـانوا ينزعون الى مراضاتهم ويظهرون استعدادهم للسير في ركب الحلفاء . ولكن الحلفاء ما لبثوا أن خذلوا رجال الجمهورية ، وأملوا على المانيا شروطاً اشد قسوة مما كانوا يخشون . وعند ذلك سرت موجة من السخط بين افراد الشعب الذين كرهوا الامبراطور لأنه خسر الحرب ، وكرهوا الجمهورية لأنها خسرت السلام .

لذلك كله اعتقد الجميع في المانيا أن البلاد في أشد الحاجة الى « رجـل قوي » يستطيع أن يوحد الالمان ويعبىء الجهود لانتشال المانيا مما تردت فيها ، فيعيد اليها الامن الداخلي ، ويسير بها في معترك السياسة العالمية لكي تتبـوأ مكانتها اللائقة بين الدول الكبرى ، ثم يحقق رجاء الشعب في أن تكون المانيا « سيدة الجميع » ، وقد زاد من شعور الناس بحاجتهم الى ذلك « الرجل القوي » خوفهم من تيار الشيوعية الذي اجتاح عدداً كبيراً من العمال الذين اجبرتهم البطالة على اعتناق مبادئها ، ولما شب حريق الريخستاج وروج النازيون اشاعة حرقه على يد الشيوعيين ، حدث ذعر شديد بين طبقة الاغنياء والطبقـة الوسطى ، مما جعلهم يعتقدون إن الحزب النازي هو الحزب الوحيد الذي يستطيع أن يضرب على أيدي الشيوعيين ويقضي على الفوضى التي كانت تضرب أطنابها في البلاد في اواخر حكم الجمهورية ، لذلك نجد عدداً كبيراً من كبار رجال الصناعة في المانيا يقدمون للحركة النازية في مستهل قيامها اعانات مالية كبيرة جعلتها تقف على قدميها ثم تصرع جمهورية ڤيمار الضعيفة .

حكومة الحزب الواحد

وبعد ان استتب الامر لهتلر شرع في اتخاذ اجراءات صارمة لتحويل المانيا الى دولة يحكمها حزب واحد هو حزبـه (الاشتراكي الوطني) النازي ، ورأت بعض الاحزاب أن تختفي من الوجود طواعية واختياراً ، أما الحزب

الشيوعي والحزب الديمقراطي الاشتراكي فقد حلتهما الحكومة عندما اصدرت حكومة هتلر في ١٤ يولية سنة ١٩٣٣ قراراً يقضي بأن الحزب الوطني الاشتراكي هو الحزب الشرعي الوحيد في المانيا ، وأن قيام اي حزب آخر يعتبر في نظر القانون خيانة وطنية ، وهكذا اصبح المواطن الالماني أحد شخصين اما ان يكون نازياً ، واما خائناً » .

ثم اصدرت الحكومة النازية قراراً بنقل السلطات العليا في جميع الولايات الالمانية القديمة الى حكومة الريخ في برلين فلا تقوم في المانيا ولايات تتمتع بنوع من الحكم الذاتي (مثل بروسيا وبافاريا وغيرهما) بل ينبغي أن تحرم تلك الولايات من حقوقها التشريعية بالغاء برلماناتها ، ويصبح من حق حكومة برلين أن تعين حكاماً للولايات يتبعون وزارة الداخلية مباشرة ، وبذلك يتركز الحكم في برلين حيث تأتمر الدولة كلها بأمر زعيم واحد هو « هتلر » .

ومنذ عام ١٩٢٦ ، كان هتلر يعنى بالشبيبة الالمانية ليستغل حماس الشباب في تحقيق اهدافه ، فكوّن منظمة «شباب هتلر » وهي المنظمة التي كانت تضم الاولاد من سن العاشرة الى سن العشرين ، وعندما وصل الى الحكم انشأ وظيفة جديدة هي وظيفة « قائد شباب الريخ الالماني » وأسند هذا المنصب الى مدير منظمة شباب هتلر ومنحه سلطات واسعة للاشراف على تدريب الشباب وتوجيههم نحو المبادىء النازية ، وفي سنة ١٩٣٦ اصدر قراراً بأن ينضم جميع الاولاد والبنات في المانيا الى منظمة « شباب هتلر » .

وسارت الحركة النازية تشق طريقها ، معتمدة على مبادىء اساسية أهمها :

اولاً : التطرف في العقيدة القومية والعنصرية ، واعتبار الجنس الآري سيد الاجناس ، لذلك كانت النازية شديدة العداوة لليهود الذين اتهمتهم بأنهم كانوا السبب في هزيمة المانيا ، يتبين ذلك جلياً في قول هتلر في كتابه (كفاحي) « ان العالم الذي نعيش فيه يسير نحو ثورة كبرى ، فهل ستعمل هذه الثورة على تحرير الجنس الآري ؟ أم انها ستكون مورداً آخر يستغله اليهود في ابتزاز

الارباح التي لا تنتهي ؟ ... ان واجب الدولة الوطنية ان تسعى في ايجاد نظام صالح لتربية شبابها ، حتى تستطيع في النهاية ان تجد جنساً مدرباً كفئاً لكي يتولى شئون هذا العالم » .

ثانياً : مبدأ تمجيد الزعامة ، واعتبار الزعيم ممثلاً للشعب باسره واعتبار الفرد خادماً للدولة عليه أن يعمل على زيادة قوتها المادية الى اقصى حد ممكن .

ثالثاً : عدم الارتباط بالدين كعنصر من عناصر تكوين الدولة ، بل يجب الا يكون للكنائس ورجالها اي سلطة تحد من حرية السلطة التنفيذية او تقف في سبيلها .

رابعاً : هيمنة الدولة على الاعمال التجارية الكبيرة والاشراف على حياة البلاد الاقتصادية اشرافاً كاملاً حتى تتمشى مع المبادىء النازية ، لذلك الغيت النقابات والاتحادات التجارية سنة ١٩٣٣ وحلت محلها (جبهة العمل الالماني) حتى يمتنع النزاع بين العمل ورأس المال ، وحرم على العمال حق الاضراب والاعتصام ، واصبحوا يعتمدون كل الاعتماد على الحكومة النازية في تسوية الخلاف الذي يقوم عادة بينهم وبين اصحاب الاعمال بما تصدره الحكومة من قواعد للعمل والاجور .

هتلر رئيس الجمهورية

وفي اغسطس سنة ١٩٣٤ مات الرئيس هندنبرج ، فتولى هتلر منصب رئيس الجمهورية ، واحتفظ لنفسه ايضاً بمنصب مستشار الريخ ، وبذلك صار اقوى حاكم في العالم ، ولم يكن هتلر يميل الى ان يلقب برئيس الجمهورية ، بل كان يفضل على ذلك لقبه القديم « الفهرر Fuhrer » بمعنى الزعيم ، وامر باجراء استفتاء آخر للشعب ، ليظهر للعالم تأييد الأمة الألمانية له في تولي المنصبين ، وتم له ما اراد .

وكان هتلر قد شرع في تنفيذ سياسته الخارجية مبتدئاً بتحقيق فكرة (اتّحاد) النمسا مع المانيا ، واسترداد السار ، ولكي يركز جهوده في هذا السبيل عقد مع بولنده ميثاق عدم اعتداء مداه عشر سنوات معترفاً فيه – مؤقتاً – بالحدود الالمانية البولندية، وكانت مناورة سياسية بارعة .

* * *

الفصل الثامن عشر

الشرق الأقصى

الصين واليابان

امبراطورية المانشو وعهد اليقظة :

عند بداية التاريخ الحديث كانت الصين تحت حكم أسرة (منج) Ming وفي أواخر القرن الخامس عشر ضعفت تلك الأسرة . وقبيل منتصف القرن السابع عشر بدأت قبائل من التتار يطلق عليهم عادة اسم المانشو تتخذ لنفسها في الصين وضعا سياسيا هاما ثم أعلن زعيمها (نورهاشو) نفسه امبراطورا على الصين وأسس له عاصمة في مكدن وأخذ حكام أسرة منج يفقدون أقاليمهم الواحد تلو الآخر إلى أن سقطت عاصمتهم بكين في يد أحد أباطرة أسرة المانشو سنة ١٦٤٤ .

وعمدت أسرة المانشو إلى حكم الصين باعتبارهم حكاماً صينيين وأعلنوا الإبقاء على النظم الصينية في الحكم ، وأقاموا حاميات من جنودهم في المدن الرئيسية ليحتفظوا بسلطانهم على البلاد ، ووضعوا هذه القوات تحت إمرة ولاة من المانشو بجانب القوات الاقليمية المكونة من الصينيين .

وكان أعظم أباطرة هو الأمبراطور « تشين لونج » الذي وصلت الصين في عهده أعظم اتساع لها فقد ضم منغوليا والتبت إلى ملكه ، واعترفت كل من

من كوريا وبورما وأنام ونيبال بسيادة الصين – وكان عصره فترة رخاء عظيم وازدياد في عدد السكان – ولكن زمام الحكم أفلت من يده في أخريات أيامه فتفشى الفساد السياسي ونشبت الثورات . ويعتبر عهده قمة مجد أسرة المانشو . ولكن في أواخر عهده الطويل بدأ نجم أسرة المانشو يأفل . وقد كانت بداية النهاية عندما اتجهت أنظار المغامرين الأوربيين إلى الصين ، وأصبحت ميناء (كانتون) وبعض الموانى الأخرى على الساحل الجنوبي مقراً للتجارة الأوربية ، ولكن العلاقات التجارية بين هؤلاء الأجانب والصينيين كانت تتعرض للتوتر والمصادمات بسبب ما كان يفرضه الصينيون عليهم من ضرائب ومكوس على تجارتهم الصادرة والواردة وللقيود الشديدة التي كانت تُفرض على الأجانب أنفسهم ، وكان أهم سبب يثير هذه الخلافات هو اصرار الأوربيين على إدخال تجارة الأفيون في البلاد وهي التجارة التي كانت حكومة الصين عازمة على منعها بالقوة . وقد أرسلت الحكومة البريطانية في عام ١٧٩٣ بعثة دبلوماسية إلى العاصمة الصينية لمحاولة الوصول إلى تفاهم حول هذا الموضوع ولكن الأمبراطور « شيان لونج » ردّ على البعثة الانجليزية في جفاء وغلظ ورفض الاستجابة للانجليز

ولما انقضى عهد هذا الأمبراطور أخذت امبراطورية الصين في الضعف والانحلال فقد تتابع على العرش من بعده أباطرة ضعفاء وتسرب الفساد إلى نظام الحكم وعاث الإقطاعيون في البلاد فسادا . ثم بدأت مشكلة الأفيون تزداد خطورة على الرغم من أوامر الحكومة بمنعها ومصادرة ما يُضبط مع التجـار الأجانب . وكانت شركة الهند الشرقية البريطانية تزرع الأفيون في الهند وترسله الى ميناء كانتون معتمدة على رشوة الموظفين الصينين المكلفين بالمصادرة والذين كانوا يسهّلون عملية التهريب نظير ما كانوا يحصلون عليه من الرشوة – ولكن في سنة ١٨٣٩ قامت الصين بمحاولة جدية لوقف هذه التجارة فقد أصدر الأمبراطور أمرا بتعيين (لن تسي هسو) حاكماً على كانتون وزوّده بسلطات خاصة لوقف تجارة الأفيون .

الاستعمار فى الشرق الأقصى

حرب الافيون ومعاهدة نانكنج

كان لين تسو الذي عينه الأمبراطور حاكما على كانتون ومبعوثا خاصا للقضاء على تجارة الأفيون ، قد تمكن من انتزاع كميات كبيرة من الأفيون من التجار الانجليز وبعض الأمريكيين وأحرقها علناً (٣ يونيه ١٨٣٩) ، مما أثار الحكومة البريطانية فقررت إرسال قواتها لتحارب الصينيين في حرب غير متكافئة سميت بحرب الأفيون ، ونزلت هذه القوات على الساحل لتقوم بعدة عمليات حربية ما بين عامي ١٨٣٩ ، ١٨٤٢ ، فتم لها احتلال كانتون وشنغهاي ، وتسربت إلى داخل البلاد حيث استطاعت أن تشل حركة التجارة الداخلية وتتغلب بأسلحتها الحديثة على القوات الصينية . وعندما أصبحت القوات البريطانية على بعد تسعين ميلا من العاصمة بكين ، أيقنت حكومة الأمبراطور أنه لا سبيل الى التغلب على الغزاة وطردهم ، فبدأت الاتصالات للوصول إلى اتفاق ينقذ الموقف ، واضطرت إلى التوقيع على معاهدة غير عادلة ، هي معاهدة نانكنج (١٨٤٢) ، والبروتوكول الملحق بها (١٨٤٣) وكان أهم شروطها .

١ ــ تدفع الصين تعويضاً عما سبق أن صادرته وأحرقته .

٢ ــ يستولي البريطانيون على ميناء هونج كونج Hong Kong ، وهي الميناء الكبيرة التي اتخذها الانجليز كقاعدة للتدخل العسكري والسياسي والاقتصادي ، ولا تزال مستعمرة هونج كونج في أيديهم حتى الآن .

٣ ــ كان على الصين أن تسمح باستخدام خمسة موانى صينية للتجارة البريطانية واستيطان التجار الانجليز ، وقد كان ذلك مقدمة التسلل الأجنبي إلى بلاد الصين .

٤ ــ استثناء الرعايا البريطانيين من تطبيق القوانين الصينية ومعاملتهم بموجب قوانين بلادهم على الأراضي الصينية .

٥ – معاملة بريطانيا طبقاً لمبدأ « الدولة الأولى بالرعاية »

٦ – إرغام حكومة الصين على ألا تتقاضى على البضائع الأجنبية رسم استيراد أكثر من ٥٪ ، وذلك أدى في النهاية إلى إعاقة نمو الصناعة المحلية في الصين .

وقد نصت المعاهدة أيضا على أنه إذا منحت الصين أي امتياز لدولة أخرى وجب أن تتمتع انجلترا بنفس الامتياز ، ..

الولايات المتحدة تفرض معاهدة مماثلة :

وكانت معاهدة نانكنج أول خطوة نحو فرض الامتيازات الأجنبية على الصين ، إذ ما كادت تعلن شروط تلك المعاهدة حتى تكالبت الدول الاستعمارية الأخرى على الطمع في مثل تلك الامتيازات التي أعطيت لبريطانيا . وكانت الولايات المتحدة في مقدمة الدول التي فكرت في استغلال الموقف لاكتساب حقوق في الصين ، فقرر رئيسها إرسال مبعوث إلى الصين ليقوم بمفاوضة الحكومة هناك لعقد معاهدة بين أمريكا والصين ، وفي فبراير سنة ١٨٤٤ وصل المبعوث الأمريكي إلى ميناء ماكاو Macao على سفينة امريكية مسلحة تتبعها سفينتان حربيتان ، وكان عليه أن يبين لأولي الأمر في الصين في حزم وجهة نظر الولايات المتحدة ويوضح لهم الفرق بين الأمريكيين والانجليز في النوايا والأهداف فالولايات المتحدة دولة ليست استعمارية ولا تهتم بالتوسع بينما أن الانجليز قوم مستعمرون وهم يقبعون في الهند متطلعين إلى التوسع نحو الشرق الأقصى ، ولا مجال للشك أو الارتياب في نوايا الأمريكين ، ولا سيما أنهم لا يرغبون في تشجيع تجارة الأفيون ولا في حماية المهربين ، وكل ما يهدفون إليه أن يفتحوا أبواب التجارة مع الصين ، وإنشاء علاقات قوية معها على قدم المساواة . وطلب المبعوث الأمريكي أن يُسمح له بالتوجه إلى بكين لمقابلة الأمبراطور الصيني ، لإقناعه بوجهة النظر الأمريكية ، ولكن المسئولين رأوا أنه من الأسلم التسليم بالأمر الواقع وقرروا الدخول في مفاوضة لعقد معاهدة بين

الصين والولايات المتحدة ، وتم الاتفاق على عقد معاهدة سميت بمعاهدة وانج– هيا Wang-Hia (٣ يوليه ١٨٤٤) ، وكانت شروطها مماثلة لشروط معاهدة نانكنج التي عقدت مع بريطانيا ولكنها كانت أكثر وضوحا ودقة ، فقد أصبح للولايات المتحدة الحق في التجارة في الموانيء الخمسة ، وتعيين القناصل ، وأنه إذا وصلت بضائع إلى ميناء من موانيء الصين ودُفع عليها رسوم الجمرك تعفى من دفع أي رسوم أخرى إذا ذهبت إلى ميناء آخر بحيث لا يتكرر دفع رسوم الجمرك كما كان يحدث سابقاً ، وأن يسمح للأمريكيين بالاستيطان في تلك الموانيء وأن يُسمح لهم باستخدام مدرسين صينيين لتدريس اللغة الصينية لمن يود من الرعايا الأمريكان وهو أمر لم تكن حكومة الصين تسمح به للأجانب .

منح امتيازات لدول أوربية أخرى :

وأصبحت معاهدة وانج – هيا Wang-Hia نموذجا لمعاهدات تالية اضطرت الصين إلى التوقيع عليها مع دول غربية أخرى ، ففي اكتوبر سنة ١٨٤٤ حصلت فرنسا على معاهدة مماثلة ولكنها امتازت باضافة بند خاص يعطي الحق للبعثات التبشيرية الكاثوليكية بالعمل في الصين ، وكانت فرنسا دائما تدّعي لنفسها الحق في حماية الكنيسة في جميع أنحاء العالم .

وقد لعب المبشرون المسيحيون دورا كبيرا في تمهيد الطريق للدول التي ينتمون إليها لنشر نفوذها في الصين فقد كان هناك بعثات بروتستنتينية انجليزية وأمريكية تعمل في كانتون وما جاورها منذ بداية القرن التاسع عشر ، ولكن الحكومة الصينية كانت تحدد إقامتهم ولا تسمح لهم بالتوغل داخل البلاد ، أما الدور الذي قاموا به أثناء الضغط الأوربي على الصين فهو دورهم في التوسط في عقد تلك المعاهدات التي أشرنا إليها بين ممثلي بلادهم وبين حكومة الصين وذلك لمعرفتهم بلغة البلاد وتقاليدها ، ثم قيامهم بالترجمة وبعضهم كانوا بمثابة مستشارين ساهموا في المفاوضات التي جرت بين وفد بلادهم وحكومة الصين وتبع فرنسا في المطالبة بالمساواة في حقوق الأجانب في الصين كل من بلجيكا (١٨٤٥)

والسويد والنرويج (١٨٤٧) ، وبذلك بدأ التسلل إلى الصين بموجب هذه الاتفاقيات والمعاهدات التي وقعتها على كره منها ، وظل الصينيون الذين أجبروا على التعامل مع هؤلاء الأجانب يكرهونهم ولا يعترفون بتميزهم عنهم بل على العكس كانوا لا يزالون محتفظين بفكرتهم القديمة عنهم بأنهم قوم متبربرون يجب احتقارهم أو على الأقل تجاهلهم وأنه من الواجب أن تعمل الصين على طردهم من الأراضي الصينية ، وظل الصينيون الذين أجبروا على التعامل مع هؤلاء الأجانب محتفظين بشعور الكراهية والازدراء نحوهم ، ولا يعترفون بتميزهم عنهم ، ويتطلعون إلى الفرصة التي تمكنهم من طردهم من الأراضي الصينية . وكانت «كانتون» مركزاً للاحتكاك بين الصين والأجانب لأن أهلها كانوا يلمسون بأنفسهم مبلغ الاجحاف الذي فرض عليهم بتلك الشروط المهينة لكرامة الشعب الصيني ، وكانت الحكومة نفسها لا تعارض هذا الشعور العدائي ضد الأجانب ، وفي حالات كثيرة كانت تتخذ من شعور الرأي العام ذريعة لرفض الاذعان لشروط المعاهدات وأهمها فتح مدنهم للتجارة الخارجية الأجنبية ، وفي الوقت نفسه كان الأجانب يسيئون استعمال حقوقهم حتى تجاوزوا روح المعاهدات . فقد واصلوا استغلال تجارة الأفيون حتى تضاعفت ثلاث مرات في خمسة عشر سنة . وعمد مهربو الأفيون وقراصنة البحر إلى استخدام أعلام أجنبية لحماية عملياتهم غير المشروعة وعلى الأخص الأعلام الانجليزيـــة .

الحرب الثانية ١٨٥٧

لذلك ازداد غضب الشعب في الخمس مدن (موان) التي فتحت بموجب المعاهدات للتجارة الأجنبية وعلى الأخص في كانتون حيث ظل الموقف متوترا وخصوصا عندما أوقف الصينيون سفينة تهريب ترفع العلم البريطاني وقبضوا على ملاحيها بتهمة التهريب في أواخر عام ١٨٥٦ ، وفي الوقت نفسه كثرت

---

(١) كانتون وآموي Amoy وفوتهشو Foochow وننجبو Vingha وشنغهاي Shanghai

الحوادث بين الأهالي والانجليز وذلك لأن الشعب الصيني الذي كان يقوده طبقة المتعلمين كان ساخطا على شروط المعاهدات التي أبرمتها حكومته ولذلك حدثت عدة حوادث مقاومة ضد السماح للأجانب بالاستقرار في أراضي الصين فقد كانوا يهاجمونهم ويرجمونهم في الشوارع وظل الموقف متوترا في مدينة كانتون إلى أن قرر الانجليز إرسال بعض السفن الحربية من هونج كونج لمهاجمة الحصون الساحلية .

انضمام فرنسا إلى انجلترا :

وكان قد حدث للفرنسيين ما حدث للانجليز من إهانات ، ولما كان نابليون الثالث امبراطور فرنسا يسعى إلى كسب أمجاد حربية يعزز بها تاجه الجديد فقد انتهز الفرصة واتفق مع انجلترا على عمل عسكري مشترك ضد الصين ، وفي ديسمبر سنة ١٨٥٦ ضرب الانجليز (كانتون) بالقنابل . ثم نقل البريطانيون والفرنسيون ميدان القتال إلى أقرب الموانىء للعاصمة بيكين وأخذوا يضربون حصونها بالقنابل ، فبادرت الحكومة الصينية بطلب الصلح .

معاهدات تينتسن (١٨٥٨) : وقعت الصين معاهدات جديدة مع الدول الغربية ، ومع أن روسيا والولايات المتحدة لم تشتركا في المعركة فقد أرسلتا مندوبيهما للاشتراك في الغنيمة . وكان أهم شروط هذه المعاهدات ما يلي :

١ — صرح للأجانب بالاتجار في عدة موان أخرى حددتها المعاهدات .

٢ — التسامح الديني مع المسيحيين والسماح للبعثات التبشيرية بممارسة نشاطها في الصين .

٣ — أصبحت تجارة الأفيون مشروعة .

٤ — فتح نهر (يانج تسي) للتجارة الأوربية

اتفاقيات بيكين ١٨٦٠

ولكن ما لبث الصينيون أن نقضوا شروط المعاهدة فقرر الانجليز والفرنسيون معاودة القتال وأرسلوا قوة مشتركة فاستولت على الحصون واتجهت في الداخل شمالا نحو العاصمة (بيكين) فعاد الصينيون إلى فتح باب المفاوضات نتج عنها عقد سلسلة جديدة من الاتفاقيات مع الأجانب أُطلق عليها اسم اتفاقيات بكين وكان أهم حصيلتها :

١ ــ ضمنت للسفراء الأجانب حق الإقامة في بيكين .
٢ ــ ضمت كولون إلى القاعدة البريطانية في هنج كنج .
٣ ــ أصبحت ميناء « تينتسن » مفتوحة كبقية الموانى التي شملتها المعاهدات .
٤ ــ أعادت إلى الكاثوليك كل أملاكهم التي صودرت منذ عام ١٧٢٤

اضمحلال الصين ١٨٦٠ ــ ١٨٩٤

كان من أثر الهزائم التي منيت بها أسرة المانشو واضطرارها إلى قبول معاهدات مذلة أن ضعفت وأخذت تسير نحو الهاوية . وفي أثناء السنوات التي تلت تلك المعاهدات أصيبت البلاد بالثورات الداخلية وأعمال السطو والنهب والفيضانات والأوبئة ، وقد أدى ذلك الانحلال في أواخر القرن التاسع عشر **إلى فقد الصين للمناطق التابعة لها والخاضعة لسيادتها مثل بورما والهند الصينية لكنها** اضطرت للتنازل عنهما لبريطانيا وفرنسا ، كما ضعف سلطانها على إقليمي سنكيانج ومنغوليا الخارجية ــ وجاءت الحرب الصينية اليابانية دليلا على مدى اضمحلال الأمبراطورية وقرب زوالها .

الحرب الصينية اليابانية ١٨٩٤ ــ ١٨٩٥

في بداية القرن التاسع عشر كانت كوريا تعترف بسيادة الصين عليها ، وكان ملوكها يقلّدون مناصبهم على أيدي أباطرة الصين ولكن نفوذ الصين ضعف هناك باضمحلال المانشو وقد حاولت الدول الغربية بعد معاهدات



مناطق النفوذ الاجنبي في الصين ١٨٩٥ - ١٩١١

تينتسن سنة ١٨٥٨ التي فتحت شمال الصين للتجارة أن تخرج كوريا من عزلتها ، وتضمها للأراضي التي فتحت أبوابها للتجارة الأوربية ، ولكن محاولات البريطانيين والفرنسيين والأمريكيين والروس فشلت بعد أن قاوم الكوريون جميع السفن الأجنبية التي حاولت اقتحام البلاد ، ولكن اليابان نجحت فيما فشل فيه الأوربيون .

حملة يابانية على كوريا

فقد حدث أن أطلق الكوريون النار على سفينة حربية يابانية فأنزل اليابانيون في كوريا سنة ١٨٧٦ حملة تأديبية وفرضوا عليها معاهدة صداقة وتجارة ، ومنذ ذلك الحين قامت المنافسة بين الصين واليابان إلى أن هيأ الكوريون السبب المباشر لقيام حرب بين الصين واليابان — وذلك عندما قامت **فتنة داخلية** في كوريا لم يستطع حاكمها القضاء عليها **فاستعان بحكومة الصين** التي أرسلت قوات صينية إلى كوريا ولما علمت اليابان بذلك أرسلت قوات يابانية إلى هناك ، وبعد القضاء على الثورة رفضت الصين سحب قواتها حتى يتم انسحاب اليابانيين ولما فشلت المفاوضات بدأت اليابان الحرب (أغسطس ١٨٩٤) .

وقد انهزمت الصين لضعف قواتها أمام القوات اليابانية المدربة ، وفي فبراير ومارس عام ١٨٩٥ هاجمت القوات اليابانية البرية والبحرية بلاد الصين الأصلية عند (واي هاي واي) في إقليم شانتونج . كما غزت **منشوريا وفرموزا** واضطرت الصين الى طلب الصلح .

معاهدة شمونسكي (ابريل ١٨٩٥) Shimonoski

قضت معاهدة شيمونسكي التي أنهت الحرب الصينية اليابانية بتنازل الصين عن فرموزا وجزر بسكادور وشبه جزيرة ليا وتونج ودفع غرامة كبيرة لليابان .

وقبل أن تتبادل الحكومتان التصديق على المعاهدة تدخلت روسيا وفرنسا

وألمانيا لإقناع اليابان باعادة ليا وتونج للصين في مقابل دفع غرامة إضافية . وقد ضاقت اليابان بهذا التدخل الأوربي ، ولكنها لم تشأ أن تتحدى ثلاث دول كبرى .

الصين في طريقها إلى اليقظة ١٨٩٤ — ١٩١٤

كانت هزيمة الصين على أيدي اليابانيين نذيرا للشعب الصيني لكي يستيقظ من سباته وتبين لعدد من المفكرين الصينيين ان خلاص البلاد مرتبط بخروج الصين عن عزلتها وانفتاحها على العالم وتطبيق النظم الحديثة في التعليم والجيش والسياسة .

وبدأ الاصلاح بتكوين **مجلس حرب جديد وصدور مجموعة من القوانين تقضي** بانشاء **مصانع وطرق مواصلات** على النظام الغربي برؤوس أموال صينية ولكن كانت الهزيمة من ناحية أخرى تشجع الأجانب على الاستهانة بقوة الصين العسكرية وأخذوا ينظرون إليها كثمرة حان قطافها — وكانت وسائل الدول الاستعمارية في تعزيز سيطرتها على الصين متعددة ، منها تقديم القروض إلى الصين وبشروط تعطي الدول الدائنة الحق في الاشراف على بعض نواحي الاقتصاد الصني — ومنها الحصول على امتيازات اقتصادية ، **كامتياز إنشاء السكك الحديدية والتعدين** ، وغالبا ما كانت الدولة صاحبة الامتياز تحتفظ بحق **حفظ النظام في منطقة الامتياز** مما يحدُّ من السيطرة العسكرية الكاملة لحكومة الصين وأصبحت الدول تتسابق للحصول على أراض وامتيازات بالبلاد .

حركة البوكسرز : ١٩٠٠

وظهرت حركة معادية للأجانب في شمال الصين وتكونت جمعيات سرية للكفاح تؤيدها حكومة الامبراطورية وحكام الأقاليم وكوّن أعضاؤها منظمات شبه عسكرية (ميليشيا) عُرفت بين الشعب باسم حركة البوكسرز . وتغاضت الحكومة عن أعمال البوكسبرز الذين بدأوا يهاجمون الأجانب ويقتلون منهم

أعدادا كبيرة وعندئذ تدخلت الدول الأجنبية وخاصة بريطانيا تدخلا مسلّحا - وخشيت الولايات المتحدة أن يكون تدخل الدول الأوربية مقدمة لمطالب إقليمية جديدة من الصين فأرسلت مذكرة إلى تلك الدول بينت فيها ضرورة المحافظة على سلامة أراضي الصين وحكومتها . وفي ١٤ أغسطس ١٩٠١ رفعت القوات الأجنبية الحصار عن الموضيات في بكين وحصلت الصين على السلام بشروط مُذلّة أهمها دفع غرامة كبيرة وإنزال العقاب بالموظفين الصينيين الذين أهملوا في أداء واجبهم ووقف استيراد الأسلحة مدة عامين .

البرنامج الاصلاحي لحكومة المانشو ١٩٠٢ - ١٩١١

قبل ظهور حركة البوكسرز ، كانت حكومة الامبراطورية تعارض كل سعي تكون وجهته الاصلاح ، ولكنها بعد هذه الحركة تبنّت حركة جديدة للإصلاح تهدف إلى رفع مستوى التعليم والجيش والبحرية والنظام القضائي والجهاز الإداري . فمن ناحية التعليم أرسلت البعثات إلى الخارج وأنشئت وزارة للتربية والتعليم وصدر برنامج تعليمي شامل سنة ١٩٠٤ قضى بانشاء نظام تعليمي في جميع المقاطعات على النمط الأوربي وتقرر انشاء جامعة امبراطورية في بكين .

ومن الناحية العسكرية تقرر إنشاء جيش وطني حديث على أساس التجنيد الاجباري ، وتجديد الأسطول الصيني الذي دمّرته الحروب وخصوصا الحرب الصينية اليابانية وفي سنة ١٩٠٧ أنشئت وزارة للبحرية لتحقيق الإشراف على الأساطيل الصينية وتزويدها بكل حديث . وصدر في نفس العام الدستور المؤقت للدولة ومعه مشروع سمي مشروع السنوات التسع ينظم الاصلاح الحكومي في تسع سنوات ولكن ظلت قوانين الإصلاح حبرا على ورق .

أما جماعات المصلحين خارج الحكومة فلم تكن مشروعات الأصلاح التي اعلنت بكافية في نظرهم للسير بالصين قدما نحو اليقظة والنهضة وكان على رأس هؤلاء المصلحين زعيمهم المذهبي الدكتور صن يات سن .

صن – يات – سن والحركة الجمهورية

كان قائد جماعة الوطنيين في الصين وزعيمهم المذهبي هو الدكتور صن – يات – سن . وقد ولد في قرية قرب كانتون ، وتعلم في إحدى مدارس الإرساليات التبشيرية ثم التحق بمدرسة الطب في (هنج كنج) ولكنه كان في الوقت نفسه يثقف نفسه عن طريق الكتب التي كان مغرما بقراءتها فأضاف إلى ثقافته معلومات واسعة في العلوم الاجتماعية والسياسية والعسكرية .

وقد قام بعدة مجهودات لنشر أفكاره عن وسائل تقدم الصين سنة ١٨٩٥ فاضطهدته الحكومة اضطهادا أدّى إلى فراره ، ولكنه أثناء نفيه كان يتصل بأنصاره فتأسست بالصين عدة جمعيات متطرفة كرّست حياتها للاصلاح .

وقد بدأ صن – يات – سن بحركة وطنية مناهضة لأسرة المانشو وأصبح جمهوريا يحاول تأسيس جمهورية في الصين بعد أن فشلت حركة الاصلاح وبرنامج التسع سنوات الذي وضعته الأمبراطورية في أواخر أيامها للسير بالصين في طريق التجديد .

هيئة التحالف المشترك :

وفي سنة ١٩٠٥ أسس (صَن يات سن) جمعية سماها (هيئة التحالف المشترك) وهي الهيئة التي تزعّمت ثورة عام ١٩١١ ، وكانت أهداف هذه الهيئة **إنشاء جمهورية صينية وإعادة توزيع الأراضي** ، وكان الزعيم (صن) يعتقد أن الصين بسكانها الذين يبلغ عددهم ربع سكان العالم ، وبخيراتها الزراعية ومواردها المعدنية تستطيع أن تتخذ لها مكانا مرموقاً بين الدول العظمى ، وانها لن تستطيع أن تصل إلى هذه الغاية إلا بعد انتهاء عهد الاقطاع . إلا أنه كان يرى أن القيام بتغيير فجائي عاجل ليس ممكنا من الناحية العملية وأنه لا بد من إنشاء الصين الجديدة على ثلاث خطوات :

الدور الأول : فترة الحكم العسكري أثناء تقدم الصراع العسكري الموجه نحو حكومة المانشو .

الدور الثاني : فترة الوصاية السياسية وفي أثناء هذا الدور يلقن الشعب الآراء الديموقراطية ونظم الحكم .

الدور الثالث : إنشاء الحكومة الدستورية

ولم يكن قد تشبع بمبادىء « صن » عند بدء الثورة إلا القليل من المثقفين ، أما أغلبية الشعب الصيني فقد كانوا أميين لا يفقهون معنى ما يقول .

قيام الثورة :

ولكن الثورة قامت بالفعل عام ١٩١١ في جميع أنحاء الصين . وكانت أول حكومة ثورية شُكلت هي (حكومة الاصلاح) التي أسسها أحد أتباع الزعيم صن يات سن واسمه (يوان هونج) وبعد ذلك أنشأ الثوريون حكومة عسكرية في شنغهاي . وعندئذ استدعت حكومة المانشو في بيكين قائدا قديرا لقيادة القوات الأمبراطورية هو (يوان شي كيه) الذي أصبح دكتاتورا يتمتع بسلطات واسعة .

حكومة نانكنج : كان صن يات سن في الولايات المتحدة عندما قامت الثورة ، فعاد إلى الصين واختير رئيساً لحكومة مؤقتة في مدينة نانكنج تضم الأحزاب الجمهورية .

يوان شي كيه والجمهورية :

ولم يكن (يوان شي كيه) رجل الامبراطورية مخلصا لعرش المانشو ولا مصلحة له في المحافظة على تلك الأسرة ، وكان صن يات سن يدرك ذلك ، فرأى من المصلحة أن يعرض رئاسة الجمهورية على «يوان» . وبعد سلسلة من المفاوضات وُضعت شروط تقتضي بأن يتنازل أمبراطور المانشو عن العرش

في مقابل هبة مالية ويستقيل صن من رياسة الحكومة الجمهورية المؤقتة على أن يتولاها (يوان) وهكذا أصبح الأخير رئيساً للجمهورية ويسيطر على خيرة الجيوش الصينيــــة .

بدء عهد الجمهورية

دستور سنة ١٩١٢ : صدر دستور مؤقت للدولة الجديدة وأنشىء مجلس وطني مؤقت يمثل الأقاليم ويشترك في السلطة مع رئيس الجمهورية والوزارة ، وبعد عشرة أشهر حلّت محل المجلس الوطني جمعية وطنية مكونة مـــــن مجلسين .

العقبات أمام الحكومة الجديدة : كان هناك تناقضا في الفكر بين رئيس الجمهورية وكبار زعماء الجمهورية ، فالرئيس رجل عسكري وخبرتـــه بالسياسة قليل ، أما الزعماء فقد تلقّوا تعليما غربيا درسوا من خلاله أحدث الآراء السياسية النظرية فكان الخطر الدائم على الجمهورية هو ذلك التناقض والنفور الذي يتزايد بين الرئيس والجمعية الوطنية .

حزب الكومنتانج :

وقد أقدم صن يات سن في عام ١٩١٢ على تأسيس حزب سياسي هو حزب الكومنتانج (حزب الشعب القومي) — وحدث صراع بين هذا الحزب ورئيس الجمهورية بسبب الخلاف في الرأي واعتراض الحزب على ازدياد سلطة الرئيس يوما بعد يوم، وقام الجمهوريون في الجنوب من أنصار صن يات سن بثورة ضد الحكومة ولكنها أخمدت وفر (صن) إلى اليابان (١٩١٣) وحل (يوان) حزب الكومنتانج باعتباره مثيرا للفتنة وطرد أعضاءه من البرلمان ثم فضّ البرلمان إلى أجل غير مسمى .

ثم غيّر الدستور بأن جعل المجلس التشريعي المنتخب له سلطة استشارية

فقط ، كما جعل الوزارة مسئولة أمام رئيس الجمهورية واستخدم وسائل الارهاب للقضاء على معارضيه وأصبحت الحكومات الاقليمية خاضعة للسلطة المركزية .

وظل الحال كذلك في الصين حتى قيام الحرب العالمية الأولى .

الصين خلال الحرب العالمية الأولى

عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى كانت الصين تحت حكم (يوان شي كيه) الذي كان رئيسا للجمهورية ويحكم البلاد حكما دكتاتوريا بعد أن ضعفت المعارضة وأصبح البرلمان الاستشاري الجديد يسير في ركابه ، والقواد العسكريون في قبضته . وقد أعلن يوان حياد الصين بمجرد إعلان الحرب العالمية (أغسطس ١٩١٤) أملا في ابعاد بلاده عن خطر الحرب .

ولم يكن «يوان» عند حسن ظن الشعب به فقد طمع في أبهة الحكم وحاول أن يؤسس أسرة ملكية جديدة إلا أنه فشل في محاولته ثم مات بعد أربع سنوات من بداية حكمه وتلت وفاته سلسلة من النكبات أصيبت بها الصين ، فقد سادت الفوضى وعم الانقسام ما بين الشمال والجنوب وسرعان ما امتدت الحرب العالمية إلى الصين وكانت اليابان هي السبب الأول في زج الصين في أتون الحرب ، فقد سنحت لها الفرصة لتحقيق أطماعها في الصين ، وكانت الدول الأوربية منشغلة بالحرب بعيدا عن الشرق الأقصى ولم يعد في وسعها أن تمنع اليابان من تحقيق مخططاتها . ووجدت اليابان في ارتباطها بالحلف الانجليزي الياباني الذي عُقد عام ١٩٠٢ ذريعة للقيام بمناوراتها العسكرية في الشرق الأقصى ، وأعلنت الحرب على ألمانيا

وكانت أحوال الصين حينئذ آخذة في الاضمحلال ، فقد كانت السلطة في أيدي حكام الأقليم الذي كان يوان قد أولاهم ثقته لكي يؤيدوه ضد حزب

صن يات سن ولذلك كان هؤلاء من أهم أسباب التمزق الذي حدث في الصين ما بين عامي ١٩١٧ و ١٩٢٧ .

رأت حكومة الصين أن تعلن الحرب على ألمانيا في أغسطس ١٩١٧ وخصوصاً بعد أن دخلت الولايات المتحدة الحرب في صف الحلفاء ، ورحب الحلفاء باعلان الصين الحرب ووعدوها بأنها إذا اشتركت فعلا في الحرب فإنهم سيقررون اعفاءها من التعويضات التي فرضت عليها نتيجة حرب البوكسرز ، وقد انقسم الرأي في الصين ما بين محبذ لدخول الحرب في صف الحلفاء ومعارض للحرب ضد ألمانيا التي كان لها معجبون كثيرون . كذلك كان بالصين أثناء الحرب حكومتان : شمالية تتخذ بكين عاصمة لها وحكومة كانتون الثورية في الجنوب ويرأسها صن يات سن .

ومع أن الصين أعلنت الحرب إلا أنها كانت عاجزة عن المساهمة في المجهود الحربي للحلفاء وكل ما قدمته مائة وتسعين ألف رجل من أبنائها يعملون كعمال في الجبهة الغربية شمال فرنسا .

مؤتمر الصلح : بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى تقرر عقد مؤتمر الصلح في باريس . وبما أن المصالح اليابانية والصينية على طرفي نقيض ، فقد سعت اليابان لكسب تأييد الدول الاوربية لمطالبها في مؤتمر الصلح ،

ولكن مؤتمر باريس والمؤتمرات الدولية التي تلته أنصفت الصين أكثر مما كانت ترجوه اليابان (١) فقد انهت المعاهدات المجحفة التي سبق أن أمليت على الصين (ب) وتبديد مخاوف الصين من أي عدوان أجنبي عليها وضمان سيادتها وسلامتها الأقليمية (ج) وسمح لها بزيادة الرسوم الجمركية الصينية إلى ٥٪ بالنسبة لقيمة البضائع التي تدخل بلادها (د) أن تكف الدول في المستقبل عن السعي للحصول على امتيازات خاصة في الصين .

الحالة الداخلية في الصين بعد الحرب العالمية :

بعد أن انتهت المؤتمرات الدولية التي أعقبت الحرب العالمية عاد الصراع الداخلي في البلاد . وكانت حكومة بكين التي حاولت الدول تقويتها وتدعيمها آلة في أيدي القواد العسكريين الذين كانوا من جانبهم يتنازعون السلطة والسيطرة على حكومة بكين . وبينما كان الصراع بين القادة العسكريين على أشده في الشمال . استطاع قواد عسكريون آخرون أن يدعّموا قوتهم في الجنوب . وكان هؤلاء يشجعون حزب (صن يات سن) على تكوين حكومة في (كانتون)

وفي أثناء تلك الفترة من الانقسام الداخلي تمكنت الصين من أن تمثل في مؤتمرات الصلح في فرساي (١٩١٩) وواشنطن (١٩٢١ – ١٩٢٢) وتناسى ممثلوها في المؤتمرين نزاعهم الداخلي من أجل مصلحة الصين العليا . ولكن بعد ان انتهت المؤتمرات الدولية برز الخلاف بين الحكام الذين لم يتمتع أحدهم بتأييد شعبي ، ولم يكن لأيٍّ منهم برنامج سياسي أو إصلاحي ، بل كان كل همهم في الصراع الوصول إلى السلطة والتوسع في الاراضي التي يحكمونها بقصد جمع أكثر ما يمكن من الضرائب لتعزيز قواتهم وبسط نفوذهم .

أما حزب صن يات سن فظل أثناء ذلك الصراع لا يملك سوى حكومته في كانتون ولم تكن حكومة كانتون تستطيع أن تدعي تمثيلها للصين ، وظلت الدول الاجنبية تعترف بحكومة بكين التي كانت أشبه بحكومة صورية لأنها فقدت سيطرتها على الشمال والجنوب معا . ولكن في عام ١٩٢٠ استطاع صن يات سن إعادة تنظيم حزب الكومنتانج وفي العام التالي اجتمعت الهيئة التشريعية وانتخبته رئيسا للجمهورية .

ومع أن أحداث الصين لم تدعه يحكم طويلا واضطرته لأن يعيش في منفاه في شنغهاي إلا أنه عاد إلى كانتون سنة ١٩٢٣ بعد أن استعان بدول روسيا السوفييتية لأنها كانت قد أعلنت عداءها للاستعمار وتعهدت بتقديم المشورة لحكومته في

كفاحها من أجل الوحدة والاستقلال ، ووافقت على أن الصين ليست على استعداد لقبول الشيوعية .

ووضع صن يات سن مبادئه الثلاثة (١) سيادة الشعب او النظام الديموقراطي حيث تقوم الحكومة بتدريب الشعب على ممارسة حق الانتخاب وحق اقتراح القوانين (٢) حق تقرير المصير (٣) مقاومة العدوان الخارجي باعادة النظر في المعاهدات كي تحصل الصين على استقلالها ومساواتها بالدول الأخرى ووضع صن برنامجا لإعادة بناء الصين واقترح تنفيذه على ثلاث مراحل : المرحلة الأولى إقامة حكومة تحت السيطرة العسكرية كي يمكن إزالة العقبات الخارجية التي تعترض طريق الوحدة .

والمرحلة الثانية هي فترة الوصاية السياسية تحت إرشاد الكومنتانج بعد إعادة الأمن والنظام إلى الأقاليم وذلك بتدريب الشعب على الحكم الذاتي المحلي في كل إقليم وتعليمه ومساعدته على كيفية استغلال الموارد المحلية وتنشيط الصناعة والتجارة لتهيئ للمواطنين وسائل العيش . والمرحلة الثالثة هي إقامة حكومة دستورية في كل إقليم على شرط أن يظل حكام الاقاليم خاضعين لتوجيهات الحكومة المركزية .

وعند بدء الفترة الثالثة هذه تعمل الحكومة المركزية على اصدار دستور دائم للصين كلها .

المؤتمر الوطني ١٩٢٤ : واجتمع أول مؤتمر للكومنتانج في كانتون (١٩٢٤) ووضع دستورا للبلاد على أساس الحزب الواحد ، وسبق ذلك تكوين جيش وطني وتأسيس كلية حربية كبرى تحت إدارة شيانج كاي شيك لتخريج الضباط .

وفاة سَنْ يات سن

كان «سن» لا يزال يرنو إلى توحيد الصين كلها ، شمالها وجنوبها ، ولذلك

فكر في الاتصال بالصين الشمالية التي تم بها ائتلاف بين الزعماء المتنافسين ، يوهسيانج Yü-hsiang وتوان تشي جوي Tua Ch'i-jui وتشانج تسولين Chang Tso-Lin وكانت تلك آخر محاولة قام بها الدكتور سن في سبيل الوحدة ، وذلك عندما ذهب إلى بكين لمفاوضة هؤلاء الزعماء (يناير ١٩٢٥) وبينما كان يائسا من الوصول إلى اتفاق معهم اشتد عليه المرض في بكين ومات هناك في ١٢ مارس ١٩٢٥ بعد أن وقّع في لحظاته الأخيرة على وصية حثّ فيها على مواصلة الكفاح من أجل الوحدة وتنفيذ المبادىء الثلاثة التي وضعها للشعب ، وختمها بضرورة التعاون مع روسيا .

وقد دُفن بمظاهر التقديس والاحترام في بناء أثري في ضواحي نانكنج . وأصبح في نظر الشعب بطل الصين الحديثة وقديسها وأصبح ضريحه مزاراً وطنياً يحج إليه الشعب .

ظهور شيانج كاي‌شك :

لم يكن من بين أعضاء الحزب من يستطيع الادعاء بأنه وحده خليفة سن يات سن . ولكن كان من بين الأعضاء بعض الشخصيات التي كان أهمها شيانج كاي شك القائد العام لجيوش الكومنتانج ، الذي استطاع أن يسيطر على الحزب بعد انتخابه رئيسا للجنة الدائمة بالهيئة المركزية Standing Committee of the Central Excutive Committee

الزحف نحو الشمال :

في منتصف عام ١٩٢٦ بدأت الحملة العسكرية الكبرى لإعادة توحيد الصين وقد سبقت تلك الحملة دعاية واسعة قام بها عدد من أنصار الكومنتانج مما سهّل مهمة شيانج كاي شك وجعلته يتقدم في الأراضي الشمالية دون مقاومة تذكر ، فقد سلّمت هانكاو Hankaw (تشرين أول – اكتوبر) ، وما وافى ربيع عام ١٩٢٧ حتى سيطر تشانج كاي شك على معظم أقاليم الصين الواقعة جنوب نهر

اليانجتسي Yangtze وعلى المدن الهامة — أما في الشمال فقد أعلن قائد إقليم شنسي انضمامه وانضمام إقليمه إلى الوطنيين .

الصراع الحزبي

بينما كان تشانج كاي شك مشغولا بالحرب في شمال البلاد — نظم بورودين Borodin الخبير الروسي الذي كان له نفوذ كبير عند الزعماء الصينيين الشيوعيين مؤامرة لنزع السلطة من «كاي شك» وذلك بسبب ارتياب الروس في نياته نحو الاتحاد السوفييتي — والواقع أن تشيانج كاي شك كان في أول الأمر معجبا بالخبراء الروس الذين استدعتهم حكومة الصين ولكن تبين له فيما بعد أنهم — وعلى رأسهم بورودين يعملون لصالح روسيا قبل كل شيء وعلى أن يكون حزب الكومنتانج تابعا للتوجيهات الروسية — وفي سنة ١٩٢٧ أخذ تشيانج كاي شك يعمل ضد الشيوعيين وظل الصراع على الحكم بين الوطنيين والشيوعيين في العشر سنين التالية ، وقاد تشيانج كاي شك حملات عسكرية كثيرة ولكنها كانت تفشل دائما بسبب تأييد الفلاحين لخصومه الشيوعيين . واستطاع الشيوعيون بقيادة ماوتسي تونج إقامة حكومة قوية في المنطقة الشمالية الغربيـــة .

وظلت الصين تمزقها الحروب الأهلية إلى أن توقفت عام ١٩٣٧ عندما اتفق الفريقان على التضامن لمواجهة الخطر الياباني في شمال الصين ، ولكن توقف تلك الحرب الأهلية لم يكن نهائيا لأنها كانت لا تلبث أن تعود في عنف وقسوة .

العدوان الياباني في الصين :

كانت اليابان أخطر عدو ضد الصين ما بين عامي ١٨٩٤ و ١٩٤١ ففي سنة ١٩٣٧ اكتسحت القوات اليابانية شمال الصين والمنطقة الساحلية واضطرت قوات تشانج كاي شك إلى التقهقر نحو الداخل ولم يجد بدا من استخدام حـــرب العصابات وتدمير كل ما يساعد على تقدم اليابانيين من مرافق وكبارى وطرق .

على آن المساعدات الأمريكية التي أخذت طريقها إلى الصين في شكل معونات وقروض ساعدت على نجاح الصينيين في وقف التقدم الياباني ومنعهم من الإستيلاء على الصين كلها .

الدور الذي قامت به الصين في الحرب العالمية الثانية

كان الهجوم الياباني على الأسطول الأمريكي في قاعدة بيرل هاربر عام ١٩٤١ سبيلا إلى جعل الصين جزءا من ميدان الحرب العالمية الثانية ولذلك كان على الحلفاء وعلى الأخص الولايات المتحدة أن يمدوا الصين بالمال والسلاح والقوات العسكرية والخبراء العسكريين . ونظراً للجهود التي قام بها الوطنيون الصينيون في سبيل نصرة قضية الحلفاء عوملت الصين معاملة الدول الكبرى ، واشترك تشانج كاي شك مع انجلترا والولايات المتحدة في مؤتمر القاهرة (١٩٤٣ وهو المؤتمر الذي ناقش فيه رؤساء الدولتين الكبيرتين شئون الحرب في الشرق الأقصى . وقد وافقت الدول الغربية على التنازل عن كل ما بقي من امتيازاتهم وحقوقهم الخاصة في الصين .

ولكن لم تنته الحرب الأهلية في الصين بعد الحرب العالمية الثانية فقد عاد القتال بين الوطنيين والشيوعيين واستطاع الشيوعيون الاستيلاء على منشوريابأجمعها في عام ١٩٤٨ حيث سيطروا على مواردها الطبيعية ثم زحفوا نحو الجنوب ، فسقطت المدن الصينية في أيديهم واحدة بعد أخرى وما وافى عام ١٩٤٩ حتى أصبحت أراضي الصين كلها في يد ماوتسي تونج واضطر تشانج كاي شك إلى التقهقر إلى جزيرة تيوان (فرموزا) . ولا يزال الموقف كما هو حتى الآن .

الفصل التاسع عشر

١ ـــ الطريق الى الحرب العالمية الثانية

العدوان في الصين ــ الحرب الحبشية ــ الحرب الاهلية الاسبانية

سياسة هتلر الخارجية :

كانت سياسة المانيا الخارجية بعد الحرب العالمية الاولى تتجه الى العمل على انقاذ البلاد واسترداد مكانتها بين دول العالم ، وقد رأينا كيف استطاع وزير خارجيتها (سترسمان) ١٩٢٣ ــ ١٩٢٩ ، ان ينجح الى حد كبير في هذا السبيل . متبعاً طريق المسالمة والاعتراف بالامر الواقع ، وقد صادفت تلك السياسة نجاحاً دبلوماسياً يتلاءم مع ظروف المانيا في اعقاب الحرب ، فقد عقدت المانيا مع روسيا معاهدة راباللو « Rappallo » عام ١٩٢٢ ، وتم عقد معاهدة لوكارنو عام ١٩٢٥ ، ودخلت عضواً في عصبة الامم (١٩٢٦) ، واشتركت في ميثاق كيلوج (١٩٢٨) ونجحت في اجلاء الفرنسيين والبلجيكيين عن ارض الرين (١٩٣٠) .

وتولى كورتيز (Curtis) وزارة الخارجية بعد سترسمان ، فسارت سياسته في نفس الاتجاه ، ولكن نجاح الحزب النازي في تولي السلطة في المانيا

غير المنهاج الذي سارت عليه سياسة المانيا الخارجية ، واصبح النازيون يميلون الى تحقيق اهدافهم بالقوة ان لزم الامر . والواقع ان المانيا – عندما جاء هتلر الى الحكم – لم تكن قد تخلصت كلية من كل ما كانت تشكو منه في اعقاب الهزيمة ، وهي ولو انها تخلصت من دفع التعويضات الفادحة ، وطهرت حدودها من الاحتلال الاجنبي ، واحرزت مقعداً دائماً في مجلس عصبة الامم ، الا أنها كانت لا تزال تعاني من تحديد قواتها البحرية والبرية ومحرومة من تحصين ارض الرين ، واقليم السار كان لا يزال في يد الفرنسيين وكان الحزب النازي يعمل منذ نشأته على اتحاد المانيا مع النمسا واستعادة الاراضي المانية التي تقرر ضمها الى بولنده بموجب معاهدة الصلح .

شرع هتلر في تنفيذ سياسته الخارجية منذ أن عين مستشاراً للدولة ، وكانت أول علامة دلت على الطابع الجديد للسياسة النازية اعلان انسحاب المانيا من مؤتمر نزع السلاح (اكتوبر ١٩٣٣) ، ومن عصبة الامم بسبب عدم منح المانيا حق المساواة في التسلح ، ورأى هتلر أن يقوم بمظاهرة سياسية تبين للعالم مدى تمسك الشعب الالماني به ، فحل الريخستاج ودعا الى انتخابات جديدة لاستفتاء الامة (١٢ نوفمبر ١٩٣٣) فكانت نتيجة الانتخابات نصراً مؤزراً لهتلر وللسياسة النازية الجديدة .

على ان هتلر لم يكن مطمئناً كل الاطمئنان الى تأييد جميع انصاره ، فقد كان في داخل حزبه جماعة خطيرة من اليساريين الذين اعتقدوا ان هتلر فشل في تنفيذ المبادىء التي نادى بها الحزب الاشتراكي الوطني عند نشأته .

وكان على رأس هؤلاء المتذمرين صديق هتلر القديم « ارنست روهم » قائد فرق العاصفة ، وغيره من زعماء الحزب الذين كانوا يرغبون في قيام (ثورة ثانية) تعمل على تنفيذ برنامج الحزب تنفيذاً كاملاً .

وعلم هتلر أن هناك مؤامرة يدبرها هؤلاء للتخلص منه والاستيلاء على مقاليد الحكم (٢٩ يونيه ١٩٣٤) ، فسبقهم الى العمل وشهدت المانيا مصرع

حوالي ستين رجلاً ممن اتهمهم هتلر بالاشتراك في المؤامرة حيث اعدموا جميعاً بغير محاكمة . وتلا ذلك ما عرفناه من وفاة هندنبرج وتولي هتلر منصب رئاسة الجمهورية محتفظاً بمنصبه كمستشار للدولة .

ومنذ ذلك الوقت احس العالم انه يسير بخطى سريعة نحو حرب عالمية ثانية . فقد فشلت مشروعات الأمن الجماعي ، واعلن هتلر أنه لم يعد يتقيد بمعاهدة فرساي . وفي ايطاليا قرر موسوليني اعداد العدة لفتوحات تستعيد بها ايطاليا مجد الامبراطورية الرومانية القديمة . وفي اليابان وضع الاستعماريون خطة لاقامة « نظام جديد » لقارة آسيا . أما الشعوب الضعيفة في اوربا وافريقية وآسيا فلم يكن في وسعها سوى أن تعلق أملها الوحيد على عصبة الامم التي كانت اذذاك تلفظ انفاسها الاخيرة . وبدأ العدوان يسود على الحق والعدل .

١ — العدوان في الصين

ففي الشرق الاقصى ، كانت اليابان تطمع في غزو منشوريا أقرب الولايات الصينية اليها وخصوصاً بعد أن ضمت كوريا . وكانت الفرصة سانحة اذذاك للغزو ، فروسيا مشغولة بتدعيم ثورتها الشيوعية ومعالجة المشكلات التي ترتبت على ذلك الانقلاب الكبير في نظمها ، أما الصين ، فانها بعد ثورتها الوطنية التي بدأت عام ١٩١١ ، كانت لا تزال تعمل على تأسيس جيش حديث ، وحكومة مركزية ، وانشاء خطوط للمواصلات تربط جمهوريتها الشاسعة . وكانت الصين تعتز بموارد منشوريا التي تؤلف نصف ما تحتاجه الصين من الاخشاب و ٤٠٪ مما تحتاجه من الفحم والحديد . وهي موارد لا تستغني عنها الصين في فترة تطورها الصناعي حينذاك ...

ورأت اليابان في سبتمبر عام ١٩٣١ ان تسبق الصين في الاستيلاء على

منشوريا قبل ان يشتد ساعد الاخيرة في المستقبل القريب ، فاكتسحتها بجيوشها .

ولجأت الصين الى عصبة الامم التي أخذت تتحرك في بطء ، فكونت لجنة للتحري (ديسمبر ١٩٣١) ، في الوقت التي أخذت فيه القوات اليابانية تتعمق في تلك الولاية لتوسيع نطاق الاحتلال ، واستطاعت السيطرة على معظم ارجائها ، وكونت حكومة بها موالية لليابان ، واطلقت اسم مانشوكو « Manchukuo » على تلك الاراضي المحتلة . واتخذتها قاعدة للتوغل نحو الجنوب بضم مـا تستطيع ضمه من الولايات التابعـة للحكومة الجمهورية الصينية في نانكنج ، التي لم تكن من القوة بحيث تستطيع الدفاع عن حدودها .

ولم تستطع لجنة التحري التابعة لعصبة الامم أن توقف القتال الناشب في منشوريا وشمال الصين . ومن سوء حظ الصين أن الولايات المتحـدة والاتحاد السوفييتي لم يكونا عضوين في العصبة مما كان يضعف اي قرار يتخذه مجلس العصبة . وحتى بريطانيا لم تستطع ان تقف موقف التأييد الحازم للصين. وكل ما فعلته اللجنة انها أدانت العدوان الياباني ومع ذلك فقد اقترحت تسوية تجعل النفوذ الياباني مسيطراً في تلك المنطقة .

وهكذا فشلت عصبة الامم في حل تلك المشكلة وفي رد العدوان ولم تقدم الدول الصديقة للصين أي عون أدبي او عسكري ، وادعت الحكومة البريطانية انها تلتزم الحياد بازاء الطرفين ، ولا تسمح لأية مؤسسة بريطانية أن تمد اليابان أو الصين بالاسلحة ، وذلك رغم أن اليابان لم تكن في حاجة الى طلب شراء اسلحة من بريطانيا في حين أن الصين كانت تعتمد كل الاعتماد على استيراد الاسلحة من الخارج .

ويئست الصين من كل جانب ، بعد ان تخلى الجميع عن حمايتها بموجب الاتفاقات الدولية وميثاق العصبة . وقد ذكر مندوب الصين في جنيف اعضاء العصبة أن عجزهم عن وقف العدوان في اي بقعة من بقاع العالم سوف يشجع العدوان في كل مكان ، وذهبت صيحته ادراج الرياح .

٢ ـــ الحرب الحبشية

كان موسوليني يتطلع منذ أن وصل الى السلطة الى التوسع الاستعماري في افريقيا ، وكان الحلم الذي تريد ايطاليا تحقيقه في النصف الثاني من القـــرن التاسع عشر ، أن يبدأ هذا التوسع بالاستيلاء على الحبشة ، وقامت بالمغامرة في عام ١٨٩٦ ، ولكنها باءت بالفشل ، وهزمت شر هزيمة . وقنع الايطاليون في افريقيا بشريط ساحلي في شرق القارة ، وجزء قاحل من ساحل طرابلس (ليبيا) الذي ضمته في عام ١٩١١ ، ولم ينسَ الايطاليون ما اصابهم من فشل في اطماعهم الاستعمارية ، في الوقت الذي استأثرت فيه بعض الدول الغربية بكل ما كانت تشتهيه من المستعمرات بعد الحرب العالمية الاولى . لذلك اراد موسوليني ان يحقق لايطاليا ما كانت ترنو اليه في الحبشة ، وينتقم للهزيمة الكبرى التي حاقت بالايطاليين هناك من قبل ، عندما انهزم الجيش الايطالي امام الاحباش في موقعة « عدوة Adowa » في عام ١٨٩٦ .

بدا لموسوليني في أول الامر أنه قد نجح ، ففي يناير سنة ١٩٣٥ ، استطاع أن يصل الى اتفاق مع وزير خارجية فرنسا « بيير لافال » (الذي اصبح فيما بعد رئيساً للوزراء) تطلق فرنسا بمقتضاه يد ايطاليا في الحبشة .

وأخذت ايطاليا تعبيء قواتها للمغامـــرة الحبشية ، وعندما بدأ الصيف تبين للعالم مدى الاستعدادات التي تقوم بها ايطاليا للقيام بهذه العملية ، فثار الرأي العام العالمي ، وكان الشعب البريطاني أشد الشعوب سخطاً وصرح وزير الخارجية البريطاني السير صمويل هور في عصبة الامم ان بريطانيا لن تقف مكتوفة الايدي امام العدوان الايطالي على الحبشة .

وفي ٣ اكتوبر ١٩٣٥ ، بدأت ايطاليا حملة الغزو من الصومال الايطالي ، ودمغتها قرارات عصبة الأمم بالعدوان ، وقررت الجمعية العمومية للعصبة فرض عقوبات اقتصادية عليها . ولكن على الرغم من وقوف الرأي العام

العالمي ضد ايطاليا ، كان لافال يميل الى الانحناء للعاصفة ، وظهرت فرنسا بمظهر الضعف عندما دعا لافال زميله صمويل هور الى باريس واقنعه بمحاولة الوصول الى حل وسط وهو دعوة امبراطور الحبشة الى التنازل عن ثلثي ارض الحبشة لايطاليا . وتسربت انباء ذلك المشروع الغريب الى الصحافة فثار الرأي العام في باريس ولندن . وكانت النتيجة طرد « هور » من الوزارة ، ووسط عاصفة من الاحتجاج على اقدام هور على الموافقة على ذلك الحل ، واضطر رئيس وزراء بريطانيا (مستر بولدوين) على التضحية بوزيـــر خارجيته لينقذ حكومته وعيّن بدله انطوني ايدن الذي كان يشغل اذذاك منصب ممثل بريطانيا في عصبة الامم . وبعد شهر واحد طرد لافال من الحكم .

لم تكن نهاية المأساة ، على الرغم من تغيير الوزراء المتخاذلين في كل من بريطانيا وفرنسا ، فقد رفضت حكومة كل منهما تطبيق العقوبة الرادعة على ايطاليا ، اي منع البترول عنها . ومع أن بريطانيا ظهرت بمظهر الاستعداد الحربي ، وأمرت اسطولها في البحر المتوسط أن يكونُ على أهبة الاستعداد الا أنها لم تقم ازاء الازمة الحبشية بأي اجراء حاسم ، واتضح اخيراً ان العقوبات التي اقترحتها عصبة الامم في الخريف ذهبت ادراج الرياح .

وما وافى ربيع عام ١٩٣٦ حتى استطاع موسوليني أن يحطم مقاومـــة الاحباش ، ودخلت قواته العاصمة الاثيوبية (أديس أبابا) في ٥ مايو سنة ١٩٣٦ ، وخلع موسوليني على ملك ايطاليا لقب الامبراطور .

وهكذا شهد العالم أول حرب – بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى – تضرب أقوى معول لتحطيم عصبة الامم بعد ان فشلت العقوبات التي قررتها ضد ايطاليا ، ولم يعد العالم – بعد عام ١٩٣٦ – يعتبرها أداة لحفظ السلام . وزاد من اتضاح شبح الحرب قيام المحور النازي الفاشستي الذي جمع المانيا وايطاليا ، وبدا للناس كأعظم قوة ضاربة في اوربا . وظهر أثر ذلك المحور في التأييد المتبادل بين الدولتين نحو الازمتين الخطيرتين : غزو هتلر للرين

وغزو موسوليني للحبشة ثم تجلى اثر المحور بعد ذلك في الازمة الدولية الثالثة التي ثارت في صيف عام ١٩٣٦ عندما قامت الحرب الاسبانية الاهلية .

وقد حاولت بريطانيا أن تصل الى تفاهم مع ايطاليا بعد أن فشلت عصبة الامم في تنفيذ العقوبة التي فرضتها عليها . وبدأت المفاوضات بين الدولتين في نهاية عام ١٩٣٦ الى أن تم في ٢ يناير ١٩٣٧ عقد اتفاقية[١] أعلن بموجبها الطرفان عدم رغبتهما في احداث اي تغيير في منطقة البحر الابيض المتوسط ، ومع ذلك فقد تبين من المساعدات العسكرية التي قدمتها ايطاليا الفاشستية لفرانكو في الحرب الاسبانية الاهلية أن موسوليني لم يحترم عهوده حتى أنه كان يفتخر جهاراً بوجود بعض قواته النظامية في اسبانيا .

٣ – الحرب الاسبانية الأهلية

١٩٣٦ – ١٩٣٩

بدأت متاعب اسبانيا منذ ان انهزمت امام الولايات المتحدة في الحروب التي دارت بينها عام ١٨٩٨ ، فقد حطمت الحرب الامريكية الاسبانية ما كان لاسبانيا من سمعة حربية ومجد قديم، وخرجت اسبانيا من الحرب وقد فقدت جميع مستعمراتها . وازاحت الحرب الستار عن الفساد الداخلي الذي استشرى في اسبانيا حكومة وشعباً ، ولكن تجلى الفساد بأجلى معانيه في الطبقة الارستقراطية الحاكمة التي كان كل همها ان تجمع الثروات على حساب الشعب.

وقد حاول الشعب أن يثور على حكامه في السنوات التالية ، وذلك للمطالبة بالاصلاح والتخلص من الحكم الاوتوقراطي الفاسد ، ولكنها كانت ثورات ضعيفة لم تستطع أن تغيّر الحال ، كثورة برشلونة عام ١٩٠٩ .

---

(١) اطلق عليها اتفاقية الجنتلمان « Gentelman's Agreement »

وعندما قامت الحرب العالمية الاولى ، استطاعت اسبانيا أن تفلت من الزج بنفسها فيها ، ولكن عزلتها عن بقية الدول الاوروبية اثناء الحرب وفي اعقاب الحرب زاد من متاعبها الاقتصادية والاجتماعية ، اضف الى ذلك أن البلاد اثناء الحرب العالمية كانت على اهبة الاستعداد للطوارىء خوفاً من الغزو المحتمل ، مما ادى الى ازدياد نفوز رجال الجيش وعلى الاخص في الخمس سنوات التي تلت الحرب .

وفي هذه السنوات بالذات ، جابهت اسبانيا حرباً في الريف الاسباني في مراكش . وهي الحرب التي قادها الزعيم محمد بن عبد الكريم الخطابي[1] لتطهير البلاد من الاحتلال الاسباني الذي تميز بالعنف والقسوة والفساد والعجز . وقد نجح في مقاومة القوات الاسبانية التي جندتها حكومة مدريد ضده .

وقد أخذ الملك « الفونسو » على عاتقه أن يعمل على انهاء الثورة الريفية بقوة السلاح ، الا أن القوات الاسبانية التي حملت على عبد الكريم منيت في عام ١٩٢١ بأشنع كارثة عسكرية ، عندما وقع حوالي ٢٠،٠٠٠ جندي اسباني في كمين نصبته له القوات المراكشية حيث قتل منهم حوالي ١٢،٠٠٠ . وكان لوقع هذه الهزيمة أثرها الفاجع في اسبانيا حيث خلقت ازمة داخلية حادة في البلاد . فقد طلب الرأي العام بوجوب محاكمة المسئولين عن الكارثة ، وكون البرلمان لجنة برلمانية لتحري اسباب تلك المأساة . على أن الحكومة صادرت

(١) محمد بن عبدالكريم من قبيلة ورغايل الريبة ، كان والده زعيماً نافذ الكلمة ، له لمراء تقدمية على غير المألوف في بيئته ، فقد أرسل أحد اولاده الى معهد التعدين في مدريد للدراسة ، أما الأكبر وهو الذي اصبح بطلا قومياً فقد ارسله الى (القرويين) حيث درس الشريعة ، ولما عاد عين لمدة قصيرة ليعلم الموظفين الاسبانيين اللغة البربرية ، وقد اشتغل أوقات فراغه ليتعلم الاسبانية والفرنسية . وقد سجنه الاسبانيون عام ١٩٢١ اثر شجار جرى بينه وبين أحد الضباط الاسبان ، وقد تمكن من الفرار من السجن وبدأ في الحال بتنظيم حملته الحربية ضد الاحتلال الاسباني .

تقرير اللجنة ومنعت نشره ، وقيل أن التقرير قد حوى فضائح واتهامات لم يسلم منها الملك الفونسو نفسه .

وعندما احتج البرلمان والصحافة والجمهور على قرار الحكومة بمصادرة التقرير وطالبوا بوجوب توقيع العقاب على المسئولين ، اسقط في يد الملك وحاول أن يحبط تلك المحاولات بالبحث عن مخرج من الازمة ، فوافق على تكوين حكومة عسكرية دكتاتورية وذلك عندما اطاح الجنرال « بريمو دي ريفييرا « Primo de Rivera » بالحكومة القائمة (ايلــول ۱۹۲۳) ، مستعيضاً عنها بدكتاتورية عسكرية فرضت الاحكام العرفية على البلاد ، ونصب نفسه دكتاتوراً عسكرياً على البلاد .

وكان بريمو دي ريفييرا من العسكريين المعروفين فقد سبق له ان خدم في القوات الاسبانية في كوبا والفلبين أثناء الحرب الاسبانية الامريكية ، واشترك في الحروب الاسبانية في مراكش ، وبعد عام ١٩١٥ عمل كحاكم عسكري في عدة اقاليم اسبانية ، وعندما قام بالانقلاب الاخير كان يتقلد منصب الحاكم العسكري في برشلونه .

وقد سلك لأول وهلة مسلك الدكتاتور ، فقد امر بحل البرلمان ومصادرة حرية الخطابة والصحافة والغى المحاكم المدنية ، وارسل الى المنفى الزعماء الجمهوريين وأحكم الرقابة على المعارضة في البلاد ، واستولى على الوثائق التي استخدمتها لجنة التحرى البرلمانية والتي تدين القواد العسكريين في الكارثة الحربية التي حاقت بالجيش الاسباني في مراكش .

ظل دى ريفييرا يحكم اسبانيا بالحديد والنار لمدة عامين مما أثار الرأي العام ضد الدكتاتورية العسكرية بل وضد الملك الفونسو نفسه وضد الملكية بوجه عام . وبعد عام ١٩٢٨ كانت البلاد تغلي بالسخط والحقد ، وحدثت أحداث كانت تنبيء بوقوع انفجار كبير ، ففي عام ١٩٢٩ انتشر العصيان في الجيش وقام طلاب الجامعات وطبقات العمال بالمظاهرات واحداث

الشغب ، وأدى ذلك الى زعزعة مركز « بريمودى ريفييرا » بين جميع طبقات الشعب ، واعتقد زعماء الحركة أن النظام الجمهوري هو الحل الوحيد للتخلص من فساد الحكم في ذلك العهد . وقد كانت الثورة ضد نظام « دى ريفييرا صدمة قوية أثرت احداثها على صحته ، ووجد نفسه فاقداً لثقة الشعب والجيش والملك ، فأعلن استقالته فجأة في ٢٨ يناير ١٩٣٠ وغادر البلاد حيث قضى نحبه في ١٦ مارس بعيداً عن وطنه .

أما الملك الفونسو الثالث عشر فقد اضطر الى الانحناء للعاصفة وأمر باعادة العمل بالدستور القديم الذي صدر عام ١٨٧٦ ، واجابة مطالب طلاب الجامعات واساتذتها ، بالعفو عن المسجونين السياسيين ، واجراء انتخابات حرة وأمينة حتى يتهيأ للبلاد برلمان وطني يمثل الشعب حق التمثيل .

وفي فبراير سنة ١٩٣١ صدر المرسوم باجراء الانتخابات في شهر مارس . وانتهزت الاحزاب الجمهورية الفرصة فجعلت من الانتخابات وسيلة لاستفتاء الشعب بين الملكية والجمهورية . وقد أدت تلك الحملات الانتخابية الى نجاح المرشحين الجمهوريين في اغلب المدن وعلى الأخص في مدريد وبرشلونه . وكانت تلك النتيجة الكاسحة صدمة كبرى للملك ، اذ أدرك أن التيار اصبح جارفاً ضد الملكية ، فلم يحاول الصمود أو مقاومة التيار ، وغادر اسبانيا دون أن يعلن تنازله عن العرش على أمل أن الفوضى سوف تضرب اطنابها في البلاد ، وأنهم سوف يستدعونه في يوم من الايام . الا انها كانت القاضية ، وعاش الفونسو الثالث عشر في المنفى بفرنسا الى أن مات عام ١٩٤١ .

الجمهورية :-

لقد كان من السهل اعلان الجمهورية ، ولكن لم يكن من السهل عودة النظام والاستقرار ، اذ كانت اسبانيا تعاني من الانقسام وتنافس الزعماء والاحزاب على الاستئثـــار بالحكم ، وفشل المجلس التشريعي المنتخب (الكورتيس Cortes) الذي اجتمع في يوليه ١٩٣١ في تفسير النظام الجديد

واقامة حكم جمهوري يتلاءم مع مطالب الشعب فقد كانت هناك تكتلات متناقضة في افكارها ومشروعاتها ، فاليساريون يطالبون بالقيام بثورة اجتماعية جذرية ، والأحرار المعتدلون بقيادة الزعيم مانويل أزانا (Azana) يمليون الى الاصلاح ويعتقدون أن اسبانيا في أشد الحاجة الى الاستقرار ، وكان هناك حزب الاكليريكيين الذين قبلوا النظام الجمهوري ظاهرياً بينما كانوا في داخلية أنفسهم لا يحبون ذلك النظام .

زامورا : رئيس الجمهورية المؤقت

كان زعيم حركـة الانقلاب ضد الملكيـة « نكيتو الكالا زامـورا » وهو الزعيم الجمهوري وهو الذي وجه انذاراً الى الملك الفونسو بالتنازل عن العرش ولم يسع الملك الا أن ينحني للعاصفة فغادر اسبانيا دون أن يوقع وثيقة رسمية بالتنازل عن العرش .

وما لبث زامورا أن أعلن قيام الجمهورية ، ونادى بنفسه رئيساً مؤقتاً لها ، وألف حكومة مؤقتة من أعضاء معتدلين ينتمون إلى الاحزاب الجمهورية ممن يدينون بالاشتراكية ، وسارعت تلك الوزارة الى تخطيط برنامجها لمواجهة مطالب الفئات المختلفة التي ساعدت على تحطيم الملكية في اسبانيا ، وعلى الاخص اولئك الذين استنكروا امتيازات الكنيسة وتدخلها في شئون الدولة ، وكذلك الجمهوريون الذين كانوا ينادون بوضع دستور يقوم على مبادىء الديموقراطية بحيث لا يترك مجالاً لرجال الجيش للتحكم في مصير الشعب أو يتسلطوا على السلطات المدنية ، والاشتراكيون الذين يتطلعون الى وضع نظام اجتماعي واقتصادي جديد للدولة ، وأخيراً جماعة اللامركزية الذين يريدون القضاء على مركزية الحكم في العاصمة وينادون باقامة الحكم المحلي في البلاد .

لذلك أعلنت الحكومة الاسبانية المؤقتة ضمان الحرية الدينية والمدنية وحماية حقوق الملكية الخاصة ، وأفرجت عن المعتقلين السياسيين ودعت

جميع المنفيين الى العودة الى اسبانيا ، والغت الألقاب ، واعتقلت عدداً من الموظفين الذين يؤيدون النظام الملكي ، وأعلنت عن عزمها على القيام بمشروعات للإصلاح الزراعي يكون من شأنها ادخال أحدث النظم في الزراعة والري ، ووعدت باجراء انتخابات لتكوين جمعية لتكون برلماناً « Constuent Assembly » يتألف على أحدث النظم الدستورية .

وتمت الانتخابات في يونيه سنة ١٩٣١ ، وهي الانتخابات التي جاءت باغلبية من الجمهوريين اليساريين والاشتراكيين ، وسرعان ما بدأت الجمعية في عملها وأصدرت الدستور الاسباني الجديد (ديسمبر ١٩٣١) الذي أعلن قيام « جمهورية العاملين من جميع الفئات » ، وأصبح حق التصويت لكل مواطن ومواطنة فوق سن الثالث والعشرين من العمر . وانشاء مجلس النواب الذي كان يدعى بالكورتيس (Cortes) ، ينتخب اعضاؤه لمدة اربع سنوات بطريقة التصويت العام .

وأما السلطة التنفيذية ، فكانت في يد حكومة مسئولة امام البرلمان وهكذا اصبحت اسبانيا من الناحية السياسية جمهورية ديموقراطية برلمانية ، وأصبح الشعب يتمتع بالحرية الدينية ، ولم تعد الحكومة تتأثر بنفوذ رجال الدين ، وظهر أثر ذلك في نظام التربية والتعليم . وأصبح من حق الدولة أن تصادر — بغير التزام بدفع اي تعويض — جميع أنواع الملكيات الخاصة ، وتأميم ما تراه من المرافق لمصلحة الشعب ، وبالجملة فقد اصبحت ثروة البلاد في خدمة الاقتصاد الوطني وانتقلت اسبانيا من دولة اقطاعية الى دولة حديثة تحاول تطبيق الاشتراكية .

زامورا رئيس الجمهورية

وقد نال زامورا ثقة الشعب فانتخب رئيساً للجمهورية (١٠ ديسمبر ١٩٣١) ، وانتقل الى قصر الفونسو الثالث عشر ، واستقالت الحكومة المؤقتة وتكون مجلس وزراء جديد برئاسة الزعيم « مانويل أزانا » الذي أعلن

عزم حكومته على السير في طريق الثورة لتستكمل البلاد تحقيق آمالها .

الاصلاح الديني والاجتماعي :

وفي يناير ١٩٣٢ تقرر حل نظام الجزويت ومصادرة املاكهم التي كانت تقدر بثلاثين مليوناً من الدولارات لمصلحة الشعب . وفي مايو ١٩٣٣ صدر قانون ينص على أن تكون الرئاسة الدينية لمختلف الفئات للمواطنين الاسبان دون غيرهم وأن تخضع السلطة الكنائسية للقانون الاسباني والغيت المدارس التابعة مباشرة للكنائس ، ومنع رجال الدين من ممارسة التعليم فيها ، وتقرر تأميم املاك الكنيسة .

وقد احتج البابا على هذا الاجراء واصدر احتجاجاً شديد اللهجة استنكر فيه فصل الكنيسة عن الدولة وحرمانها من فتح مدارس خاضعة للنظم الدينية القديمة .

ثم بدأت الحكومة في اصدار تشريعات لمصلحة العمال والفلاحين وصادرت ضياع اصحاب الاقطاع بدون دفع تعويض لهم ، واستولت على حوالي خمسين مليون فدان من الارض التي استولى عليها الملك قبل قيام الثورة واتخذت الاجراءات لتوزيعها على الفلاحين . لذلك اشتد عداء الفئات التي حرمتها الثورة من ثرواتها وامتيازاتها كالملكيين ورجال الدين والطبقة الارستقراطية الذين كانوا يتطلعون الى معجزة ولو من الخارج تقضي على الجمهورية وتعيد النظام الملكي القديم ، ولم يكن هؤلاء وحدهم أعداء للنظام الجمهوري الجديد ، بل كانت هناك فئة يسارية متطرفة ترى أن الثورة يجب الا تنتهي عند هذا الحد ، بل يجب ان تجنح نحو اليسار المتطرف فتقوم في اسبانيا حكومة شيوعية تتبع نظام الحكم في الاتحاد السوفييتي ، ولذلك لم تسلم الحكومة من محاولات لقلب نظام الحكم قام بها الملكيون تارة والشيوعيون تارة اخرى في عامي ١٩٣٢ و ١٩٣٣ .

وعندما حلت انتخابات عام ١٩٣٣ ، أنهزمت الاحزاب اليسارية

المعتدلة التي ظلت في كراسي الحكم منـــذ قيام الجمهورية ، وتعاقبت على الحكم وزارات من الاحزاب المعتدلة تحاول الابتعاد عن المعسكر اليساري فألغت كثيراً من الاجراءات التي فرضتها الحكومة السابقة ، فأعادت بعض الامتيازات لرجال الدين ، وسمحت لكثير من الاقطاعيين باستعادة اراضيهم ، وتحسنت العلاقة بين اسبانيا والفاتيكان .

الخطر على الثورة :

عندئذ أحس زعماء الاحزاب اليسارية بأن الجمهورية تتعرض للخطر وان سياسة الحكومة ربما تنتهي بان تحكم اسبانيا فئة تكره الحكم الجمهوري وتعمل على اعادة الملكية ، وفي الوقت نفسه ضعف ايماء هؤلاء اليساريين بالحكم البرلماني . وقرر عدد من زعمائهم العمل على تغيير الاوضاع في البلاد .

حكومة ليرو الثورة (اكتوبر ١٩٣٤)

وسرعان ما اندلعت الثورة التي اتسمت بالمبادىء الشيوعية في اكتوبر سنة ١٩٣٤ ، الا أن الحكومة سارعت الى القضاء على الحركة في مدريد وفي المدن التي حوالت تأييد اليسار وعلى الاخص في « استرياس **Austurias** »

ومع أن الحكومة قد نجحت مؤقتاً في اخماد الثورة الا انها لم تستطع أن تحسم الخلاف والمعارضة الشديدة لنظام الحكم ، فقد انتهز اليساريون فرصة غضب الشعب وقسوة المعاملة التي عاملت بها حكومة « ليرو »— (**Lerrouy**) خصومها أثناء ثورة أوسترياس فانحوا باللوم والتقريع على الحكومة واندمجت أحزابهم في جبهة واحدة اطلقوا عليها « الجبهة الشعبية » . وارتكب عدد من رجال حكومة « ليرو » فضائح مالية أودت بسمعة الحكومة واضطر رئيسها الى الاستقالة وتولى رئاسة الوزارة بعده رئيس بلا اتباع ، ولم يكن هو نفسه عضواً في مجلس الكورتيس .

ورأى رئيس الجمهورية ان يجري انتخابات جديدة عام ١٩٣٦ بقصد

البحث عن مخرج من حالة الفوضى السياسية التي وصلت اليها البلاد . ومع ذلك فقد وضعت نتيجة الانتخابات البلاد في موقف أشد سوءاً مما كانت عليه من قبل فقد وضعت الفريقين المتعاديين وجهاً لوجه دون أن يحرز أحدهما أغلبية ساحقة[1] .

عودة أزانا الى الحكم رئيساً للجمهورية :

وأول نتيجة من نتائج تلك الانتخابات كانت عودة «أزانا» الى رئاسة الوزارة ، ولكنه عجز عن الفوز بتأييد اليساريين المتطرفين .

وفي الوقت نفسه ، اشتد حنق الجبهة الشعبية على «زامورا» رئيس الجمهورية واتهموه بالضعف ، وكان من نتائج حملتهم عليه ان تولى رئاسة الجمهورية بعده الزعيم «آزانا» واشتدت الفوضى التي رفع لواءها النقابيون والشيوعيون . واقتتل الناس في شوارع مدريد وعجزت الحكومة عن حفظ النظام ومنع الاعتداءات على الأرواح وهدم الكنائس ودور الصحف وقتل الخصوم . واصبحت اسبانيا في يوليه ١٩٣٦ على أبواب حرب أهلية طاحنة .

الحرب الأهلية (١٩٣٦ — ١٩٣٩)

كانت اقالة «زامورا» من رئاسة الجمهورية في ابريل سنة ١٩٣٦ وانتخاب «آزانا» بدله بداية عهد من الخلافات الطاحنة بين مختلف الجهات ، فقد كثرت الاضطرابات وأعمال العنف قام بها أنصار اليمين واليسار على السواء واضطرت الحكومة أن تتخذ أشد الاجراءات ضد خصومها ، ولما كانت عناصر الجيش هي أشد ما كانت تخشاه الحكومة من خطر عليها فقد

---

(١) كانت نتيجة الانتخابات كما يلي :
الجبهة الشعبية ٤٫٣٥٦٫٠٠٠ صوتاً ، و ٢٧٠ مقعداً .
احزاب الوسط ٤٤٩٫٠٠٠ صوتاً ، ٦٠ مقعداً .
احزاب اليمين ٤٫١٢٨٫٠٠٠ صوتاً ، و ١٤٠ مقعداً .

اصدرت أمراً باحالة جميع الضباط الذين يشتغلون بالسياسة الى التقاعد ونفت البعض الآخر الى اماكن بعيدة وكان من بين اولئك المبعدين الجنرال « فرانشكو فرانكو » الذي كان قائداً للفرقة الاجنبية الاسبانية التي كانت تعمل في مراكش ، وقد تقرر نفيه الى جزر كنارى . وهكذا اكثر عدد الضباط المغضوب عليهم في داخل البلاد وخارجها ، لذلك كانت الجمهورية مهددة في اي وقت بالاخطار .

لقد كان واضحاً أن الجمهورية نجحت لأن الشعب اجمع في عام ١٩٣١ على قيامها ليتخلص من حكم اقلية صغيرة تتكون من فئة من العسكريين ، وفئة من الاثرياء اصحاب الضياع الواسعة ، واصحاب المصانع من الرأسماليين ولما تأسست الجمهورية كان الشعب يدرك أن أول هدف للثورة هو تحطيم تلك الفئة التي تحكمت في مصير البلاد ومصادرة ثرواتهم ، وكان الشعب الاسباني يظن أن ذلك الهدف سوف يتحقق سريعاً ، ولكن الحكومة القائمة رأت أن تأخذ الامور بهوادة وتؤدة ، حتى نفذ صبر الفلاحين والطبقة العاملة . كذلك حاولت الحكومة أن تأخذ طريقاً وسطاً بين الاحزاب اليسارية وأحزاب اليمين . وأخيراً فان المتطرفين من كلا الفريقين أصبحوا يرون أن الحل الوحيد لتحقيق أهدافهم هو استخدام القوة . وسرعان ما صارت البلاد على شفا حرب اهلية خطيرة وطاحنة .

بداية الحرب الأهلية ١٧ يوليه ١٩٣٦ :

وتتابعت الأحداث العنيفة تمهد لتلك الحرب ، ففي منتصف يونيه سنة ١٩٣٦ ، هاجم الحكومة زعيم من دعاة الملكية اسمه « جوزيه كالفوستيلو » متهماً اياها بالضعف وأنذرها بأن الجيش قد نفذ صبره أمام ضعفها عن صد التيارات اليسارية ، وفي الوقت نفسه أخذ اليساريون يعدون العدة لاحداث انقلاب شيوعي[١] .

---

(١) وفي ١٣ يوليه ١٩٣٦ قتلت شرطة المدينة الزعيم الملكي كالفوستيلو رداً على قتل احد ضباطهم ويدعى كاستيلو .

ثورة فرانكو :

وقد بدأت الحرب الاهلية في ١٧ يوليه ١٩٣٦ عندما قامت عدة فرق اسبانية كانت ترابط في مراكش بحركة عصيان ، قادها الجنرال فرانكو الذي غادر جزر كنارى الى مراكش ليرأس الثورة هناك ، وقد ساعد وجوده على أن ينضم الى الثورة عدد من رجال الجيش ، والفرقة الأجنبية وبعض المغاربة .

وفي الوقت نفسه كانت تقوم في اسبانيا حركة عصيان مماثلة ضد الحكومة حيث حاول بعض قواد الجيش احداث انقلاب لمصلحة الملكيين ، واستعد زعيمهم جوزيه — سانجورو — الذي كان منفياً في البرتغال — للذهاب إلى اسبانيا ليرأس تلك الحركة ، ولكن سقطت به الطائرة بالقرب من لشبونه . وعندئذ اصبح فرانكو في نظر اعداء الحكومة هو الزعيم الاوحد الذي وضعوا فيه آمالهم لاسقاط نظام الحكم ، وانضم اليه خليط من الساخطين على الحكومة من ضباط عسكريين وبحريين ، وأغلبية من جنود الجيش ، وفرق المغاربة ، وعدد كبير من المدنيين المحافظين ، ثم الفاشست ، والملكيين ، وفريق ممن يعطفون على قضية الكنيسة ثم انضم الى هؤلاء آلاف من المتطوعين المدربين الذين وفدوا على اسبانيا من ايطاليا والمانيا وايرلنده الحرة . اما الحكومة القائمة فلم يكن لها انصار سوى فريق صغير من رجال القوات المسلحة ولذلك كان عليها ان تبحث لها عن انصار من بين العمال والفلاحين ، وبعض المتذمرين الذين ساءهم اعتماد فرانكو على المغاربة الذين اتى بهم ليحاربوا الاسبان في اسبانيا . كذلك وفد على اسبانيا لمساعدة الحكومة القائمة في مدريد آلاف من المتطوعين الاجانب وعلى الاخص من الاتحاد السوفييتي وفرنسا والولايات المتحدة حيث تكونت منهم فرق محاربة .

وكان انصار فرانكو يهدفون الى احراز نصر سريع من خلال خطوات ثلاثة : الاستيلاء على مراكش الاسبانية ، والاستيلاء على عواصم الاقاليم ،

و اخيراً اسقاط الحكومة في مدريد .

وقد نجحت الثورة في تحقيق الهدف الاول ، أما الهدفين الاخيرين فكان من الصعب تحقيقهما نظراً للمقاومة الشديدة التي ابداها انصار الحكومة الا أن المقاومة لم تطل واضطرت حكومة مدريد أن تغادر العاصمة وتنقل مقرها الى مدينة « فالنسيا » وذلك عندما اقترب الثوار من ضواحي مدريد . وسرعان ما اعترفت كل من المانيا وايطاليا بحكومة فرانكو التي اسسها في مدينـــة برجوس (Bvrgos) .

وكان على رأس الحكومة اذ ذاك الزعيم الاشتراكي فرانشسكوكابالير و « Capallero » ، وضمت وزارته عدداً من الاشتراكيين والشيوعيين لاول مرة ، ورغم الجهود التي بذلتها الحكومة في تنظيم الدفاع عن مدريد ، الا انها لم تستطع وقف تقدم الجنرال فرانكو الذي اصبحت قواته على ابواب مدريد .

ولما رأت حكومة الاتحاد السوفييتي مدى المساعدات التي تقدمها كل من ايطاليا والمانيا الى « فرانكو » ، رأت ان تقوم هي من جانبها بتقديم يد المعونة الى حكومة مدريد رغم أنها لم تكن شيوعية على الاطلاق . وسرعان ما اتخذت الحرب الاهلية الاسبانية مظهراً دولياً وصراعاً ايديولوجياً بين المبادىء الاوروبية المختلفة ، أو بعبارة أخرى بين الشيوعية وأعدائها حتى أصبح أنصار الحكومة بعد نشوب الحرب الاهلية يطلق عليهم « الحمر » بينما كان أنصار فرانكو يطلق عليهم « الفاشست » .

ولم يتردد الفريقان المتخاصمان في طلب المعونة من الخارج ، ففي ١٩ يوليه ارسلت خكومة الجمهورية تطلب النجدة من فرنسا ، وفي اليوم التالي كان رسل « فرانكو » في طريقهم الى المانيا وايطاليا ليطلبوا العون من هتلر وموسوليني .

وقد تمكن فرانكو بفضل الطائرات التي أمدته بها كل من ايطاليا وألمانيا

من نقل قواته المرابطة في مراكش ، وكان بعضها من المغاربة المراكشيين . وكان سالازار رئيس دولة البرتغال الدكتاتورية خصماً لحكومة الجمهورية في اسبانيا ولذلك جعل البرتغال قاعدة تستخدم ضدها .

اما موسوليني وهتلر فقد بررا تدخلهما في الحرب الاهلية الاسبانية بأنهما يعملان ضد المبادىء الشيوعية وذلك على الرغم من أن الحكومة الجمهورية لم تكن شيوعية أصلاً ، ولكن الواقع أن ستالين أراد أن يقوي ساعد الشيوعيين الاسبان فأثار بذلك ثائرة هتلر وموسوليني .

وقد كانت الحكومة الفرنسية تخشى ان يؤدي التدخل الاوربي في اسبانيا الى قيام حرب عالمية ثانية ، فاقترحت في ٢ اغسطس ان تتفق كل من ايطاليا وفرنسا وبريطانيا رسمياً على عدم التدخل في اسبانيا . ولم يكن لعصبة الامم أي دور في المسألة الاسبانية ، فقد كانت المانيا النازية قد غادرت العصبة الى غير رجعة ، وكذلك كانت ايطاليا في طريقها الى الخروج منها بعد غزو الحبشة . ولذلك ضاعت صيحات المندوب الاسباني سدى في عصبة الامم .

وبعد أن كانت مساعدات روسيا لحكومة اسبانيا قاصرة على ارسال المعونات الغذائية والمواد الخام ، بدأت منذ منتصف اكتوبر ١٩٣٦ في ارسال المعونات العسكرية . وأخذ الكومنترن يعد العدة لارسال فرق دولية للاشتراك في الحرب الاسبانية ، ووصلت تلك الفرق المتطوعة التي تضم جنسيات شيوعية مختلفة الى مكان في منتصف الطريق بين مدريد وفالنسيا حيث وضعت تحت قيادة الشيوعي الفرنسي « مارتى Marty » ، واعلن « ستالين » أنه على الدول الفاشستية ان تمتنع عن ارسال الاسلحة الى اسبانيا وتحترم مبدأ عدم التدخل .

وفي أول اكتوبر أعلن فرانكو نفسه رئيساً للدولة في برجوس (Burgos) واعترف كل من هتلر وموسوليني بحكومته في ١٨ نوفمبر ، معتقدين أن سقوط مدريد اصبح وشيك الوقوع ، الا أن المساعدات الروسية التي تدفقت

على حكومة مدريد — ومنها الطائرات — أنقذت مدريد من السقوط العاجل رغم المساعدات التي تدفقت على قوات فرانكو من دولتي المحور .

ومما هو جدير بالذكر أن « هتلر » لم يتحمس كموسوليني للعمل على احراز نصر سريع حاسم لفرانكو بل كان يتمنى أن تطول الحرب الاسبانية الاهلية الى أجل غير مسمى لأن ذلك يتلاءم مع مشروعاته المستقبلة ويشغل الدول المعادية التي يهمها مستقبل اسبانيا .

وقد لعبت البحرية الانجليزية والفرنسية دوراً كبيراً في المياه الاسبانية ، وكانت الغواصات الايطالية تحاول في البحر المتوسط اغراق السفن التي تحمل المساعدات للجمهوريين . وقررت الحكومتان الانجليزية والفرنسية في سبتمبر ١٩٣٧ استخدام اساطيلهما لمنع ما سموه بالقرصنة . وقد نجحت البحرية الانجليزية والفرنسية في هذا السبيل . وقد وضع « ايدن » وزير الخارجية البريطانية اذ ذاك خطة لاحكام السيطرة البحرية الانجليزية حول اسبانيا ، الا أن سير صمويل هور وزير البحرية عارض ذلك المشروع رغم موافقة بولدوين وهاليفاكس . وكان ذلك بعد الاتفاقية الانجليزية الايطالية (يناير ١٩٣٧) التي ظنت بريطانيا أن ايطاليا سوف تسحب بموجبها المتطوعين الايطاليين من اسبانيا . والواقع أن كل مجهود بذل في سبيل منع التدخل لم يسفر عن نتيجة حاسمة . واصبح الصراع الدولي في اسبانيا يدور بين الديموقراطية والفاشستية ، رغم أن حكومة الجمهورية لم تكن حكومة ديموقراطية حقة ، بل كانت الى حد كبير واقعة تحت النفوذ الشيوعي حيث يمدها الاتحاد السوفييتي بالاسلحة . ومن جهة أخرى فان الثوار — رغم عدائهم السافر للديموقراطية — كانوا لا يريدون ربط مستقبل اسبانيا في عجلة دول المحور .

وفي مارس ١٩٣٧ حدث أول اشتباك حربي كبير بين المعسكرين الاسبانيين ، ففيه قام المتطوعون الايطاليون — وهم في الواقع من الفرق العاملة في الجيش الايطالي — بهجوم كبير لمساعدة فرانكو على الاستيلاء

على مدريد ، ولكن قوات الحكومة صمدت امام الهجوم وردته على أعقابه ، فلم يسع فرانكو الاأن يهاجم المنطقة الشمالية في (باسك Basque) واستولى على ميناء (بلباو Bilbao) ، ولكنه لم يستطع دخول العاصمة ، وفي نهاية العام كان الفريقان يقفان موقف الدفاع ، يهيىء كل منهما نفسه للفرصة المتاحة عندما يتلقى مزيداً من المساعدات العسكرية الخارجية . وتدفقت المساعدات الى الثوار عبر البرتغال والى حكومة الجمهورية عبر فرنسا ، فقد تحمس سالازار دكتاتور البرتغال للجنرال « فرانكو » وتحمس « ليون بلوم » رئيس وزراء فرنسا للحكومة الجمهورية القائمة ــ وكانت اذ ذاك برئاسة « جوان نجرين Negrin » ولكن « بلوم » لم يستطع أن يسير في تحمسه الى حد بعيد ، فقد كان يخشى الأحزاب اليمينية في فرنسا . اما في بريطانيا فقد كان العمال في حزب المعارضة يميلون الى تأييد الحكومة الجمهورية التي يرأسها « نجرين » احد الزعماء الاشتراكيين المعتدلين . وتبلور موقف حكومة المحافظين ــ وكان يرأسها بلدوين ــ فاصبحت ترى من المصلحة عدم الانحياز الى فريق دون الآخر ، حتى لا يغضب الثوار الذين اعتقدت الحكومة البريطانية أن النصر سوف يعقد لهم وأن مآلهم الى الحكم ان عاجلاً وان آجلاً . وفي الوقت نفسه كان يرى عدم استثارة ايطاليا حتى لا تعطي « موسوليني » الفرصة للانضمام جهراً الى « هتلر » . ولذلك وافقت على اقتراح تقدمت به فرنسا لتكوين لجنة تكون مهمتها العمل على منع الدول الاجنبية من التدخل في الحرب الاهلية الأسبانية .

وعلى الرغم من كل تلك المجهودات الدولية الرسمية فقد فشلت اللجنة التي ضمت أعضاء يمثلون ستاً وثلاثين دولة في تحقيق فكرة « عدم التدخل » وظلت المساعدات تتدفق على الجانبين عبر البرتغال وعبر فرنسا . كذلك فشلت عصبة الامم في فرض حلول للموقف ، وفشلت ايضاً جهود الولايات المتحدة في هذا السبيل عندما اصدر الرئيس روزفلت أمراً بعدم تصدير الاسلحة او مواد التموين الى اي من الجانبين . ومع ذلك استمر تدفق

الاسلحة والمتطوعين .

على أن المساعدات التي تلقاها فرانكو فاقت تلك التي كانت تصل حكومة الجمهورية ، فقد اشتد ساعد فرانكو في ربيع عام ١٩٣٨ عندما بلغ عدد القوات الايطالية التي تعمل معه حوالي ١٠٠,٠٠٠ ، وكانت مسلحة باحدث الاسلحة الألمانية بينما كانت قوات الحكومة آخذة في الضعف .

وكانت أول ضربة وجهها « فرانكو » الى قوات الحكومة أن تقدم فاستولى على مدينة « ترول Terwel » ثم اتجه شرقاً نحو البحر ففصل بذلك قوات أعدائه الى قسمين . ثم والى ضرباته حتى سقطت برشلونه (يناير ١٩٣٩) ثم مدريد (مارس ١٩٣٩) وتم له النصر الحاسم وانتهت بذلك الحرب الاهلية في اسبانيا . واعترفت فرنسا وبريطانيا بحكومة فرانكو . وارسلت فرنسا المرشال بيتان « Petain » كأول سفير لها لدى النظام الجديد .

وأسس فرانكو حكومة كاثوليكية دكتاتورية أنزلت العقاب والانتقام بجميع معارضيها وخصومها السياسيين ، ولكنها لم ترتبط بالساسة النازية في المانيا ولا السياسة الفاشستية في ايطاليا . ولذلك فان الحرب الاسبانية الأهلية لم تؤثر في ميزان القوى الدولية في اوربا . وقد اعلن فرانكو حياد اسبانيا عندما حدثت ازمة تشكوسلوفاكيا عام ١٩٣٨ مما جعل هتلر يسخط على فرانكو الذي اعلن استقلال سياسته . وبقيت اسبانيا دولة محايدة اثناء الحرب العالمية الثانية ولكنها ظلت على عدائها للاتحاد السوفييتي .

على أن الحرب الاهلية قد دمرت اسبانيا وحطمت اقتصادياتها ، واشاعت الفرقة بين مواطنيها لمدة طويلة ولكنها على الصعيد العالمي كان لها آثار هامة . فقد نجح هتلر من الناحية الاستراتيجية أن يضعف مركز بريطانيا وفرنسا وأن يلهيهم بتلك الحرب عن مراقبة اطماعه في وسط اوربا ، وان يزيد من ارتيابهم في نيات الاتحاد السوفيتي ، ويمنع قيام جبهة انجليزية فرنسية ايطالية ضد المانيا . ولقد كان اول ثمار التعاون الألماني الايطالي في تأييد فرانكو أن

تم الاتفاق بين موسوليني وهتلر على تأسيس محور برلين – روما في اكتوبر ١٩٣٦.
وكانت الثمرة الثانية التي جناها هتلر هي ازدياد اعتماد ايطاليا على المانيا بعد ان تكبدت الاولى كثيراً من التضحيات والخسائر في سبيل فرانكو – وبعد ان وقفت كل من بريطانيا وفرنسا موقف المعارض لموسوليني عندما قام بحملته ضد الحبشة . ثم ازداد اعتماده على هتلر بعد زيارته لالمانيا في سبتمبر ١٩٣٧ حيث بهرته اذ ذاك قوتها العسكرية الضخمة . وفي ٦ نوفمبر انضم الدوتشي الى الميثاق الالماني الياباني الذي سبق ان وقعته الدولتان ضد روسيا في نوفمبر ١٩٣٦ .

* * *

الفصل العشرون

الحرب وفشل سياسة التهدئـــة

١٩٣٥ – ١٩٣٩

كان هتلر المسئول الاول عن إثارة الحرب العالمية الثانية ، وذلك على عكس دوافع الحرب العالمية الاولى ، التي قامت لأسباب كثيرة متعددة وحمل مسئوليتها عدد كبير من الشعوب . لقد قرر هتلر الحرب ، وحدد موعدها ، بعد ان وضع العالم خمس سنوات في اتون من الخوف والتهديد والوعيد ، اي من عام ١٩٣٥ الى عام ١٩٣٩ .

على ان المانيا لم تكن اول دولة بدأت العدوان بعد معاهدة لوكارنو بل كانت اليابان اول دولة إقدمت على العدوان المسلح في عام ١٩٣١ عندما هاجمت الصين وغزت منشوريا ، وبعد ست سنوات من هذا الغزو حاولت التوغل في أرض الصين مما ادى الى اتساع ميادين الحرب العالمية الثانية ووصولها الى المحيط الهادي ، وعجزت عصبة الأمم عن وقف التوسع الياباني مما عجل بسقوط العصبة .

ومع أن هتلر كان يخطب في الجماهير الألمانية شارحاً خطة التوسع الالماني ، فان احداً من الساسة الاوروبيين لم يفطن الى ان هتلر يعني ما

يقول سواء في خطبه النارية الشديدة اللهجة او فيما جاء في كتابه (كفاحي) ولكن في اكتوبر عام ١٩٣٣ القى هتلر اول قنبلة سياسية افاق على صداها اولئك الساسة الغربيين ، وذلك عندما أعلن انسحاب المانيا من مؤتمر نزع السلاح ، وكذلك من عصبة الأمم .

تخبط السياسة الغربية

وكان الصدى قوياً في فرنسا ، مما جعل وزير خارجيتها « لويس بارتو Partho » يفكر في العمل على اقامة سد ضد التوسع النازي بالاتصال بعدة دول في اوربا الوسطى والشرقية للتحالف مع فرنسا ضد العدو المشترك ، محاولاً إقامة تحالف تشترك فيه تلك الدول مع فرنسا . ولكن سياسة « بارتو » في العمل على تكتل الدول المعنية باءت بالفشل بعد مصرعه في حادثة الاعتداء على حياة ملك يوغوسلافيا (اكتوبر ١٩٣٤) . وتغيرت سياسة فرنسا التي بدأها « بارتو » عندما تولى « لافال » وزارة الخارجية في وزارة « فلاندان Flandin » فقد ضعف في ذلك العهد عزم فرنسا على مقاومة الضغط الالماني .

اعتقد ساسة فرنسا وانجلترا أنه لا بد من مرور وقت لتهضم الدول المعتدية فريستها ، ولكنهم — من ناحية أخرى — اضطروا الى العمل على وضع سياسة جديدة للتسلح لدرء الأخطار التي تهدد مصالح الدولتين . وعنيت بريطانيا على وجه الخصوص بتدعيم اسطولها البحري والجوي . أما فرنسا فقد حاول رئيس وزرائها « دلادييه » أن يقوي وسائل الدفاع عن البلاد ، ولكن معظم القواد العسكريين — فيما عدا الضابط الشاب شارل ديجول ، وكذلك معظم الزعماء السياسيين في فرنسا — كانوا مقتنعين بأن خط ماجينو الحصين ، الذي اقيم على الحدود الالمانية الفرنسية ، كفيل بصد أي عدوان الماني ضد فرنسا ، وكان على رأس المدافعين عن هذه النظرية القائد الفرنسي الكبير الماريشال بيتان . أما ديجول فكان يرى ان التطور في صناعة الدبابات

والطائرات المقاتلة وقاذفات القنابل لم يعد يجدي معه التحصينات التقليدية مهما كان حجمها وعمقها ، ومع ذلك فلم يصغ احد لهذه الآراء . وساعد على قصور فرنسا عن تطوير دفاعها تبعاً لنمو الأسلحة الهجومية الألمانية رواج النظرية التي تقول بأن هتلر وموسوليني سوف يهدآن بعد ان حققا أهدافهما ، فقد أعاد هتلر لألمانيا ما خسرته في معاهدة فرساي ١٩١٩ ، وحقق موسوليني أهدافه الاستعمارية التي كانت ايطاليا ترنو اليها في شمال وشرق افريقيا .

وعندما عين نيفل تشمبرلين رئيساً لوزراء بريطانيا خلفاً للمستر بولدوين (مايو ١٩٣٧) كان من رأيه أن هتلر وموسوليني أصبح لديهما من المشكلات الداخلية والاعباء الاقتصادية ما يشغل كلاً منهما عن المزيد من العدوان ، وانه لو استطاعت فرنسا وبريطانيا التفاهم معهما واتبعتا سياسة التهدئة إلى حين ، لكان ذلك سبيلاً الى تهدئة الموقف واعادة السلام .

غزو النمسا

بدأت تتضح سياسة هتلر منذ أن جمع بعض مستشاريه المقربين في ٥ نوفمبر ١٩٣٧ ، وأزاح لهم الستار عن مشروعاته المستقبلة ، مبيناً أن الخطوة الأولى التي سوف تخطوها المانيا هي تجميع المـــان اوربا جميعاً تحت حكم واحد وكان معنى ذلك ضم كل من النمسا وأرض السوديت .

وقد عارض الحلفاء منذ صلح ١٩١٩ اي رغبة أبداها بعض النمسويين الألمان في ضمهم الى الريخ الالماني ، وذلك لأن فرنسا كانت تخشى أي اتساع في حجم المانيا ، بل أن ايطاليا نفسها كانت تعارض ذلك المشروع وتفضل ان تحتفظ النمسا باستقلالها لأنها كانت تحرص على الا تصل حدود الريخ الالماني الى ممر برنر حيث تقوم الحدود بينها وبين النمسا ، ولكن بعد ان توصل

هتلر وموسوليني الى اتفاق محور روما – برلين في عام ١٩٣٦ ، تخلت ايطاليا عن معارضتها ، وكان عليها أن تؤيد هتلر في أي خطوة يخطوها في هذا السبيل .

ولم يعد في وسع فرنسا أن تؤثر في الموقف بعد أن اقدم هتلر على احتلال منطقة الرين المنزوعة السلاح . وما وافى عام ١٩٣٨ حتى اصبحت الفرصة سانحة لهتلر كي يضرب ضربته المتوقعة في النمسا .

وكانت الجمهورية النمسوية ، التي رسمت حدودها معاهدة جرمان سنة ١٩١٩ ، دولة غير مستقرة سياسياً واقتصادياً ، وعلى الرغم من القروض التي منحتها إياها الحكومتان الفرنسية والبريطانية ، لم تستطع النمسا ان تتفادى الانهيار الاقتصادي الذي منيت به عام ١٩٣١ ، هذا فضلاً عما كانت تعانيه من الناحية الاجتماعية نتيجة الصراع المرير الذي كان يدور بين المحافظين والاشتراكيين عام ١٩٣٤ ، مما فتح الباب للتدخل الأجنبي في شئون البلاد ، فكان هناك حزب نازي نمسوي تؤيده المانيا ، ويمده الحزب النازي في برلين بالمعونة المادية . وكان اعضاء ذلك الحزب ينادون بالانضمام الى المانيا . وكان من نتيجة التحريض الذي كان يمارسه هتلر ، أن ثار النازيون النمسويون واغتالوا المستشار النمسوي دلفوس (Dollfuss) الذي كان عدواً للنشاط النازي في النمسا وحريصاً على استقلال البلاد . ومع نجاح الاشتراكيين الوطنيين الذين يأتمرون بالأوامر النازية في اغتيال المستشار (دلفوس) إلا أنهم لم يستطيعوا الوصول الى الحكم .

وبعد مصرع « دلفوس » تولى الحكم الدكتور « شوشنج Schuschnigg » فلم يتخل عن سياسة سلفه في الحرص على استقلال البلاد ، حتى انه فكر في إعادة اسرة هابسبرج الى الملك في النمسا لعل في ذلك وقاية لها من الاتحاد مع المانيا النازية وضماناً لبقاء كيانها كدولة مستقلة . ولكن الظروف الدولية كانت ضد أي جهد يبذل في سبيل ضمان استقلالها فقد تم التقارب بين

موسوليني وهتلر ، وتخلت ايطاليا عن معارضتها في إدماج النمسا في الريخ الالماني .

كذلك لم تجد النمسا نصيراً لها في عصبة الأمم ، وتخلت عنها دول الحلفاء ، وكانت الصدمة الاولى يوم صرح الوزير البريطاني (جون سيمون) أمام البرلمان (٢١ فبراير سنة ١٩٣٨) بأن بريطانيا « لم يسبق لها أن اعطت النمسا أي ضمانات خاصة بصدد استقلالها ، لأن هذه الضمانات لم ترد إلا في معاهدتي فرساي وجرمان » وفي اليوم التالي صرح « تشمبرلين » رئيس الوزارة البريطانية بقوله « لا ينبغي أن نحاول تضليل أنفسنا ، ولا أن نخدع الشعوب الصغيرة الضعيفة في أن تضع آمالها في حماية عصبة الأمم لها من الاعتداء »[1].

وتم لهتلر ما أراد في ١٢ مارس ١٩٣٨ ، حيث أرسل قواته ودباباته لاختراق حدود النمسا التي سلمت دون قتال .

تشكوسلوفاكيا :

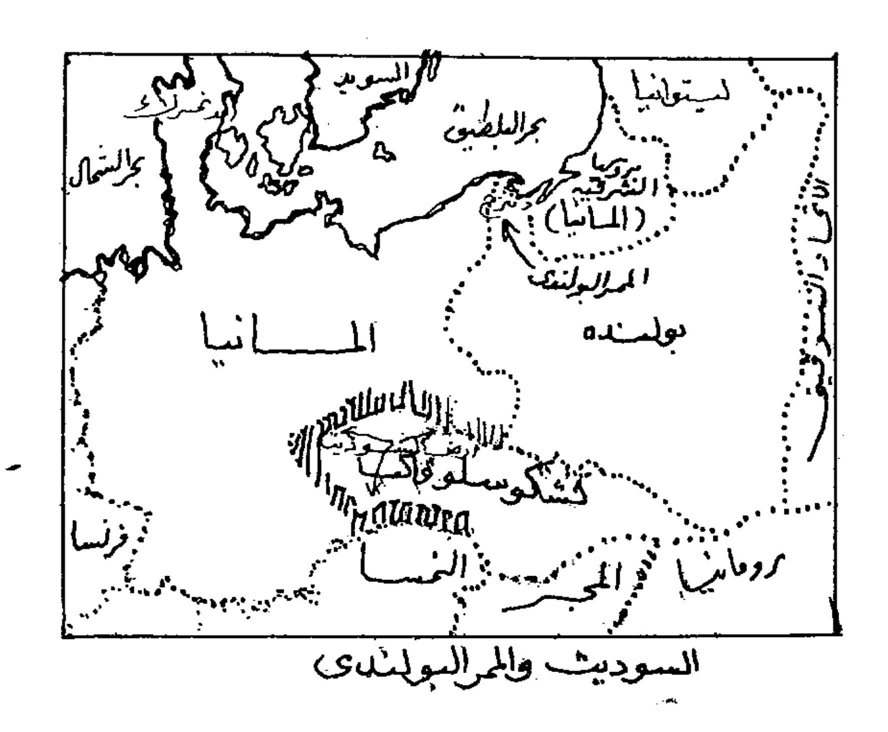
كان تشكوسلوفاكيا هي فريسة هتلر الثانية . وقد رأينا كيف تقدمت تشكسلوفاكيا بفضل الرئيس مازاريك ، حتى أصبحت نموذجاً طيباً للجمهورية الديموقراطية وقد كانت في سياستها الخارجية تميل الى تأسيس أوثق العلاقات مع جارتيها رومانيا ويوغوسلافيا ، اللتين عقدت معهما معاهدات الوفــاق الصغير « Little Entente » ، وكانت هذه الدول الثلاث تهتم إهتماماً بالغاً بالخطر المشترك الماثل أمامها تود كل منها أن تدفعه عن نفسها وهو إحتمال عودة أسرة هابسبرج ، فقد كان الأمل يراود تلك الأسرة بالعودة الى حكم المجر ، وعندئذ تكون الخطوة التالية ان تحاول المجر إستعادة حدودها القديمة قبل الحرب العالمية الاولى .

ولكن الموقف قد تغيّر ، وأصبح الخطر الماثل أمام تشكوسلوفاكيا

---

(١) جريدة التيمس عدد ٢٣ فبراير ١٩٣٨ .

هو مشكلة أرض السوديت « Sudetenland » وسكانها الألمان ، وهي المنطقة التي منحها مؤتمر الصلح في باريس لتشكوسلوفاكيا ، ويزيد عدد الألمان الذين يسكنون تلك المنطقة على حدود بافاريا وموررافيا على ثلاثة مليون . وكانوا يتمتعون بعدة امتيازات لا تنعم بها الاقليات في الدول الاخرى ، فلهم جامعاتهم ومدارسهم ، ولهم وزراؤهم الذين يمثلونهم في الحكومة التشكوسلوفاكية ، ولم يكن لديهم في المرحلة الاولى من تأسيس الدولة ما يشكون منه .



السوديت والممر البولندي

وظل الأمر كذلك حتى ظهر هتلر ووصل الى السلطة ونادى بضم جميع الالمان المتناثرين في الحدود الاجنبية الى الريخ الالماني ، وعندئذ تحركت الاحقاد بين التشك والمان السوديت الذين كانوا يكظمون غيظهم على مضض . وحاولت الحكومة التشكية إيجاد حل يرضيهم ويقضي على حالة التوتر التي

كانت تهدد بالانفجار ، واقترحت تكوين دولة اتحادية على نمط حكومة سويسره تقوم على التعاون التام بين أجناسها المختلفة ، ولكن كل محاولة من هذا القبيل كان مقضياً عليها بالفشل ، بعد ظهور الحزب الاشتراكي الوطني (النازي) في المانيا ، وسعي « هتلر » المتواصل لاثارة شعور جميع الالمان الذين ضمتهم حدود ما بعد الحرب العالمية الاولى وتحريضهم على القيام بالثورة على أوضاعهم ، والمطالبة بعودة أراضيهم إلى المانيا .

وظهر في تشكوسلوفاكيا في عام ١٩٣٥ حزب السوديت الالماني «Sudeten Deutsche » يتزعمه كونراد هنلين « Henlein » الذي كان على صلة قوية بالنازيين في المانيا . فطالب بالاستقلال الذاتي للسوديت ، وكان ذلك المطلب في الواقع تمهيداً للعدوان الالماني على تشكوسلوفاكيا ، بينما امتلأت صحف المانيا بوصف الاضطهاد والطغيان الذي تمارسه الحكومة التشكوسلوفاكية ضد (الاشقاء الالمان السوديت) ، وأخذت تكيل لها الاتهامات الخطيرة ، وتوترت العلاقات بين الحكومتين الالمانية والتشكوسلوفاكية حتى أصبح لا مفر من اكتساح المانيا لتشكوسلوفاكيا وقيام ازمة عالمية خطيرة ، وذلك لأن روسيا وفرنسا عليهما التزامات بوجوب المسارعة الى مساعدة تشكوسلوفاكيا إذا هاجمتها اية قوة معادية ، وعندئذ تضطر بريطانيا الى الاشتراك في الحرب مساعدة لفرنسا .

لذلك كان على الحكومة البريطانية أن تعمل بسرعة لتمنع الكارثة فبدأت بالاتصالات الدبلوماسية في كل من برلين وبراج ، وفي الوقت نفسه حذرت الفرنسيين (سراً) بأنها لن تتدخل إلا في حالة العدوان على فرنسا ذاتها . أما فرنسا فلم يكن في وسعها التخلي عن تعهداتها لتشكوسلوفاكيا وأعلنت أن التحالف معها لا يزال ساري المفعول في حالة العدوان على حليفتها .

وحاولت فرنسا أن تستشف موقف الحليف الروسي ، إلا أن روسيا كانت على استعداد للتدخل بشرط واحد ، هو ان تخترق قواتها الحدود البولندية ، او الرومانية الى ميدان القتال . وقد أعلنت بولنده رفضها القاطع

لتلك الفكرة وأنها لن تسمح للروس باختراق حدودها لأي سبب من الأسباب .
أما رومانيا فاعلنت أنها تسمح فقط بمرور الطائرات الروسية في أجوائها .
وقد القى ذلك الموقف العبء كله على فرنسا ، فأما أن تقوم منفرده بالمجابهة العسكرية الى جانب تشكوسلوفاكيا وأما ان تتبع السياسة اللينة التي تسير عليها حليفتها بريطانيا ، وهي المحافظة على السلام في اوربا بأي ثمن ، ولو على حساب الشعوب الصغيرة الضعيفة حتى ان تشمبرلين أشار الى تشكوسلوفاكيا بأنها « بلاد بعيدة لا نعرف عنها إلا القليل »[1] وهو وصف عجيب يصدر من رئيس وزراء بريطانيا ويوضح باجلى بيان مدى قصر نظر بريطانيا حينذاك وعدم تقديرها لخطورة الموقف .

أما في تشكوسلوفاكيا فقد زاد كل ذلك من تحمس السوديت الألمان بزعامة « هنيلن » حيث كان هتلر يؤيده ويشد ازره .

ازمة سبتمبر :

وفي ١٢ سبتمبر بدأت مسألة السوديت تخلق أزمة أوربية كبرى ، ففي ذلك التاريخ القى هتلر أعنف خطبة في الاجتماع السنوي للحزب النازي في نورمبرج ذكر فيها أن الألمان السوديت يرزحون تحت طغيان لا يحتمل تمارسه ضدهم الحكومة التشكوسلوفاكية ، وأن المانيا سوف تهب لحمايتهم .

وكان ذلك التهديد الصريح انذاراً كافياً باندلاع شرارة الحرب ومع ذلك فقد كان تشمبرلين لا يزال متعلقاً بخيوط واهية من الأمل في حفظ السلام تهدئة الموقف . لذلك نراه يتخذ خطوة غير عادية في مثل هذا الموقف المتفجر . فقد أعلن أنه على استعداد للذهاب إلى هتلر ومقابلته شخصياً .

---

(١) « A far away country about which we know little. René Abbrecht - Carrie ; A Diplomatic History of Europe P ; 523. »

وسرعان ما نفذ فكرته وطار – لأول مرة في حياته – لمقابله هتلر في مقره الجبلي في برختسجادن Berchtesgaden . وكانت لتلك المقابلة مقدمات .

* * *

لم تكن بريطانيا تريد الحرب ، ولا هي مستعدة لها في ذلك الحين ، بل كانت تعمل على مصالحة هتلر ومسالمته بكل الوسائل ، وقد تجلت تلك السياسة البريطانية في محاولة الحكومة البريطانية منذ عام ١٩٣٧ ، الوصول الى تفاهم مع الحكومة النازية ، عندما تقابل الوزير الانجليزي اللورد هاليفاكس مع هتلر في ١٩ نوفمبر سنة ١٩٣٧ في « اوبرسلتزبرج » « Oberzulzberr » بألمانيا بحضور وزير الخارجية الألمانية فون نيرات « Von Neurath » حيث اخذ هاليفاكس ينافق هتلر في الاجتماع (بأنه وزملاءه أعضاء الوزارة البريطانية يدركون مدى الانجازات التي حققها الفوهرر : فقد قضى على الشيوعية في بلاده وأقام دونها الحواجز التي منعتها من التسرب الى اوربا الغربية ، بحيث يحق للغرب أن يعتبر ألمانيا بحق حصن الغرب القائم ضد البلشفية » . وقد ذكر هاليفاكس في اجتماعه بهتلر أنه يصرح باسم نيفل تشمبرلين رئيس وزراء بريطانيا بأنه من المستطاع تماماً الاهتداء إلى حل أعقد المشكلات اذا تمكنت ألمانيا وبريطانيا من الوصول الى اتفاقية تجمعهما بفرنسا وايطاليا ايضاً . وقد رد هتلر على هذا الاقتراح البريطاني بأن اقتراح عقد اتفاق بين الدول الاربع – أي بريطانيا وفرنسا وألمانيا وايطاليا – يبدو سهلاً اذا كان الكلام يدور حول حسن النية والمجاملات الودية ، ولكن المسألة تتعقد عندما يتضح لألمانيا أنها «دولة تحمل وصمة العار المعنوية والمادية المزرية التي وصمتها بها معاهدة فرساي[1] »

وجاءت أزمة سبتمبر التي اعقبت خطبة هتلر ، واعتقد تشمبرلين أنه

---

(١) من وثيقة منشورة في سجلات وزارة الخارجيةالالمانية بتاريخ ١٩ نوفمبر ١٩٣٧ .

يستطيع آن يمنع الكارثة بالتفاهم شخصياً مع هتلر ، وهناك في برخستجادن أدرك أن الغزو الألماني لتشكوسلوفاكيا أصبح وشيك الوقوع » ما لم يمنح الماني السوديت حق تقرير المصير على وجه السرعة » وأن هتلر لن يتوانى عن اثارة حرب عالمية في سبيل تحقيق المطالب الألمانية .

وقد اوضح تشمبرلين رغبته في قبول ضم السوديت الى الريخ الألماني ، ولكنه مضطر لعرض الأمر على حكومته وكذلك على الفرنسيين ولذلك غادر المانيا على أن يعود مرة اخرى لمقابلة هتلر .

وفي مجلس الوزراء البريطاني ثارت بعض الاعتراضات ولكن المجلس وافق أخيراً على مبدأ ضم اراضي السوديت الى المانيا . وعندما عرض الأمر على الحكومة الفرنسية انقسم الوزراء ما بين مؤيد ومعارض كما انقسم ايضاً رجال الجيش والمستشارون العسكريون[1] ، ولكن تغلب الرأي البريطاني في النهاية وارسلت الحكومتان البريطانية والفرنسية مذكرة مشتركة الى الحكومة التشكوسلوفاكية جاء فيها أن « تدعيم السلام وتأمين مصالح تشكوسلوفاكيا الحيوية يقتضيان انتقال المناطق التي تسكنها أغلبية من الألمان السوديت الى الريخ الألماني ، وأن بريطانيا وفرنسا يتعهدان في هذه الحالة بتقديم الضمانات الدولية لحكومة تشكوسلوفاكيا عن التخوم الجديدة »[2]

وحاولت الحكومة التشكوسلوفاكية ان تصمد امام العاصفة وتستدر عطف الحلفاء لكي يظلوا في صفها ، وأعلنت أن قبولها لمثل هذه الاقتراحات يعد بمثابة تمزيق لأواصر الدولة طواعية واختياراً ، مما يؤدي الى تغييرات

---

(١) عندما اجتمع المجلس عارض بول رينو « Reynoud » ذلك الاقتراح بشدة، بينما وافق عليها وزير الخارجية مسيو بونيه « Bonnet » ، ومن العسكريين كان من رأى الجنرال جملان « Gamelin» عدم الخضوع لتهديد اتهتلر ، ولكن رجال الطيران أوضحوا مدى عجز القوات المسلحة الفرنسية عن المجابهة في الوقت الراهن .

(٢) Correspondence respecting Schoslovakia, September 1938 (London)

سياسية عميقة في جميع انحاء اوربا الوسطى وجنوبها الشرقي ، وعندئذ يختل توازن القوى في اوربا عامة .

على أن انجلترا وفرنسا كانتا لا تزالان عند رأيهما ، ونصحت بريطانيا حكومة تشكوسلوفاكيا أن « تسارع الى التبصر في الأمر بصورة جديـة وحاسمة » قبل أن تدهمها الحوادث والا فانها – اي الحكومة التشكوسلوفاكية– تصبح حرة في ان تتخذ ما تراه ملائماً للحالة التي قد تتهيأ فيما بعد » . وفي تلك الحالة ستجد نفسها تحمل العبء كله وحدها .

وهكذا تنكرت فرنسا للعهود التي قطعتها على نفسها بموجب تحالفها مع تشكوسلوفاكيا . وتمسكت بريطانيا بسياسة السلم والتهدئة ، ولم تجد تشكوسلوفاكيا بداً من الخضوع لرأي حلفائها (٢٢ سبتمبر ١٩٣٨) .

اتفاقية ميونيخ ونتائجها :

ومع كل الجهود التي بذلت في سبيل استرضاء هتلر ، فإن الأزمة ظلت قائمة كما كانت ، بل زادت حدة عن ذي قبل ، لأن أهداف هتلر لم تكن قاصرة على ما تقدمت به بريطانيا من مقترحات بشأن تقرير مصير السوديت ، فتقدم بمطالب متطرفة جعلت تشمبرلين يعود الى انجلترا خالي الوفاض .

وتأزمت الأمور بعد خطبة نارية القاها هتلر يوم ٢٦ سبتمبر وبدأت التعبئة في كل من ألمانيا ، وفرنسا ، وبريطانيا . واستعدت تشكوسلوفاكيا بقدر ما تسمح به قوتها العسكرية .

وفي ٢٨ سبتمبر رأى تشمبرلين أن يلقي بآخر سهم في جعبته ، فاقترح عقد اجتماع بين أقطاب الدول الاربعة ، بريطانيا وفرنسا وألمانيا وايطاليا .

وقد أيد موسوليني هذا الاقتراح وتبناه ، ولذلك قبله هتلر ، ومن ثم تم عقد الاجتماع في ميونيخ (٢٩ سبتمبر) ، وهناك تقابل هتلر وموسوليني وتشمبرلين ودلادييه . وبعد مفاوضات لم تستغرق أكثر من عدة ساعات

تم الاتفاق على أن تنزل تشكوسلوفاكيا في الحال عن الأقاليم التي تقطنها أغلبية كبيرة من الألمان ، وتجرى في اقاليم أخرى استفتاءات لتقرير المصير ، وتقوم لجنة دولية بتخطيط الحدود الجديدة بين المانيا وتشكوسلوفاكيا — وخسرت بذلك تشكوسلوفاكيا خمسة ملايين من سكانها وأكثر من ربع مساحتها .

وهكذا تعين مصير تشكوسلوفاكيا دون أن تشارك في تقرير مصيرها فقد ذهب ممثلوها الى ميونيخ دون أن يستدعي هؤلاء الى الاجتماع .

وكان لاتفاقية ميونيخ صدى اليم في معظم أرجاء العالم ، واعتقد الاتحاد السوفييتي أن بريطانيا وفرنسا تبذلان أقصى جهودهما لمصالحة هتلر في الغرب لكي يمارس نشاطه في الشرق ويوجه ضرباته الى الاتحاد السوفييتي بالذات حتى أن ستالين صرح اذ ذاك قائلاً « أن مناطق تشكوسلوفاكيا قدمت للالمان كثمن لتعهدهم بالشروع في الحرب ضد الاتحاد السوفييتي ، وما اتفاقية ميونيخ الا حلقة رئيسية في هذه السياسة التي ترمي الى توجيه الاعتداء الهتلري ضد روسيا ، وبعد ان اصبحت مناطق السوديت التشكية جزءاً من المانيا النازية انفتحت ابواب الشرق على مصراعيها امام أفواج هتلر المسلحة ».

وسارت سياسة التهدئة الى أبعد الحدود ، واصدر هتلر وتشمبرلين في ٣١ سبتمبر سنة ١٩٣٨ تصريحاً مشتركاً جاء فيه « لقد واصلنا اليوم مباحثاتنا وتوصلنا الى الاقتناع بأن العلاقات الانجليزية — الالمانية ، لها أهمية كبرى لسلام البلدين وسلام اوربا ، ونحن نعتبر أن الاتفاقية التي وقعت مساء الأمس ، والاتفاقية البحرية التي وقعتها بريطانيا والمانيا يعبران عن رغبة كلا الشعبين في عدم قيام حرب بينهما ، ونحن نعرب عن تصميمنا القاطع عن استخدام طريق التشاور في حل جميع المسائل التي تهم البلدين ، وأن نسعى في المستقبل لازالة اسباب الخلاف حتى يسود السلام في

ربوع اوربا »[1].

وفي ٦ ديسمبر صدر تصريح فرنسي – ألماني مماثل ، وقعه عن الجانب الفرنسي مسيو بونيه « Bonnet » وزير خارجية فرنسا ، وعن الجانب الألماني فون روبنتروب Von Ribbentrop اكد فيه الطرفان أهمية دوام العلاقات السلمية بين فرنسا والمانيا ، وأنه لم يعد بينهما أي خلاف على مسائل اقليمية ، وأن الحدود الراهنة بين البلدين تعتبر تخوماً نهائية .

تمزيق تشكوسلوفاكيا :

لا ريب أن اتفاقية ميونيخ كان لها أثرها في تأجيل موعد الحرب العالمية الثانية ، ولكنها لم تمنح العالم سوى سنة واحدة يستريح فيها ، وكان العالم في ذلك العام قد ارهقته حرب الاعصاب بين الدول الكبرى ، واربكته الغيوم التي تجمعت في الجو السياسي ، وانتقد كثيرون من ساسة بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا سياسة التهدئة ، وعارضوا اتفاقية ميونيخ التي قال عنها تشرشل « لقد كان على بريطانيا وفرنسا ان يختارا بين الحرب والعار ، فاختار كل منهما العار ، وعلى الرغم من ذلك فان الحرب سوف تفرض نفسها عليهما » .

وكان تشرشل نافذ البصيرة في نبوئته ، ففي مارس سنة ١٩٣٩ ، عاد هتلر الى التدخل في شئون تشكوسلوفاكيا تمهيداً لابتلاعها جميعاً ، مخالفاً بذلك شروط ميونيخ فبدأ بمطالبة الحكومة التشكوسلوفاكية بابعاد اليهود عن المناصب الهامة ، ونصحها بالخروج من عصبة الامم ، ولما عجز رئيس جمهوريتها (بنيش) عن الصمود امام هتلر استقال وغادر بلاده ، وانتخب بدله « اميل هاشا » رئيساً للجمهورية . واستطاع هتلر بعد ذلك أن يجبر

---

(١) Conversation between chamberlain and Hitler, 38 Sebtember 1938 British Foreign Policy, third series, ii, No. 122S.

الرئيس الجديد على التوقيع على وثيقة تجعل تشكوسلوفاكيا في الواقع ولاية المانية ، وتدفقت القوات الألمانية على « براج » العاصمة ، وانضمت بوهيميا ومورافيا نهائياً الى الريخ الالماني ، وتحولت سلوفاكيا الى محمية المانية وبتشجيع من هتلر غزا المجريون مقاطعة روثينيا وضموها الى بلادهم ، وبذلك زالت تشكوسلوفاكيا من الوجود (مارس ١٩٣٩) .

وبعد شهر واحد ، انقض موسوليني على البانيا (٧ ابريل) وضمها الى بلاده واصبح لايطاليا ضلع في البلقان ، وهرب ملكها احمد زوغو الى اليونان .

وشعرت انجلترا وفرنسا أن الضربة القادمة ربما توجه الى اليونان ورومانيا ، فأصدرتا تصريحاً مشتركاً بأنهما سيقومان بتقديم كل مساعدة ممكنة لليونان ورومانيا في حالة العدوان على احداهما (١٣ ابريل) وعقدت بريطانيا حلفاً مع تركيا تعهد فيه الفريقان أن يقدم كل منهما يد المساعدة للآخر في حالة نشوب حرب في شرقي البحر المتوسط ضد اية دولة معادية فيما عدا روسيا . ولكن اتضح ان الفريسة القادمة لألمانيا هي بولنده .

بولنده :

لم يعد هناك مجال لسياسة التهدئة التي اتبعتها كل من انجلترا وفرنسا اذ لم يكن لتلك السياسة أي صدى عند « هتلر » الذي رسم خطته ، ورتب زمانها ، وأعد لكل شيء عدته ، في الوقت الذي كان المعسكر الغربي ضعيفاً متهالكاً ، واغلبية شعوبه لا تريد الحرب وتنادي بتلافيها بأي ثمن الا أن تمادي هتلر وموسوليني في سياسة العدوان ، بالقضاء على تشكوسلوفاكيا من جهة ، وضم البانيا من جهة اخرى ، لم يترك مجالاً للتفاهم ولم يعد هناك خيار بين الحرب والسلام ولا سيما بعد أن لاحت في الجو أزمة بولنده وممر دانزج .

اذ رأى هتلر أن يعجل بتنفيذ خطته نحو بولنده عندما علم بأن الحكومة

البريطانية وعدت في ٣١ مارس ١٩٣٩ بضمان حدود بولنده .

وكان الخلاف بين المانيا وبولنده قد بدأ منذ الحرب العالمية الاولى ، فقد كانت « دانزج » ميناء المانيه على ساحل بحر البلطيق ، ولكن الحلفاء الذين أعادوا الوجود البولندي على الخريطة الاوربية في عام ١٩١٩ قرروا انشاء ممر بولندي عرضه حوالي خمسة وعشرين ميلاً يربط بولنده ببحر البلطيق عند ميناء دانزج الالمانية ، وتقرر ان تكون دانزج « مدينة حرة » تحت وصاية مندوب سام تعينه عصبة الامم ويكون مسئولاً امامها فقط .

وبانشاء هذا الممر البولندي انعزلت بروسيا الشرقية عن الوطن الام المانيا ، وانفصل المواطنون الالمان الذين يسكنون دانزج عن حكومتهم وبلادهم . مما كان يؤدي الى احتكاك دائم بين المانيا وبولنده ، ولم يكن باستطاعة الالمان الوصول الى بروسيا الشرقية الا عن طريق خط حديدي يسيطر عليه البولنديون سيطرة تامة .

ومع ذلك فقد عقد هتلر في عام ١٩٣٤ مع الجمهورية البولندية معاهدة عدم اعتداء مدتها عشر سنوات . وفي صيف عام ١٩٣٩ كان باقياً على انتهاء هذا الاتفاق خمس سنوات ، الا أن النازية بدأت حرب اعصاب شديدة ضد البولنديين وطالب هتلر بضرورة اعادة النظر في مسألة دانزج والممر البولندي . وكان ذلك نذيراً بأن النازيين يخططون لعدوان جديد . ولم يكن هناك شك في أن هتلر يستطيع ان يستولي بالقوة على الممر ، ولكن السؤال الذي كان يفرض نفسه اذ ذاك هو : هل تسمح له الدول الغربية التي تسمي نفسها بالدول الديموقراطية بارتكاب هذا العدوان الجديد كسبيل آخر من سبل المصالحة والتهدئة ام أن صبرها عليه قد نفد ، وألا مناص من الوقوف في وجهه ولو أدى الامر الى اعلان الحرب عليه . وقد اختارت بريطانيا وفرنسا الحل الاخير وانذرتا هتلر بأنهما لن تقفا مكتوفتي الايدي اذا قام بمغامرته ضد بولنده .

كان مركز هتلر قد ازداد قوة منذ أن عقد مع موسوليني في شهر مايو ميثاقاً ينص على اشتراكهما معاً في اي حرب قادمة ، ولكن هذا الميثاق لم يمنع موسوليني من التردد في الامر ، فقام في اغسطس سنة ١٩٣٩ بتحذير هتلر بأن ايطاليا لم تكن على استعداد للدخول اذ ذاك في حرب كبرى بعد أن أهدرت كل قواها ومواردها في الحروب التي خاضتها في الحبشـــة (اثيوبيا) ، وفي اسبانيا ، وفي البانيا .

ولكن تقاعس موسوليني لم يمنع هتلر عن المضي في مغامرته ، فقد كان واثقاً من أن انجلترا وفرنسا اللتين تعهدتا بتأييد بولنده ، لن تقامرا بالدخول في حرب عالمية جديدة ، فقد سبق لهما أن قدمتا مثل هذه التعهدات الى تشكوسلوفاكيا في عام سابق ثم جنحت كل منهما الى السلم اتقاء للحرب . لذلك اعتقد هتلر ومستشاروه أن التهديد والوعيد ، والتصميم والاندفاع ، ستنجح كلها هذه المرة ايضاً . الا أن تقديراتهم قد فشلت ، عندما تبين غدر هتلر بالوعد الذي قطعه على نفسه في ميونيخ بالا يمس الجزء الذي تبقى من تشكوسلوفاكيا ، وهو الوعد الذي نكث به بعد شهور قليلة ، مما لم يدع للبريطانيين أو الفرنسيين مجالاً للاختيار ، اذ لم يكن هناك بد من دخول الحرب اذا هوجمت بولنده .

لم يبق اذن سوى الاثر الذي يحدثه العدوان على بولنده لدى الروس ، اذ أن اجتياح بولنده يهدد الاتحاد السوفييتي تهديداً مباشراً . لذلك عمد هتلر الى ارسال وزير خارجيته يواكيم فون ريبنتروب « Ribbentrop » الى موسكو ليطمئن الروس ويهدىء روعهم . وهناك تم عقد ميثاق عدم الاعتداء (٢٣ اغسطس) بين الحكومتين الالمانية والسوفييتية ، وألحقت بالميثاق عدة معاهدات تجارية .

وتم الاتفاق على أنه في حالة تعرض السفن التجارية الالمانية فيما وراء البحار لخطر الحصار البحري ، فان اوربا الشرقية والجنوبية تظل مفتوحة

للتعامل مع الألمان ، وقد اطلع ريبنتروب زعماء الروس على مشروع ألماني يقضي بمحو بولنده وأن المانيا تقترح أن يستولي الروس على النصف الشرقي من البلاد .

ومهد الألمان بدعاياتهم للمغامرة المنتظرة ، ثم اجتاحوا بولندا في اول سبتمبر ١٩٣٩ ، وعندئذ وجهت الحكومتان البريطانية والفرنسية انذارات شديدة اللهجة الى المانيا بأنهما يعتبران ودولتيهما في حرب مع المانيا اذا لم تنسحب قوات الغزو في بحر اربع وعشرين ساعة ، وفي ٣ سبتمبر اعلنت الدولتان الحرب على المانيا ، ولكنهما لم يكن بوسعهما انقاذ البولونيين من الغزو النازي . فقد تمكنت القوات الالمانية ـ وكانت تقدر بمليون وسبعمائة الف جندي ـ من تركيز هجومها من بروسيا الشرقيـــة ، وسيلزيا ، وتشكوسلوفاكيا . وكان تقدمها كاسحاً تحميها مظلة كثيفة من الطائرات . ولم يستطع الجيش البولندي الذي لا يزيد عدده عن ٦٠٠,٠٠٠ سوى الدفاع اليائس ، وانتهى امره في اقل من اسبوعين .

وفي ١٧ سبتمبر بدأت القوات الروسية تزحف على بولنده من الشرق الى ان تم التقاؤها بالقوات الألمانية عند برست ـ لتفوسك بعد يومين من بدء الهجوم . وفي ٢٩ سبتمبر تم الاتفاق بين الألمان والسوفييت على تقسيم بولنده ، حيث استولى الالمان على ٧٣٠٠٠ ميل مربع من الأرض يسكنها حوالي ٢٢,٠٠٠,٠٠٠ نسمة وضعوا تحت الحماية الالمانية ، بينما استولى الروس على ٧٧,٠٠٠ ميل مربع من الارض يسكنها حوالي ١٣ مليون نسمة .

وقد تم لهتلر الاستيلاء على مدينة دنتزج الحرة والممر البولندي وعدداً من المناطق في غرب بولنده ووضع الجزء الاوسط من البلاد تحت الحماية الالمانية . أما المنطقة التي استولت عليها روسيا فتتميز بسعة المساحة ، وأن اغلبية سكانها كانوا من الاكرانيين والروس البيض ، وقد كان الزعماء السوفييت يعتبرونها من حقهم ، وأن من واجبهم أن يضموا هذه الاجزاء الى جمهوريتي اكرانيا وروسيا البيضاء السوفييتين .

ومع أن انجلترا وفرنسا اعلنتا الحرب على ألمانيا الا أنهما كانتا مكتوفتي الايدي ، فقد كان من العسير على الفرنسيين والانجليز أن يبعثوا بقواتهم البرية عبر اوربا . ولم يكن باستطاعة اساطيلهم دخول بحر البلطيق الذي اغلقه الالمان ، ولا باستطاعة قواتهم الجوية اختراق المجال الجوي لألمانيا او الاراضي التي احتلتها ، وكل ما كان بوسعهم ان يفعلوه هو الاقتصار على مهاجمة خطوط الدفاع الالمانية في الغرب – أي خط سجفريد – أو قصف المواقع الالمانية بالقنابل ، ومع ذلك فلم يجرؤ اذ ذاك على اتخاذ اي اجراء حربي من هذا القبيل ، واقتصروا على تعزيز خطوط دفاعهم المجاورة لالمانيا في خط ماجينو .

ومضى وقت طويل قبل ان يتخذ هتلر اي اجراء ضد فرنسا او انجلترا ، وظلت القوات الفرنسية قابعة وراء خط ماجينو حتى سئم الجنود وفقدوا الثقة في قوادهم وزعمائهم الذين وقعوا هم ايضاً في حيرة من أمرهم لا يعرفون من أين يبدأون القتال . وظل كل شيء هادئاً في الميدان الغربي طيلة فصل الشتاء فيما عدا عبور قوة بريطانية الى فرنسا حيث اتخذت لها موقعاً على الحدود الفرنسية البلجيكية تحت لواء القيادة الفرنسية العليا .

ومرت الايام دون ان يحدث جديد ، ولم تكن ايطاليا قد دخلت الحرب في الحال ، فكانت فترة شتاء عام ١٩٣٩ فترة قلقة ، كلها تربص وحيرة . فالالمان كانوا قد أوقفوا عملياتهم الحربية ، وأخذوا يراقبون اثر الحملة البولندية عند الحلفاء ، ومدى تأثير الهجوم الروسي على بولنده ، على علاقات الفرنسيين والانجليز بالاتحاد السوفييتي .

ومهما يكن من شيء ، فان هتلر كان يفضل الا يبدأ الحرب في الشتاء ، وكان يرى أن قوة المانيا ، وتفوقها العسكري يضمنان له عجز الحلفاء عن مجابهة الموقف فوراً ، وعلى هذا فلن يضير المانيا أن يتوقف نشاطها الحربي حتى الربيع القادم .

أما فرنسا وانجلترا فكانتا على ثقة بأن الوقت يعمل في صفهما لو استغل في استعداد قواتهما المسلحة وتدريب الجيوش وتدعيمها بالاسلحة والمعدات وتغالى الفرنسيون في الاعتماد على خط ماجينو الحصين في صد أي عدوان الماني على الحدود الفرنسية الالمانية ، بالاضافة الى أنهم فضلوا طريقة الدفاع السلبي وعجزوا عن اتخاذ اي خطوة هجومية خوفاً من اثارة الالمان .

على أن البحرية البريطانية حاولت بمساعدة الفرنسيين فرض حصار ضد المانيا كما حدث في الحرب العالمية الاولى ليقطعوا عنها اي امدادات مؤونة تصل اليها من الخارج ، الا أن الغواصات الالمانية كانت تبدي نشاطاً مستمراً ضد سفن الحلفاء ، ففي ٣ سبتمبر اغرقت اكبر حاملة للطائرات « أثينا » (Athenia) وتلى ذلك اغراق حاملة اخرى « كريجس » (Courageous) ثم المدمرة الحربية الشهيرة « رويال اوك » « Royal Oak » في شهر اكتوبر .

* * *

روسيا تعزز دفاعها نحو الغرب :

لم يمض اسبوع واحد على تقسيم بولنده حتى قامت روسيا بفرض معاهدة على استونيا (٢٩ سبتمبر) حصلت بمقتضاها على قواعد بحرية وجوية فوق الاراضي الاستونية . وكذلك عقدت ميثاقاً مشابهاً مع لاتفيا يسمح لروسيا باقامة قواعد حصينة لها هناك (٥ اكتوبر) ، ثم تبع ذلك عقد معاهدة تعاون عسكري مشترك مع لتوانيا (١٠ اكتوبر) ، وقد تنازل الروس بمقتضى تلك المعاهدة عن فلنا (Vilna) ولكن في مقابل ذلك اصبح لها الحق في وضع حاميات روسية في بعض المواقع ذات الاهمية العسكرية في لتوانيا . وقد اوضحت تلك التحركات الروسية لتقوية حدودها في شرق اوربا طبيعة العلاقات الروسية الالمانية التي تتميز بالارتياب وعدم الثقة .

وقد لاحظ هتلر نفسه أن روسيا قد جنت مساحة من الارض أكبر من نصيبه نتيجة حملته على بولنده ، فقد استولت على اراض واسعة بغير أن تخسر جندياً واحداً ، وسنحت الفرصة للروس أثناء ذلك لدراسة العمليات الحربية الالمانية ضد البولنديين ، مما جعلهم يفكرون في تهيئة أنفسهم ووضع خطط للدفاع عن الاراضي الروسية لو هاجمهم « هتلر » .

وفي نهاية العام (١٩٣٩) ، كان هتلر في موقف لا يستطيع معه الهجوم على انجلترا او فرنسا ، اذ لم يكن في استطاعته غزو الاولى بحراً ، ولا اختراق خط ماجينو بقصد اجتياح فرنسا لأن ذلك يكلفه كثيراً ، وفي الوقت نفسه لم يكن بوسع الحلفاء اجتياز الحائط الالماني الحصين . واقتصروا على فرض الحصار البحري على المانيا لمنع سفنها التجارية من الوصول الى اعالي البحار ، ولكن ظلت تجارتهم مفتوحة مع البلاد الاسكندنافية ، ومع روسيا وتركيا . وتحرج موقف المانيا لانها لا تقوى طويلاً على الحصار البحري الذي عانت منه في الحرب العالمية الاولى . ورأى هتلر بعد أن تم له النجاح الكامل في بولنده – أن يدعو الى هدنة بين المانيا وكل من انجلترا وفرنسا وصرح بأنه على استعداد لعقد ميثاق عدم اعتداء معهما وضمان سلامة الامبراطورية البريطانية . على أن الحلفاء ، رغم قلة حيلتهم في ذلك الوقت كانوا مصممين على القتال والاستعداد لحرب طويلة الأجل .

حرب الشتاء في فنلنده :

وفي تلك الاثناء أقدم الروس على القيام بحملة ضد فنلنده (نوفمبر ١٩٣٩) لانها رفضت ان تقتفي أثر جيرانها استونيا ولاتفيا وليثوانيا فتقبل وجود قواعد بها لتقوية الدفاع الروسي . ولذلك قامت القوات الروسية في ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٣٩ بمهاجمة فنلنده . وقد تقرر طرد روسيا من عصبة الامم (١٤ ديسمبر) نتيجة هذا العدوان ، ولكن روسيا لم تأبه لهذا الاجراء .

وقد دافع الفنلنديون عن بلادهم دفاع المستميت ، وكالوا الضربات

العنيفة للروس ، ولكنهم لم يستطيعوا الصمود اكثر من ثلاثة اشهر اضطروا بعدها الى التسليم [1] ، وضم الروس على اثر ذلك منطقة مساحتها اكثر من ١٦,٠٠٠,٠٠٠ ميل مربع من الاراضي الفنلندية . ولكنهم فقدوا كثيراً من سمعتهم العسكرية نظراً للهزائم المتكررة التي عانوها امام الفنلنديين والتي جعلت هتلر يشك في كفاءة الروس الحربية مما شجعه على مهاجمة روسيا فيما بعد ، الا انه اكتشف عندما تقابل مع الروس سنة ١٩٤١ انه كان مخطئاً في تقديره .

غزو الدنمرك والنرويج :

كانت انجلترا تبدي اهتماماً خاصاً بالموقف في النرويج بعد أن عقدت العزم على احكام الحصار على المانيا ، ويرجع ذلك الاهتمام الى طول الممر المائي حول النرويج ، والذي يبلغ طوله حوالي ٨٠٠ ميل مما يجعل نجاح الحصار البحري حول المانيا يبدو مستحيلاً لو وقعت النرويج في براثن النازية .

وقد حاولت النرويج من جانبها ان تظل على صلة طيبة بالالمان حتى حكومتها كانت تسمح للسفن الحربية والغواصات الالمانية أن تستخدم مياهها الاقليمية كما يحلو لها وفي اي وقت تشاء ، وقد حدث ذات مرة أن الباخرة الالمانية « التمارك » (Altmark) كانت تحمل عدداً من اسرى الحرب الانجليز دخلت في مياه النرويج الاقليمية فهاجمتها سفينة انجليزية

---

(١) صمد الفنلنديون في الثلاث جبهات التي هاجمها فيها الروس واوقفوا تقدم القوات الروسية ، فقد كانت القوات الفلندية مدربة على الحرب في الثلوج بينما لم تكن القوات الروسية في احسن حالاتها للحرب في جو المناطق القطبية . وقد ساعد الفنلنديون على الصمود ما كان يصلهم من المعونات التي كانت ترسلها السويد وبريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة ، ولكن بعد انقضاء فصل الثلوج استطاع الجيش الاحمر معاودة الهجوم في شهر مارس باعداد تفوق عدد القوات الفلندية .

هناك واطلقت سراح هؤلاء الاسرى ، وكذلك وضعت قوة بريطانية في ميناء نارفك (Narvik) النرويجي أملاً في اتخاذها قاعدة بريطانية وحرمان الالمان من استخدام مياه النرويج وموانيه . ومن استيراد الحديد اللازم لهم من السويد عن طريق نارفك . ولكن هتلر كان اسرع من البريطانيين ، فهاجم نارفك واضطر البريطانيون الى الجلاء عن النرويج .

وقد كان ذلك الانتصار الخاطف لهتلر في النرويج سبباً رئيسياً في سقوط حكومة تشمبرلين ، فقد ارتفعت الاصوات في ٨ ، ٩ مايو سنة ١٩٤٠ بنقد الحكومة وهاجمها النواب من العمال والمحافظين في البرلمان مما ادى الى استقالة وزارة تشمبرلين وتأليف حكومة ائتلافية جديدة يرأسها ونستن تشرشل وتضم عدداً من زعماء الحزبين الرئيسيين المحافظين والعمال ، يكون هدفها (الحرب حتى النصر) .

وقد حاول الحلفاء انقاذ النرويج ، فحاصروا نارفك من ١٤ ابريل واستولوا عليها يوم ٢٨ مايو بعد ان الحقت بهم البحرية الالمانية خسائر فادحة ، على أن حملتها لم تجد نفعاً أمام اصرار هتلر على طردهم من النرويج ، وقد تم له ما اراد في ٨ يونيه .

الموقف في فرنسا :

كانت فرنسا في صيف عام ١٩٤٠ تتوقع الهجوم عليها . فاخذت تضاعف مجهودها الحربي حتى تستطيع مجابهة الجحافل النازية التي كانت تستعد لذلك اليوم استعداداً متواصلا. وقد اسقط الفرنسيون رئيس وزرائهم دالادييه (Daladier) بعد أن أتهموا بالضعف والعجز عن مهاجمة الروس عبر فنلنده ، ومع ذلك فلم يثبت خلفه « بول رينو » (Paul Reynaud) أنه جدير بثقة الشعب الفرنسي . كذلك لم يثبت القواد الفرنسيين أنهم يدركون قوة عدوهم ووسائله الهجومية وكفاءة قيادته .

لقد توقع الجنرال « جاملان » أن الهجوم الالماني سوف يأتي عبر بلجيكا

كما حدث في الحرب العالمية الاولى ، الا ان هتلر أقر خطة وضعها أحد قواده بأن تجتاح القوات الالمانية منطقة الآردن (Ardennes) باتجاه السوم ومن هناك تنقض على خطوط الحلفاء فتخترقها وتفرق بينها حتى يتم هزيمتها هزيمة خاطفة . ومع ما في هذه الخطة من مخاطرة شديدة الا أن الالمان نجحوا في تنفيذها في شهر مايو في نفس اليوم الذي تولى فيه تشرشل رياسة الوزارة البريطانية ، فقد هاجم الالمان هولنده رغم حيادها ، وبلجيكا ولكسمبرج ، وقد تم لهم الاستيلاء على لكسمبرج في ساعات قليلة ، أما هولنده فقد بقيت قواتها تبذل اقصى ما لديها من دفاع مدة خمسة ايام . ثم غلبت على امرها وفرت الملكة ولهيلمينا (Wilhelmina) وحكومتها الى بريطانيا لمواصلة الحرب (١٤ مايو ١٩٤٠) . واستطاعت القوات البلجيكية أن توقف التقدم الالماني عدة ايام الا ان هجوم الدبابات الالمانية كان اقوى من الدفاع المستميت الذي بذله البلجيكيون وفي ١٥ مايو سقطت سيدان الحصينة في ايدي الالمان وعبر الالمان نهر « الميز » (Meuse) وانفتح الطريق امام القوات الالمانية لتسارع نحو الساحل لتهاجم قوات الحلفاء التي نزلت بلجيكا وشمال شرقي فرنسا ، واصبحت في موقف خطير وظهرها نحو البحر .

الفصل الحادي والعشرون

سقوط فرنسا ومعركة بريطانيا

وقد بدأ الهجوم على بلجيكا في نفس اللحظة التي بدأ الهجوم على هولنده ولقي الالمان نفس النجاح ، ففي ١١ مايو تم لهم اختراق خط الدفاع البلجيكي وعبروا قناة ألبرت ، ورغم أن فرقة بريطانية كانت تساند البلجيكيين عند نهر « دايل » (Dile) ، والجيش الفرنسي السابع يساندهم في الشمال وعلى نهر الميز (Meuse) ، الا ان القوات الالمانية اكتسحت بلجيكا وتدفقت نحو الساحل فوصلته في ٢٣ مايو ووقعت قوات الحلفاء والجيش البلجيكي في مأزق لا يستطيعون منه فكاكاً رغم المحاولات اليائسة التي بذلت للدفاع ، ولم يجد الملك « ليوبولد الثاني » بداً من الأمر بالعدول عن المقاومة طالباً الهدنة من الالمان . وقد تعرض الملك اذذاك لنقد لاذع من حلفائه لأنه لم يستشرهم قبل أن يقدم على هذه الخطوة الخطيرة ، ومع ذلك فقد كان الحلفاء أنفسهم قد بدأوا بالجلاء عن الاراضي البلجيكية قبل أن يتخذ ليوبولد ذلك القرار وبدون استشارته ، وأخذت قواتهم تتجمع عند ساحل دنكرك لتنتقل عن طريق البحر ، وبدأ الجلاء الشهير يوم ٢٧ ، حيث تم اجلاء ٣٣٨,٠٠٠ من القوات البريطانية والقوات المتحالفة دون عتادها حيث نقلت الى بريطانيا .

واعتبر الانجليز عملية الجلاء نوعاً من الانتصار ، ولو ان تشرشل حذر الشعب في مجلس العموم بأن « انقاذ القوات المتحالفة من المحنة التي تعرضوا لها لا يمكن أن يعتبر انتصاراً فالانتصار في الحروب لا يكون بالجلاء » ، ومع ذلك فان انقاذ تلك القوات حفظ للحلفاء حياة عدد كبير من الضباط الذين مارسوا الحرب في الفلاندرز وتدربوا على مجابهة الالمان ، وفي الوقت نفسه اعطت الشعب الانجليزي شيئاً من الثقة في احتمال كسب المعركة ، ولكنها لم تؤثر في نفسية الشعب الفرنسي لأن الموقف في فرنسا كان يتدهور بسرعة هائلة .

لقد كان لدى الفرنسيين قوات لا تقل عدداً عن قوات أعدائهم ولديهم من العتاد ما يفوق عتاد الالمان المهاجمين ، ولكن نقطة الضعف لم تكن لهم فيها حيلة اذذاك تتمثل في ضعف قواتهم الجوية وعجزهم عن وضع خطة كاملة للدفاع امام التقدم الالماني السريع نحو بلادهم ، وكذلك عجز زعمائهم عن الوقوف صفاً واحداً وحسم الخلافات فيما بينهم ، فقد شاع النزاع بين ادوار دالادييه وبول رينو ، وقد ذكر المؤرخ الفرنسي « اندريه موروا » ان « بول رينو » كان يشرك عشيقته الكونتيسه (ايلين دي بورت) في شئون الحكم ويهيء لها فرصة التدخل فيما لا شأن لها فيه ، وقد وصفها موروا بأنها « كانت مجنونة رعناء تحب التدخل في شئون الغير بدرجة خطيرة » وأنها كانت تصبو الى تولي عشيقها رئاسة الوزارة بدلاً من حصره في وزارة المالية .

كان دالادييه رئيساً للوزارة عندما اصدر هتلر اوامره بغزو بولنده (٣١ اغسطس ١٩٣٩) . وفي اليوم التالي اجتمعت الوزارة الفرنسية لتقرر اعلان التعبئة العامة ، وتؤكد تأييدها لبولنده ، ومع ذلك فقد تقاعست القيادة الفرنسية عن القيام بوضع خطة كاملة ومحكمة للحرب . فقد كانت القيادة الفرنسية بيد قيادة محافظة يرأسها ضباط كبار اشتركوا في الحرب العالمية الاولى ، وصنعوا لأنفسهم اسماء لامعة منذ عشرين عاماً ، الا أنهـــم كانوا متخلفين عن العصر الحربي الجديد وجاهلين بالتطورات الكبيرة والخطيرة في الاستراتيجية العسكريـــة

واصبحوا يميلون الى المهادنة وايثار السلامة وابعاد الحرب . بل لقد كان معظم الزعماء السياسيين والعسكريين لا يدركون حتمية الحرب التي فرضتها المانيا ، وهكذا كانت فرنسا بزعامتها وقيادتها تفكر تفكيراً متخلفاً ، وتأمل أن يوجه هتلر قواته نحو الشرق ضد روسيا .

شارل ديجول :

وبينما كان هذا الرأي سائداً بين أغلبية القادة والسياسيين ظهر ضابط كبير كان قائداً لاحدى كتائب الدبابات هو « شارل ديجول »[1] يعارض تلك الروح الانهزامية وينادي بأن الحرب ضد المانيا تتطلب الاستعداد بكل وسائل الحروب الحديثة وتتطلب الاعتماد على الآلات والاسلحة والمحركات ، فلم يعد يجدي الاعتماد على شجاعة الجندي وقدرته على خوض القتال بالاسلحة النارية التقليدية ، وانقضى الزمن الذي يضمن لفرنسا السلامة وراء خط ماجينو اذ لا يستطيع هذا الخط الحصين أن يكون بديلاً عن وضع خطة حربية لفرنسا تضمن لها الصمود في وجه الدبابات الثقيلة وقاذفات القنابل الحديثة ، واخذ يطالب مع فريق من زملائه المقتنعين برأيه ، بوضع خطة حربية لفرنسا ، وتكوين قوات ميكانيكية حديثة وادخال برامج تدريبية جدية للقوات الفرنسية ، وانتهاج سياسة الهجوم كخير وسيلة للدفاع ، وأن تستعد الجيوش الفرنسية لمواجهة الاستراتيجية الالمانية الجديدة التي استخدمت في اكتساح بولنده . وضاعت صيحات ديجول سدى .

---

(١) ولد شارل ديجول في مدينة « ليل » سنة ١٨٩٠ ، وقد تلقى دراسته الثانوية والجامعية في باريس والتحق بكلية سان سير العسكرية ، واشترك في الحرب العالمية الاولى ضابطاً صغيراً والتقى اثناءها بالرجل الذي لعب اهم الأدوار في حياته وهو الكولونيل بيتان (الماريشال فيما بعد) ، وأسر عام ١٩١٦ واطلق سراحه عام ١٩١٨ – وقد زار بلاد الشرق العربي عندما انتدبته الحكومة لدراسة الاوضاع هناك ومكث ديجول ثلاث سنوات في حلب ودمشق وبغداد وعاد الى فرنسا سنة ١٩٣٢ ، وعين سكرتيراً عاماً للمجلس الأعلى ، ثم قائداً لكتيبة الدبابات حتى عام ١٩٣٩ .

الهزيمة :

في شهر مارس ١٩٤٠ تعرض دالاديه رئيس الوزارة للوم البرلمان بسبب اخطائه وفشله في ادارة دفة الحرب ، فاضطر الى الاستقالة ، وخلفه غريمه « بول رينو » محتفظاً بدلاديه كوزير للحربية بسبب التأييد الحربي الذي كان يتمتع الاخير به .

وفي ٤ مايو قرر رينو عزل الجنرال جاملان لانه فشل في القيام بهجوم مضاد على الالمان بعد غزوهم للنرويج ، ولما عرض الامر على مجلس الوزراء ثارت ازمة وزارية حين رفض معظم الوزراء – وعلى رأسهم دالاديه – تأييد الرئيس في عزل جاملان ، فقدم رينو استقالة الوزارة كلها (٩ مايو سنة ١٩٤٠) .

وعلم جاملان بما حدث فقدم استقالته ، وكان هذا الاضطراب يحدث في الوقت الذي كانت الجيوش الالمانية على اهبة الاستعداد لغزو فرنسا ، وهبت العاصفة عندما كانت فرنسا دون حكومة ، ودون قائد عام للقوات المسلحة . وعندئذ سحب جاملان استقالته ، وكذلك عدل رئيس الوزراء عن الاستقالة ، لمواجهة الكارثة التي توشك ان تقع[1] .

ووقعت الكارثة فعلاً ، وما لبث الجيش النازي ان اخترق الحدود البلجيكية مهاجماً الحدود الفرنسية من نقط غير محصنة ، وبحركة التفاف حول خط ماجينو طرد الجيش البريطاني من القارة الاوربية . وقهرت سرعة التقدم

---

(١) عرض بول رينو على الجنرال ديجول منصب مساعد وزير الدفاع ووافق ديجول بعد ان تعهد بول رينو بمواصلة القتال في أراضي فرنسا ان امكن أو من افريقيا والامبراطورية الفرنسية أن تعذر الصمود في فرنسا وطلب ديجول تكليفه بمهمة الدفاع عن باريس ، واقترح تكريس كل القوات الميكانيكية الثقيلة التي تملكها فرنسا للدفاع عن العاصمة لأن سقوط باريس معناه سقوط فرنسا كلها . غير ان روح الهزيمة والتردد غلبت على القيادة الفرنسية وسرف في صفوف الجند ، ولم تأخذ القيادة بوجهة نظر ديجول في الدفاع عن باريس ، وبعثرت القوات الفرنسية فى اماكن متفرقة لم تستطع الصمود في القتال .

النازي اي خطة حربية وضعها الجنرال جاملان مما ادى الى اقالته وتعيين الجنرال ويجاند « Weygand » القائد الفرنسي الشهير البالغ من العمر ثلاثة وسبعين عاماً.

ولم يكن ويجاند على مستوى المعركة الكبرى التي تجرى على أرض فرنسا فقد انهارت المقاومة واصبحت الهزيمة محققة ، وغادرت الحكومة الفرنسية التي كان يرأسها بول رينو باريس الى مدينة تور (٩ يونيه) ، وبعد دخول الالمان اليها (١٤ يونيه) انتقلت الحكومة الفرنسية الى مدينة بوردو ، واخذت تستعد لطلب الهدنة . بينما طار ديجول الى لندن ليتزعم حركة « فرنسا الحرة » .

ولما تحقق لدى موسوليني هزيمة الفرنسيين ، اقتنص الفرصة واعلن الحرب على كل من فرنسا وبريطانيا ، رغم الشكوك التي كانت لا تزال تساور قواده ومستشاريه ، ولكنه كان حريصاً على اقتسام الغنيمة مع هتلر .

دخل الالمان العاصمة الفرنسية ، واستقال بول رينو وألف الجنرال بيتان « Petin » حكومة فرنسية جديدة اتخذت فيشي مقراً لها . وفي ١٧ يونيه طلبت فرنسا من بريطانيا ان تحلها رسمياً من التزاماتها الحربية ، وانها سوف تعقد هدنة منفردة ، ووافقت بريطانيا بشرط واحـــد ، هو ان يبحر الاسطول الفرنسي فوراً الى الموانيء البريطانية ريثما تجزي المفاوضات ، الا أن فرنسا قصرت تأكيداتها بشأن الاسطول على وعد بأنها « لن تسمح بأن يقع في أيدي الالمان » . على أن الحكومة البريطانية قررت الاستيلاء بالقوة على البوارج الفرنسية الراسية في ميناءي بليموث وبرتسموث وكذلك جمدت حركة قطع من الاسطول الفرنسي كانت راسية في ميناء الاسكندرية ، بل واطلق اسطول البحر المتوسط البريطاني نيرانه على السفن الفرنسية ودمر عدداً كبيراً منها حتى لا تقع في ايدي العدو .

اتفاق الهدنة مع فرنسا :

وتمت المفاوضات الفرنسية الالمانية (٢٢ يونيه) ووقع المندوبون الفرنسيون اتفاق الهدنة مع المانيا في نفس عربة القطار الذي سبق ان وقع الالمان فيهـــا

شروط الهدنة مع الحلفاء عام ١٩١٨ . وبعد يومين وقعت فرنسا شروط الهدنة مع ايطاليا . وكانت شروط الهدنة اذلالاً شديداً لفرنسا فقد قضت بأن تحتل القوات الالمانية اكثر من نصف فرنسا بما في ذلك العاصمة « باريس » وكل الجزء الشمالي من البلاد وكل الساحل الفرنسي تجاه الاطلنطي حتى حدود اسبانيا واصبح لالمانيا كل حقوق الدولة المحتلة في كل المنطقة المشتملة على موانيء القنال الانجليزي والمحيط الاطلنطي وكان على فرنسا ان تتحمل كل نفقات الاحتلال ، وان تراعي الحكومة الفرنسية في المنطقة غير المحتلة أن يظل النظام موالياً لالمانيا ، وعليها تسليم جميع اسرى الحرب من الالمان ، وانقاص عدد افراد الجيش الفرنسي بحيث لا يزيد على ١٠٠,٠٠٠ وهو الرقم الذي كانت فرنسا فرضته على المانيا في معاهدة فرساي . وكان على بقية الاسطول الفرنسي أن يبحر الى موانيء محددة لنزع سلاحه وشل قدرته الحربية ووضع قطعه تحت السيطرة الالمانية أو الايطالية . وترك هتلر لحكومة بيتان حكم الجزء الذي لم تحتله القوات الالمانية حتى ساحل البحر المتوسط وكذلك المستعمرات الفرنسية .

تلك كانت في الواقع شروط هدنة فقط ، في الوقت الذي كان هتلر يرجو فيه عقد الصلح مع بريطانيا بعد اكراهها على قبوله .

موقف روسيا :

اما الروس فقد كان لهم شأن آخر تجاه الانتصار النازي الذي اخذوا به على حين غرة ولكنهم حاولوا ان يستفيدوا من الموقف وذلك بجس نبض الألمان بشأن حل المشكلات البلقانية بين الدول الثلاثة روسيا وايطاليا والمانيا ، الا ان هتلر لم يكن راغباً في اشراك الروس بأي حالة من الاحوال في تصفية مسألة بلاد البلقان حتى لا ينالوا منها نصيب الاسد ، ولكن الروس كانــوا حريصين من ناحية اخرى على انتهاز فرصة التفاهم مع هتلر لاقتناص ما يمكن اقتناصه في اوربا الشرقية قبل عقد الهدنة مع فرنسا ، فأبلغوا المانيا أنهم عازمون على ان يطلبوا من رومانيا التنازل لهم عن بسارابيا وشمال بوكوفينا . ولم يمانع

هتلر بل انه نصح رومانيا ان تستجيب للانذار الروسي الذي تلقته في ٢٦ يونيه، وذلك لأنه لم يكن راغباً في اثارة النزاع مع ستالين في تلك الفترة رغم أن تلك التحركات السوفييتية زادت من كراهيته وعداوته للروس حتى أنه اسر الى كبار قواده انه مصمم على الهجوم على روسيا في الوقت المناسب . ولكنه قبل ان يضع عزمه موضع التنفيذ كان يتطلع الى التفاهم مع بريطانيا وتصفية الخلاف بينها وبين المانيا النازية معتمداً على انتصاراته الساحقة على فرنسا وعلى القصف المستمر للمدن الانجليزية .

حكومة فيشي :

وفي اول يوليه انتقلت الحكومة الفرنسية الى فيشي (Vichy) ، واخذت تتجه في الداخل اتجاهات دكتاتورية ، وقد اعطى الماريشال بيتان وعداً لهتلر عندما تقابلا في منتوار (Montoire) (٢٤ اكتوبر) ان الحكومة الفرنسية سوف تتعاون مع المانيا في تدعيم النظام النازي الجديد في اوربا ، وقد أقدم على محاولة التفاهم المؤقت مع هتلر اعتقاداً منه بأن ذلك يصون الاستقلال لفرنسا .

وفي الوقت نفسه سارت حكومة فيشي في ركاب الالمان تتعاون معهم وتؤدي لهم الخدمات التي يطلبونها ووضعت تحت تصرفهم الصناعة الفرنسية والعمال الفرنسيين . وفي مايو سنة ١٩٤١ امرت المندوب السامي الفرنسي في فرنسا (الجنرال هنري دونتز) ان يقدم كل التسهيلات العسكرية للالمان عندما كانوا يعملون على تحطيم مركز بريطانيا في الشرق الاوسط ، ولم ينقذ الموقف الا التعاون الذي تم بين الحكومة البريطانية وحكومة فرنسا الحرة لوضع سوريا ولبنان تحت سيطرة الحلفاء .

موقف الولايات المتحدة :

ولما تحرج موقف بريطانيا بدأ الرئيس الامريكي روزفلت يراجع السياسة

الامريكية التي كانت لا تزال رسمياً محافظة على الحياد ، وطالما عمل روزفلت على تجنب قيام الحرب ، وخاصة عندما اختار تشمبرلين سياسة التهدئة وظن روزفلت انها قد تنجح في تلافي وقوع الحرب ، حتى انه ناشد هتلر (٢٧ سبتمبر ١٩٣٨) ان يعرض موضوع النزاع على مؤتمر عالمي ، واضاف قائلاً « انك لو وافقت على هذا الحل السلمي فاني مقتنع ان مئات الملايين من سكان العالم سوف يعترفون بصنيعك كأعظم خدمة تؤديها للبشرية » .

وكذلك اشترك روزفلت مع تشمبرلين ، ورئيس الوزارة الفرنسية دالادييه في محاولة حث موسوليني على اقناع هتلر ان يقبل حلاً سلمياً ويحقق له ما يريد — وذلك قبل ان يعرف هؤلاء الساسة كل ما يريد — ولكن هتلر وموسوليني ظلا متمسكين بسياسة العدوان وتحقيق الاطماع ، مما جعل روزفلت ووزير خارجيته المستر « هل » (Hull) يدركان اخيراً ان قانون الحياد الامريكي وعلى الاخص ما كان يتعلق بشحن الاسلحة ، قد شجع فعلاً سياسة العدوان . لأنها اقنعت هتلر انه في حالة قيام حرب اوروبية فان بريطانيا وفرنسا لا يستطيعان شراء اسلحة او ذخائر او معدات من الولايات المتحدة. اما اذا الغي ذلك القانون فان هتلر سوف يفكر مرتين قبل الاقدام على اعلان الحرب على الدول الديموقراطية ولذلك اخذ الرئيس روزفلت ووزير خارجيته يجتمعان بزعماء مجلس الشيوخ الامريكي لاقناعهم بأن خير سبيل لتأمين سلامة الولايات المتحدة نفسها هو مد بريطانيا وفرنسا بكل ما يحتاجونه لمجابهة الخطر ، مما يمنع هتلر عن اضرام نار الحرب .

وبينما كان روزفلت يحاول جاهداً اقناع الاعضاء برأيه في قانون الحياد ، كان البريطانيون والفرنسيون يحاولون من جانبهم البحث عن حل يحقق ما سبق من وعدهم لبولنده ورومانيا من ضمان حدودهما وكان الحل الوحيد امامهم في ذلك الحين هو تأييد الاتحاد السوفييتي لجهودهم في هذا السبيل .

والواقع ان روسيا — رغم تجاهل الحلفاء لها في اجتماع ميونيخ — ابدت

رغبتها (ابريل ۱۹۳۹) في عقد حلف دفاعي مع بريطانيا وفرنسا ضد اي عدوان الماني آخر . وقد بدأت المفاوضات التي اخذت تتعثر من ابريل الى اغسطس ، وذلك بسبب رفض بولنده ورومانيا وولايات البلطيق قبول اي ضمان روسي لحدودها يترتب عليه اي حق لها في احتلال ارضها بحجة حمايتها من العدوان الالماني . وهو حق كانت تشترطه روسيا لكي تتمكن من وضع خططها للدفاع . فقد كانت كل الدول الصغيرة الواقعة بين الاتحاد السوفييتي والمانيا ترى ان المارد الشرقي لا يقل خطراً وضراوة عن الغربي . ولما نبه الانجليز والفرنسيون روسيا الى المخاوف التي تساور جيرانها عمد الكرملين الى فتح باب المفاوضات السرية مع المانيا، وفي ٣ مايو عين مولوتوف — عدو الغرب — وزيراً للخارجية بدلاً من (لتفينوف) الذي كانت ميوله تتجه الى التفاهم مع الدول الغربية ، وظل مولوتوف لمدة ثلاثة اشهر متصلاً بكل من لندن وباريس وبرلين في نفس الوقت . ونتج عن اتصاله ببرلين اعلان عقد اتفاقية تجارية بين روسيا والمانيا (٢٠ اغسطس) ، وتلا ذلك سفر وزير النازي (ريبنتروب) الى موسكو وتوقيع ميثاق عدم اعتداء مع (مولوتوف) ضمنت لهتلر حياد الاتحاد السوفييتي عند الهجوم على بولنده ، وألحق بذلك بذلك الميثاق اتفاق سري يقضي — كما ذكرنا آنفاً — بتقسيم بولنده على النحو الذي رأيناه ، وتعيين مناطق النفوذ لكل منهما في الولايات البلطيقية . وتم لهتلر في اول سبتمبر ۱۹۳۹ اكتساح بولنده واعلان انجلترا وفرنسا الحرب على المانيا بعد يومين .

وظلت الولايات المتحدة بعيدة عن الحرب ولكنها كانت ترقب ما سوف يسفر عنه الموقف الحربي بين المانيا والحلفاء ، ولكن الرئيس روزفلت كان عازماً على منع دول المحور من احراز النصر ، فان هزيمة فرنسا وبريطانيا تعتبر اكبر كارثة تحل بالولايات المتحدة ، اذ يترتب عليه ان تقوم دول المحور الثلاث برلين — روما — طوكيو بفرض حصار حول الولايات المتحدة ، يترتب عليه خنق الاقتصاد الامريكي وقد يتبعه كارثة عسكرية . ولذلك فخير

للولايات المتحدة ان تخوض الحرب الى جانب الحلفاء في الحال من ان تضطر الى ذلك في المستقبل بعد ان يتم النصر لدول المحور على بريطانيا وفرنسا ، ولكن اذا لم يستطع روزفلت اقناع الرأي العام الامريكي بالاشتراك الفعلي في الحرب في صفهما فلا اقل من ان تمنح حكومته كل عون مادي ومعنوي لاعداء المحور رغم عدم اشتراكها الرسمي في الحرب .

وكانت أول خطوة خطاها روزفلت أن دعا الكونجرس في ٢١ سبتمبر ١٩٣٩ وطلب الموافقة على بيع الاسلحة للحلفاء ، وبعد ستة اسابيع ضاعت في المناقشة والمعارضة تقرر في ٤ نوفمبر تعديل قانون الحياد بحيث يسمح بتصدير الاسلحة والذخيرة وأدوات الحرب . وقد حدث ما توقعه روزفلت من اجتياح بولنده ، ثم غزو الدنمرك والنرويج وهولنده وبلجيكا ، وتحطمت الجيوش الفرنسية ونجت القوات البريطانية التي رابطت في الاراضي فرنسية بأعجوبة من دنكرك ، وسلمت فرنسا بتاريخ ٢٢ يونيه ١٩٤٠ .

واقد هز سقوط فرنسا مشاعر الامركيين ، وشعرت الحكومة ان بريطانيا اصبحت خط الدفاع الاول بالنسبة لامريكا ضد الاندفاع النازي والدكتاتوريات الحديثة ، وأن عليها بذل اقصى الجهود لمساعدة البريطانيين ووجد روزفلت – تطبيقاً لتعديل قانون الحياد – أن يرسل في الحال الى بريطانيا خمسين مدمرة قديمة استطاعت البحرية البريطانية تجديدها واعدادها لخوض المعركة ، وكان ذلك في مقابل قبول بريطانيا تأجير قواعد جوية وبحرية للولايات المتحدة في جزر نيوفوندلاند وبرمودا وبهاما وجميكا وسنت لوشيا وترينداد وغينيا البريطانية . وقد استفادت بريطانيا بهذه الصفقة فائدة مزدوجة ، فقد قوت المدمرات الامريكية مركزها البحري ، ودعمت في الوقت نفسه خط دفاعها فيما وراء البحار . أما الولايات المتحدة فقد أمنت لنفسها قواعد للدفاع عن امريكا الشمالية والبحر الكاريبي .

وفي ١١ مارس ١٩٤١ اصدر الكونجرس الامريكي قراراً بتفويض الرئيس

حق منح القروض والمعونات وغيرها لاية حكومة يرى أن الدفاع عنها ضروري لأمن الولايات المتحدة نفسها . وهكذا استعمل روزفلت حقه هذا في دعم النضال الانجليزي ضد دول المحور ، فقد رأى أن المعونة الامريكية لبريطانيا يجب أن تكون سريعة وفعالة وبدون انتظار لدفع الثمن ، وذلك تحت ستار ، قانون جديد هو قانون الاعارة والتأجير » .

والواقع أن ذلك القانون وضع كل موارد الولايات المتحدة في خدمة بريطانيا أولاً ، ثم في خدمة جميع الدول التي كانت ضحية العدوان حتى لقد بلغت قيمة المعونات الامريكية لتلك الدول حوالي خمسين الف مليون دولار ، كان نصيب بريطانيا منها ٦٥ / ونصيب روسيا ٢٣ / تقريباً .

معركة بريطانيا :

بعد سقوط فرنسا ، توقفت العمليات الحربية بعض الوقت استعداداً للمعركة الكبرى ، اي غزو الجزر البريطانية ، وهي العملية التي اطلق عليها في ذلك الحين « خطة أسد البحر » . وتتلخص تلك الخطة في العمل على انزال جيش الغزو على جبهة واسعة بين « دوفر » ونهاية الجزيرة البريطانية الجنوبي مستخدمين في ذلك الساحل البلجيكي الفرنسي من (انتورب) الى (بريست) ليكون قاعدة للاستعدادات العسكرية التي يعقبها الانزال ، وكانت الخطة تقضي بانشاء رؤوس جسور كبيرة في البدء على الساحل البريطاني الجنوبي ، ومن ثم تندفع القوات الالمانية نحو الشمال ، وتقرر أن تحتل بعض هذه القوات لندن بينما يجتاح الهجوم الرئيسي المنطقة الغربية متجاوزاً العاصمة .

ولكن الواقع أن تلك الخطة كانت خيالية اكثر منها واقعية – كما شهد بذلك أحد كبار القواد الالمان[1] – حتى أن بعض المقربين من هتلر اعتقدوا أنه أراد بنشر انبائها احداث تأثيرات خارجية ، لانه لو اراد حقاً تطبيق عملية

(١) اللواء كونثر بلومنتريت : أسرار الحرب العالمية الثانية تعريب اللواء محمود شيت خطاب .

« اسد البحر » لوجب عليه أن يستعد لها استعداداً كافياً قبل ابتداء الحملة بكاملها في الغرب ، تضاف الى ذلك أنه لم يشر اليها بكلمة واحدة الى قائده الكبير « رونشتد » خلال الحرب في فرنسا ، ولو كان مصمماً على غزو بريطانيا حقاً لما سمح للجيش البريطاني بالفرار من دنكرك الى انجلترا في آخر مارس ليجده بعد ذلك مدافعاً عن بلاده ضد الغزو الالماني . لذلك اعتقد (رونشتد) بأن الاوامر الصادرة بشأن عملية (اسد البحر) لم تكن سوى خدعة سياسية . فقد كان الاسطول الالماني اضعف من القدرة على اتمام هذه العمليــة ولا يستطيع بحريته مجاراة البحرية البريطانية في قوتها واستعداداتها ، ولو اريد لهذه الخطة النجاح لكان من أهم مقدماتها اغلاق القنال من (دوفر) الى (كاليه) . وفي الغرب بين نهاية ارض الجزيرة البريطانية من جنوبها الغربي وبين بريست ، حتى يمكن منع الاسطول البريطاني من التدخل في عمليات العبور . وهو أمر لا تستطيع المانيا النجاح في القيام به . ورغم اعداد الاسطول الالماني كبير في الموانيء الساحلية المواجهة لانجلترا ووجود قوات كبيرة ، جوية وبحرية تقوم بالتدريب على هذه العملية الخطيرة فان احداً من القادة الكبار لم يأخذها على محمل الجد فقد كان الشعور السائد بين الجميع ان هذه الخطة لن تطبق . وفعلاً صدرت الاوامر فيما بعد بالتخلي عن المشروع واعيدت قطع الاسطول الالماني الى اتجاهات مختلفة[1] .

والواقع أن معركة بريطانيا التي خسرها الالمان كانت حاسمة في الحكم على ما استتبعها من معارك ، وخصوصاً معركة روسيا ، فلو استطاع هتلر ان يحطم المقاومة البريطانية بالغزو عام ١٩٤٠ ، لتفرغ للهجوم على روسيا بقوات اكبر واستعدادات أضخم وظروف اكثر ملاءمة ، الا ان تفوق سلاح الجو الجو البريطاني وصمود الشعب في لندن وفي المدن الصناعية الكبرى ضيع على الالمان فرصة وضع مشروع الغزو موضع التنفيذ .

---

(١) يقول مؤلف الكتاب ان هتلر قال لرونشتد « أنا بطل في البر ولكنني جبان في الماء » .

لقد كان هم هتلر – بعد ان فشلت خطة غزو انجلترا – ان يكسب معركة الجو في سماء بريطانيا بتحطيم المطارات الحربية ومصانع الطائرات ، وكان لديه اذذاك التفوق العددي في الطيران بينما لدى البريطانيين التفوق في نـــوع القاذفات المقاتلة التي كانت توجه نحو اهدافها بواسطة الرادار ، ورغم نجاح الالمان في تحطيم عدد من المطارات الحربية كان لدى الانجليز حوالي سبعمائة طائرة تعمل حتى في احلك الايام التي مرت ببريطانيا في ذلك الحين حتى انها استطاعت أن تدمر في العشرة ايام الاولى من معركة الطيران ما يربو على ٢٩٠ طائرة المانية في مقابل ١١٤ خسرها الانجليز . ومع ذلك استمرت الغارات الجوية على لندن ليلاً ونهاراً دون ان يجني منها هتلر سوى الخسائر المتتابعة في سلاحه الجوي . وساعد على فشل الالمان انه كانت لدى الانجليز اعظم شبكة رادار اقامتها الحكومة منذ عام ١٩٣٤ ، وكذلك ما كان لديهم من الطائرات المقاتلة من نوع الهاريكين (Hurricane) والاسبتفاير (Spitfire) التي كانت تعترض الغارات الالمانية .

وعندما اتضح لهتلر فشله في معركة الطيران وتحطيم الروح المعنوية اعتقد ان الانجليز لن يستسلموا لصلح يفرض عليهم . كذلك بدأت حركة المقاومة ضد الاحتلال النازي في هولنده وبلجيكا والنرويج بعد نجاح بريطانيا في كبح الغارات الالمانية ، واكثر من هذا ان معركة بريطانيا اثارت حماسة الشعب الامريكي ، وسهلت لروزفلت اتخاذ ما يراه من الاجراءات لمد الانجليز بمزيد من المساعدات الحربية .

القتال يمتد الى افريقيا والبحر المتوسط :

بعد ان اعلن موسوليني الحرب على فرنسا وبريطانيا بدأ يتطلع الى المكاسب التي يمكن ان يجنيها من الموقف السيء الذي حاق بالدولتين ومع ذلك فلم يكن موفقاً حتى في هجومه عـــلى جبهة فرنسا الجنوبية الشرقية ، في الوقت الذي انهارت فيه المقاومة الفرنسية ضد هتلر ، فقد قاوم الفرنسيون ذلك الهجوم

الايطالي مقاومة فعالة حتى ان موسوليني طلب الى الالمان في لحظة يأس بـأن يتعاون الطيران الالماني مع الايطاليين فوق جبهة المقاومة ، ولكن هتلر رفض الاستجابة لهذا الطلب ، وانتهت الحملة بغير أن يكون للايطاليين فيها فضل الانتصار .

ثم وجه موسوليني انظاره الى افريقيا حيث كان الاستعمار البريطاني مسيطراً في مناطق يعتبرها موسوليني حيوية لايطاليا ، ولما كانت بريطانيا اذذاك تكافح من أجل البقاء بعد ان انهارت حليفتها الكبرى رأى الزعيم الفاشستي ان الفرصة سانحة لكي يضرب ضربته في افريقيا وحوض البحر المتوسط . وفي اغسطس ١٩٤٠ — في الوقت الذي كانت معركة بريطانيا فيه على اشدها ، امر الدوق اوستا ان يتقدم بقواته المؤلفة من ٢٠٠,٠٠٠ جندي إيطالي وايرتري ان يتقدم من اريتريا والصومال الايطالي لمهاجمة القوات البريطانية المعسكرة عند مدخل البحر الاحمر . وبعد اسبوعين اضطرت القوات البريطانية الى الجلاء عن الصومال .

وفي ١٤ سبتمبر بدأت خطوة موسوليني الثانية ، فقد أمر المارشال جراتزياني (Gratziani) ان يزحف بقواته (٢٥٠,٠٠٠) من ليبيا شرقاً نحو مصر ونجح جراتزياني في اجبار القوات البريطانية بقيادة ويفل (Wavell) على التقهقر نحو مرسى مطروح القريبة من الاسكندرية .

وتبين للبريطانيين مدى الخطر الذي يحيق بهم في أهم المناطق حيوية وأهمية لكيانهم وامبراطوريتهم . فقامت البحرية الانجليزية في البحر المتوسط تحت قيادة السير كننجهام (Cunningham) الذي كان الانجليز يعتبرونه اعظم ملاح محارب منذ نلسن ، بوضع خطة لقطع خطوط الإمدادات الايطالية ومهاجمة القاعدة الايطالية تارنتو (Taranto) حيث اغرقت البحرية البريطانية بعض قطع الاسطول الايطالي واشعلت النار في الميناء . ثم قام ويفل بهجوم مصاد من مرسى مطروح في شهر ديسمبر ١٩٤٠ على القوات الايطالية ترتب عليه قتل اعداد كبيرة منها ، وتقهقر الباقون نحو الغرب والانجليز في

اعقابهم فاستولوا على القاعدة البحرية الايطالية طبرق ، ثم تقدموا نحو درنه ، وفي فبراير ١٩٤١ احتل البريطانيون بنغازي . وهكذا على مدى ثلاثة اشهر قضى الانجليز على عشر فرق ايطالية ، واسروا ١١٣,٠٠٠ جندي واستولوا على اعداد كبيرة من الاسلحة والدبابات .

اما في افريقيا فقد وجهت القوات البريطانية نشاطها لاستعادة ما فقده الانجليز ، ففي يناير ١٩٤١ قامت فرق من السودان لغزو اريتريا ، واخرى من نيروبي في كينيا لغزو الصومال . ثم سقطت اديس ابابا في ايديهم (٦ ابريل) واعيد هيلاسلاسي الى عرشه وبذلك تم القضاء على الامبراطورية الايطالية في شرق افريقية . وفي الوقت نفسه كانت الضربة القاصمة يكيلها كانتجهام للمدمرات والسفن الايطالية في البحر المتوسط .

وكانت تلك الهزائم الايطالية صدمة قاسية للالمان ، ولم يجد هتلر بدأ من ان يمد يد المساعدة لحليفه المهزوم . وعندئذ ارسل القائد الالماني الشهير الجنرال اروين روميل (Rommel) ال شمال افريقيا لانقاذ الموقف المتدهور. ووصل روميل الى ليبيا وبدأ عملياته الهجومية على القوات البريطانية . وفي غضون اسبوع واحد تقدم نحو طبرق فاكتسح فلول الجيش البريطاني واجبر ويفل على التقهقر نحو الاراضي المصرية . وتحرج الموقف البريطاني في مصر على يد روميل الذي اطلق عليه اذذاك ثعلب الصحراء .

اليونان ويوغوسلافيا :

كان موسوليني قد فكر في مغامرة اخرى بأن يقوم بالهجوم على اليونان من الاراضي الالبانية ، دون استشارة حليفه هتلر ما دام هتلر يتجاهله عند القيام بأي عدوان جديد في اوربا . لذلك وجه في اكتوبر ١٩٤٠ انذاراً الى الحكومة اليونانية متهماً اياها بالتحيز للحلفاء وعدم مراعاة الحياد ويطالب بحق ايطاليا في احتلال بعض المناطق الاستراتيجية في اليونان خلال الحرب . وقبل ان تعطى حكومة اليونان فرصة الرد عبرت قوات من الايطاليين والالبانيين

حدود اليونان في ٢٨ اكتوبر ، ومع ذلك فقد منيت قواته بهزائم منكرة ، وطردهم اليونانيون شر طردة ، وما وافى ختام العام حتى كان اليونانيون قد تمكنوا من التوغل في ارض البانيا نفسها مسافة ثلاثين ميلاً .

وقد اثارت هزيمة الايطاليين غضب « هتلر » لأنها في نظره تهدم اهدافه التوسعية نحو الشرق ، فقد كان في اشد الحاجة لبسط السيطرة الالمانية على دول البلقان المتنازعة ، حتى يصبح في موقف قوي عندما تحين ساعة الهجوم على روسيا . ولم تغب هذه الحقيقة عن انظار السوفييت الذين ازعجهم تـزايد النفوذ الالماني على حكومات المجر وبلغاريا ورومانيا ، الا انهم سكتوا آنذاك وفضلوا سياسة المصالحة مع المانيا ، الا ان هزيمة موسوليني في اليونان احرجت موقف هتلر ، وزاد من خطورة الموقف في البلقان ان بريطانيا لم تنهزم اخيراً بل كانت تحتل جزيرة كريت ، وتهدد النفوذ الالماني في البلقان بعد ان انزلت بعض قواتها على ارض اليونان .

لذلك طلب هتلر من حكومات كل من بلغـاريا ويوغوسلافيا السماح للقوات الالمانية ان تعبر اراضيها . وفي اول مارس ١٩٤١ ، وقع البلغاريون معاهدة تحالف مع المانيا وسمحت للقوات الالمانية بدخول صوفيا وفارنا ، وكانت حكومة الوصي على العرش بيوغوسلافيا على استعداد لقبول ما يفرضه هتلر الا ان الشعب اليوغوسلافي رفض رفضاً قاطعاً ان تحتذى يوغوسلافيا حذو بلغاريا ، وقامت في ٢٧ مارس ١٩٤١ ثورة عسكرية يؤيدها الشعب اليوغوسلافي وخلعت « بول » الوصي على العرش وتوجت الملك الشاب بطرس الثاني .

وعين الملك في الحال حكومة مناهضة للالمان . فانفجر غيظ هتلر ، وامر في ابريل باغارة الطائرات الالمانية لدك العاصمة بلغراد وارسل عشرين فرقة من قواته عبر الجبال للاستيلاء على المدن الهامة في يوغوسلافيا ، واضطر الملك وحكومته الى الفرار ، وقسم الالمان يوغوسلافيا الى قسمين : كراواتيا التي كانت تميل للالمان ، وصربيا التي اصبحت تحت السيطرة العسكرية الالمانية

المباشرة ، وبعد ان تم لهتلر ذلك النجاح في يوغوسلافيـــا تدفقت قواته نحو اليونان .

وفي ذلك الوقت بالذات ، كانت بريطانيا قد انزلت حوالي ٦٠,٠٠٠ من قواتها المدربة ،كان اغلبهم من الاستراليين والنيوزيلنديين على ارض اليونان ، ولكن كان على هؤلاء ان يواجهوا نصف مليون جندي الماني مجهزين بأفضل الاسلحة والمعدات تغطي سماءهم مظلة قوية من الطائرات الالمانية .

وقد كان الهجوم الالماني في الاراضي اليونانبة سريعاً وكاسحاً حتى ان اليونانيين — رغم ما ابدوه من بسالة واستماتة — فشلوا في صد العدوان وجاء الدور على البريطانيين الذين فشلوا فشلاً ذريعاً في المعارك اليونانية وخسروا خمسة عشر الف مقاتل واضطروا الى التقهقر السريع نحو البحر ، حيث تمكن الناجون منهم من الوصول الى جزيرة كريت . وهناك لاحقهم الالمان بالقصف الجوي ، وطردوهم من الجزيرة ، ثم انزلوا قواتهم فيها بالبراشوت ، وذلك في مايو ١٩٤١ .

وقد كان احتلال الالمان لجزيرة كريت كسباً عسكرياً على جانب كبير من الاهمية ، اذ اصبحت لهم قاعدة بحرية يهاجمون منها اسطول كننجهام الانجليزي ، ويقطعون منهـــا خطوط التموين الانجليزية عبر البحر الابيض المتوسط الى قوات الجنرال ويفل ، وفي الوقت نفسه أعطت هتلر قاعدة يقفز منها نحو الشرق الأوسط لو تمكن من تنسيق تلك العملية مع قوات روميل الزاحفة نحو مصر . الا انه ارتكب اكبر خطأ في حياته عندما فاتته تلك الفرصة بعد انتصاره في اليونان وكريت ووجه كل همه الى الهجوم على روسيا ، بكل ما يستطيع من عزم وقوة .

* * *

الفصل الثاني والعشرون

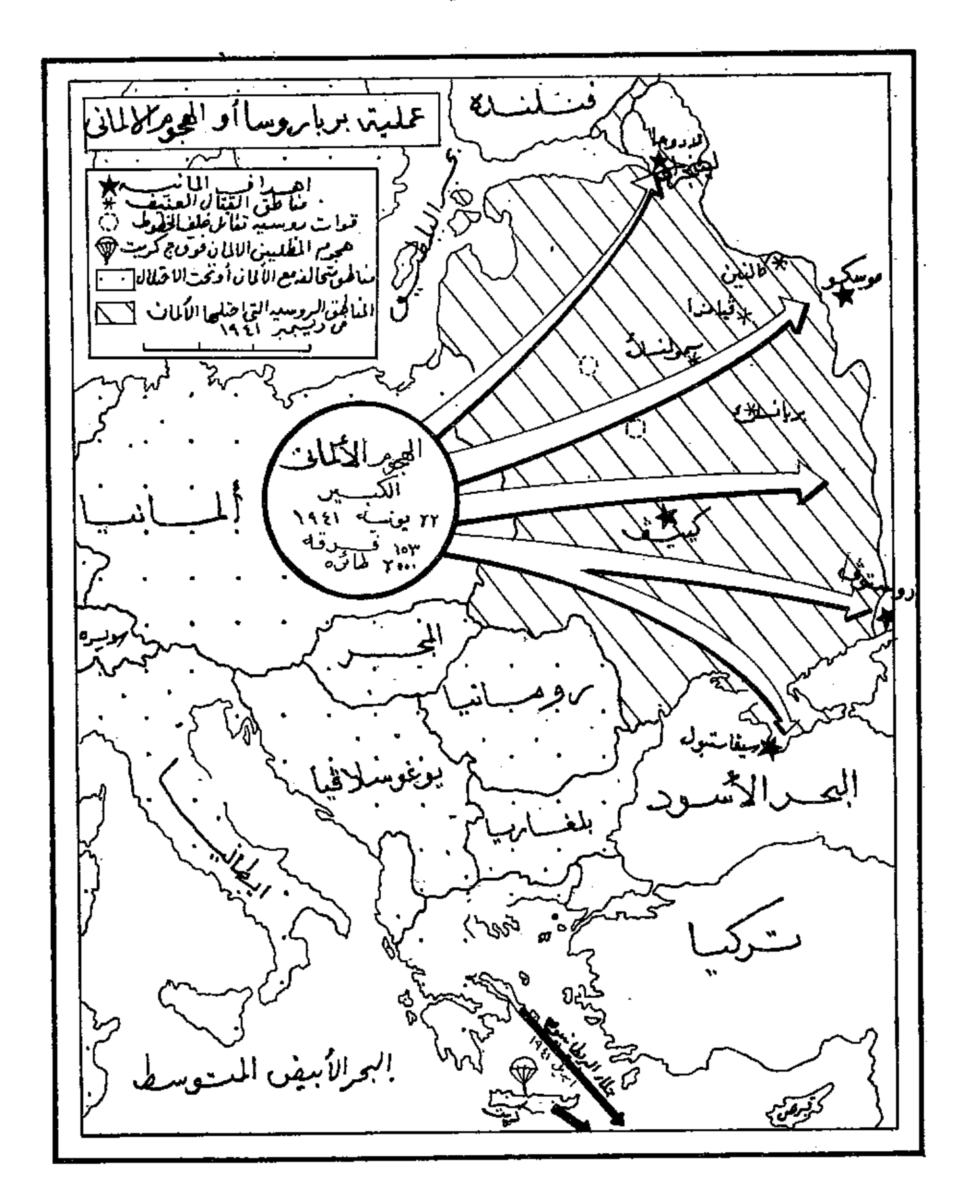
أتساع الصراع

الطريق الى موسكو وبيرل هاربر

هتلر يغزو روسيا :

شعر هتلر بأنه في مركز القوة في اوربا وان الوقت قد حان لبلوغ هدفه الكبير بالهجوم على الاتحاد السوفييتي . اما ستالين فلم يكن على استعداد تام لتلك المجابهة على الرغم من التحذيرات الكبيرة التي كان يسوقها تشرشل اليه ، وكان ستالين — حتى شهر يونيه ١٩٤١ — يرفض عقد اي تحالف مع بريطانيا ، ولم يحاول ان يثير اي مشكلة امام الالمان بل ظلت حكومته تفي بما اتفقت عليه بموجب المعاهدة التجارية (١٩٣٩) بارسال البضائع الروسية الى المانيا ، وسافر رئيس الوزارة السوفيتية مولوتوف الى برلين ليرد زيارة ريبنتروب عام ١٩٣٩ ، ورغم ان الحكومة السوفييتية قد ازعجها التقدم الالماني داخل بلاد البلقان فانها لم تحاول أن تنبس بكلمة احتجاج او معارضة ، بل على العكس نجد أن الحكومة السوفييتية تطرد من موسكو ممثلي حكومات المنفى للنرويج وبلجيكا ويوغوسلافيا واليونان وتعترف بحكومة الانقلاب

العراقي (رشيد عالي الكيلاني) الموالية للالمان ، وكانت القطارات تسير بانتظام مارة بمحطات الحدود حاملة البضائع بصورة اعتيادية ، وكان القطار الدولي الذي يسير من برلين الى موسكو مستمراً في مسيره .



ولكن بمرور الزمن ، بدأ ستالين يقتنع بأن الهجوم النازي على روسيا اصبح لا مفر منه ان عاجلاً وان آجلاً وأن على روسيا أن تستعد له . وكانت أول خطوة رآها ضرورية في هذا السبيل أن يحذر من الحرب في جبهتين ولذلك قام ببعض اتصالات دبلوماسية مع اليابان وقع على اثرها معاهدة حياد وعدم اعتداء مع حكومتها . ثم أخذ يضاعف الانتاج الصناعي الحربي . ونقل الصناعات الحيوية من مصانعها في غرب روسيا الى اماكن امينة في منطقة الاورال ، وجند مئات الالوف من الشباب للتدريب في المدارس الفنية ، واخيراً رأى أن يتولى بنفسه رآسة حكومة الاتحاد السوفييتي (مايو ١٩٤١) .

وعندما بدأ هتلر في تنفيذ مخططه ضد روسيا لم يكن هدفه واضحاً ولكن قيل في ذلك انه كان يرى ان غزو انجلترا لا يمكن ان يتم بنجاح في الوقت الذي يرجح فيه أن روسيا قد تنتهز الفرصة لضربه من الخلف . وقيل ايضاً أن عجزه عن كسب معركة بريطانيا جعل جهوده تتحول الى حرب استنزاف ضده نتيجة للحصار الذي فرضته بريطانيا ، وتصبح المانيا محرومة من المواد الغذائية والمعادن والبترول ، وبما أن الاتحاد السوفييتي يملك كل هذه الموارد ، يستطيع الغزو الالماني لروسيا تحقيق توفير كل ما يحتاجه هتلر ويعوضه عن الحصار الذي عزله عن العالم فيما وراء البحار . وشجع هتلر على الاقدام على الغزو ما مني به الروس من هزائم في حربهم ضد فنلنده مما جعله يسيء تقدير قوة الروس ويعتقد أنهم لن يستطيعوا الصمود امام جحافل القوات النازية ، وكذلك فشلت المخابرات العسكرية الالمانية في تقدير قوة الروس الصناعية وقدرتهم على مد القوات الروسية المستمر بالدبابات والطائرات والذخائر .

ومهما يكن من أمر هذه التكهنات عن الاسباب التي دفعت بهتلر نحو الهجوم على روسيا ، فقد وضعت القوات النازية في يونيو عام ١٩٤١ على اهبة الاستعداد في الجبهة الشرقية ، ففي الشمال ، ارسلت المدافع والدبابات الى فنلنده ، وفي الجنوب اعطيت الاوامر لرومانيا لحشد قواتها على الحدود

الروسية ، وتحولت الجيوش الالمانية من الغرب الى الشرق . وفجأة ، وبدون سابق انذار ، امر هتلر قواته في ٢٢ يونيه باجتياح الحدود الروسية من عدة جهات ، واعلن للشعب الالماني ان ذلك الغزو الجديد انما يستهدف تحرير اوربا كلها من خطر الشيوعيين وانقاذ الشعب الالماني من أخطر عدو يتربص به ويستعد سراً للانقضاض على المانيا ، وقال هتلر انه لا يسعه الانتظار طويلاً لئلا يستكمل الروس استعداداتهم ، ووصلت معلومات سرية بأن الروس يقومون باجراء تدريبات تستهدف البدء باحتلال بروسيا الشرقية ، وأن القوات الروسية يزداد عددها في غاليسيا .

لذلك قرر هتلر ان يسبق الهجوم الروسي الذي تخيله بهجوم خاطف وقد خالفه بعض القواد العسكريين وعلى رأسهم القائد « رونشتد » بسبب امتداد الجبهة الروسية على مسافة ألف وثمانمائة كيلومتر ، ولسوف تزداد عرضاً كلما ازداد التقدم نحو الشرق ، لأن الروس يعملون دائماً على استدراج المهاجم الى الداخل بالانسحاب السريع نحو الشرق ، الا ان هتلر لم يصغ لهـذه الاعتراضات ، ووضع خطة تستهدف تطويق القوات الروسية اينما وجدت لقطع خط تراجعهم نحو الشرق ، ثم امر بالهجوم .

واستطاع الالمان في يومين اثنين تحطيم ألفي طائرة روسية وهي رابضة على الارض في مطاراتهـا وهي تشكل ثلث الاسطول الجوي الروسي ، واتجهت ثلاث طوابير مؤلفة من ثلاثة ملايين جندي نحو كل من موسكو ، ولينينجراد ، وكييف ، مكتسحين كل ما امامهم من وسائل دفاعية . وفي اوائل الشتاء كانت القوات الالمانية تحاصر لينينجراد دون الاستيلاء عليهـا بسبب صمود القوات الروسية واشتراك المقاومين المسلحين من عمال المصانع في الدفاع يؤيدهم كل السكان في مقاومة مستميتة باسلة اوقفت تقدم الالمان نحو المدينة .

وقد فقد الروس ما لا يقل عن مليون ما بين قتيل واسير ، وواصلت القوات المتجة نحو موسكو سيرها واصبحت على وشك الوصول اليها

وتمكنت القوات التي كانت تزحف نحو الجنوب من الاستيلاء على كييف وبدأت تتقدم نحو خاركوف وآبار البترول القوقازية ، ولهذا كان موقف الاتحاد السوفييتي في خريف عام ١٩٤١ خطيراً ومنذراً بأفدح الكوارث ، وخشي الحلفاء من تحطيم المقاومة ، الا ان الجيش الاحمر وصمود الشعب الروسي غيرا ميزان القوى ، واستطاع بقيادة الجنرال زوكوف أن يطرد الالمان من ضواحي موسكو ومن مدينة روستوف (Rostov - on - Don) في الجنوب .

ولقد كان للهجوم النازي على روسيا أثره الخطير في الخارج ، ففي انجلترا اعلن تشرشل انه على الرغم من أنه لم يغير رأيه في الشيوعية الا أنه يرى مساعدة أية دولة تحارب النازية ولذلك فان بريطانيا سوف تمد روسيا والشعب الروسي بكل ما تستطيع من عون . وفي ١٣ يوليه ١٩٤١ اصبح الاتحاد السوفييتي وبريطانيا حليفين ، وطار مندوبون عن بريطانيا والولايات المتحدة الى موسكو للاتفاق على انواع المساعدة التي يحتاجها الروس لكسب المعركة ضد هتلر .

وفي اثناء ذلك كانت القوات الالمانية عاجزة عن تحقيق اهدافها رغم ان بعضها كان على مرمى النظر من الكرملين . وظل الموقف مجمداً هكذا حتى حل الشتاء مبكراً ، فكان ذلك الشتاء القارس اكبر عامل فعال في هزيمة هتلر كما فعل من قبل في نابليون بونابرت[1] ، ففي أواخر نوفمبر أثر الصقيع على وسائل المواصلات الالمانية والدبابات والاسلحة المتحركة ، وجعل قوات الغزو تتجمد في اماكنها امام برد قارس لم يستعدوا له بما يحتاجه ووقفوا عاجزين امام هجمات الجنرال الروسي زوكوف التي كان يقوم بها ضد الغزاة شمال وجنوب موسكو .

---

(١) انحى هتلر فيما بعد باللائمة على موسوليني بسبب مغامرته الفاشلة في اليونان التي سببت في تأخير هجومه على روسيا خمسة أسابيع – وابدى ندمه على الثقة التي وضعها في صديقه .

ولم يجد كبار القواد الالمان بدأً من ان يقترحوا انسحاباً عاماً يسمح للقوات الالمانية فيما بعد – عندما يحل الربيع – ان تتجمع استعداداً لمعاودة الهجوم. ورفض هتلر رفضاً قاطعاً ان يتقبل هذه الخطة، لانه اعتقد أن مثل هـذا الانسحاب العام في مثل تلك الظروف يقود الى انحلال تام في خط القتال، وعمد الى اجراء تغيير في القيادات في محاولة لتعزيز جبهة الالف ميل، وتولى بنفسه القيادة.

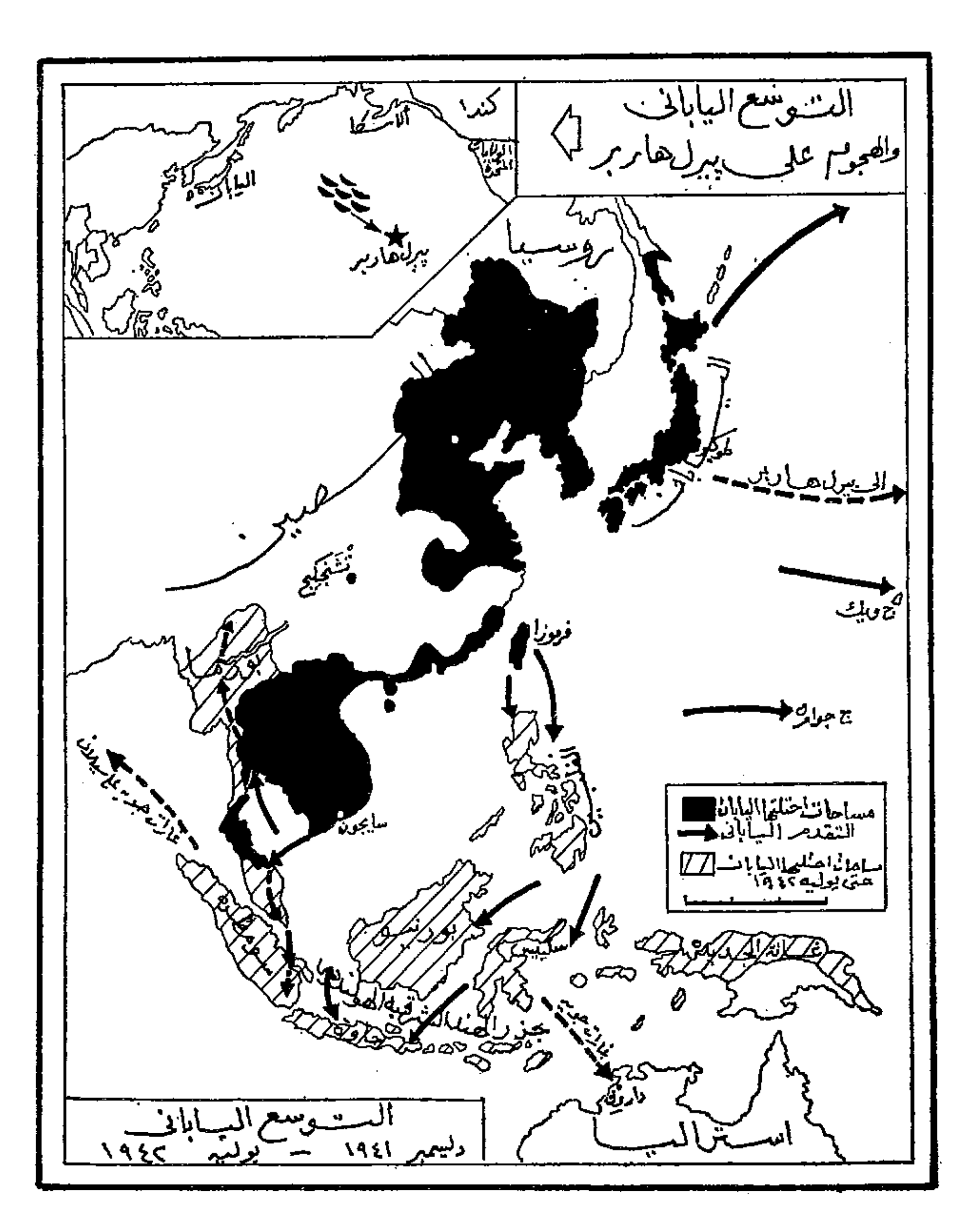
ولم يكن موقف الروس بأسعد من موقف الالمان، فقد خسروا في معاركهم اكثر من مليون اسير بالاضافة الى القتلى من جنودهم، وفقدوا مناطق شاسعة من اراضيهم. وبقي أن يصمدوا أمام ضربات جديدة، قد تحل بهم في الربيع.

وعندما تقابل الرئيس روزفلت وتشرشل في اول اجتماع لهما زمن الحرب على ظهر السفينة الحربية الامريكية (اوجستا) تجاه ساحل نيوفوندلاند في اغسطس ١٩٤١، كان الجو المسيطر على ذلك اللقاء جو شك في المقدرة الروسية على وقف العدوان الالماني، ولكنهما اتفقا على مدهم بما يستطاع من المساعدة. فكانت انجلترا ترسل اليهم من المعدات ما كانت هي نفسها في حاجة اليه، وقبل منتصف عام ١٩٤٢ كان من المقرر أن يرسل الانجليز الى الروس اكثر من ٢٤٠٠ دبابة و ١٨٠٠ طائرة وترسل الولايات المتحدة الفين من الدبابات المتوسطة والخفيفة و ١٣٠٠ طائرة – وقد كان لذلك المدد الهام أثره في عدوان هتلر عام ١٩٤٢.

ميثاق الاطلنطي ١٩٤١

على ان ستالين لم يكن مقتنعاً بمدى ما يقدمه الحلفاء لروسيا وخصوصاً انهم لم يعدوا بشيء بخصوص مطالب الاتحاد السوفييتي في الحدود البولندية بل على العكس، اعلن روزفلت وتشرشل في ميثاق الاطلنطي الذي اعلن في ١٢ اغسطس مبدأ عدم السماح لأي دولة بالتوسع اثناء الحرب، والا

تحدث تغييرات في الحدود بغير موافقة الشعوب المعنية ، وكل شعب حر في اختيار نوع الحكومة التي يرضى عنه وان يعيش في سلام بعيداً عن الخوف



والحاجة والعدوان، ووجوب ايجاد خطط لتحسين الأحوال الاقتصادية والاجتماعية بعد الحرب ، ونزع سلاح المعتدين وتشجيع كل الاجراءات العملية الكفيلة بتخفيف عبء التسلح عن كواهل الامم المحبة للسلام ، وتحقيق مستوى أعلى للعمال ، والضمان الاجتماعي .

ومع توقيع الولايات المتحدة على بنود هذا الميثاق ظلت فترة متمسكة بعدم التورط في دخول الحرب الفعلية ، ولكن تحرش احدى الغواصات الالمانية باحدى المدمرات الامريكية جعل روزفلت يعلن أن السفن والطائرات الامريكية سوف تضرب الغواصات الالمانية او الايطالية التي تظهر امامها في منطقة الدوريات الامركية ، وهي منطقة كانت تمتد حينئذ الى ايسلنده .

وكان لهذا الموقف الدقيق ان يتمخض عن حادثة تؤدي الى اعلان الحرب بين امريكا والمحور ، الا ان اليابانيين تولوا تلك المهمة عندما قاموا بالعدوان الجوي على بيرل هاربر .

الهجوم الياباني (بيرل هاربر)

في سبتمبر ١٩٤٠ ، وقعت اليابان مع المانيا وايطاليا على ميثاق ينص على ان « تساعد كل منهما الاخرى بكافة الوسائل السياسية والاقتصادية والعسكرية اذا هاجمتها دولة غير مشتركة اذذاك في الحرب الاوربية او في الصراع الصيني الياباني » . وكان القصد الرئيسي من هذا الميثاق تحذير الولايات المتحدة من مد يد المساعدة للدول الغربية ، وفي الوقت نفسه فانه لا يجبر اليابان على مساعدة المانيا في حالة عدوانها على الاتحاد السوفيتي ، وبعد ذلك ، في ابريل سنة ١٩٤١ وقع اليابانيون والروس ميثاقاً بوقوف كل من حكومتيهما على الحياد ، اذا دخلت احداهما حرباً مع دولة او دول اخرى .

لذلك لم تكن اليابان مضطرة الى مد يد المساعدة المباشرة للالمان في عملياتهم العسكرية التي بدأت في يونيه ١٩٤١ ، ومع ذلك فانها بعد ستة اشهر من ذلك التاريخ قدمت مساعدة غير مباشرة للالمان عندما بدأت هجومها على املاك

الولايات المتحدة وبريطانيا في المحيط الهادي وشغلتهما عن مد يد المعونة الفعالة للاتحاد السوفييتي .

والواقع ان الاطماع التوسعية لليابان ازدادت قوة وشراسة منذ قيام الحرب في اوربا ، فقد شجعها سقوط هولنده وفرنسا وانهاك بريطانيا في الميادين الاوربية وحوض البحر المتوسط على وضع يدها على الاملاك الفرنسية والهولندية والبريطانية في المحيط الهادي ، ومنذ يونيه ١٩٤٠ كانت حكومة طوكيو تعمل على كسب حقوق خاصة في شبه جزيرة الهند الصينية واضطرت حكومة فيشي الى منح اليابانيين قواعد جوية في تونكين ، ولم تقف الاطماع اليابانية عند هذا الحد ، فقد انزلت اليابان بعض قواتها في اراضي الهند الصينية وسيام وبدأت تتحرك نحو بورما ونحو الاملاك الهولندية في اندونيسيا والقاعدة البحرية البريطانية في سنغافوره .

وقد ازعجت تلك التحركات اليابانية حكومة الولايات المتحدة التي كانت تعارض الاطماع اليابانية منذ عام ١٩٣١ ، وطالما قدمت كل ما استطاعت من معونات الى حكومة تشانج كاي شيك في الصين وخصوصاً عندما وقع العدوان الياباني على اراضيها عام ١٩٣٧ . ولكنها كانت تتردد في اتخاذ خطوات فعالة لمساعدة حلفائها الغربيين ، حتى انها لم تستجب لاقتراح تقدمت به الحكومة البريطانية الى حكومة روزفلت بارسال الاسطول الامريكي الى سنغافورة ، واكتفت بمحاولة الضغط الاقتصادي كحظر التعامل التجاري مع اليابان وتجميد اموالها في الولايات المتحدة . ولم تجد هذه السياسة نفعاً ولم تحد من تصميم اليابانيين على المضي في تنفيذ المخطط الذي رسموه للتوسع وطـرد الاوروبيين من الشرق الاقصى .

وظلت الاتصالات الدبلوماسية بين الحكومتين الامريكية واليابانية منذ اوائل عام ١٩٤١ ، ولكنها كانت تنطوي على مفاوضات عقيمة بين طرفين لا يثق احدهما في الآخر ، وتتعارض مصالحهما على طول الخط ، فالولايات المتحدة تصر على عودة سياسة (الباب المفتوح) في الصين ، وعودة الامور

في الشرق الاقصى الى الموقف الذي كانت عليه قبل حادث سبتمبر عام ١٩٣١، واخيراً تصر على وقف التوسع الياباني .

وفي شهر مارس سنة ١٩٤١ قال روزفلت للسفير الياباني الذي ارسله (كونوي) رئيس وزراء اليابان لمحاولة الوصول الى تفاهم بين الدولتين «ان القيام بأي عدوان جديد قد يدفع امريكا الى دخول الحرب ضد اليابان». ولم يجد ذلك التهديد فتيلاً لدى اليابانيين ، فالفرصة سانحة امامهم للانفراد بالعمل في الشرق الاقصى . ولكن هذا التصميم لم يمنع استمرار الوفد الياباني من المفاوضة في واشنجطن بقصد ازالة الاحتكاك بين الدولتين ، وما وافى شهر اكتوبر حتى كانت اليابـــان قد ابتلعت كل الهند الصينية الفرنسية .

وبينما كان الوفد الياباني لا يزال يفاوض الامريكيين انقضت فجأة قاذفات القنابل المحمولة بحراً على حاملات الطائرات في صباح ٧ ديسمبر سنة ١٩٤١ وامطرت الاسطول الامريكي المتجمع في القاعدة البحرية الكبرى في بيرل هاربر بجزر هاواي فأغرقت قطعه الحربية الكبرى اريزونا وفرجينيا الغربية واوكلاهوما وحطمت خمساً اخرى من سفنه الحربية وقتلت ٢٣٤٣ وجرحت ١٢٠٠ ، وبذلك خسرت الولايات المتحدة اقوى قطعها البحرية وقضي بضربة واحدة على تفوقها البحري في المحيط الهادي ، وعقب تلك الضربة مباشرة اعلنت اليابان الحرب على بريطانيا ايضاً .

وتوالت بعد ذلك الضربات اليابانية ، فأغرقت البحرية اليابانية بارجتين بريطانيتين كبيرتين (البرنس اوف ويلز ٣٥٠٠ طن و (ريبلس ٣٢٠٠٠ طن) في ١٠ ديسمبر ١٩٤١ — وبعد شهر تمكنت القوات اليابانية من غزو شبه جزيرة الملايو . واستولت على سنغافورة المنيعة التحصين في ١٥ فبراير ١٩٤٢ بعد ان استسلم حماتها البالغ عددهم ٦٠,٠٠٠ ، وفي الوقت نفسه غزت القوات اليابانية بورما وطهروها من القوات البريطانية والصينية واغلقوا طريق بورما الرئيسي الذي يرسل الحلفاء عبره الامدادات للصين واقاموا في بورما حكومة موالية لليابان . وفي منتصف فبراير حطم الاسطول الياباني في

بحر جاوه قوة بحرية للحلفاء تتكون من خمس بوارج وست مدمرات وبذلك فتح الطريق لغزو جميع جزر الهند الشرقية الهولندية .

وطرد اليابانيون القوات الامريكية من جزر الفلبين بعد ان استسلمت حاميتها وبذلك بات من المؤكد عجز الحلفاء عن مجابهة اليابانيين في الشرق الاقصى ، وتوقعوا ان تكون الضربة القادمة غزو استراليا ، وربما تكون الهند هدفاً آخر بعد ان بلغت الجيوش اليابانية (اكباب) على خليج بنغال .

وكانت الفرصة سانحة لليابان في ذلك الحين — نظراً لتفوقها البحري في المحيط الهادي وبحار شرقي آسيا — أن تستولي على الممتلكات الامريكية والهولندية فاستسلمت هونج‌كونج في آخر ديسمبر ١٩٤١ ، وجزر الهند الشرقية الهولندية في مارس ١٩٤٢ ، وانسابت القوات اليابانية في الملايو حيث استولت على كوالالمبور وتوغلت في جوهور واضطرت القوات البريطانية الى الجلاء عن الملايو في شهر يناير ، وتبع ذلك تقدم اليابانيين نحو بورما وهزموا قوات من الحلفاء كانت تشتمل على وحدات صينية يقودها الجنرال ستلول (Stelwill) والجنرال تشنج كاي تشك .

* * *

الفصل الثالث والعشرون

تحول المد وانتهاء الحرب

١٩٤٢ – ١٩٤٥

الحلف الكبير :

بلغت انتصارات محور « روما – برلين – طوكيو » أوجها في ربيع ١٩٤٢ ، ثم بدأت نقطة التحول في نهاية ذلك العام عندما تسلم الحلفاء زمام المبادرة وشاهد عام ١٩٤٣ بداية النهاية بالنسبة لدول المحور ، حيث تحول الحلفاء الى الهجوم في الشرق الاقصى ، وشمال افريقية .

وكانت أول خطوة خطاها الحلفاء بعد أن استفاقوا من صدمة بيرل هاربر اقدامهم على تنسيق التعاون بين الولايات المتحدة وبريطانيا ، وقد تجلى ذلك التعاون قبل أن تدخل الولايات المتحدة الحرب رسمياً وذلك حين اجتمع روزفلت وتشرشل في يونيه ١٩٤١ وقررا مد يد المعونة الفعالة للروس حتى يصمدوا امام العدوان النازي ، واصدار تصريح الاطلنطي في مقابلتهما الثانية (١٤ اغسطس ١٩٤١) حيث نصت وثيقة ذلك الميثاق على أن الطرفين لا لا يبغيان أي توسع اقليمي أو غيره ، ولا يوافقان على اجراء اي تغييرات

اقليمية لا تتفق ورغبات الشعوب المتصلة بها ، وانهما يحترمان حق الشعوب في اختيار نظم الحكم التي تناسبها ، وضمان المساواة بين الدول جميعاً في التجارة العالمية وتحقيق تعاونها تعاوناً كاملاً من اجل التقدم الاقتصـــادي والاجتماعي ، وخلق عالم « يعيش فيه الناس في كل انحاء الارض آمنين من شر الخوف والفقر » ، ومع أن هذه المبادىء التي اعلنها الحلفاء لم تطبق ولم تحترم بعد انتهاء الحرب الا انها اعادت الثقة عند الشعوب المتطلعة الى الحرية في عام ١٩٤٢ .

وبدأ الدور الفعلي للولايات المتحدة في بذل اقصى ما لديها من جهد وانتاج للتعاون مع حلفائها في سبيل دحر دول المحور في كل الميادين ، وقد ساعدت الاسلحة الامريكية فعلاً في صد الهجوم الكاسح الذي بدأه « رومـــل » في افريقيا ، وفي مد روسيا بالاسلحة والمعدات التي انقذتها من العدوان النازي .

الحرب في المحيط الهادي :

وكان لا بد للجهود الامريكية أن تقسم بين الحرب في المحيط الهادي ضد اليابان ، ومساعدة حلفائها في اوربا ، ولكن معظم الجهد كان موجهاً ضد اليابانيين الذين حازوا في مبدأ الامر انتصارات خاطفة ، وتمكن الامريكيون في عام ١٩٤٢ من توجيه ثلاث ضربات قاصمة لليابانيين ، اولها مهاجمـــة الطائرات الامريكية للاسطول الياباني المتجمع في بحر كورال بين استراليا وجزائر سليمان واغراق حوالي اربع عشرة قطعة بحرية مما اضطر اليابانيين الى التقهقر نحو الشمال وبذلك زال خطر احتمال غزوهم لجنوب شرق استراليا. كذلك هزم اليابانيون عندما حاولوا الاستيلاء على جزيرة (مدواي Midway) الواقعة في منتصف المحيط الهادي بقصد جعلها قاعدة للهجوم على مجموعة جزر هاواي ، ففي مايو ١٩٤٢ تجمع الاسطول الياباني المكون من مائتي قطعة بحرية مختلفة وسبعمائة طائرة نحو مدواي ، وفي ٤ يونيه بدأ الهجوم بغارة جوية اشتركت فيهـــا سبعون طائرة . واستطاعت البحرية الامريكية والطائرات

المعترضة اسقاط اربعين منها واصيبت بقية الطائرات بحيث لم تعد صالحة للعمل ، وبدأ سلاح الجو الامريكي يضرب الاسطول الياباني لمدة اربعة ايام على التوالي فاشتعلت فيه النيران ومني بأفدح هزيمة في تاريخ البحرية اليابانية .

وعلى الرغم من ان تلك الهزيمة قد عاقت تقدم اليابانيين بعض الوقت الا أنها لم تكن حاسمة في وقف ذلك التقدم . وظل الامل يراودهم في غــزو استراليا ، الا أن تلك المهمة كانت فوق مستوى طاقاتهم امام الاستعدادات القوية التي يملكها الامريكيون ، وانهزموا اثناء محاولاتهم الاستيلاء على بورت مورسبي (Port Morsby) في غينيا الجديدة ، وفي اغسطس ١٩٤٢ تمكنت البحرية والقوات الامريكية من منعهم من تحقيق اهدافهم ، وظل التقـــدم الامريكي في المحيط الهادي يسير سيراً حثيثاً حتى قضي نهائياً في منتصف عام ١٩٤٣ على حلم اليابان في تأسيس امبراطورية واسعة تتحكم في المحيط ، وبذلك تم للحلفاء السيطرة على المنطقة الواسعة جنوب غربي المحيط الهادي .

وفي أواخر عام ١٩٤٢ واوائل عام ١٩٤٣ ، انقلب ميزان القوى ، وازداد انتاج الولايات المتحدة للذخائر الحربية التي بدأت تتدفق على الحلفاء ، اضف الى ذلك التقدم العلمي الباهر في الابحاث المتعلقة بالحرب فقد تمكن الانجليز من اختراع الرادار الذي ادى خدمة جليلة في سبيل كسب معركـــة بريطانيا ، واشترك الامريكيون في ادخال التحسينات الفنية اللازمة لكي يصبح الرادار عنصرا فعالاً في مجابهة الغارات الجوية ومراقبة الغواصات المعادية ، وعكف العلماء عـــلى اختراع الصواريخ وابحاث الـــذرة — وقد كان معروفاً لدى الامريكيين ان الالمان يستطيعون انتاج القنبلة الذرية لو توفر لديهم المال والمواد التي تصنع منها ، وهذا ما دعا اينشتين وغيره من العلماء الى ان يحثوا روزفلت على الاذن بالبدء في اجراء الابحاث اللازمة لصنعها قبل ان يتوصل الالمان الى صنعها .

والواقع ان الولايات المتحدة ، بامكانياتها المادية والفنية والصناعية — كانت

هي الدولة الوحيدة التي تستطيع تمويل وتصنيع ذلك السلاح الفتاك ، فقد اجتمع لديها الى جانب المال عدد من العلماء الامريكيين والبريطانيين ومعهم بعض العلماء من اللاجئين الاوربيين عكفوا جميعاً على الدراسة النظرية التي يستتبعها المضي في انتاج تلك القنبلة . ومما هو جدير بالذكر ان الحكومة البريطانية كانت قد كلفت علماءها بالبدء في دراسة المشروع ولكن المال الباهظ الذي يحتاجه إنجازه وقف حجر عثرة في سبيل ذلك ، ففاوضت الحكومة الامريكية للتعاون معها لاتمام المشروع ، وتبادل الطرفان المعلومات التي توصل اليها العلماء في كل من البلدين ، واتفقا في عام ١٩٤٢ على جعله مشروعاً مشتركاً . وفي ٢ ديسمبر ١٩٤٢ ، تم في جامعة شيكاغو اكتشاف عنصر جديد مستمد من اليورانيوم يقوم عليه نجاح تفجير القنبلة الذرية ، وعكف فريق من علماء الدولتين لانتاج القنبلة الذرية وتم صنعها فعلاً بعد ان تكلف المشروع ٢,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دولاراً ، واصبحت معدة لأول اختبار لها في ١٦ يوليه ١٩٤٥ .

بداية التحويل :

ظل النصر محالفاً لهتلر اكثر من ثلاث سنوات ، ثم بدأ يتحول منذ خريف عام ١٩٤٢ الى هزائم متتابعة . ولعل أهم ما حققه الحلفاء وأثر تأثيراً بالغاً في ذلك التحول انهم استطاعوا الصمود في معركة بريطانيا الجوية ، ووقف تحركه امام موسكو ، والحاق الهزيمة بحليفه موسوليني في البحر الابيض المتوسط ، حتى اذا اوشك عام ١٩٤٢ على الانتهاء كان الروس صامدين في ستالنجراد ، والبريطانيون يزحفون من مصر نحو الغرب ، والامريكيون ينزلون في شمال افريقيا ، ومنذ ان بدأت العمليات الحربية المنسقة تنزل الهزائم بالاعداء ، كان من الواضح ان النصر سوف يكون حليف بريطانيا والاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة .

معركة ستالينجراد :

كان هتلر مصمماً على كسب معركة ستالينجراد بينما كان ستالين أشد

منه تصميماً على دحر القوات الالمانية مهما كانت التضحيات ، ولكي يضمن هتلر عدم معارضة قواده الكبار في المضي بالحرب الى آخر المطاف اقدم على تغيير القيادة العسكرية وابدلهم بقواد من الشبان الذين كانوا اكثر التصاقاً بالحزب النازي ومبادئه .

وكانت الخطة الجديدة في الميدان الروسي هي تركيز القوات الالمانية في جبهة واحدة فقط في الجنوب حيث ظن هتلر ان باستطاعته احراز النصر الذي فاته عام ١٩٤١ . اما في الشمال والوسط فتظل القوات الرابضة هناك محتفظة بالارض التي استولت عليها ، وكان الالمان قد فشلوا في الاستيلاء على موسكو واضطروا ال الانسحاب منها ولكنهم كانوا لا يزالون يقبضون بيد من حديد على مدينة لينينجراد .

اوشك فصل الشتاء على الانتهاء وجفت الارض مما تراكم عليها من طين وماء ، وبدا لهتلر ان الوقت قد حان لكي يضرب ضربته التي خطط لها بالهجوم من اكرانيا على ستالينجراد والفولجا وبحر قزوين وبذلك يقسم الاتحاد السوفييتي الى قسمين ، وكان يأمل انه بالاستيلاء على القوقاز يحرم الجيش الاحمر من اهم مورد لزيت البترول وفي الوقت نفسه يحل مشكلة النقص الخطير في امداد قواته بذلك المورد الهام .

وكانت الدبابات الالمانية قد تقدمت من قبل خلال الصيف واجتاحت مدينة سيفاستبول في القرم ومدينة روستوف وما لبثت القوات الالمانية ان اصبحت على مقربة من آبار البترول في منطقة جروزني (Grozny) شمال القوقاز ووصلت طلائع دورياتهم ساحل بحر قزوين . وفي الوقت نفسه بدأت معركة ستالينجراد في ٢٢ اغسطس .

ومدينة ستالنجراد ، الواقعة على نهر الفولجا ، هي ثالث مدينة يقدسها الروس بعد لييننجزاد وموسكو ، واقرب المدن الروسية الى قلب ستالين حيث كان يعتبرها رمزاً لقوته . وقد تمكن الالمان من الوصول الى ضواحي تلك

المدينة في منتصف سبتمبر وعندئذ بدأت اخطر تجربة للصمود الحربي والشعبي في تاريخ الحرب العالمية الثانية . واخذ العالم كله يترقب الصراع الدامي الذي جرى بين الروس والالمان حول المدينة وفي داخلها ، اذ لو تمكن الالمان من الاستيلاء عليها لسهل عليهم العودة للاستيلاء على موسكو من الجنوب الشرقي ، وعندئذ يصبح في يدهم قطع مورد البترول الضروري للروس ، من الناحية العسكرية والاقتصادية ، ويسهل على جيوشهم في الجنوب ان تتقدم لاكتساح الجنوب حيث يسهل بعد ذلك الانضمام الى جيوش روميل لو نجحت في التقدم نحو القاهرة .

على ان ستالين كان مصمماً على الاستماتة في الدفاع عن ستالينجراد ، ففي ٢٤ نوفمبر ١٩٤٢ بدأت معركة حياة أو موت بالنسبة للروس والالمان على السواء ، ومع ان الجيش الالماني السادس المؤلف من ٣٠٠,٠٠٠ تحت قيادة الفيلد مارشال (فردريك باولس) استطاع تحطيم المدينة وتحويلها الى انقاض من الحجارة الا ان الهجمات الروسية المضادة التي استمرت زهاء خمسة اشهر قضت على انتصارات الالمان ، وفي ٣١ يناير ١٩٤٣ اسر القائد الالماني باولس وضباطه وابيد جيشه تقريباً ، واستسلم الباقون وعددهم ٩١,٠٠٠ ، وهكذا انتهت اعظم معركة في تاريخ البشرية ، وكانت نقطة تحول كبيرة في الحرب القائمة بين روسيا والمانيا .

وكانت بداية عام ١٩٤٣ ظاهرة لهذا التحول الخطير ، فقد سجل الجيش الاحمر اعظم انتصاراته التي اخذت تتوالى في المعارك القادمة ، واصبح انسحاب الالمان من القوقاز امراً مقضياً لا شك فيه .

وازداد حماس الروس اشتعالاً بعد ان استسلم الجيش السادس الالماني واسر قائده ، وما هو جدير بالذكر انه حين تأزم الموقف في ستالينجراد ظهر هناك ستالين لفترة قصيرة وسط المعركة ، وسرعان ما انتشرت عبارة « ستالين معنا » في خنادق المحاربين ، وكان لهذه الكلمة صدى ساحر في النفوس بعث

الحماسة والاستماتة في القتال في الخنادق وفي شوارع المدينة المحاصرة وفي الوديان والتلال .

وكان للنصر الكبير في معركة ستالينجراد اثره البالغ في اضفاء هالة من المجد على ستالين الذي انعم عليه المجلس السوفييتي الاعلى برتبة مارشال الاتحاد السوفييتي . وجاء بعده مباشرة في قائمة الابطال المارشال زوكوف بطل معركة موسكو وهو الذي انقذ المدينة بعد ان كان الالمان على ابوابها .

والواقع ان المعونات والمعدات الحربية التي تدفقت على روسيا من الحلفاء – وخاصة امريكا – كان لها اكبر الاثر في حسم الموقف في الجبهة الشرقية ومع ذلك فان ستالين لم يكن قانعاً بتلك المساعدات الفعالة ، فقد ظل يطالب بريطانيا والولايات المتحدة بفتح جبهة قتال ثانية في اوربا ، لكي يخفف العبء الذي كانت تتحمله القوات السوفييتية وحدها في ذلك الحين ، وكان رد روزفلت ان الجبهة الثانية متمثلة فعلاً في الحرب الدائرة ضد روميل في الصحراء .

واخيراً ، جاء الوقت الذي استطاعت فيه الجيوش السوفييتية طرد الالمان وتتعقبهم نحو الشرق في اوربا .

شمال افريقية ومعركة العلمين :

وفي الوقت الذي انقلب فيه ميزان القوى في الشرق الاقصى بانتصار الامريكيين في العمليات الحربية التي دارت رحاها في المحيط الهادي وتكبيد الاسطول الياباني خسائر فادحة في معركة بحر المرجان وغيرها مما اضطره الى العدول عن توجيه ضربته الى استراليا ، في تلك الايام بالذات كانت المهمات الحربية تتدفق الى ميادين الحرب في اوربا وافريقية وتؤثر ابلغ الاثر على النتائج التي بلغها روميل القائد الالماني في انتصاراته الكاسحة في شمال افريقية .

وكان روميل قد بدأ عملياته ضد القوات البريطانية في تلك المنطقة منذ

وصوله في شهر ابريل ١٩٤١ ، حيث طارد تلك القوات حتى الاراضي المصرية وعزل ميناء طبرق بمن فيها من القوات الاسترالية التي عانت كثيراً من الغارات الجوية اليومية . ومع ما بلغه روميل من انتصار ساحق فقد كان منزعجاً من مستقبل الحملة التي قام بها لان هتلر لم يلب طلبه الذي ألح في تحقيقه وهو مده بالمعدات والامدادات ووسائل التموين لكي يتم نجاح الحملة بدخول مصر نفسها . وكان من السهل عليه التقدم والوصول الى القاهرة وقناة السويس لو استجاب هتلر الى طلبه وامده بثلاث فرق من الدبابات ، وكانت خطته ترمي بعد ذلك الى التقدم نحو البصرة لقطع الامدادات الامريكية عن روسيا التي تتدفق عبر الخليج الفارسي العربي .

ولكن هتلر كان اذذاك مشغولاً بحملته في روسيا بحيث لم يستطع امداد روميل بكل حاجاته وكان ذلك من حسن طالع الحلفاء في شمال افريقيا وسبباً مباشراً في نجاح خطته لدحر روميل وطرد الايطاليين والالمان من افريقية . فقد تقرر ان تقوم بريطانيا والولايات المتحدة بعمل مشترك في القارةالافريقية بغزو شمال افريقية الفرنسي ، وعين الجنرال ايزنهاور لقيادة العمليات الحربية هناك ، كما عين الجنرال الكسندر قائداً اعلى لمنطقة الشرق الاوسط ، والجنرال مونتجمري لقيادة عمليات الجيش الثامن .

وكان الجيش الثامن بقيادة الجنرال اوكنلك « Auchinlech » قد نجح في شهر ديسمبر ١٩٤١ في القيام بعملية حربية مضادة رد بها قوات روميل نحو الغرب ، وحرر طبرق ، رغم ما لاقته جيوشه من مقاومة عنيفة دلت على مبلغ ما كان يتحلى به روميل من مقدرة وعبقرية عسكرية حتى شهد له تشرشل نفسه في مجلس العموم البريطاني عندما وصفه بأنه « خصم جريء عبقري وقائد عظيم » . والواقع ان روميل لم يستسلم اذذاك للهزيمة بل قام في ربيع عـــام ١٩٤٢ بعملية اكتساح مضادة متقدماً نحو الشرق مرة اخرى فاستعاد طبرق ، وانسابت قواته نحو الحدود المصرية في شهر مايو ١٩٤٢ ، بعد ان اجتاز سيدي

براني ومرسى مطروح ووصل الى العلمين على بعد ستين كيلومتر فقط من الاسكندرية .

على ان ذلك النجاح العظيم كلفه الكثير مما لا يمكن تعويضه في ظروف توقفت فيها الامدادات الالمانية عن شمال افريقية ، وقد انهك طول الطريق دباباته في الوقت الذي كان سلاح الجو البريطاني يقوم بقصفها وتعطيلها عن العمل ولم يؤد استصراخ روميل بطلب الامدادات من هتلر الى أية نتيجة ، ولم يسمع سوى وعوداً لم تتحقق .

وبذلك تحدد مصير حملة روميل . واعد الجيش الثامن عدته ، وبـدأ مونتجمري في مساء ٢٣ اكتوبر ١٩٤٢ في اختراق خطوط الدفاع الالمانية ، واحبط الهجوم المضاد الذي قام به روميل ودخل طبرق (١٢ نوفمبر) ولم تمض ثلاثة اسابيع حتى اضطر روميل الى الارتداد الى العجيلة ، وتوقف الجيش الثامن بعض الوقت ليرتب خطوط تموينه الجديدة عن طريق بنغازي ، وبعد ذلك اكتسح امامه قوات روميل ، وسقطت العجيلة التي غادرها الالمان الى مسافة مائتين وخمسين ميلاً ، وفي مستهل عام ١٩٤٣ دخلت القوات البريطانية طرابلس ولم يجد روميل بداً من التقهقر غرباً الى ما وراء الحدود التونسية حيث عسكرت فلول قواته عند خط ماريت (mareth) الحصين الذي كان الفرنسيون قد اقاموه من قبل للدفاع ضد الايطاليين .

وبينما كان هتلر يرسل النداء تلو النداء للقوات الالمانية في شمال افريقية بالصمود حتى الموت ، كانت القوات البريطانية والامريكية التي حملهـا الاسطول تنزل في ٨ نوفمبر ١٩٤٢ بقرب الدار البيضاء ووهران والجزائر ، ولم تلقَ مقاومة فرنسية تذكر من الجانب الحامية الفرنسية وهكذا سقطت الجزائر ووهران والدار البيضاء ، ولم يعد هناك خطر من نشوب اي قتال غربي الجزائر .

وفي ٢٤ يناير ١٩٤٣ دعا روزفلت في الدار البيضاء دول المحور الى التسليم

دون قيد أو شرط ، وذلك بعد ان اجتمع مع تشرشل هناك واستعرضا الموقف الحربي العام وميادين الحرب كلها ، واتفقا على تهيئة جميع المواد اللازمة لمواصلة القتال في البر والبحر والجو . وقد استخدم روزفلت لأول مرة عبارة « التسليم بدون قيد او شرط » في مؤتمره الصحفي ، ومع أن الحلفاء كانوا متفقين تماماً على هذا المبدأ الا ان تصريح روزفلت العلني المتسرع قوبل بشيء من النقد ، لأن تلك العبارة ابعدت أية مفاوضات مع المانيا بالطرق الدبلوماسية وادعى بعض السياسيين ان روزفلت لو فضل استعمال عبارة اقل خشونة لأدى ذلك الى انتهاء الحرب قبل موعدها ، لان اشتراط التسليم بغير قيد او شرط جعلت هتلر – في موقف اليأس – يستميت في الحرب لمدة عام آخر حتى ربيع عام ١٩٤٥ .

حركات المقاومة :

تحقق للحلفاء الانتصار على اعدائهم في ميادين كثيرة ، ولم يبق الا ميادين الشرق الاقصى ، حيث كانت الخطوة الاولى التي يفكر فيها قواد تلك المناطق – ماك آرثر وستلول – هي تحرير الصين والفلبين وغيرها من المناطق التي استولى عليها اليابانيون ، وكان الروس يحثون حلفاءهم على فتح جبهة ثانية بقصد احداث الارتباك في القيادة النازية ورغم ازمة الثقة التي تتحكم دائماً في علاقة السوفييت بالحلفاء الغربيين الا ان روزفلت وتشرشل كانا حريصين على تعزيز القوة الروسية ضد الالمان . وعندما نشر النازيون على الملأ في أبريل سنة ١٩٤٣ انهم اكتشفوا جثث حوالي عشرة آلاف ضابط بولندي قتلهم الروس في عام ١٩٣٩ او ١٩٤٠ ودفنوهم بالجملة ، ثار البولنديون الذين كانوا اذ ذاك في منفاهم بلندن ، وطالبوا حكومة المنفى بالتحري عن تلك المذبحة الرهيبة وعندئذ قطع ستالين علاقاته بحكومة سيكورسي (Sikorski) . والواقع أن النازيين قصدوا الوقيعة بين روسيا والغرب ، الا أن روزفلت وتشرشل لم يدعا هذه الأزمة تؤثر في المجهود

الحربي السوفييتي ضد هتلر . والى جانب الاستعـداد الحربي لهزيمة دول المحور ظهرت حركات جهاد ومقاومة في البلاد المحتلة .

وكانت بولنده تعاني من الحرب اقسى ما عانته أية دولة اوربية ، فقد طرد السوفييت من المنطقة البولندية التي سيطروا عليها في يونيه ١٩٤١ حوالي ١,٥٠٠,٠٠٠ بولندي ونفتهم الى معسكرات العمل في سيبريا ، وفي الوقت نفسه انتزع النازيون مثل هذا العدد من المناطق البولندية التي ضمها هتلر الى الريخ الالماني وارسلتهم الى المانيا لتسخيرهم في العمل الشاق هناك . اما ما تبقى من البولنديين في بلادهم — وعددهم سبعة مليون ونصف — فقد كانوا يعاملون في بلادهم كعبيد للاحتلال النازي ، حيث صودرت اموالهم ، وقد قتل من البولنديين حوالي ٣,٥٠٠,٠٠٠ معظمهم من اليهود في معسكرات الاعتقال ومات حوالي ١,٢٥٠,٠٠٠ من الجوع والفاقة . وهكذا لقي مصرعه حوالي ٦,٥٠٠,٠٠٠ بولندي .

ومع كل ما كان يعانيه السكان البولنديون من طغيان وبطش ، فانهم لم يركنوا يوماً الى الاستسلام أو الرضاء بالأمر الواقع بل ظهرت حركات مقاومة ضد الاحتلال كانت تتلقى تعليماتها من حكومة سيكورسكي . وقد كانت الحكومة البولندية الشيوعية مكروهة كل الكراهية قبل يونيه عام ١٩٤١ بسبب تصرفاتها ، الا أن التقارب الروسي والبريطاني جعل البولنديين يعتبرون روسيا عضواً في صف المتحالفين مع الغرب ضد النازيين ، وبدأوا في ربيع عام ١٩٤٢ يكافحون ضد الالمان وأصبح جومولكا (Gomulka) زعيم ذلك الكفاح . ومهما يكن من امر ، فان حركة المقاومة البولندية ظلت قوية بعيدة عن النفوذ السوفييتي وذلك على الرغم من أن جومولكا كان شيوعياً ولكنه لم يكن صنيعة للسوفييت بل كان وطنياً مستقل الرأي .

أما التشيكيون الذين تعرضوا للبطش النازي قبل البولنديين فلم يتوقفوا عن مقاومة الاحتلال رغم ما عانوه من ظلم واضطهاد وتعذيب وتقتيل ، وعلى الاخص بعد مايو سنة ١٩٤٢ عندما قتل الحاكم النازي ربنهارت

هيدريش ، وكان اغتياله مدعاة لاتخاذ اجراءات تعسفية وصلت الى حد المجازر البشرية ضد التشيكيين .

أما يوغوسلافيا ، وهي الدولة السلافية الثانية التي قاومت الاحتلال الألماني فقد كان لها شأن آخر عند الألمان ، اذ انهم تمكنوا من تأليف حكومة عميلة لهم في كرواتيا وصربيا ، ومع ذلك فقد قامت عدة منظمات للكفاح ضد الغزاة كان اهمها ما قام به اليوغوسلاف الشيوعيون وازداد نشاطهم عندما هاجم النازيون روسيا فاصبحوا اكبر قوة للمقاومة اليوغوسلافية تحت زعامة جوزيب تيتو الذي كانت له صلات وثيقة بالاتحاد السوفييتي . ولكن عيب المقاومة اليوغوسلافية أنها لم تكن موحدة بل كان الخلاف الاقليمي والعقائدي مستحكماً بين صفوفها ، وكان الغزاة الايطاليون الذين استولوا على دلماشيا يسلحون الصربيين ضد الكروات ويذكون نار الخلاف بين القوى المختلفة . وكان « تيتو » من بين الزعماء السياسيين القلائل الذين يفكرون في يوغوسلافيا ووحدتها واستقلالها قبل اي شيء آخر ، وعلى كل حال ، كان ستالين نفسه اثناء الحرب يدعو الى القومية لانها كانت السبيل الفعال لجمع الروس كلهم تحت لواء واحد ولم تكن العقيدة الشيوعية هي النداء الأول ، حتى أنه في مايو ١٩٤٣ أمر بحل الكومنترن لارضاء البورجوازيين الديمقراطيين ولكي يفسح المجال للأحزاب الشيوعية الاوربية لتشترك بطريقة فعالة مع حركات المقاومة ضد الاحتلال النازي وتصبح المقاومة في كل مكان موحدة في جبهة شعبية واحدة يجمعها كلها مبدأ الدفاع عن الوطن .

أما في فرنسا المحتلة ، فقد حاول الالمان تخفيف الضغط على الأهالي ، فكانوا يعاملون الفرنسيين معاملة أرق مما كانوا يعاملون به السلاف وغيرهم من الشعوب التي كانوا يحكمونها ، وكانت لصلة « لافال » بهم اثر في منعهم من استغلال موارد فرنسا الصناعية والزراعية الا في أضيق الحدود ، ومع ذلك فقد كانت نفقات الاحتلال تكلف الفرنسيين أكثر من نصف نفقات الاحتلال الألماني المفروضة على اوربا بأسرها . وقد بلغ مجموعها قبل نهاية

الحرب حوالي ١٥,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار وقد استطاع لافال ايضاً أن يساوم الالمان الذين كانوا يطلبون تسخير العمال الفرنسيين في العمل بدلاً من الالمان الذين كانوا يجندون في جبهات القتال ولا سيما بعد يونيه ١٩٤١ لتعويض الخسائر البشرية في صفوف الجيش . وقد استغل الفرنسيون الشيوعيون تلك الفرصة لتقوية ساعد المقاومة بضم العمال الساخطين الى حركتهم ، وكونوا بذلك منظمة اطلقوا عليها اسم الجبهة « Front National » ضمت عدة فئات وطنية يمينية ويسارية على السواء ، ولكن ديجول كان حريصاً على منع هذه الجبهة من السيطرة على حركة المقاومة الفرنسية حتى لا تسيطر بعد الحرب على فرنسا ، ونجح فعلاً في عام ١٩٤٣ في ان يضم جماعات المقاومة تحت لواء واحد يسيطر عليه المجلس الوطني لحركات المقاومة .

وبدأت جماعات المقاومة تعمل من الاقاليم الداخلية في فرنسا ضد الاحتلال وضد العملاء الفرنسيين الذين كانوا عوناً للاحتلال ، وفقد لافال وبيتان ثقة المواطنين الفرنسيين وخصوصاً عندما اجبرهما الالمان على أن يضموا الى الحكومة الفرنسية وزراء من صنائعهم في يناير ١٩٤٤ ، وكان ديجول في ذلك الحين رئيساً للجنة التحرير الوطني في الجزائر ، يتحدث باسم جميع المواطنين الفرنسيين الذين يعارضون حكومة فيشي في داخل فرنسا وخارجها .

ولعل أهم حركات المقاومة ضد الاحتلال الالماني كانت تلك التي ظهرت في الاراضي الروسية المحتلة ، وقد بدأت في اكرانيا عندما عمد الالمان الى جميع القادرين على العمل لتسخيرهم في المصالح الالمانية ، وقد اشتدت المقاومة منذ عام ١٩٤٢ عندما دعا ستالين المواطنين الروس الذين كانوا يرزحون تحت نير الاحتلال الالماني الى حرب العصابات ، وقد تكونت تلك العصابات الفدائية من اسرى الحرب الروس الذين استطاعوا الفرار من الموت المحقق ونمت الحركة في عامي ١٩٤٢ و ١٩٤٣ واصبحت الشغل الشاغل للمحتلين النازيين حتى انهم اضطروا الى الاحتفـــاظ في الاراضي

الروسية بفرق من الجنود يبلغ عددها عشر عدد القوات الالمانية كلها مما عرقل تقدم الالمان في عام ١٩٤٣ .

لقد كان هناك عدد لا يستهان به من الروس الحانقين على نظام ستالين في روسيا ولكن سياسة البطش التي اتبعها الالمان وحدت الجميع ضد الاحتلال النازي . فقد لقى ٤ مليون اسير روسي حتفهم على يد الالمان ، واعدم بعض من اليهود الروس ، ومات حوالي خمسة ملايين آخرين بطريقة او باخرى اثناء المذابح التي حدثت في فترة الاحتلال . هذا بالاضافة الى الوسائل التي اتبعها الالمان في استغلال الموارد الزراعية والصناعية في الاقاليم الروسية المحتلة . كل ذلك جعل حركات المقاومة ضد الاحتلال النازي تزداد شدة وضراوة .

أما في الشرق الاقصى ، فقد رفع اليابانيون شعار « آسيا للآسيويين » وكان لهذه الصيحة في اول الامر رنة فرح وسرور في نفوس الآسيويين الذين رزحوا قروناً طويلة تحت نير الاستعمار الغربي ، وكانوا على استعداد للمساهمة في طرد المستعمرين من بلادهم . ووجد اليابانيون انصاراً لهم بين الطبقات المتعلمة ، في جنوب شرق آسيا ، الا أن هؤلاء الانصار اكتشفوا فيما بعد أن اليابانيين جاءوا مستعمرين ، ذلك لأن الحكام اليابانيين العسكريين كانوا قد وضعوا نصب اعينهم استغلال موارد تلك المناطق في سبيل مصلحة اليابان الحربية والاقتصادية ، فأثاروا بذلك حركات المقاومة ضد اليابان ، وبدأت حرب العصابات بين السكان والمستعمرين الجدد ، وتزعم الشيوعيين الآسيويين تلك الحركات ، وكان الشيوعيين منذ البداية يمقتون اليابان ، ويركزون دعايتهم ضد الاطماع اليابانية في بلادهم ، وانضم اليهم ، بل واعتنق مبادئهم ، عدد كبير من المواطنين بسبب البطش الياباني وسوء المعاملة التي يلقونها من الحكام .

ففي الهند الصينية ، اسس الزعيم « هوشي منه » — وهو عضو قديم في

الكومنترن الشيوعي – حركة فيتمنه « Vietminh » للمقاومة ، يقودها عدد من الزعماء الشيوعيين معظمهم من الصينيين المقيمين في تلك البقاع . وظهرت حركات مقاومة اخرى من هذا النوع في الفلبين . كذلك ظهرت في بورما حركة مقاومة اشترك فيها معظم السياسيين من شيوعيين وغير شيوعيين ، اما في اندونيسيا فكانت حركة المقاومة ضد اليابانيين ، يقودها الشيوعيون والاشتراكيون المتطرفون ، ولكنها لم تكن في قوة حركات المقاومة الاخرى جنوب شرقي آسيا لان الزعماء الوطنيين هناك وعلى رأسهم احمد سوكارنو ظلوا يتعاملون مع اليابانيين الى النهاية .

وبينما كانت حركات المقاومة تزداد حدة ضد دول المحور في كل مكان ، كان الحلفاء يستعدون في ميادين كثيرة لضرب اعدائهم الضربة الاخيرة .

الحلفاء يهاجمون : غزو صقلية وسقوط موسوليني

كان البريطانيون بقيادة مونتجمرى قائد الجيش الثامن قد هزموا الألمان في موقعة العلمين وتابعوا سيرهم الى طرابلس بعد ان قطعوا ما يقارب ١٤٠٠ ميلاً ، وفي نفس الوقت (نوفمبر ١٩٤٢) نزلت ثلاث فرق مشتركة من الامريكيين والانجليز في الدار البيضاء ووهران والجزائر ، وكانت جيوش المحور تحتفظ بمراكزها في تونس كآخر حصن لها بعد ان وقعت تحت رحمة مونتجمرى في الشرق والجنرال ايزنهاور في الغرب .

وقد صمد الالمان فترة طويلة لم يكن يتوقعها الحلفاء ، وفي آخر مارس ١٩٤٣ بدأ هجوم ايزنهاور من الغرب ، وهجمت قوات مونتجومري من الشرق ، واستماتت الألمان في الدفاع الى ان غلبتهم جيوش الحلفاء على أمرهم ، واستسلم حوالي ١٦٠,٠٠٠ من الجنود الايطاليين والالمان كأسرى حرب .

كانت جزيرة صقلية هي الخطوة التالية للحلفاء ، فقد رأى تشرشل وروزفلت ان تطهير البحر الابيض المتوسط من قوات المحور له الاولوية

على جميع الخطط التي وضعت لهزيمة المحور ، وفي اثناء اجتماعهما في الدار البيضاء تقرر احتلال جزيرة صقلية الايطالية لانها تقريباً تقسم البحر المتوسط الى قسمين ، وكان معنى البدء بتلك العملية تأجيل فتح الجبهة الثانية في فرنسا مدة عام آخر ، لان نزول القوات المتحالفة في صقلية ادى الى القيام بعمليات أخرى في شبه الجزيرة الايطالية نفسها ، مما دعا الى مضاعفة المجهود الحربي هناك على مدى عام ١٩٤٣ .

وقد بدأ الهجوم على صقلية في ١٠ يوليو ١٩٤٣ ، وكان نزول الحلفاء على ارض الجزيرة من اكبر العمليات الحربية التي قام بها البريطانيون والامريكيون ، وقد اشترك فيها حوالي ١٦٠,٠٠٠ جندي نزل بعضهم بالبراشوت ونزل الباقون من السفن الحربية الكثيرة التي حملتهم . وبعد القتال العنيف الذي جرى على الساحل انسابت القوات نحو الداخل بسرعة فائقة ، وبينما قاوم الالمان بعنف واستماتة ، لم تجد جيوش الحلفاء مقاومة تذكر من الايطاليين ، فقد كانت حالة الجنود المعنوية سيئة غاية السوء ، بعد أن سئموا الحروب التي انهزم فيها الايطاليون على طول الخط ، وكانوا حانقين على حلفائهم الالمان الذين كانوا مسيطرين على كل شيء ، ساخطين على موسوليني الذي غرر بهم عندما كان يصف للشعب مدى قوة ايطاليا واستعدادها التام للحرب .

والواقع أن موسوليني كان قد انتهى كقائد وزعيم ، فبعد ان سقطت بالبرمو عاصمة صقلية ، واشتد السخط على الدوتشي ، طلب نفر من كبار الملكيين المحافظين ، وبعض الفاشستيين المعارضين الى الملك ان يضع حداً لموسوليني بعزله والقبض عليه ، واستجاب الملك لهم في الحال .

وعين الملك بدله المارشال بادوجليو « **Badoglio** » ، الذي كان ساخطاً على سياسة موسوليني الفاشستية ، ومنذ ان تولى بادوجليو الحكم كان همه الاول انقاذ ايطاليا من الحرب باقل خسارة ممكنة اذ كانت تلك

الامنية هي حلم الشعب الايطالي وامله في استعادة السلام والامن والحرية .

ولكن الواقع لم يكن كما تصوره الايطاليون بعد ابعاد موسوليني عن الحكم ، فالحلفاء كانوا يصرون على التسليم الكامل بدون قيد ولا شرط قبل ان يوقعوا الهدنة مع الحكومة الايطالية الجديدة تحقيقاً للمبدأ الذي اعلنه كل من روزفلت وتشرشل في الدار البيضاء . وعندئذ اسقط في يد بادوجليو وحاول جاهداً أن يضع شروطاً للتسليم ، وفي الوقت نفسه يقنع الالمان بذلك الاتجاه الايطالي الجديد ولكنه لم يفلح في كلا المحاولتين ، واضطر في النهاية الى التسليم كما شاء الحلفاء . وعندئذ دفع هتلر بسيل من قواته عبر ممر برنر ليمنع حليفته من خيانة المانيا .

وفي ٢ سبتمبر قام البريطانيون بانزال قواتهم في كالابريا (**Calabria**) جنوب شبه الجزيرة الايطالية ، وبعد اسبوع واحد تبعهم الامريكيون بمهاجمة سالرنو جنوبي نابولي ، وفي الوقت نفسه اعلنت الهدنة ، الا أن الالمان اندفعوا نحو العاصمة (روما) فاستولوا عليها وهرب الملك وبادوجلبو ، وتم للنازيين احتلال شمال ووسط ايطاليا ، ولم يستطع الحلفاء اذ ذاك وقف ذلك التقدم ولكنهم ثبتوا اقدامهم على ساحل سالرنو ومن ثم استطاعوا تحرير نابلي واتموا استيلاءهم على سردينيه وجنوب ايطاليا ولكنهم ظلوا على بعد شاسع من روما .

بذلك انشطرت ايطاليا لمدة عام ونصف الى شطرين ، واستطاع الالمان خطف موسوليني من سجنه بعملية طيران جريئة (١٢ سبتمبر ١٩٤٣) ، ولم يعد الدوتشي في ذلك الحين سوى العوبة في يد الالمان عندما وضعوه على رأس حكومة جمهورية ضعيفة تأتمر بأمرهم ، ولم تلق تلك الحكومة العميلة من الشعب سوى الازدراء والتحقير ، وانتشرت هناك في الشمال حركات مقاومة سرية ضد الاحتلال الالماني وحكومة موسوليني الهزيلة .

وكان تقدم الحلفاء نحو الشمال بطيئاً ، ولكن وجودهم في ايطاليا اجبر

هتلر ، على الاحتفاظ في ايطاليا بخمس وعشرين فرقة من الجنود كانت الجبهة الروسية في اشد الحاجة اليهم . ورغم بطء التقدم الامريكي الانجليزي نحو الشمال ، والخسائر الفادحة التي تعرضوا لها فقد استطاعت قواتهم دخول روما في ٤ يونيه سنة ١٩٤٤ ، وكانت اول عاصمة اوربية تتحرر من قبضة هتلر ، ورأى الملك فكتور ايمانويل ان يتنازل لابنه امبرتو (**Umberto**) لينقذ العرش لاسرته بعد أن طال تعاونه مع الفاشستية ، كذلك سقطت حكومة بادوجليو المشبوهة، وتولى الحكم ايفانو بونومي (**Iuanoe Bonomi**) على رأس وزارة آلت على نفسها أن تناهض الفاشستية وتقيم الحكم على اساس ديموقراطي .

وبدأ الموقف يتغير في الشمال ، فقد اشتد ساعد القائمين بحركة المقاومة المسلحة حتى أن الحلفاء عندما دخلوا فلورنسه في اوائل اغسطس وجدوا أن المواطنين هناك يقاومون الاحتلال ويقاتلون من اجل تحرير البلاد ، وتكون جيش ايطالي جديد يقاتل جنباً الى جنب مع الانجليز والامريكيين والفرنسيين لتحرير المدن الشمالية .

غزو فرنسا :

كان تحرير روما خطوة موفقة تلتها مباشرة اعظم خطوة في سبيل التحرير، وهي انزال القوات المتحالفة على ارض نورمنديا وفي جنوب فرنسا .

وكانت الاستعدادات قائمة في جنوب انجلترا على قدم وساق حيث احتشدت فرق الغزو ومعدات القتال احتشاداً يفوق الوصف، وكان على الجنرال ايزنهاور أن ينسق عملية الغزو فرنسا مع العمليات الحربية التي يقوم بها الروس ، ولذلك تأجل الميعاد المحدد حوالي اربعة اسابيع ليتناسب الموعد مع هجوم الجيش الاحمر في الصيف ، وفي الوقت نفسه يستفيد اثناء ذلك في زيادة الانتاج الحربي ، وخاصة الطائرات الكبيرة المخصصة لحمل الجنود ؛ وقد تأخر انزال القوات في جنوب فرنسا عشرة اسابيع عن حملة نورمندية لضمان نجاح الحملة الايطالية ، كذلك كان من الضروري تدريب مليون ونصف رجل في بريطانيا وبناء موانيء صناعية على السواحل يتم فيها الغزو .

وقد بدأ نزول القوات المتحالفة في ٦ يونيه ، ولم تكن مهمة التقدم سهلة ميسورة ، اذ قضى الألمان ثلاث سنوات يضعون العراقيل والألغام والاسلاك الشائكة في منطقة نورمندية التي كانوا يتوقعون انها ستكون طريق الحلفاء لغزو فرنسا ولكن القائد الالماني روميل – الملقب بثعلب الصحراء – اعتقد أن الطريق الرئيسي للغزو هو منطقة كاليه نظراً لقربها من الساحل الانجليزي ، ولذلك احتفظ هناك بقواته المسلحة حتى دهمته الحملة آتية داخل أراضي نورمندية ، وعندما حرك القوات الالمانية نحو اعدائه ، كان الوقت قد فات ، ولا سيما أن قواته تحركت وسط حركات المقاومة الفرنسية التي كانت تهاجم جنوده اثناء تقدمهم .

ودارت معارك ضارية قبل ان ينجح الحلفاء في الاستيلاء على مدينة « كان » التي استمات الألمان في الدفاع عنها ، واضطروا بعد ذلك الى الجلاء عنها .

وتقدمت قوات الحلفاء للاستيلاء على شبه الجزيرة الواقعة بها ميناء شربورج (Cherbourg) ، ونجحوا في التقدم حتى عزلوا الميناء ، ولم يعد أمام الجنود المحاصرين سوى التسليم ، الا انهم امروا بالقتال حتى الموت ، ودار الصراع الرهيب الذي انتهى باقتحام دبابات الحلفاء ميناء شربورج وتم اسر ٣٤٠٠ جندي هم كل من بقي على قيد الحياة من الفرق الالمانية الأربع التي كانت تدافع عن الميناء .

وكانت الغارات الجوية على اراضي المانيا نفسها لا تنقطع ، حطمت اثناءها وسائل وطرق المواصلات وقواعد التموين ومراكز احتشاد الجنود .

وفي ١٥ اغسطس بدأت حملة أخرى على ساحل الريفييرا قوامها ثلاث فرق امريكية وسبع فرق فرنسية ، وكان هدف هذه الحملة انهاء تحرير فرنسا والقضاء على القوات الالمانية في جنوب فرنسا والاتصال بجيوش الحلفاء الزاحفة من نورمنديه . ومضت القوات الامريكية والفرنسية في هجومها

السريع داخل البلاد ، فاحتلت في طريقها شمالاً عدة مدن هامة الى ان اصبحت على بعد اربعة اميال من باريس حيث احدقت بها من جهات متعددة .

وفي هذه المرحلة ، جاء دور المقاومة الفرنسية حيث اشتعلت الثورة في باريس وفي المدن الكبيرة وحمل المواطنون السلاح ضد الالمان وظلت المقاومة على مدى عشرة ايام في باريس تهاجم قوات الاحتلال ودارت المعارك الضارية في الشوارع بينما نجح الغزو الحربي للعاصمة رغم اشتداد مقاومة الالمان شرقي السين لصد القوات الامريكية والفرنسية في محاولات يائسة .

وفي ٢٥ اغسطس سنة ١٩٤٤ سلمت الحامية الالمانية في باريس ، ودخلها ديجول لتسلم السلطة ، واعتبر هذا اليوم عيداً فرنسياً لذكرى التحرير ، وأحرز ديجول ثقة الشعب الفرنسي ، واعترفت بريطانيا والولايات المتحدة بحكومته .

واصبح هتلر يواجه الحرب في اربع جبهات : قوات الحلفاء التي يقودها ايزنهاور وهي القوات التي تزحف شمالاً وشرقاً لتحرير بلجيكا وهولنده ولوكسمبورج ثم مهاجمة المانيا ذاتها ، وقوات الجنرال ويلسن الزاحفة شمالاً للاتصال بالقوات الشمالية ، والجيوش السوفييتية التي حررت روسيا وتحاول بعد ذلك تخليص البلاد المجاورة من الاحتلال النازي ، فدخلت بولنده ورومانيا وبلغاريا ويوغوسلافيا ، واخيراً القوات الجوية التي تهاجم المانيا فتدك مرافقها الصناعية ومراكز احتشاد جنودها .

المقاومة الالمانية ومحاولة اغتيال هتلر :

تجسدت الهزيمة أمام الالمان ، ومع ذلك لم يعترف بها هتلر على الرغم من نجاح الحلفاء حتى نوفمبر ١٩٤٤ من طرد قوات الالمانية من بلجيكا ومعظم هولنده ولكسمبرج وفنلندا وروخيا واختونيا ولاتفيا ورومانيا وبلغاريا

واليونان ويوغوسلافيا ويولنده والبانيا ومن معظم الاراضي الفرنسية من ايطاليا ولثوانيا ، حتى قال بعض المؤرخين أنه لو ترك الخيار لقواد الجيش في عام ١٩٤٤ لقرروا وقف القتال وطلب الهدنة ، ولكن الامر حينئذ كان بيد هتلر ومستشاريه من الزعماء النازيين المتطرفين الذي كان مصيرهم مرتبطاً بالانتصار في الحرب .

كانت المدن والمواصلات الالمانية معرضة في كل لحظة لقنابل الحلفاء الذين سيطروا على الأجواء الاوربية ، وتجلى فشل مارشال الجو الالماني «جورنج» الذي طالما وعد الشعب الالماني بالنصر الحاسم عن طريق السيادة الجوية فانكمش في سنة الاخيرة من الحرب وانطمس اسمه من بين زعماء النازية .

وتولى ادارة المجهود الحربي ثلاث شخصيات كان أثرها واضحا في السنة الاخيرة الحاسمة : البرت سبير (Speer) الذي أخذ على عاتقه اعادة تنظيم الجبهة الاقتصادية واستغلال موارد البلاد على قدر الامكان في خدمة المعركة. والثاني رئيس الجستابو هملر (Himmler) الذي ضاعف من تضييق الخناق على اعداء النازية سواء من المدنيين أو ضباط الجيش واستخدام اجهزة الارهاب في كبت شعور السكان وكتم انفاس الساخطين ، والثالث رجل الاعلام جوزيف جيبلز (Goebbels) الذي كانت مهمته — بل هوايته التي ظل متحمساً لها — الدعاية الصارخة لحتمية الانتصار النازي ، وظل وفيا لزعيمه إلى آخر رمق من حياته ومشاركة مصيره في النهاية .

وكانت أبواق الدعاية الرسمية قد اكدت للالمان أن حملة الحلفاء التي نزلت في فرنسا لن يكون نصيبها سوى الهزيمة والموت المحقق . فلما حل شهر يوليو ١٩٤٤ ونجحت حملة نورماندي نجاحاً حاسماً ، تجلى للالمان مدى تغرير الدعاية بهم ، وتصدت جماعة من الساخطين للتخلص من الزعيم وانصاره بالقتل . فوضعوا في ٢٠ يوليو قنبلة في المخبأ الموقت الذي تقرر أن يتجمع فيه هتلر بقواده ومستشاريه في الجبهة الشرقية . ولكن هتلر نجا باعجوبة بينما لقى

عدد من الواقفين حوله حتفهم ، ولم يصبه سوى جروح لم تمنعه من مواصلة الحرب والانتقام الرهيب من اعدائه حيث اعدم عدداً كبيراً ممن اشتبه ان لهم ضلعا في المؤامرة .

وكان ضمن هؤلاء الاعداء المعارضين ثعلب الصحراء القائد روميل وعدد من الضباط الكبار الذين انقلبوا على هتلر عندما تبين لهم أن المانيا قد خسرت الحرب لا محالة ، ولكن شبكة المؤامرة تألفت من عدد من المفكرين وحفنة من الضباط ورجال السياسة وكبار الموظفين ورجال الدين من البروتستنت والكاثوليك واعضاء الحزب الديموقراطي الاشتراكي ممن ظلوا على اعدائهم للنازية .

على أن فشل مؤامرة ٢٠ يوليو كان معناه استمرار الحرب حتى يقضي على هتلر ونظامه القضاء الآخير ، وقد خسرت المانيا خلال حملة الانتقام النازي الاخير نخبة من أعظم رجال السياسة الذين افتقدهم الالمان عندما بدأوا يواجهون مرحلة البعث والبناء .

الهجوم الروسي : بولنده ورومانيا :

قبل شهر واحد من انفجار القنبلة التي نجا منها هتلر ، كان الجيش الاحمر قد بدأ بهجوم الصيف الموعود . بعد ان استطاع في فصل الربيع ان يحرر بلاد القرم واكرانيا نهائياً . وبدأ بعد ذلك التقدم على جبهة طولها ٨٠٠ ميل وتمكن من الوصول الى حدود بروسيا الشرقية ، وكذلك اخترق الحدود البولندية حتى اصبح عند مشارف العاصمة وارسو .

وعند تلك المرحلة هب البولنديون للتخلص بلادهم بالكفاح المسلح ، وبدأوا يقاتلون الالمان في شوارع وارسو . وكان الروس حينئذ قد عبروا نهر الفستيولا ولكنهم وقفوا عند هذا الحد ورفضوا التقدم لمساعدة المقاتلين البولنديين الذين كانوا يخوضون ضد الالمان معركة غير متعادلة ، وحاول كل من تشرشل وروزفلت ان يهيب بالروس — وهم على مقربة من المعركة —

أن يتقدموا لانقاذ الموقف الا أن ستالين لم يستجب لندائهما . وبقي المقاتلون البولنديون شهرين مستميتين في الكفاح استماتة اليائس حتى سقط معظمهم صرعى واستسلم الباقون للالمان .)

وكانت حجة ستالين التي تذرع بها في تقاعسه عن مد يد المساعدة الفعالة للثورة الوطنية البولندية أن البولنديين أخطأوا في توقيت القيام بثورتهم ضد الالمان قبل أن يكون الجيش الروسي على استعداد للتقدم لمساعدتهم ، ولكن معظم المؤرخين الغربيين يؤكدون أن ستالين كانت له اهداف اخرى ، اذ كان — في نظرهم — يفضل ترك البولنديين يلاقون الموت والهلاك على يد الالمان ، وان لا تقوم لحركتهم الوطنية قائمة وان تنتهي قوة المقاومة الى ما انتهت اليه على يد الالمان ليأمن شرها فيما بعد .

والواقع أن علاقاته بحكومة المنفى البولندية كانت سيئة للغاية ، لانها لم تعترف بضم الأراضي البولندية التي استولى عليها الروس سنة ١٩٣٩ وكانت هواجس الشك والارتياب تسود العلاقات بين الطرفين .

وعندما حان الوقت المناسب للروس ، عبر الجيش الاحمر الحدود البولندية في أواخر يوليه ، وعمد ستالين الى اقامة حكومة بولندية في لوبلن (**Lublin**) ، وتألفت الى جانبها (لجنة التحرير الوطني) التي كان يسيطر عليها عدد من الشيوعيين البولنديين المعروفين بولائهم للعقيدة . ولما دخل الروس وارسو كان الطريق ممهداً للشيوعيين البولنديين بعد أن اخمد الالمان حركة المقاومة وقتلوا معظم زعمائها .

وفي اواخر صيف ١٩٤٤ تحسن الموقف بالنسبة للروس في الجنوب عندما انهزم الالمان على يد الحلفاء في البلقان ، ولم يجد الروس مشقة في التقدم نحو مدخل الدانوب (٢٣ أغسطس) عند رومانيا حيث كانت الفوضى تسود البلاد بعد أن افسدها عملاء هتلر ، وعند هذه المرحلة اقدم الملك الصغير ميشيل على أخذ زمام الأمور بيده وفتح ابواب البلقان للقوات الروسية الزاحفة.

وكما حدث في فرنسا ، لم يجد الالمان مفراً من الارتداد السريع من شبه جزيرة البلقان ، ورأت بلغاريا حينئذ ان الاسلم لها عندئذ ان تعود للدخول في صف الاتحاد السوفييتي . وفي اوائل اكتوبر بدأ الالمان في الجلاء عن اليونان واسرع البريطانيون الى ملء الفراغ هناك وأخذوا على عاتقهم اقناع حركة المقاومة اليونانية بقبول عودة حكومة المنفى الى تقلد زمام السلطة .

اما في يوغوسلافيا فقد ضاعف « تيتو » من هجماته على القوات الألمانية المتقهقرة ، وتقدم انصاره من الجبال الى سهول صربيا الى ان تمكنوا في أواخر اكتوبر من دخول بلغراد منتصرين . وهناك قضى تيتو على انصار النازيين من الصربيين ، وعلى الزعماء الارهابيين من الكروات . ولم يكن لتيتو منافس في المستقبل سوى حكومة المنفى اليوغوسلافية ، اما الملك وحكومته فقد صمم تيتو على ألا يعيرهم اي اهتمام . كذلك كان عازماً على أن يتحرر مما فعله الزعماء الشيوعيين البولنديون الذين جعلوا من الجيش الاحمر سنداً وعماداً لهم في حكمهم البلاد بل رأى ان يقوم بنفسه باداء الواجب عليه نحو يوغوسلافيا ، ولكن لم يسلم الامر من قبوله العون من الجيش الاحمر في آخر مرحلة من مراحل التحرير ، وكان ذلك عندما اخترق الروس حدود بلاده من رومانيا في طريقهم لمهاجمة الالمان في المجر . والواقع ان تيتو ظل على عناده وحزمه في كل مرحلة من مراحل خلافاته مع الاتحاد السوفييتي .

اما في المجر فلم تكن مهمة الجيش الاحمر سهلة ميسورة ، بل لقي هناك مقاومة وصموداً من الالمان حتى نهاية الشتاء ، وعادت القوات الروسية من جديد لاكتساح سهول بولنده . واخيراً لم لستالين تحقيق اعظم هدف له وهو سيطرة الاتحاد السوفييتي على شرق اوربا .

اتفاقية تشرشل — ستالين على مناطق النفوذ ٩ أكتوبر ١٩٤٤

تبين لتشرشل مدى خطورة النفوذ السوفييتي في البلقان ، مما دعاه الى السعي لمقابلة ستالين في اوائل شهر اكتوبر ١٩٤٤ ، وقد اضطر الى اتخاذ

هذه الخطوة دون استشارة حلفائه لانه كان مقتنعاً كل الاقتناع بضرورة العمل قبل فوات الاوان لانقاذ ما يمكن انقاذه . ولم ينتظر مصاحبة روزفلت له في هذه المهمة لأن الرئيس الأمريكي كان اذ ذاك مشغولاً الى اقصى حد بحملة الانتخابات الامريكية ولم يكن بوسعه ترك الولايات المتحدة قبل مضي شهر على الأقل .

وقد قص تشرشل بنفسه ما حدث بينه وبين ستالين من مساومة عندما طلب من الاخير الاتفاق فيما بينهما على توزيع مناطق النفوذ بين بريطانيا والاتحاد السوفييتي في البلقان وقال له : « ان جيوشكم يرابطون في رومانيا وبلغاريا حيث لنا هناك مصالح وبعثات ووكلاء ، فلا تدع الخلاف يدب بيننا بأية صورة ، فما رأيك في ان يطغى نفوذكم في رومانيا بنسبة ٩٠ — بينما تكون لنا نفس النسبة في اليونان . اما في يوغوسلافيا فنقتسم النفوذ هناك على قدم المساواة ؟ »

وبينما كان هذا الكلام يترجم لستالين تناول تشرشل ورقة صغيرة وكتب عليها ما يلي :

رومانيا : لروسيا ٩٠ ٪ والاخرون ١٠ ٪

اليونان : لروسيا ١٠ ٪ وبريطانيا ٩٠ ٪ بالاشتراك مع الولايات المتحدة .

يوغوسلافيا : ٥٠ ٪ لكل طرف .

المجر : ٥٠ ٪ لكل طرف .

بلغاريا : لروسيا ٧٥ ٪ والآخرون ٢٥ ٪

ودفع تشرشل بتلك الورقة الى يد ستالين الذي وافق على ما جاء بها وهكذا تمت الصفقة دون تردد ، وحدد الزعيمان مناطق النفوذ في البلقان ، وحصل ستالين من تشرشل على ما سبق لهتلر ان انكره على ستالين قبل اربع

سنوات عندما رفض الاخير الموافقة عن أن يكون لروسيا منطقة نفوذ في شرقي شبه جزيرة البلقان .

وقد تعرض هذا الاتفاق للنقد وخاصة من قبل الولايات المتحدة التي كانت تصر على عدم عقد صفقات أثناء الحرب ، وكذلك تجاهل الطرفان موقف بولنده وهي أول دولة تعرضت للعدوان وكانت دائماً مصدر الخلاف الشديد بين الشرق والغرب .

ومع ذلك فقد كان تشرشل يساوم وهو واثق من ضعف مركزه في الظرف الراهن آنئذ ، معتقداً بعد ذلك أنه عالج الخطر الشيوعي الذي كان محدقاً ببلاد البلقان .

والواقع أن هذا الاتفاق لم يكن له اثر يذكر الا في الأحداث التي جرت في اليونان بعد اجتماع القطبين الروسي والانجليزي بشهرين فقط ، فقد قام الشيوعيون اليونانيون بالثورة ضد حكومة المنفى التي عادت الى البلاد ، وقد تطورت الثورة حتى جرى القتال في شوارع أثينا ، وتأزم الموقف في البلاد بشكل خطير دعا رئيس الوزارة البريطانية الى الذهاب بنفسه الى اليونان لمحاولة تهدئة العاصفة بينما استطاعت القوات المسلحة اخماد حركة الثوار الشيوعيين ، ومما ساعد تشرشل على نجاح مهمته في اليونان أن الاتحاد السوفييتي لم يتدخل لمساعدة الثوار الشيوعيين ، فقد حافظ ستالين على احترام الاتفاق واعتبار اليونان منطقة نفوذ بريطانية .

وفي الوقت الذي كانت تجري فيه تلك الاحداث في شرق اوربا كان الحلفاء في الجبهة الغربية يستعدون استعداداً هائلاً للمعركة الكبرى : غزو المانيا لانهاء الحرب .

* *

الفصل الرابع والعشرون

نهاية الحرب العالمية الثانية

معركة المانيا :

كانت معظم قوات الحلفاء ترابط على الحدود الفرنسية الالمانية أمام سيجرفيد أو حائط الدفاع الغربي ، وانقسمت قوات ايزنهاور الى ثلاث مجموعات في الشمال الغربي وجيش مونتجومري المؤلف من البريطانيين والكنديين ، وفي الوسط ثلاثة جيوش امريكية تحت قيادة الجنرال (برادلي) وفي الجنوب والشرق جيشان احدهما امريكي تحت قيادة الجنرال (باتش) والثاني جيش فرنسي يقوده ضابط فرنسي قدير اسمه دي لاتر تاسيني (De Lattre de Tasigny) ، وهكذا كانت القوات الامريكية تمثل الاغلبية في مهاجمة الريخ في المعركة الاخيرة ، اذ كان عددها تصل الى نصف القوة المهاجمة أما النصف الآخر فكان يتكون من البريطانيين والفرنسيين على قام المساو على قدم المساواة .

وحاول الحلفاء في ١٧ سبتمبر ١٩٤٤ تحطيم خط الدفاع الالماني بانزال فرق المظلات وراء نهر الرين في الشمال ، ولكن لم يكتب النجاح لهذه المحاولة ، وقام ايزنهاور بمحاولة اخرى في منتصف ديسمبر لتقويض حائط

الدفاع الغربي ولكنه لم يستطع تحقيق هدفه ، وما لبث الموقف أن تأزم عندما فوجىء الحلفاء بأن خطوطهم مهددة بهجوم عنيف مضاد ، قاوم به القائد الالماني الكبير رونشتد الذي ولاه هتلر القيادة الألمانية العليا في الجبهة الغربية . وقد وضع رونشتد خطة جريئة بأحداث ثغرة في خطوط الحلفاء طولها ستين ميلاً والاستيلاء على أهم قاعدة تموينية بحرية في انتورب . وبدأ بالهجوم في غابات الآردنس (Ardennes) وهي المنطقة التي استطاع منها الألمان منذ أربع سنوات تحطيم خطوط الدفاع الفرنسية .

وقد نجح في أول الامر في بث الفوضى في صفوف الجيوش الامريكية التي ارتدت الى بلجيكا ولكسمبرج . وسرعان ما استدعى ايزنهاور قوات احتياطية من الجنوب ولكن ظل الموقف خطيراً بالنسبة للحلفاء . ولكن مما لبثت قوات ايزنهاور أن انتظمت في الاسبوع الثالث من شهر يناير ١٩٤٥ وتمكنت من وقف الهجوم الألماني بعد عناء بالغ وتضحيات جسيمة . الا أن تلك المعركة الضارية هزت كيان الحلفاء ، وزعزعت ثقتهم في احراز نصر سريع حاسم ، وظهر للعالم أن المجهود الحربي الذي يبذله الروس في الجبهة الشرقية ضد هتلر أقوى أثراً مما يقوم به حلفاؤهم الغربيون في الميدان الغربي ، فبينما كان الامريكيون والبريطانيون يتلقون الضربة تلو الضربة ، كان الجيش الاحمر يقوم بالهجوم على بولنده ويستولون على عاصمتها وارسو (منتصف يناير ١٩٤٥) ، ثم يتقدمون حوالي ٣٠٠ ميل داخل الأراضي الألمانيــة وأصبحت بروسيا الشرقية وسيلزيا العليا في قبضة أيديهم ، وفر أمامهم ملايين المواطنين الألمان في فصل الشتاء القارس ، واستمر تغلغل الروس في ألمانيا الى أن وصلوا نهر الاودر على بعد اربعين ميلاً فقط من برلين .

كان هذا الموقف في أوربا عندما تقابل الثلاثة الكبار في ٤ فبرايو ١٩٤٥ للمرة الثانية (والاخيرة () في «بالتا» بشبه جزيرة القوم ، وقد خيم على محادثات بالتا جو من المرارة التي كان يشعر بها تشرشل وروزفلت بسبب نجاح الروس في التغلغل داخل المانيا بينما لم يستطيع البريطانيون والامريكيون التقدم

بنفس النسبة . ولكن الواقع ان الهجوم الالماني في غابات الاردن كلف هتلر الكثير من التضحيات وجعله يستنفد كل ما لديه من احتياطي الجنود ، ولذلك نستطيع ان نقول ان تلك المغامرة التي قام بها عجلت بهزيمته النهائية .

آخر المطاف : فينا – برلين – براج

بعد ثلاثة اشهر من فض موءتمر يالتا «انتهى المطاف بانتصار الحلفاء وانتهاء الحرب في اوروبا ، فقد بدأ هجوم الحلفاء في ٢٣ فبراير ١٩٤٥ متجهاً صوب نهر الرين ، وانتشرت ثمانية جيوش عن قواتهم للاستيلاء على المدن الصناعية والمدن القائمة على الضفة الغربية لنهر الراين واكتشفت قوات الحلفاء ان الالمان عند تقهقرهم جسرا حربياً من جسور السكك الحديدية على النهر لم يستطع الالمان تخريبه كما كانوا يفعلون دائماً ، مما سهل لهم مشقة الصراع من أجل عبور النهر .

فتقدمت قوات ايزنهاور اولا ، ثم تبعتها القوات الانجليزية التي اتجهت شمالا نحو الحدود الدنمركية وبحر البلطيق تحت قيادة مونتجموى ، والقوات الفرنسية التي اتجهت نحو الجنوب الشرقي بقصد الاستيلاء على شيتوتجارت . وتمكنت القوات الامريكية من تحطيم المقاومة الالمانية في الروهر واسر ربع مليون جندي ، وما انتهت المعركة حتى تحرك الامريكيون ليشطروا المانيا إلى شطرين ، وفي ١١ ابريل وصلوا نهر الالب على بعد ستين ميلا فقط من برلين .

في اثناء ذلك بدأ الهجوم الاخير على شمال ايطاليا ، وفي أقل من اسبوع استطاعت قوات الحلفاء اختراق خطوط الدفاع الالمانية في الجبال ثم انسابت نحو السهول الايطالية الشمالية وهب رجال المقاومة الايطاليون الذين حرروا مدنهم لاستقبالهم ، وفي أخر شهر ابريل تحررت ايطاليا كلها والقى الالمان اسلحتهم واستسلموا . اما موسوليني ، الذي تخلى عنه حماته ، فقد حاول الهرب إلى الحدود السويسرية ، الا ان وحدة ايطالية من وحدات المقاومة المناهضة للفاشية اكتشفت شخصيته قرب بحيرة كومو وقبضت عليه واعدمته بالرصاص مع

خليلته كلاريتا بيتاتسى في ٢٨ ابريل ١٩٤٥ .

أما في الميدان الشرقي فقد وجه الجيش الاحمر هجوماً جديداً نحو الجنوب ، ونجح القائد الروسي (مالينوفسكي) في كسب معركة بودابت عندما توقفت مقاومة الالمان في العاصمة المجرية في منتصف شهر فبراير ، واصبح الطريق مفتوحاً إلى فينا وسقطت العاصمة النمسوية في ايدي السوفييت بعد ثمانية اسابيع . وهكذا كسب ستالين معركة السباق بينه وبين حلفائه على السيطرة على اوربا الشرقية . وبدأت بعد ذلك معركة برلين .

وكان القائد الروسي الكبير المارشال زوكوف (Zkuukov) يستعد مدة شهرين للهجوم على برلين بينما كان أمل هتلر الاخير يتمثل في حاميات المدينة من جنوده الذين امرهم بالقتال حتى الموت . وكانت برلين اذ ذاك قد عانت اشد المعانات من غارات الحلفاء الجوية التي بدأت منذ نوفمبر عام ١٩٤٣ واستمرت يوميا حتى شهر ابريل ١٩٤٥ ، حتى اصبحت معظم احيائها اكواماً من الحطام ومع ذلك فقد اصر هتلر على عدم الاعتراف بالامر الواقع .

وفي الشهرين اللذين كان زوكوف يستعد لدخول برلين ، كان الموقف الحربي داخل المانيا قد تغير . فقد عبر الامريكيون كما رأينا نهر الرين واصبحوا على مقربة من برلين . وبذلك كانت القوات السوفيتية عند نهر الاودر والقوات الامريكية عند نهر الالب ، وبين النهرين كانت العاصمة الالمانية تنتظر اليوم الموعود . وكان الدفاع في غرب برلين اصعب كثير من الدفاع عنها في شرقها فقد تركزت قوة حاميتها في الشرق لمجابهة الهجوم الروسي . وفكر ايزنهاور عندئذ في اقتناص تلك الفرق ليسبق الروس . ولكن صعوبات استراتيجية ودبلوماسية كانت تحول دون تحقيق هذا الهدف ، فقد كان القائد الاعلى لقوات الحلفاء يخشى على خطوط تموينه التي امتدت وطالت اثناء السباق عبر أراضي الرايخ وكان يشعر أيضاً بالحاجه الى وضع الخط الذي خوف يفصل بين قواته والقوات السوفييتية ، وكان نهر الالب هو الخط المثالي في هذا السبيل .

وفي ١٢ ابريل – أي بعد وصول الامريكيين إلى نهر الألب بيوم واحد مات الرئيس روزفلت ، ولم يجد ايزنهاور بدا من ان يعتمد على نفسه لاصدار ما يراه من القرارات .

وفي١٦ ابريل بدأ القائد الروسي زوكوف هجومه على برلين وبعد تسعة أيام كانت المدينة محاطة بالأعداء من كل جانب ، ودخلت الدبابات الروسية إلى قلب المدينة وعندئذ ادرك هتلر ان النهاية قد حانت ، ولم يبق حوله سوى جوزيف جوبلز وزير الدعاية وايفا براون صديقته التي عقد عليها قرانه قبل نهاية حياته باثنتي عشرة ساعة ، وقد انتحر مع زوجته في مخبأ مستشارية الرايخ واحرقت جثته بعد ظهر ٣٠ ابريل عام ١٩٤٥ بعد عشرة أيام من الاحتفال بمولده السادس والخمسين [1] ، وقد شهد حرق الجثتين جوبلز ومارتن بورمان ، اللذين حاولا مفاوضة الروس دون جدوى ، ولما يئس جوبلز اقدم في أول مايو على الانتحار ولم يبق أمام المانيا خوى التسليم .

وكان هتلر قبيل انتحاره عين الادميرال دوينتز (Donitz) خليفة من بعده ، ولما تبينت الخاتمة لدوينتز لم يجد مفراً من العمل على الاتصال بالحلفاء لتنظيم قواعد الاستسلام . وحاول في أول الأمر ان يدك اسفيناً بين الحلفاء بأن اعلن الاستسلام للغرب ولكن فشلت مناورته وتم اعلان استسلام الالمان في ٧ مايو دون قيد ولا شرط في مقر قيادة ايزنهاور في ريمس لكل من مندوبي الولايات المتحدة والبريطانيين والفرنسيين والسوفييت . ثم أصر السوفييت على ان تجري مراسيم الاستسلام نفسها في برلين في مقر القيادة الروسية .

وهكذا سقط الرايخ الثالث بتلك الهزيمة الساحقة وانتهت تلك الحرب الضروس التي لم يشهد العالم مثيلاً لها ولضراوتها في التاريخ ودفع العالم الثمن

---

(١) من الغريب ان هتلر خطب يوم عيد ميلاده مؤكداً للشعب ان المانيا سوف تنتصر ، ويقال في هذا الصدد ان عدداً من العلماء كانوا يجرون تجاربهم في الشمال ليل نهار لانتاج القنبلة الدرية ، ولكن مفاجأة انتصار الحلفاء سبقت الانتهاء من تجاربهم (جون جنتر : هتلر وأسرار النازية) .

باهظاً ، فقد لقى حتفه ٥٠ مليون نفس واكثر من ٨٠ مليون جريح ومفقود ، وخسر العالم ١٣٨٤ الف مليون دولار ، الى جانب ٢٦٠ الف مليون دولار قيمة ما دمرته الحرب التي شملت ٥٩ دولة قاست معاركها وتضحياتها وخسائرها .

في المحيط الهادي : معركة اليابان

بعد العدوان الجوي على بيرل هاربر ، اندفع اليابانيون بكل سعة قواهم يهاجمون في المحيط كل المواقع التي وضعوا خطتهم الجريئة للاستيلاء عليها ، وظل ذلك الاندفاع السريع لمدة ستة أشهر (نوفمبر ١٩٤١ — مارس ١٩٤٢) هاجموا أثناءها القواعد البحرية التي تمتلكها الدول الغربية وسقطت في ايديهم جزر ماليزيا وبورما وجاوه وتيمو ، وأصبحت كل من استراليا والهند والصين مهددة بالغزو ايضاً ، ولكن قوات الحلفاء الجوية والبحرية قضت في شهر مايو سنة ١٩٤٢ على أمل اليابانيين في غزو استراليا بعد انتصارهم في معركة بحر كورال ، وفي شهر يونيه انهزمت قوة بحرية يابانية اخرى بالقرب من جزيرة ميدواى (Midway)، وفي شهر يوليه انتصرت جيوش الصين الوطنية على الجيش الياباني في اقليم كنجسى (Kaingsi) .

وكانت سيام (تايلند) — وهي الدولة المستقلة الوحيدة جنوب شرق آسيا — قد عقدت معاهدة تحالف مع اليابان (ديسمبر ١٩٤١) . وكذلك وعد اليابانيون جزر الهند الغربية الهولندية بمنحهم الاستقلال في مستقبل الأيام عندما ينتهي القتال . ولكن الشعار الذي اطلقه اليابانيون (آسيا للأسيويين) لم ينطل على أحد ، فلم تقم ثورة في الهند ، ولم يظهر الصينيون اي تجاوب مع صيحة اليابان بل اعتقدت الشعوب الآسيوية ان حقيقة الشعار الياباني هي « آسيا لليابانيين » وساعد على هذا الشعور الدعاية القوية التي كان الحلفاء يقومون بها لاثارة الشعوب التي خضعت لليابان .

ومع ذلك فقد استطاعت اليابان في مدة قصيرة ان تحكم امبراطورية

يبلغ سكانها ربع عدد سكان العالم . ولو نجحت اليابان في الاحتفاظ بتلك الامبراطورية وسيطرت عليها وهيأتها عسكرياً لكانت الخطر الداهم على العالم الاوروبي والامريكي . ولكن لم يكن هناك خيار امام الامريكيين والاوربيين من ترك اليابانيين يسيطرون على تلك المنطقة الواسعة من العالم سنوات قليلة قبل القيام بهجوم واسع . فقد كان دون الهجوم صعوبات وموانع تحول دون نجاح تلك المهمة بعد العدوان الياباني مباشرة . فقد اغلق سقوط سنغافورة الطريق المباشر بين امريكا والمحيط الهندي وكان محتماً على سفن الحلفاء أن تتخذ الطريق الطويل جنوب استراليا ، ومع ذلك كانت مهددة بهجوم الاعداء من قواعدهم في بريطانيا الجديدة او جزر سليمان ولعل تلك الحقائق هي التي حددت خطة الهجوم الامريكي الاول في منطقة المحيط الهادي . ففي ٧ أغسطس ١٩٤٢ ، استطاعت القوات البحرية الامريكية النزول جواد الكنال (Gvadalcanal وفي حركة جريئة وبعد قتال عنيف استطاعت القوات الامريكية والاسترالية الاستيلاء على القواعد الحيوية في بريطانيا الجديدة وغينيا الجديدة وبذلك زال الخطر عن استراليا وعن الملاحة في بحر الكورال وخصوصاً بعد نوفمبر ١٩٤٢ عندما خسر اليابانيون ثمان وعشرين سفينة حربية وعدد كبير من ناقلات الجنود والطائرات اثناء محاولتهم الدفاع عن جواد الكنال .

وبعد ذلك توقفت عمليات الهجوم فترة من الزمن حتى استكمل الامريكيون تعبئة جهودهم العسكرية اللازمة ، وعلى الأخص في ميدان الطيران والبحرية بحيث يصبح لهم التفوق الحاسم في المحيط الهددي ، وأخذوا يعملون على زيادة انتاج الطائرات المقاتلة بكثرة وسرعة ، فزاد انتاجها من ٣,٦٣٨ في عام ١٩٤١ الى ٣٠,٠٧٠ في عام ١٩٤٤ (تكلفت ٤,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار) مما ضمن لهم التفوق الجوي في المحيط الهادي . كذلك زاد الانتاج في عدد الغواصات من احدى عشرة غواصة في عام ١٩٤١ الى سبع وسبعين في عام ١٩٤٤ . ولكن الاهتمام الكبير كان موجهاً الى الطيران اكثر من

انتاج السفن الحربية الكبيرة فقد كان الرأي مجمعاً على أن العصر عصر الطيران قبل كل شيء ولذلك تم بناء اثنتي عشرة سفينة حربية فقط على مدى الأربعة اعوام من ١٩٤١ الى ١٩٤٤ — ولكن الانتاج البحري الهام تمثل في بناء اعداد كبيرة من وسائل النقل البحري المتقدم كقوارب الانزال الكبرى البرمائية وغيرها من المخترعات البحرية الحديثة التي بلغ عددها في عام ١٩٤٥ ما يقرب من ٥٤,٠٠٠ ناقلة .

وكانت الخطة التي وضعها الحلفاء لطرد اليابانيين من امبراطوريتهم المبعثرة في المحيط تقضي بقطع الخطوط التي تربطهم بأراضيهم الجديدة .

وفي عام ١٩٤٢ ، اضبح غرب المحيط الهادي ، من استراليا الى الاسكا ، عبارة عن سلسلة من المناطق المتداخلة موزعة بين القوات الامريكية واليابانية حيث وزع الخصمان غواصاتهم حول خطوط مواصلات الطرف الآخر وتبادلت طائراتهم الاغارة على خطوط العدو البحرية ، اما القطع البحرية الكبرى فظلت بالقرب من قواعدها تحميها مظلة من الطائرات . وقد نجح الامريكيون بفضل تفوقهم الجوي في الاستيلاء على بعض الجزر وحولتها الى قواعد للطيران ، وكررت هذه الخطة بالتقدم حثيثاً نحو جزر اخرى . ولكن ظل اليابانيون مسيطرين على معظم الجزر ذات الأهمية الاستراتيجية مما جعل مهمة اعدائهم في القفز من جزيرة لأخرى بطيئة وغالية الثمن . ولكن نمو القوة الامريكية المطرد جعل تلك العملية التي سميت (بقفز الضفدعة) تزاد سرعة وجسارة ، وانعزل آلاف من اليابانيين في الجزر المبعثرة في المحيط بينما كانت القوات الامريكية تقتحم القواعد اليابانية وتقترب من ساحل اليابان .

وفي الوقت الذي فقد الألمان سيطرتهم على الميادين الاوروبية في عام ١٩٤٣ ، تحول المد بشكل حاسم ايضاً في المحيط الهادي . ففي نوفمبر ١٩٤٣ استولت القوات الامريكية على جزر جلبرت . وبعد شهرين (يناير ١٩٤٤) هاجمت جزر مارشال ودخلت جزائر كواجالين Kwajalein (٦ فبراير)

وجزر ماريانا في يونيه ، وفي كلتا العمليتين كانت خسارة الامركيين فادحة في الارواح والمعدات ولكن خسارة اليابانيين كانت اكثر وافدح ، وفي شهر اكتوبر ١٩٤٤ استبعد الامريكيون للقيام بمغامرة عسكرية كبرى وهي الاستيلاء على الفلبين ، وتمكن الجنرال دوجلاس ارثر من النزول في جزيرة ليتي (Leyite) (٢٠ اكتوبر) واندحر اسطول ياباني حاول التدخل لمنع الامريكيين من الاستيلاء على تلك الجزيرة وخسر اليابانيون اثناء ذلك سفينتين حربيتين وعشرين قطعة بحرية مختلفة اخرى .

وتوقف اليابانيون عن محاولة ايقاف الانزال الامريكي في هذه الجزر ، وبدأ سلاح الجو الامريكي يشن غاراته المتوالية من قواعده الجديده في جزر ماريانا على اليابان نفسها ، وانفصلت الامبراطورية اليابانية الى شطرين . ومع ذلك كان اليابانيون مصممين على الاستماتة في القتال معتمدين على أن انتصار الحلفاء عليهم بعيد الاحتمال لانه لا يتم الا باحتلالهم اليابان نفسها كما احتل الحلفاء المانيا عام ١٩٤٥ ، وهذا امر يصعب تحقيقه ، لأن بلادهم كالجزر البريطانية التي استعصت على هتلر في عنفوانه ، الا أن اليابانيين عانوا كثيراً من الحصار الذي ضرب عليهم وعاق خطوط الملاحة التي تصلهم بالعالم الخارجي وحرمهم من الواردات الكثيرة التي لا بد منها للمجهود الحربي ، ومن نقل المعدات الحربية اللازمة لقواتهم في الصين والمحيط الهدي ، فوقعوا في أزمة اقتصادية وحربية بسبب تلك الازمة البحرية الناتجة عن اغارات القوات الجوية الامريكية والغواصات التي كلفت اليابانيين خسائر فادحة في سفنهم التجارية والحربية . وما وافى عام ١٩٤٥ حتى تحطمت قوة اليابان البحرية التي كانت ثالث قوة بحرية في العالم بعد بريطانيا والولايات المتحدة ، حتى أن السفن البحرية الامريكية استطاعت قبيل انتهاء الحرب الاقتراب كل يوم من السواحل اليابانية وقصف المصانع والانشاءات البحرية ثم العودة دون أن تقاوم بمقاومة تذكر .

ولم ينجح اليابانيون في محاولة الاحتفاظ بقواعدهم العسكرية في جزر

المحيط الهادي بل لقي مئات الالوف من جنودهم مصرعهم بينما بقي فلول منهم منعزلين في حصونهم في انتظار التسليم . وفي بورما توالت الهزائم على جيوشهم في عام ١٩٤٤ ولقي ٥٠,٠٠٠ جندي حتفهم في المعارك وتجلى عجز اليابانيين عن المقاومة في كل مكان بسبب فقدهم السيطرة على طرق المواصلات البحرية التي تربطهم ببلادهم ، وهو نفس السبب الذي حرم اليابان من استيراد المواد التموينية من جزر الهند وآسيا لاطعام ملايين العمال في البلاد ولمد فرقهم العسكرية التي تحارب في الصين . وعلى الرغم من أن القوة العسكرية اليابانية لم تكن في حالة ضعف الا أنها فقدت القدرة على المبادرة . ولكن السؤال الذي حير قيادة الحلفاء هو الى أي مدى تستطيع القوة اليابانية ان تصمد في الدفاع اذا فكروا في غزو الاراضي اليابانية نفسها ؟

التسليم بالقنبلة الذرية :

وقبل ان تتحطم المانيا في ربيع عام ١٩٤٥ ، عكفت القيادة المشتركة للحلفاء على وضع خطة جريئة للقيام بعمليات حربية ضد اليابان ، وكان في تقديرهم أن الجيش الياباني سوف يقاوم الى آخر رجل فيه استناداً الى ما كان يحدث في القواعد اليابانية في جزر المحيط الهادي مثل اوكنياوا وسيبان وغيرهما مما كلف الحلفاء خسائر فادحة ، وقدروا أن الدفاع سوف يطول امده الى عام ١٩٤٦ وربما زاد عن ذلك التاريخ . فقد كان اليابانيون يفتخرون دائماً أن ارضهم لم تشهد الغزو منذ فجر التاريخ وأن غزو الجزر اليابانية أمر يعجز عنه الغزاة كيفما كانت قوتهم وانهم يدافعون عن ارضهم حتى آخر رمق من حياة آخر جندي ، ولذلك كان على الحلفاء ان يستبعدوا استعداداً خارقاً لتنجح عملية الغزو وعلى هذا الأساس فكرت قيادتهم في تعبئة ثلاث آلاف سفينة ، ومليون مقاتل تؤيدهم قوات بحرية كبيرة ، وآلاف من قاذفات القنابل .

ولكن لم يكتب لهذا المشروع أن يخرج الى حيز التنفيذ ، فمنذ ان سلمت

المانيا كان اليابانيون قد انهكت قواهم ، ولم تعد لديهم القوة عن القتال اذ كان ينقصهم البترول ، وتحطمت مصانعهم واحترقت بينما كانت قدرة الحلفاء على الانتاج الحربي تزيد وتتضاعف ، واتسعت عندهم ميادين الأبحاث التكنولوجية ، فقد تطورت لديهم أجهزة الرادار ، وانتفعوا بجهود العلماء الألمان الذين هاجروا الى امريكا فراراً من النازية ، اما اليابانيون ، فعلى الرغم من تقدمهم العلمي لم يصلوا الى ما وصل اليه الامريكيون . وفي الوقت نفسه ادركت الحكومة اليابانية والقيادات العليا في البحرية والطيران أن اليابان لن تستطيع مجاراة الحلفاء في السنين الاخيرة من الحرب ولا سيما بعد تسليم المانيا ، وتفرغهم لميدان المحيط ابادي ، والى جانب ذلك كان الاتحاد السوفييتي في الجانب الآخر يتهيأ للانقضاض من ارضيه الاسيوية القريبة على اليابان ، وزاد من اعتقاد اليابانيين في ذلك الخطر أن روسيا الغت في ابريل ١٩٤٥ معاهدة عدم الاعتداء المبرمة بينها وبين اليابان .

تبين اذن للعسكريين اليابانيين انهم كانوا على خطأ عندما أكدوا للشعب حتمية النصر ، وبدأوا يفكرون في الشروط التي يمكن أن يوافقوا عليها اذا لم يجدوا بداً من طلب الاستسلام . وبينما كانوا يتخبطون في حالات اليأس التي خيمت عليهم دهمتهم كارثتان مفاجئتان في اوائل اغسطس ١٩٤٥ ، وكانت القاضية .

كان الرئيس ترومان يشعر بأن الحرب مع اليابانيين قد تطول وتكلف غالياً لذلك أمر باستخدام القنبلة الذرية التي كان العلماء قد توصلوا الى صنعها . وفي ٦ اغسطس القت القاصفات الامريكية أول قنبلة ذرية على هيروشيما وقد ادى ذلك الى افدح كارثة في تاريخ الحروب ، فقد دمرت ثلاث ارباع المدينة وتسبب عنها مصرع ٧٨,١٥٠ من سكانها وتشويه آلاف أخر .

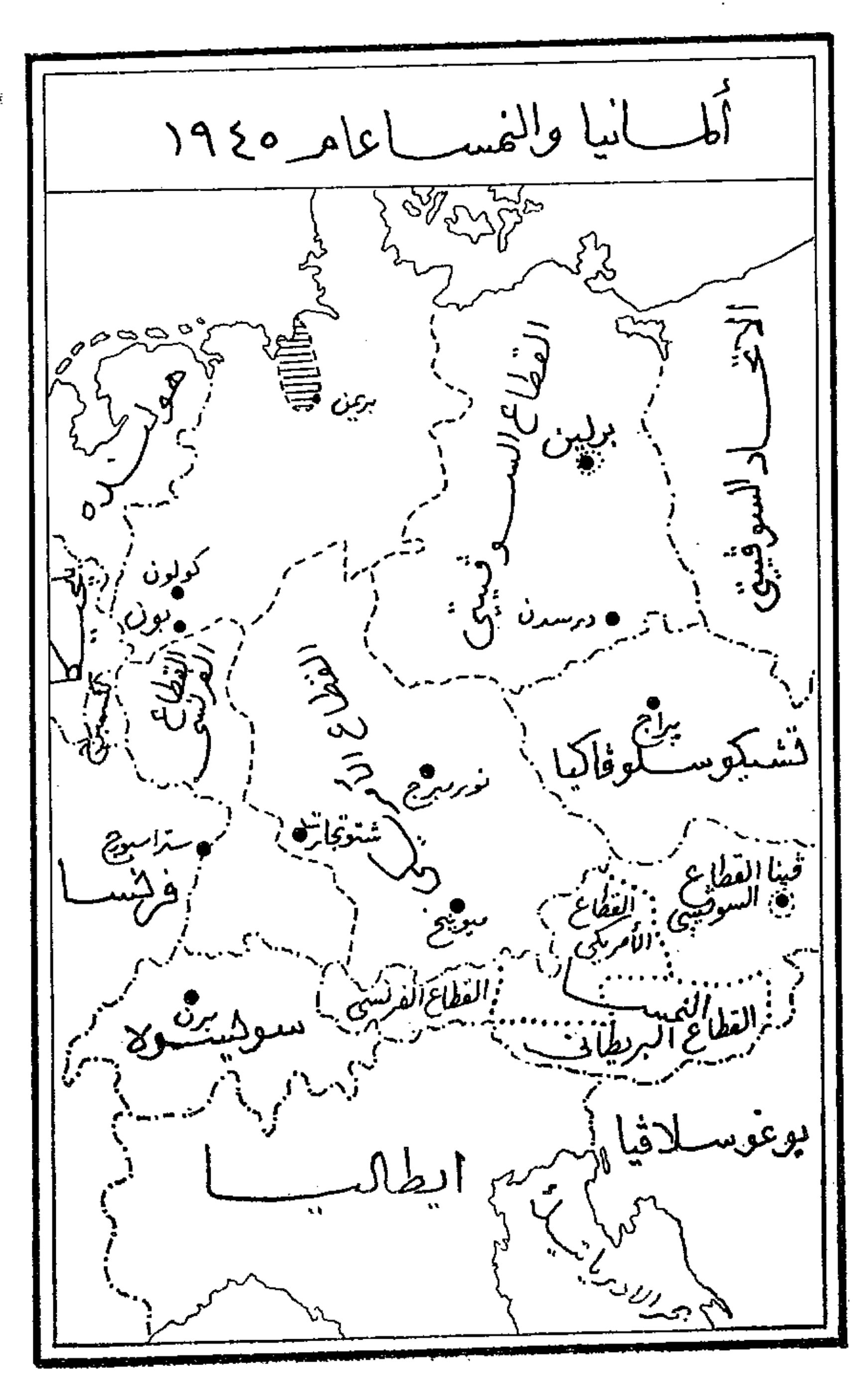
وبعد يومين فقط ، اعلنت روسيا الحرب على اليابان وامرت جيوشها باقتحام منشوريا التي تحتلها اليابان وكوريا ، وكان ستالين متفاهماً مع الحلفاء

على تلك الخطوة ضد اليابان وكان التفاهم قد تم على ذلك في موتمر القوم «اتفاقية بالتا فبراير ١٩٤٥) .

وفي ٩ اغسطس القيت القنبلة الذرية الثانية على مدينة ناجازاكي وسقط آلاف الموتى والجرحى والمشوهون . وعلى اثر ذلك اتضح للحكومة اليابانية أن المقاومة اصبحت عديمة الجدوى وأن كل تأخير في الاستسلام ستكون عاقبته ملايين الضحايا ، فقرر مجلس الوزراء في ١٠ اغسطس اعلان الاستسلام بدون قيد ولا شرط ، ووقعت الحكومة شروط الحلفاء في طوكيو في ١٤ اغسطس ، وكان توقيعها على ظهر السفينة الامريكية ميسورى الراسية في خليج طوكيو في ٢ سبتمبر وذلك بعد أن نزلت القوات الامريكية لاحتلال البلاد وأخذت تتدفق عليها باعداد كبيرة .

ولم تجد القوات اليابانية في الصين بداً من التسليم للجنرال تشانج كاى شيك . كذلك تحررت كوريا من الاحتلال الياباني ووعد الحلفاء اهلها بتحقيق استقلالهم ، واستسلمت الجيوش اليابانية في سنغافورة وبورما وجزر الهند الشرقية الهولندية للقائد الاعلى للقوات المتحالفة في جنوب شرق آسيا .

وكان الحلفاء قد اصروا في وثيقة التسليم ان يقدم المسئولون على جرائم الحرب الى المحاكمة ، وسارعوا الى تسريح الجيش الياباني وحل قيادته العامة ووقف صناعة الاسلحة . وفضلوا بقاء الميكادو وهيرهيتو على عرشه ولكنه جرد من سلطاته الاستبدادية ، وتنازل طواعية عن مظاهر التقديس التي كان يحيط بها رعاياه ، واخذت سلطات الاحتلال الامريكية تبحث عن العناصر اليابانية المعتدلة التي تصلح لتولي الحكم بالطريقة التي يرضى عنها المنتصرون . ووعدوا السكان بالعيش في سلام دون انزال عقوبات أو تعويضات اذا تخلوا عن الاتيان بأي اعمال عدوانية .


ألمانيا والنمسا عام ١٩٤٥
هولنده
بريمن
برلين
القطاع السوفييتي
الاتحاد السوفييتي
كولون
بون
درسدن
القطاع الفرنسي
القطاع الأمريكي
نورنبرج
شتوتجارت
ستراسبورج
فرنسا
ميونيخ
براج
تشيكوسلوفاكيا
فيينا
القطاع السوفييتي
القطاع الأمريكي
النمسا
القطاع الفرنسي
القطاع البريطاني
برن
سويسرة
يوغوسلافيا
ايطاليا

الفصل الخامس والعشرون

في أعقاب الحرب العالمية الثانية

انتهى الريخ الالماني الثالث بانتهاء ألمانيا النازية في عام ١٩٤٥ ، وبانتحار هتلر في شهر ابريل ، وبذلك انتهت الحرب العالمية الثانية في اوربا ، وبعد ثلاثة شهور أنهت القنبلة الذرية الحرب في آسيا . وهكذا انتهى الصراع العسكري ، بعد أن خلف وراءه جراحاً دامية ، وخراباً ينتشر في كل مكان ، فقد أصبحت معظم المدن الألمانية حطاماً وأكواماً من الحجارة ، وتوقفت المصانع المحطمة في وادي الرور عن العمل ، وكذلك كان الحال في معظم البلاد في اوربا الغربية ، وعلى الأخص في ايطاليا وهولنده . أما فرنسا فقد تحطم فيها ٥٥,٠٠٠ مصنع ، و ١٣٥,٠٠٠ من أبنية المنشآت الزراعية و ٢ مليون مسكن ، وأكثر من ٧٠٠٠ كيلومتر من السكك الحديدية ، و ٧٥٠٠ من الكبارى والجسور . وفي انجلترا تحولت المدن الصناعية الى حطام ، وخسرت حوالي ١٠٠٠ مليون جنيه من استثماراتها الخارجية التي كانت قد كرست مواردها لتمويل الحرب . وفي روسيا تهدمت تحت اسلحة هتلر وقنابله مدن لا يقل عددها عن ١٧٠٠ وأكثر من ٧٠,٠٠٠ قرية وشرد في العراء ما لا يقل عن ٢٥ مليون نفس ، هذا عدا ما تحطم من المصانع التي

تزيد عن ٣٠,٠٠٠ مصنع كانت تستخدم ٤ مليون عامل ، والمزارع الجماعية التي بلغ ما تحطم منها ٩٨,٠٠٠ ، وقد اعترف مولوتوف – وزير الخارجية السوفيتية حينئذ – أن النازيين قد نهبوا من روسيا ما لا يقل عن ١٧ مليون من رؤوس الماشية وملايين اخرى من الجياد .

وبالاضافة الى ذلك فقد خلّفت الحرب مشكلات اجتماعية لا حصر لها ، فقد كان هناك ملايين من البشر مشردين بدون مأوى بعد أن فقدوا مساكنهم ، أو يعيشون لاجئين في بلاد أجنبية فراراً من الحرب أو الظلم أو الاضطهاد ، وملايين أخرى من الأسرى يعانون من حياة الأسر في بلاد الاعداء ، وكان لا بد من إعادة اكثر من ١٠ مليون عامل أخذتهم ألمانيا النازية من فرنسا وايطاليا وغيرها لكي تعود الحياة في المزارع والمصانع .

وكانت المشكلات موزعة على الغالب والمغلوب . وقام الصراع السياسي في داخل البلاد التي تحررت من الحكم النازي والحكم الياباني مما أدى الى تعميق الخلاف القديم بين الطبقات والخلاف المرير حول المذاهب الايديولوجية وظهور ثورات اجتماعية ترتب عليها قيام حروب أهلية في بعض البلاد ، وأما البلاد التي خلصتها اليابان من الاستعمار الاوروبي في آسيا فقد شجعتها هزيمة اليابان على العمل على تحرير شعوبها من الاستعمار . كذلك أحدثت الحرب تغييرات أساسية في الوضع الدولي :

(١) فنظام الحكومات الأوربية القديم الذي ضعضعته أحداث الحرب العالمية الاولى قد قضي عليه تماماً بعد الحرب العالمية الثانية . فانتهت فرنسا – بعد الحرب مباشرة كدولة كبرى في العالم . ودب الضعف في النفوذ البريطاني في العالم ولم تعد بريطانيا قادرة على اتباع سياستها التقليدية التي تقوم على توازن القوى عندما كان لها الكلمة النافذة في هذا الشأن بين دول القارة .

(٢) أصبحت الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفيتي هما الدولتين الوحيدتين اللتين ترسمان سياسة العالم وتتنافسان على السيطرة عليه بعد ان

كانت هذه الصفة مقصورة على الدول الاوربية الغربية فقط . وزاد من قوة نفوذهما أنهما تزعمتا العالم في ابحاث الذرة والتقدم التكنولوجي .

(٣) تم اكتشاف أسلحة جديدة قلبت النظم العسكرية القديمة وأحدثت ثورة في الأفكار القديمة المتعلقة بالجغرافيا العسكرية . اذ أصبحت الدول الصناعية المنيعة في الغرب ، وعلى الأخص بريطانيا ، عرضة للهجوم والتدمير في عصر السلاح الذري .

(٤) انتعاش القومية وانتشارها في بلاد آسيا وافريقيا ، ومطالبتها بحق تقرير المصير وانهاء الاستعمار وذلك أدى الى تغيير الوضع السياسي والاقتصادي السائد فيها .

مفاوضات السلام :

ونستطيع أن نتتبع هذا التغيير عندما نبدأ بدراسة المفاوضات من أجل السلام . فقبل انتهاء الحرب العالمية الثانية في اغسطس ١٩٤٥ وضع ساسة الدول الكبرى الثلاث — الولايات المتحدة وبريطانيا والاتحاد السوفييتي — أسساً موقتة للسلام . واجتمع كل من روزفلت وتشرشل وستالين ، في طهران (٢٨ نوفمبر — أول ديسمبر ١٩٤٣) لوضع الخطط التي تكفل كسب المعركة . واتفق الأقطاب الثلاثة على انشاء منظمة عالمية في القريب العاجل . ثم في فبراير سنة ١٩٤٥ اجتمع الكبار الثلاثة في مؤتمر « يالتا » واتفقوا أن الشعوب المتحررة في اوربا ينبغي أن تقيم لنفسها منظمات ديموقراطية تختارها بمحض إرادتها . ويجب كذلك إعادة حقوق السيادة وحق تقرير المصير إلى هذه الشعوب التي خضعت للحكم الياباني أو الألماني . ومع ذلك فلم يتحقق هذا المبدأ ، لأن المنتصرين من الجانبين ، السوفييتي والغربي ، وجهوا اهتمامهم لاقامة حكومات تدور في فلكهم ، كما فعل الاتحاد السوفييتي في شرق اوربا ، وكما فعل الامريكيون في المناطق التي نشروا فيها نفوذهم ، كذلك لم ينطبق المبدأ على ألمانيا فقد تقرر تقسيمها الى مناطق

احتلال وعلى أن تقوم بدفع التعويضات التي يقودها الحلفاء.

وفي آخر مؤتمر عقد زمن الحرب وهو مؤتمر بوتسدام ١٧ يوليه — ٢ اغسطس ١٩٤٥ جدد فيه الحلفاء إقرار الشروط التي ستطبق على ألمانيا، كتجريدها من السلاح بصورة كاملة، والقضاء على النزعة العسكرية فيها، وعلى حل الحزب الوطني الاشتراكي وغيره من الأحزاب المشابهة له في المانيا، وعلى تطبيق المبادىء الديموقراطية ومحاكمة مجرمي الحرب وفرض تعويضات عسيرة عليها. وقد وافق الأقطاب الثلاثة على إنشاء مجلس لوزراء الخارجية تكون مهمته وضع معاهدات السلام. وكان اول اجتماع لهذا المجلس في لندن (سبتمبر ١٩٤٥)، ثم عقد في موسكو من ٢٦ الى ٢٧ ديسمبر، واختتم أعماله دون الوصول إلى شيء نظراً لاختلاف الرأي بين الاعضاء على معظم المسائل المعروضة للبحث، ولكن وزراء الخارجية توصلوا الى عقد معاهدات سلام كانت على كل حال محدودة ومؤقتة.

معاهدات السلام ١٩٤٥ — ١٩٤٧

لم يستطع الحلفاء أن يستقروا على وضع أنظمة خاصة للبلاد التي زالت حكوماتها والتي خضعت لهتلر زمناً طويلاً. فلم تعد في برلين حكومة ألمانية يعترف بها الحلفاء، كذلك كان الموقف في فينا، وبودابست وبوخارست وصوفيا، حيث تحطمت حكوماتها التي تعاونت مع النازية ولم يعد هناك غير القوات الروسية التي انتشرت في تلك العواصم، وأصبح الأهلون حيارى لا يدرون ماذا يخبىء لهم القدر.

لقد كانت الدول المنهزمة في أشد الحاجة الى حكومة وزعماء يملأون الفراغ المخيف الذي تجلّى بعد الحرب، ولكن الأمر كله كان بيد الحلفاء الذين كان همهم الأول هو تكوين حكومات عسكرية تدير شئون البلاد التي انقسمت الى مناطق احتلال روسية وامريكية وفرنسية وبريطانية. ولم يكن من السهل التوصل الى اتباع نظام خاص يصلح لحكم تلك البلاد في تلك

الظروف الحرجة . وكان من الطبيعي أن يحتفظ الحكام العسكريون في تلك المناطق ببعض الموظفين المحليين ورجال الشرطة وموظفي المرافق العامة الذين كانوا يخدمون النظم السابقة مهما كانت صفتهم المذهبية السابقة . وكان المهم لدى سلطات الاحتلال هو العمل على حفظ النظام ووضع الأسس اللازمة لاعادة الحياة الى تلك المدن والقرى المدمرة ، وتوفير الوقود والطعام ، ومنح ظاهرة السلب والنهب التي انتشرت في تلك الايام المظلمة ، واصلاح الطرق ومرافق المياه ، واسكان آلاف المشردين الذين تحطمت مساكنهم . وقد نجح الحكام العسكريون إلى حد كبير في مهمتهم الدقيقة .

ولكن المشكلة الكبرى التي لم يجد لها المنتصرون حلاً مرضياً هي ضمان نجاح الحكومات المحلية التي أقاموها في بلاد الاعداء . فقد تكونت في عام ١٩٤٥ حكومات مؤقتة ولكن رؤساؤها لم يكونوا في نظر شعوبهم سوى آلات في أيدي سلطات الاحتلال ، إلا أنهم كانوا على كل حال وسطاء بين شعوبهم البائسة وتلك السلطات الطاغية ، وكان هؤلاء الرؤساء المحليون زعماء ذوي سلطة محدودة لا يستطيعون ازاء الأزمات التي تثور بين الشعب وحاكميه العسكريين الأجانب الا أن يطيعوا الجانب الأقوى والا فقدوا وظائفهم ، ولذلك لم يستطع أولئك الذين عارضوا سلطات الاحتلال البقاء في الحكم سوى شهور قليلة .

وقد تحكمت ظروف الاحتلال في أوربا في النظم التي اختارتها الشعوب لنفسها فيما بعد ، فالبلاد التي وقعت في منطقة الاحتلال السوفييتي تأسست فيها حكومات شرعية مثل ما حدث في بلغاريا ويوغوسلافيا وهي حكومات أحرزت كل تأييد من حكومة الاتحاد السوفييتي اما تلك الدول التي رفضت الشيوعية ، كاليونان والنمسا ، فقد كانت تتطلع الى مساعدة لندن وواشنطن .

ونتج عن هذه الأوضاع الاوربية أن بنود المعاهدات ، ومدى ما تدفعه تلك الدول المنهزمة من التعويضات ، وما ستكون عليه حدودها الجديدة يتوقف كله على قرارات الدول الكبرى التي كانت تسعى كل منها لمساعدة

من تراه أقرب الى صفها .. وقد أدركت شعوب اوربا في ذلك الحين مدى الخلاف الذي بدأ يظهر بين الاتحاد السوفييتي وحلفائه الغربيين خلال عامي ١٩٤٥ و ١٩٤٦ ولكن معظم هذه الشعوب لم تكن في وضع تستطيع فيه أن تستفيد من هذا الخلاف . الا دولة واحدة من هذه الدول استطاعت فعلاً أن تستفيد ، وهي فرنسا التي حصلت على كميات كبيرة من الحبوب من روسيا ، وعلى قرض كبير من الولايات المتحدة في نفس الوقت . ذلك لأن الدول الكبرى لا تستطيع أن تعتبر فرنسا هي حكومة فيشي ، بل اعتبرتها احدى الدول الكبرى الاربع التي يجب أن يكون لها صوت في مجلس وزراء الخارجية .

مجلس وزراء الخارجية :

وكان الأقطاب الثلاثة ، روزفلت وتشرشل وستالين قد تفاهموا على الخطوط العريضة لإرساء قواعد السلام ، وذلك أثناء اجتماعاتهم في طهران (ديسمبر ١٩٤٣) وفي يالتا (فبراير ١٩٤٥) ، وفي بوتسدام بعد تسليم المانيا وقبل إعلان استسلام اليابان (يوليه ــ اغسطس ١٩٤٥) . ولكن تغيرت وجوه الأقطاب بعد وفاة روزفلت في شهر ابريل ١٩٤٥ ، وتعيين كلمنت أتلي زعيم حزب العمال بدلاً من تشرشل رئيساً للوزارة البريطانية ولكن ظلت الأهداف واحدة . وقد أعلن الرئيس ترومان ، ورئيس الوزارة أتلي والمارشال ستالين في ٢ اغسطس سنة ١٩٤٥ اتفاقهم على إنشاء مجلس لوزراء الخارجية يعهد إليه مهمة وضع معاهدات السلام ، ويحضره وزراء خارجية كل من الولايات المتحدة ، وبريطانيا ، وروسيا ، وفرنسا ، والصين. ولكن الواقع أن مندوبي الدول الثلاثة الاولى هم أصحاب الحل والعقد في تقرير مواد المعاهدات ، اذ لم يشترك وزير خارجية الصين في التسوية الاوربية ، اما مندوب فرنسا فلم يكن يدعى لكل الاجتماعات .

وقد اجتمع مجلس وزراء الخارجية حوالي مائة مرة ، في لندن ، وفي

موسكو ، وفي نيويورك ، وفي باريس . وفي كل مرة يكون الاجتماع حافلاً بالخبراء ومندوبي الدول الاخرى التي يقتضي الحال دعوتهم للاشتراك في مناقشة المسائل التي تخص بلادهم . على أن رأيهم كان استشارياً ولا يلزم المجلس بشيء ، لأن وزراء خارجية الولايات المتحدة وبريطانيا وروسيا هم أصحاب الرأي الأخير في وضع الصيغ وتنظيم التسويات . وبذلك اصبح مصير العالم كله معلقاً في أيديهم . وكان الوزراء الثلاثة من أكفا الساسة في بلادهم : اولهم الوزير الامريي جيمس بيرنز (J. Byrnes) وثانيهم الوزير الانجليزي ارنست بيفن (E. Bevin) ، وثالثهم الوزير الروسي مولوتوف .

وقد عقد أول اجتماع لمجلس وزراء الخارجية في لندن من ١١ سبتمبر الى ٣ اكتوبر سنة ١٩٤٥ ، وكان اجتماعاً فاشلاً ، اذ اختلف كل من المندوب الأمريكي والانجليزي مع الروسي ، واتهمت الدولتان الغربيتان الاتحاد السوفييتي بوضع العراقيل في سبيل المفاوضات . واخيراً اتفقت الاطراف المعنية على عقد المؤتمر الثاني في موسكو في شهر مايو ١٩٤٦ دون أن تمثل فيه فرنسا والصين ، وبعد اجتماعات دامت أسبوعاً أعلن المؤتمر (٢٤ ديسمبر ١٩٤٥) عن الاتفاق على عقد مؤتمر للسلام تمثل فيه احدى وعشرون دولة . واتفق من حيث المبدأ على وضع خطط للحكم في اليابان ، وكوريا ، ورومانيا ، وبلغاريا ، وانسحاب القوات الروسية والأمريكية من الصين ، ووضع صيغ للمعاهدات الخاصة بالدول الاوروبية .

وقد كان المندوب الروسي مولوتوف يعارض في اشتراك وزير خارجية فرنسا في اجتماعات مجلس وزراء الخارجية ، ولكن أمكن الوصول إلى تفاهم مع الاتحاد السوفييتي حول هذا الموضوع ، وسحب مولوتوف اعتراضه بعد أن اعلن « بيرنز » أن الولايات المتحدة تنظر في عقد قرض كبير (مقداره بليون دولار) للاتحاد السوفييتي . وعلى ذلك اجتمع الوزراء الاربعة في باريس من ٢٥ ابريل الى ١٦ مايو ١٩٤٦ ومثل فرنسا في هذا الاجتماع

جورج بيدو (G. Bidault) . وتجلت الخلافات بين أعضاء المجلس بأجلى مظاهرها حول توزيع المستعمرات الايطالية ، ومصير تريست ، وموقف الحلفاء تجاه حكومة فرانكو في أسبانيا ، وحرية الانتخابات التي وعد بها الشعبان الروماني والبلغاري .

على أن اقتراب موعد عقد مؤتمر السلام المقرر عقده في ٢٩ يوليه والذي ستمثل فيه ٢١ دولة ، جعل أعضاء مجلس وزراء الخارجية يحاولون التوصل الى اتفاق فيما بينهم على وضع صيغ مبدئية للمعاهدات التي ستعرض على المؤتمر ، وفي ١٢ يوليه انفض الاجتماع بعد أن أعلن أعضاء المجلس أنهم توصلوا الى اتفاق حول المسائل الهامة ، وكان القصد من ذلك عدم اتاحة الفرصة للشعوب الصغيرة ان تنتهز فرصة الخلاف بين الاتحاد السوفييتي والدول الغربية الكبرى لمحاولة الاشتراك الفعلي في وضع صيغ المعاهدات .

وقد عرض على اعضاء مؤتمر السلام[١] في ٣٠ يوليه التسويات التي وضعها مجلس الوزراء الخارجية لكل من ايطاليا ، وفنلنده ، والمجر ، ورومانيا ، وبلغاريا . وكانت كلها بطبيعة الحال تسويات مفروضة قبلتها الدول الضعيفة صاغرة في ذلك الحين .

وعندما انفض مؤتمر باريس في ١٥ اكتوبر ١٩٤٦ لم تكن القرارات التي تمت نهائية ولا إجماعية ، وقد ظهر مدى الخلاف بين الشرق والغرب . فقد استطاع الغرب أن يضمن تصويت خمسة عشر عضواً ضد الدول السلافية الستة ، أي الاتحاد السوفييتي وروسيا البيضاء واكرانيا وبولنده وتشكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا ، ومنذ ذلك الحين ظهر في اوربا الانقسام بين الكتلة السوفييتية

---

(١) كانت الدول الممثلة في مؤتمر : استراليا ، وبلجيكا ، والبرازيل ، وكندا ، والصين وتشكوسلوفاكيا واثيوبيا وفرنسا واليونان والهند وبلجيكا وهولنده ونيوزيلنده والنرويج وبولنده واكرانيا والاتحاد السوفييتي واتحاد جنوب افريقية وبريطانيا والولايات المتحدة وروسيا البيضاء ويوغوسلافيا .

والكتلة الغربية .

وتبعاً لسلوك تلك الدول الاوربية بدأت امريكا سياسة الثواب والعقاب ، فاخطرت تشكوسلوفاكيا أن القرض الذي وعدتها به حكومة الولايات المتحدة وقدر بخمسين مليون دولار قد تأجل دفعه لها ، بينما منحت تركيا التي طالما رفضت الاذعان للضغط الروسي قرضاً قدره خمسة وعشرين مليون دولار ، أما النمسا التي رفضت ان تسير في ركاب السياسة الشيوعية فقد كوفئت في (اكتوبر ١٩٤٦) بان اعلنت الولايات المتحدة وبريطانيا اعتبارها دولة محررة « Liberated State » وليست من الأعداء السابقين . كذلك حصلت ايطاليا على قرض امريكي قدره خمسين مليون دولار لعجز الشيوعيين هناك عن كسب أي تأييد حكومي أو شعبي .

وبعد انتهاء المؤتمر اعيدت المعاهدات الخمس الى مجلس وزراء الخارجية وهو الذي وضع أسسها من قبل . وتقرر أن يجتمع المجلس في دورته الرابعة في نيويورك في ٤ نوفمبر ١٩٤٦ . ولكن ظلت سحابة الخلاف تخيّم على أجواء السياسة الدولية ، وقد أظهرت الانتخابات الامريكية التي تمت في نوفمبر وأتت إلى الحكم بالحزب الجمهوري – الذي كانت مبادئه عدم التهاون مع الروس – أن الولايات المتحدة ستظل على موقفها من معارضة السياسة الروسية مما جعل الروس يقتنعون بأن من الخير لهم السعي إلى تخفيف حد التوتر والوصول الى حلول يرضى عنها حلفاؤهم الغربيون ، ولكن ظلت أزمة الثقة محتدّة بين الكتلتين .

تقسيم المانيا :

كان أول سؤال فرض نفسه على الحلفاء المنتصرين هو مصير ألمانيا ، وكان الأقطاب الثلاثة : تشرشل وروزفلت وستالين قد توصلوا الى اتفاق موقت حول تقسيم المانيا ، وتمّ ذلك في موتمر يالتا فبراير ١٩٤٥ ، وعندما انتهت الحرب نهائياً ، في صيف ذلك العام في غيبة روزفلت الذي توفي

وتولى الرئاسة بعده نائبه « هارى ترومان » ، جاء دور الاتفاق النهائي في بوتسدام

وفي هذا المؤتمر اتفق الأقطاب – هارى ترومان وستالين واتلى – على ان تمتد الحدود الشرقية لالمانيا على طول الخط الذي يوازي نهري الاودر Oder والنيس Neisse وتستولي روسيا على نصف بروسيا الشرقية ، وتستولي بولنده على دانتزج وسيلزيا العليا والسفلى وبراندنبرج الشرقية ومعظم أراضي بوميرانيا والنصف الجنوبي من بروسيا الشرقية . وتعاد أرض السوديت الى تشكوسلوفاكيا ، أما في الغرب فقد أعيدت الالزاس واللورين الى فرنسا ، ومالمدى ويوبن الى بلجيكا . ثم جاء الدور على ما تبقى من ارض الريخ عندما تمت هزيمة الألمان نهائياً .

قسم الحلفاء ألمانيا إلى أربع مناطق احتلال تبعاً للوجود الاجنبي العسكري في كل قطاع ، وعلى ذلك احتل البريطانيون القطاع الشمالي ، واحتل الامريكيون القطاع الجنوبي ، واحتل الروس القطاع الشرقي ، واحتل الفرنسيون القطاع الغربي . أما العاصمة برلين ، التي كانت في قلب القطاع الروسي فقد اتفق الحلفاء على تقسيمها الى اربع مناطق احتلال .

على أن تقسيم ألمانيا الى أربع مناطق منفصلة تتميز كل منها بحكومتها العسكرية ، ونظامها الاقتصادي وادارتها المختلفة لم يكن في نظر الحلفاء امراً طبيعياً وتبين للامريكيين والبريطانيين بعد عام من تلك التجربة أن من الخير لهم توحيد الادارة في قطاعاتهم ، ثم دعوا الفرنسيين الى الانضمام إليهم في هذا السبيل ، ولما تم هذا التوحيد الغربي ، تجلى الريخ الألماني وكأنه قطاعين اثنين ، قطاع شرقي يسيطر عليه الاتحاد السوفييتي ، وقطاع غربي تسيطر عليه الدول الغربية . ولكن الروس لم يكونوا سعداء بهذه البادرة الامريكية ، لأنهم أدركوا أن الالمان في القطاع الشرقي الروسي سوف يشعرون بالمرارة لأن مواطنيهم في القطاعات الغربية قد التاموا وحققوا نوعاً من الوحدة؛ لذلك وافق الروس في ديسمبر سنة ١٩٤٦ على الاشتراك في مناقشة بعض

المشروعات الرامية إلى خلق وحدة اقتصادية تشمل مناطق الاحتلال ، إلا ان التوتر ظل على اشده بينهم وبين المعسكر الغربي ، واحتدّ الحوار بين الفريقين حتى استحال التفاهم بين السياستين .

ومع أن الحلفاء الغربيين كانوا يتبعون سياسة التظاهر بالعطف على الشعب الالماني ومحاولة إصلاح اقتصادياته الا أنهم حرصوا اشد الحرص على اتباع سياسة الحزم في محو كل أثر للنازية والنعرة العسكرية ، والقضاء على أية حركة تهدف إلى بعث الروح العسكرية في البلاد، ومنعوا منعاً باتاً حمل السلاح بأي صورة من الصور ولم يسمحوا بوجود مراكز للرادار أو نماذج الطائرات أو الخرائط الحربية أو تجارب الأبحاث العلمية التي توءدي إلى الاستفادة منها وتطبيق نتائجها في العمليات الحربية . وقد بلغ بهم الحرص أن كانت الأسلحة الخفيفة الخاصة بالأمن العام توزع على رجال الشرطة الألمان تحت إشراف سلطات الحلفاء العسكرية . وكانت هذه الخطة الصارمة في نزع سلاح المانيا تهدف إلى إشعار الالمان بما يشعر به العالم من سخط على ألمانيا النازية ، وما جنته سياستها العسكرية من جرائم في حق البشرية ، فاذا ما تحقق للحلفاء الغاء الوجود العسكري الالماني من اوروبا عمدوا إلى اعادة البناء السياسي والاقتصادي للرايخ الالماني ، واحتفظت كل من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا بحق الاشراف على نزع سلاح المانيا ومسألة التعويضات والشئون الخارجية .

وقد بدأ الحلفاء بمحاكمة اثنين وعشرين من زعماء النازية ممن أطلقوا عليهم اسم مجرمي الحرب ، وذلك أمام محكمة خاصة في نورمبرج عقدت جلساتها ما بين شهر نوفمبر عام ١٩٤٥ واكتوبر عام ١٩٤٦ وحكم على اثني عشر منهم بعقوبة الاعدام وعلى سبعة منهم بالسجن لمدد مختلفة وافرج عن ثلاثة منهم[١] .

---

(١) كان هتلر وهملر وجوبلز قد انتحروا قبل أن يقدموا الى المحاكمة، وبرأت المحكمة فون بابن والمعلق السياسي فريتش والعالم الاقتصادي شاخت .

ولم يستطع الحلفاء وضع سياسة شاملة لألمانيا بسبب الخلاف الذي كان ينشب ما بين حين وآخر بين الغرب والاتحاد السوفييتي . وسار كل قسم من ألمانيا في اتجاه خاص ، تبعاً لعلاقة المانيا الاتحادية الغربية بالحلفاء الغربيين ، وعلاقة المانيا الشرقية بالاتحاد السوفييتي .

في سبتمبر سنة ١٩٤٩ انتخب الدكتور تيودور هيس أول رئيس لجمهورية ألمانيا الاتحادية ، واشتملت هذه الجمهورية على أكثر من نصف مساحة ألمانيا قبل الحرب ، وعلى ما يقرب من ثلاثة أرباع وسكان المانيا ، واختارت الحكومة مدينة بون الجامعية لتكون عاصمة للبلاد ، وأنشىء فيها البرلمان الاتحادي بموجب دستور جديد وضع على أسس دستور جمهورية فيمار مع بعض التعديلات الجوهرية (١).

ويقضي الدستور الجديد بأن يكون رئيس الجمهورية محايداً من الناحية السياسية الوطنية ، فلا ينحاز إلى أي اتجاه حزبي ، بل يجب ان يراعي المصلحة العليا للبلاد ، وأن يقسم على احترام الدستور والمحافظة عليه ، ونص الدستور على حرمان الرئيس من حق الاعتراض على القوانين التي تسنها الحكومة إلا في نطاق ضيق محدود ، وبذلك أصبح لا حق له في تحديد الخطوط السياسية للدولة .

وقد حرص واضعو هذا الدستور على الحدّ من سلطات الرئيس عَمْداً حتى لا تتاح له الفرصة لاستغلال منصبه وسلطانه في العبث بالدستور والزجّ

---

(١) كان رئيس الجمهورية في حكومة فيمار بعد الحرب العالمية الاولى يتمتع بسلطات واسعة أهمها أنه كان يعد القائد الأعلى للقوات المسلحة ، ومن حقه أن يعلن الحرب وأن يعقد الصلح ويحل البرلمان وما الى ذلك من السلطات الواسعة ، وكان الرئيس في عهد تلك الجمهورية ينتخب باستفتاء شعبي عام ، ولهذا كان يتمتع بسلطات واسعة باسم الشعب ، وليس باسم البرلمان المنتخب ، وكانت المادة (٤٨) في دستور فيمار تخول له الانفراد بحق إصدار القوانين في حالات الطوارىء ، وقد استغل الرئيس هندبرج هذه المادة في انشاء مجلس استشاري خاص به ، وحده ، وفي تعيين هتلر سنة ١٩٣٣ مستشاراً للدولة لأنه كان يتمتع بتأييد شعبي كبير » .

بالبلاد في اتجاهات سياسية لا يرضي عنها الشعب . وبذلك لم يعد رئيس جمهورية ألمانيا الاتحادية سوى رمزا وممثلا للدولة ، وعليه أن يصدق على المعاهدات والاتفاقات التي تعقدها الحكومة ، وأن يتشاور مع الزعماء فيما يتعلق بتأليف الوزارة ، ويجري مشاورات سياسية معهم ويحاول التوسط والتوفيق بين آرائهم وذلك في حين أن دستور فيمار الذي وضع في أعقاب الحرب العالمية الاولى، كان يمنح رئيس الجمهورية الالمانية خلطات واخعة ، وأهمها أنه كان يُعدّ القائد الاعلى للقوات المسلحة ، ومن حقه أن يعلن الحرب ، ويعقد الصلح ويحل البرلمان وما إلى ذلك من السلطات الكبيرة الواسعة التي تجعله لا يقل سلطانا عن أي ملك أو حاكم مطلق ، أما الدستور الجديد الذي وضع عقب نهاية الحرب العالمية الثانية فقد قلل سلطات رئيس الجمهورية اكتفاء باعتباره مجرد رمز للدولة تاركاً أعباء الحكم للوزارة ورئيس الوزارة ، اي مستشار الدولة الذي يعتبر مسئولا أمام البرلمان عن سياسته وتصرفاته .

وبينما كانت سلطات الاحتلال تواجه في المانيا المشكلات الاقتصادية والاجتماعية وتحاول التغلب عليها ، كانت هناك أحزاب سياسية المانية تحاول أن تبعث نشاطها من جديد في عام ١٩٤٦ ، وهي الاحزاب التي ألغتها النازية عام ١٩٣٣ . وكان أهم هذه الاحزاب التي ظهرت (الحزب الديمقراطي) الذي بدأ يتجلى نشاطه في القطاع الأمريكي ، والحزب الديمقراطي المسيحي ،وكان أعضاء هذا الحزب يرون إقامة المانيا الحديثة على أسس مسيحية قويمة ، تحترم حقوق الإنسان وأملاكه وتسعى إلى إصلاح اجتماعي معتدل . وكان لهم أنصار كثيرون في المناطق الكاثوليكية مثل بافاريا وأرض الرين ولكن الحزب ضم ايضاً عدداً من الاتباع البروتستنت . وقد ظهر أيضاً حزب شيوعي قليل العدد ينادي لتطبيق المبادىء الاشتراكية المتطرفة ولكنه لم يلق مجالا إلا في القطاع الروسي ، وكان هذا الحزب ينادي أيضاً بتأسيس حكومة مركزية قومية بينما كان الديموقراطيون الاشتراكيون يعارضون المركزية ويفضلون تأسيس حكومة اتحادية .

ومنذ عام ١٩٤٨ تحرج الموقف في المانيا بعد ان احتد الخلاف بين الاتحاد

السوفييتي والحلفاء الغربيين . وتجلي الخلاف للعالم في شهر مارس من ذلك العام عندما انسحب المندوبون الروس من الاجتماع الرباعي للسلطة الحاكمة ، ورفضوا العودة إلى مثل هذه الاجتماعات .

وفي شهر يونيه فرضت السلطات الروسية الحصار حول برلين ، حتى لم يعد بمقدور الحلفاء الغربيين الوصول إليها الا عن طريق الجو ، وفي أول يوليه ١٩٤٨ أعلن المندوب الروسي في الهيئة الرباعية التي تحكم برلين أن السوفييت لن يشتركوا في أعمالها ، ومع الحصار الصارم الذي فرض على برلين رفض المسئولون الغربيون مغادرتها بأية حال كما سنرى في الفصل التالي .

* * *

الفصل السادس والعشرون

الحرب البـــاردة

١٩٤٧ – ١٩٦٠

اتضح منذ عام ١٩٤٧ أنه لاأمل في عقد تسوية عالمية ترتكز على اتفاق يتم بين كتلة الغرب التي تسمى نفسها بالكتلة الغربية الديموقراطية وبين الكتلة الشيوعية الشرقية . واصبح في الوقت نفسه الا أمل في الوصول إلى اتفاق على توحيد المانيا . واصبحت الكتلتان تنظران إلى المانيا كفراغ سياسي تسارع كل كتلة إلى ملئه ، واندفعت كل منهما إلى داخل ألمانيا حتى واجه كل منهما الآخر.

فمن الشرق سيطرت روسيا السوفييتية ، على الثلث الشرقي من ألمانيا والقطاع الكبير الذي احتلته من النمسا بحق الفتح ، بل وتجاوزت ذلك الى السيطرة على الدول الشرقية الواقعة على حدودها الغربية ، وهي الدول التي حررتها من الاحتلال النازي ، وهي بولنده وتشكوسلوفاكيا والمجر ورومانيا وبلغاريا ويوغوسلافيا وألبانيا . ونتيجة للنفوذ والتأثير الروسي تأسست في تلك الدول حكومات تسير على النظام الشيوعي ، وتكون منها جميعاً – فيما عدا يوغوسلافيا – كتلة شيوعية تسير في فلك الاتحاد السوفييتي .

وعلى الجانب الآخر تقف الدول الثلاث المتحالفة – الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا – تحتل قواتها القطاعات الاخرى من المانيا . وقد وحدت هذه الدول سياستها وعزمت على العمل على إنهاء احتلال المانيا في اقرب فرصة ممكنة . على أن الولايات المتحدة كانت لها الكلمة العليا والنفوذ الغالب في ذلك التحالف . وكان الأمريكيون وحلفاؤهم يظنون في مبدأ الأمر أن حلفاءهم الروس سيعملون معهم زمن السلم كما عملوا أيام الحرب ، ولكن السوفييت كانوا يعلمون مدى العداء الذي يكنه لهم الغرب . فبدأت القطيعة ، وعمدت روسيا ، والدول المتحالفة معها الى وضع حاجز يحجب أوربا الشرقية عن الغرب كله ، ذلك الحاجز الوهمي الذي اطلق عليه الغربيون فيما بعد اسم الستار الحديدي .

وظهر بأجلى بيان أن العالم أصبح تتزعمه قوتان : امريكا والاتحاد السوفييتي ، ولم تعد اوربا الغربية كما كانت سابقاً مركز القوة الدولية وكان بعض المفكرين في القرن التاسع عشر . قد تنبأوا بأن ذلك سوف يحدث عندما تلوح الفرصة لروسيا . ففي عام ١٨٣٠ ، وعام ١٨٤٠ قالها على التعاقب الفيلسوف السياسي الفرنسي الكسيس توكفيل Tocqveille والمفكر الروسي الكسندر هرزن A. Herzen ، ولكنهما قدرا انتقال مركز القوة الى روسيا والولايات المتحدة في ميعاد مبكر عما حدث فعلاً ، لأنهما لم يضعا في الحساب ما كان مقدراً من ظهور الثورة الصناعية في أوربا وما ترتب عليها من تقدم ورقي في الغرب ، وعلى الأخص في انجلترا ، التي رفعتها الثورة الصناعية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الى مرتبة الزعامة الاقتصادية في العالم كله ، ومكنها من التوسع الامبريالي الذي لم يسبق له مثيل في تاريخ العالم ، ولكن الحربين العالميتين وما قاسته بريطانيا من نتائجهما وضعتا حداً لهذا التفوق . وعندئذ ظهرت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي في موضع الصدارة ، في توجيه السياسة العالمية كما تنبأ بذلك توكفيل وهرزن منذ أكثر من مائة عام .

اما الاتحاد السوفييتي ، فقد قفز إلى مركزه العالمي نتيجة الثورة الصناعية

التي عنى بها الزعماء السوفييتيين بعد نجاح الثورة الشيوعية . وساعدهم على ذلك ثلاث خصائص هي أساس القوة في القرن العشرين ، المساحة الضخمة المتصلة ، وحجم السكان الكبير ، والموارد الطبيعية الهائلة . ومع أن الاتحاد السوفييتي مجتمع متعدد العناصر ، متعدد القوميات إلا أن حكومته استطاعت تنمية القوميات والحضارات المحلية وضيانتها بدلاً من كبتها ، ومنحتها نوعاً من الاستقلال الذاتي والحكم المحلي ، رغم أن الروس أنفسهم يسيطرون عددياً وحضارياً على الأجناس الأخرى التي يضمها الاتحاد السوفييتي .

اما الولايات المتحدة فقد خرجت من الحرب العالمية الثانية وهي أغنى وأقوى دولة على وجه الأرض ، بينما تأثرت الدول الاوربية بتلك الحرب إلى حد كبير ، فتصدعت اقتصادياتها ، وضعفت قوتها ، في الوقت الذي تضاعفت ثروة الولايات المتحدة بتضاعف إنتاجها الصناعي ، وزاد النقد المتداول فيها ثلاثة أضعاف . أما في السياسة الخارجية فقد تزعمت العالم الغربي وأخذت على عاتقها مهمة الحد من الخطر الشيوعي ، ومكافحة التغلغل الروسي ، وحماية جميع الدول التي تعادي الشيوعية . وبموجب برنامج النقطة الرابعة تعهدت الولايات المتحدة بمساعدة من سمتهم بالشعوب الحرة في العالم .

وقد أعلن الرئيس ترومان برنامج النقطة الرابعة في الخطاب الذي القاه في ٢٠ يناير سنة ١٩٤٩ في مجلس الشيوخ ، حيث أعلن يومئذ أربعة اساليب عامة للعمل ، تسير عليها حكومة الولايات المتحدة وذلك تأييداً لسلام العالم على حد قوله . الأول التأييد المطلق للامم المتحدة . والثاني : كسب الشعوب بالعمل على الاصلاح الاقتصادي العالمي . والثالث : تقوية الشعوب التي تعادي الكتلة الشيوعية ضد مخاطر العدوان . والرابع : هو المشروع الذي أطلق عليه اسم النقطة الرابعة **Point 4** وجاء في هذه النقطة ما يلي :

« ينبغي أن نباشر القيام ببرنامج جديد يهدف الى الاستفادة من ثمرات

تقدمنا العلمي وتطورنا الصناعي في تحسين ونمو الأقطار المتخلفة . إن أكثر من نصف سكان العالم يعيشون في ظروف تعيسة ، وان فقرهم يشكل عائقاً وتهديداً لهم وللاقطار المتقدمة . ان الولايات المتحدة هي الدولة المتفوقة بين الدول في التطور الفني والصناعي والعلمي . وان الموارد المادية التي يمكن ان تقدمها لمساعدة الشعوب الاخرى محدودة . بينما نجد مواردنا التي لا حصر لها في مجال المعرفة الفنية في نمو مستمر لا ينضب .

وأنا أعتقد أنه ينبغي علينا أن نمد الشعوب المحبة للحرية بفائدة ما نملك من المعرفة الفنية . وذلك بغية مساعدتها على إدراك طموحها نحو حياة أفضل . وبالتعاون مع الأقطار الاخرى يجب تنمية تطور رأس المال في الأقطار التي يجب تطورها .

إن هدفنا هو مساعدة الشعوب الحرة في العالم ، عن طريق جهودها الخاصة ، أن تنتج غذاء أوفر وملابس أكثر ومواد أولية لبناء المساكن ، وطاقة ميكانيكية تكفي للتخفيف من أعبائها .

والديموقراطية وحدها هي التي تمد القوة الحيوية التي تحرك شعوب العالم نحو العمل الظافر ، ليس فقط ضد الظالمين بل كذلك ضد اعدائها القدامى — « الجوع والشقاء واليأس » .

على أن كل هذه الاجراءات التي اتخذتها الولايات المتحدة انما كانت تهدف الى الانتصار في الحرب الباردة بين الكتلتين .

ويمكننا أن نميز فترتين من فترات تلك الحرب الباردة : أولها ما بين عام ١٩٤٥ و ١٩٤٧ وهي الفترة التي نستطيع تسميتها بالفترة الانتقالية التي تحطم أثناءها الحلف الكبير بين روسيا والدول الغربية . وهو الحلف الذي أطلق عليه The Grand Alliance

والفترة الثانية من عام ١٩٤٧ الى ١٩٤٩ وهي الفترة التي وصلت فيها الحرب الباردة الى ذروتها .

وقد تميزت الفترة الاولى بأربعة مظاهر : أولها أن الاتحاد السوفييتي وسع حدوده غرباً حتى ضمت بلاداً يسكنها ٢١ مليون نسمة لم يكونوا تابعين للاتحاد السوفييتي قبل عام ١٩٣٩ . والمظهر الثاني : هو عزم الاتحاد السوفييتي على تأمين حدوده الغربية بالسيطرة الكاملة على دول شرق أوربا التي تقع على تلك الحدود والتي يبلغ عدد سكانها مائة مليون نسمة ، وذلك بالعمل على ايجاد حكومات موالية تطبق النظام الشيوعي . وقد تم ذلك في نهاية عام ١٩٤٥ حيث اقيم النظام الموالي لروسيا في رومانيا ، وبلغاريا ، ويوغوسلافيا والبانيا . وفي عام ١٩٤٧ اقيم في المجر وبولنده ، وبقيت تشكوسلوفاكيا محتفظة بنظامها الديموقراطي فترة من الزمن الى ان حدث الانقلاب الشيوعي فيها في فبراير سنة ١٩٤٨ .

والمظهر الثالث لسياسة الاتحاد السوفييتي هو العمل على الحصول على أكبر قدر من التعويضات من ألمانيا لاصلاح الدمار الذي نتج عن عدوان هتلر على الأراضي الروسية .

وأخيراً كان المظهر الرابع للسياسة الروسية هو العودة الى تدعيم الشيوعية لمجابهة العالم الرأسمالي وذلك بالعمل على تنفيذ خطة الخمس سنوات ، التي تهتم أكبر اهتمام بتدعيم الصناعات الثقيلة وتسليح روسيا بالاسلحة الذرية ، مما يستدعي بطبيعة الحال شد الاحزمة على البطون وتكريس الجهود العقلية والفكرية للاختراع والابتكار في هذا السبيل .

أما السياسة الامريكية في فترة الانتقال هذه ، فقد ارتكزت على عنصرين اساسيين : الاول الرغبة في العودة الى الحالة الطبيعية باسرع ما يمكن . والثاني محاولة ايجاد أداة دولية دائمة تأخذ على عاتقها حفظ السلام العالمي ، وقد تحقق ذلك الأمل بإنشاء هيئة الامم المتحدة

أمّا الرغبة الاولى في العودة الى الحالة الطبيعية فقد ظهرت أولاً في المحيط العسكري الامريكي ، ففي مؤتمر « يالتا » وغيره كان روزفلت

يصرح بأن الحكومة الامريكية لا تستطيع أن تحتفظ بقواتها في أوربا اكثر من سنتين بعد الحرب . ومع ذلك فان الحوادث التي تلت الحرب أثبتت أنه كان مخطئاً في التوقيت المبكر ، ولو أن الوجود العسكري الامريكي بدأ يتناقص بتسريح أعداد كبيرة من المجندين . ففي يونيه سنة ١٩٤٥ كان عدد أفراد الجيش الامريكي اكثر من ١٢ مليون ، وفي العام التالي اصبح ٣ مليون ، ثم أصبح ١,٦٠٠,٠٠٠ في يونيه من عام ١٩٤٧ .

أما من الناحية الاقتصادية فقد كانت الولايات المتحدة راغبة في العودة الى الحالة الطبيعية ، وكانت تعتقد أنها بتقديم معونة الطوارىء الى أوربا في فترة الانتقال يعود العالم الى الحالة الطبيعية من حيث التجارة الخارجية والعلاقات المالية .

وطريقة ثالثة للعودة الى الحياة الطبيعية أن تعمل الولايات المتحدة على إنجاز معاهدات الصلح بأسرع وقت ممكن . ولذلك فقد وقعت خلال عام ١٩٤٧ أربع معاهدات : مع كل من ايطاليا ، ورومانيا ، وبلغاريا ، والمجر . وهي الدول الصغرى التي تحالفت مع ألمانيا أثناء الحرب . وكانت الولايات المتحدة تتوقع أن يعقب تلك المعاهدات ، معاهدة الصلح مع ألمانيا ذاتها ، ولكن الحرب الباردة بين روسيا والحلفاء الغربيين وقفت حائلاً دون ذلك ، وما تزال حتى اليوم تحول دون تحقيق هذه الرغبة .

وقد تحققت للولايات المتحدة رغبتها الاولى في إيجاد أداة لحفظ السلام بتأسيس هيئة الأمم المتحدة . ومع ذلك فإن الآمال التي كانت معلقة على تلك المنظمة العالمية ذهبت أدراج الرياح ، ولم تُقرّب بين الكتلتين المتنافستين بقدر ما باعدت بينهما . حتى اصبح الاتحاد السوفييتي يستعمل حق الفيتو في مجلس الأمن ما بين حين وآخر مما وسع رقعة الخلاف الدولي . وفي الوقت نفسه أخذت الولايات المتحدة تسيطر بنفوذها على الدول الكبرى والصغرى في الجمعية العمومية أو مجلس الأمن – وهي الدول التي ترتبط بها وتسير في فلكها .

وظهرت خلافات أدت الى التوتر في العلاقات الدولية . وتمثلت تلك الخلافات في عدة مناطق . ففي إيران اشتد التوتر عندما تلكأت روسيا عدة شهور في إجلاء الحاميات الروسية التي كانت موجودة بها أثناء الحرب . ومحاولتها اقامة حكومة موالية لها هناك . كذلك اشتد التوتر على حدود تركيا عندما طالبت روسيا صراحة بتعديل تلك الحدود والسيطرة على المضايق . وفي شمال اليونان حدث توتر آخر بسبب الصراع الدامي بين الحكومة الملكية — تؤيدها بريطانيا — ضد حرب العصابات الشيوعية التي اتخذت لها قواعد في بلغاريا ويوغوسلافيا والبانيا . ثم التوتر الذي حدث في تريستا بين يوغوسلافيا الشيوعية وايطاليا . وأهم من ذلك كله . شدة التوتر الذي كان سائداً على طول خط الحدود في ألمانيا بين الروس . والحلفاء الغربيين .

ولعل اعجب ما في الأمر أن الحلفاء لم يضعوا سياسة واضحة لألمانيا عندما انتهت الحرب . وكل ما فعلوه أن اتفقوا على تقسيمها الى مناطق احتلال عسكرية . دون أن يتفقوا على الخطوات التالية . ففي مؤتمر بوتسدام الذي عقد في يوليه سنة ١٩٤٥ كان الاتفاق قد تم على ضرورة احتفاظ المانيا بوحدتها تحت اشراف أمريكا وبريطانيا وروسيا على شرط نزع سلاحها وحرمانها من صناعاتها الثقيلة حتى لا تعود الى تهديد السلام . ولكن اتفاق بوتسدام كان مرهونـاً باستمرار التحالف الكبير **Grand Alliance** بين روسيا والحلفاء . أي أن وحدة الحلفاء ووحدة المانيا تحت السيطرة المشتركة مرتبطتان أشد الارتباط . وبمجرد فصم الوحدة الاولى تصبح الوحدة الثانية أملاً بعيد المنال .

وقد بدأ الخلاف يدب بين الحلفاء والاتحاد السوفييتي في ربيع عام ١٩٤٦ عندما أخذت الحكومة السوفييتية تتصرف في المنطقة التي تحكمها بكل حرية دون الرجوع الى اللجنـة المشتركة **Control Commission** التي تكونت لتنسيق العمل ، مما أضر أبلغ الضرر بوحدة المانيا الاقتصادية . وتغيرت نظرة الفريقين الى الهدف من الاحتلال . وتطلع كل فريق الى كسب ود

الألمان . حتى أن بيرنز (Byrnes) وزير خارجية الولايات المتحدة صرح في سبتمبر سنة ١٩٤٦ بأن الامريكيين لن ينسحبوا من ألمانيا ، وأن بلاده سوف تساعد الشعب الألماني على أن يعود ليأخذ مكانه بين شعوب العالم الحرة والمحبة للسلام . وقد تغير اتجاه الدول الغربية في شتاء ١٩٤٦ — ١٩٤٧ لسببين : أولهما سوء حالة الشعب الألماني وبؤسه بعد الهزيمة التي حاقت به ، وثانيهما ما اتضح من أن بعث الحياة في الاقتصاد الألماني ضروري لأوربا الغربية ، وأنه ما لم يتخلى الحلفاء عن سياسة خنق ألمانيا اقتصادياً ، فان الشيوعية سوف تجد لنفسها طريقاً ميسّراً نحو غزو أوربا الغربية كما فعلت باوربا الشرقية .

وهكذا بالتدريج تغلب الخوف من الشيوعية والاتحاد السوفييتي على الخوف من ألمانيا . وبينما كان النظام الشيوعي يسير بسرعة في القطاع الشرقي من ألمانيا ، أخذ الحلفاء الغربيون يحاولون إقامة نظام ديموقراطي لحكومة المانيا الغربية .

وما وافى عام ١٩٤٧ حتى أصبح تقسيم ألمانيا إلى قسمين مختلفين سياسياً واقتصادياً حقيقة واقعة ، أحدهما يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالاتحاد السوفييتي ، والثاني في الغرب يرتبط بالولايات المتحدة .

وقد تميز عام ١٩٤٧ بحادثين كانا نذيراً بانتهاء فترة الانتقال وبداية لتزايد مظاهر الحرب الباردة ، وهما اعلان مذهب ترومان (Truman Doctrine) ومشروع مارشال (Marshal Plan) .

وقد بدأ مذهب ترومان عندما زاد احتمال انتشار الشيوعية في اليونان ، وكانت انجلترا قد أخذت على عاتقها أن تمد الحكومة اليونانية بالمال والسلاح لمكافحة الحرب الأهلية مع الشيوعيين ، ولكن في مارس سنة ١٩٤٧ قررت الحكومة البريطانية أنه لم يعد في استطاعتها الاستمرار في هذا السبيل بسبب سوء حالتها الاقتصادية . وقد أبلغت هذا القرار الى الولايات المتحدة فارتاعت

له ، وتجسّد أمامها الخطر الكبير الذي قد ينجم عن قطع المعونة البريطانية عن الحكومة اليونانية ، إذ قد يترتب على ذلك نجاح الشيوعيين في قلب نظام الحكم في اليونان ، ومن ثم تتسرب العدوى الى حوض البحر المتوسط . عندئذ طلب الرئيس ترومان من مجلس الكونجرس الموافقة على مد اليونان وتركيا باربعماية مليون دولار ، ثم صرح قائلاً « اعتقد أن سياسة الولايات المتحدة يجب أن تتجه الى مساعدة الشعوب الحرة التي تكافح الخضوع للاقليات المزودة بالسلاح أو الضغوط الخارجية . »

ولم يقابل مذهب ترومان بالترحيب في أول الأمر في الولايات المتحدة ولكن اضطر الشعب الامريكي فيما بعد الى التمشي مع سياسة حكومته . ويعتبر شهر مارس سنة ١٩٤٧ نقطة تحول في التاريخ الأمريكي ، وليس ذلك بسبب تخلي أمريكا عن سياسة العزلة فحسب ، بل بسبب تبدد الحلم الذي كان يراودها بالعودة الى الحالة الطبيعية وتسليم الأمر الى هيئة الأمم المتحدة ، اذ لم تعد تكفي هذه الهيئة لحفظ السلام الذي تنشده أمريكا ، وهذا السلام في نظرها هو السلام الذي يخدم مصالحها ومصالح حلفائها . ورأت منذ ذلك الوقت أن تتزعم العالم الذي دعته بالعالم الحر .

وبعد شهور قليلة اعلن مشروع مارشال . وكان الرئيس ترومان قد عين الجنرال مارشال وزيراً لخارجيته ، ويتلخص مشروع مارشال في وجوب مساعدة الولايات المتحدة لأوربا الغربية قبل أن ينهار اقتصادها ، وفي الوقت نفسه حثّ مارشال الدول الغربية على القيام بوضع برنامج موحد لانهاض بلادها اقتصادياً حتى يمكن لأمريكا مساعدتها . ولم يستثن من دعوته دول أوربا الشرقية ، ولذلك كان لتلك الدعوة أثرها السيء لدى حكومة الاتحاد السوفييتي . حتى صرح مولوتوف بأن الاتحاد السوفييتي لا يرى في مشروع مارشال الا نوعاً من الاستعمار الجديد اي استعمار الدولار الامريكي ، ومحاولة للتدخل في الشئون الداخلية للشعوب المستقلة . وبموجب هذا المشروع أنفقت الولايات المتحدة حوالي اثني عشر ملياراً من الدولارات في سبيل

إعادة بناء اقتصاديات اوربا الغربية .

ولما دعت بريطانيا وفرنسا الى عقد مؤتمر في باريس لدراسة هـذا المشروع ، رفض الاتحاد السوفييتي الاشتراك فيه بل وأمر حكومات أوربا الشرقية الا ترسل مندوبين عنها . وحتى تشكوسلوفاكيا التي كانت قد أعلنت قبولها لمشروع مارشال ، عادت تحت الضغط الروسي الى العدول عن الاشتراك في المشروع .

وهكذا اتسع الخلاف بين الشرق والغرب ، وفي خريف عام ١٩٤٧ اعلن الاتحاد السوفييتي عن تأسيس منظمة أطلق عليها الكومنفورم (Cominform وهو نفس المنظمة الشيوعية القديمة الكومنترن (Comintern) في لباس جديد . وتسربت الأوامر للأحزاب الشيوعية في غرب اوربا أن تتخلى عن سياسة المهادنة والاعتدال التي اتبعتها عندما كان التحالف الكبير سائداً بين روسيا والغرب ، وهنا انتشرت الاضرابات والمظاهرات والعصيان ولم يقف الحد عند قيام الاضرابات في اوربا بل انتقلت الى الملايو وبورما وأندونيسيا والهند الصينية ، ولجأ الشيوعيون الآسيويون الى حرب العصابات حتى انقلبت الحرب الباردة الى حرب ساخنة في كثير من ارجاء العالم .

ومن أهم أحداث تلك الفترة الثانية من الحرب الباردة ذلك الانقلاب الذي حدث في تشكوسلوفاكيا في فبراير سنة ١٩٤٨ . كانت تشكوسلوفاكيا الدولة الوحيدة من دول المجال السوفييتي التي ظلت محتفظة بنظامها الديموقراطي حتى آخر عام ١٩٤٧ ، على الرغم من أن جميع حكوماتها التي تولت الحكم في اعقاب الحرب ظلت تحرص على علاقاتها الوثيقة بالاتحاد السوفييتي ، ولكن العلاقات الوثيقة لم تكن تكفي في نظر الروس لاعتبار تشكوسلوفاكيا دولة صديقة يؤمن جانبها . لذلك صدرت الأوامر للشيوعيين التشكيين بالقيام بالانقلاب المعروف في فبراير سنة ١٩٤٨ . وطبق النظام الشيوعي في البلاد منذ هذا التاريخ

وتبع ذلك حادث آخر ، هو حصار برلين ، وذلك عندما حاول الاتحاد السوفيتي أن يجبر الحاميات الغربية على مغادرة برلين . ولو نجح الروس في هذا لسددوا بذلك ضربة موجعة للحلفاء ولأدى انسحاب حامياتهم الى هزيمة نفسية كبرى . وقد قال الجنرال كلاى (Clay) ، أحد كبار قوادهم « عندما تسقط برلين سوف تعقبها المانيا الغربية فاذا أردنا أن نمنع عن أوربا خطر الشيوعية وجب علينا ألا نتزحزح عن مواقعنا » . وفعلاً لم يتزحزح الامريكيون والبريطانيون والفرنسيون عن مواقعهم في برلين الغربية . وجاءت المؤن الى سكان برلين الغربية البالغ عددهم مليونين وربع مليون ، بطريق الجو ، الى ان قررت الحكومة السوفييتية فك الحصار في مارس ١٩٤٩ ، واعتبر الغرب أن النصر كان حليفهم في تلك الحرب الباردة .

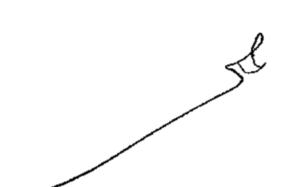
وبعد تكوين جمهورية المانيا الاتحادية في عام ١٩٤٩ ، تنحت الحكومة العسكرية الامريكية عن الاشراف على منطقة الاحتلال ، وقابل الروس هذا الاجراء بتأسيس جمهورية المانيا الديموقراطية .

وفي عام ١٩٤٨ ، حدث خلاف بين تيتو وستالين أدى الى فصل يوغوسلافيا من المجتمع الشيوعي ، وقد استقبل الحلفاء هذا النبأ كبارق أمل وسط الظلام الذي يرونه مخيماً على اوربا الشرقية .

واستقر الوضع في الخريطة الاوروبية على نحو ما نراه الآن ولكن الحرب الباردة كانت على أشدها في منتصف عام ١٩٤٩ ، حيث كان الجيشان المتخاصمان يقفان في مواجهة بعضهما في ألمانيا ، بينما كان سباق التسلح الذرّي يسير قدماً في كلا المعسكرين .

معاهدة شمال الاطلنطي ٤ ابريل ١٩٤٩

وكانت أول خطوة اتخذها الحلفاء لتنظيم الدفاع ضد الشيوعية تأسيس منظمة شمال الاطلنطي وانضم الى ذلك الحلف العسكري كل من الولايات المتحدة وكندا وبريطانيا وفرنسا وبلجيكا وهولندا ولكسمبرج والنرويج



والدنمرك وايسلنده وايطاليا والبرتغال ، ونص حلف شمال الاطلنطي على أن أي هجوم مسلح على أية دولة من هذه الدول ، أو أية دولة أخرى في اوربا أو امريكا الشمالية يعتبر عدواناً عليها جميعاً . وتبعاً لذلك فهم يتفقون بأنه اذا وقع هذا الهجوم فان كلاً منهم طبقاً لحقوق الدفاع سوف يساعد الطرف الآخر في الحال مساعدة فردية أو بالاتفاق مع الاطراف الاخرى . وهذا العمل الذي يعتبر ضرورياً يتضمن استعمال القوة المسلحة واعادة السلام والحفاظ عليه في منطقة شمال الاطلسي وينبغي أن يسجل الهجوم والتدابير التي اتخذت فوراً لدى مجلس الامن على أن تلغى هذه التدابير عندما يتخذ المجلس الوسائل الضرورية لإعادة وحفظ السلام والأمن الدوليين .

ولم تقتصر الحرب الباردة على أوربا وحدها ، بل تسربت منها الى جميع أرجاء العالم ، وعلى الأخص في آسيا ، حيث انتصر الشيوعيون في الحرب الاهلية الصينية في نفس ذلك العام (١٩٤٩) ، وظهرت الصين الشيوعية في آسيا كمارد يهدد الاستعمار الغربي في الشرق الاقصى . وكان ذلك الحدث الخطير بداية للدور الثالث من الحرب الباردة وهو اخطر دور في تاريخ ذلك الصراع .

الدور الثالث من الحرب الباردة :

بدأ ذلك الدور في بداية عام ١٩٥٠ ، عندما انتقل الصراع في تلك الحرب الى الشرق الاقصى . وفي نهاية ذلك العام شمل الشرق الاوسط واخيراً منذ عام ١٩٦٠ اصبحت الحرب الباردة متمثلة في بقية القارات — فظهرت أزمة الكونغو ، وأزمة كوبا ، والهند الصينية . ومع ذلك فقد كانت تظهر ما بين حين وآخر محاولات لاقامة نوع من التعايش السلمي بين المعسكرين .

ولعل ظهور دولة الصين الشعبية التي تأسست في اكتوبر عام ١٩٤٩ بعد انتصار الشيوعيين في الحرب الأهلية كان أخطر حادث بالنسبة للدول

الغربية التي اعتبرت الوجود الشيوعي في تلك المنطقة الشاسعة أمراً يهدد المصالح الغربية عامة ، والولايات المتحدة على وجه الخصوص . ولكن الدول الغربية لم توحد سياستها تجاه الصين الشيوعية ، فنجد بريطانيا تعترف بالنظام الجديد في الصين في عام ١٩٥٠ ، وأما فرنسا فقد رفضت الاعتراف ، بسبب ما كانت تقدمه الصين من المعونات الى ثوار الهند الصينية . وفي الولايات المتحدة كان الرأي العام شاعراً بخيبة أمل كبيرة بسبب انهيار النظام الذي وضعه تشانج كاى شيك ، وهو الزعيم الذي كان متحالفاً مع الامريكيين الذين قدموا له كل وسائل العون العسكري والاقتصادي الى ان أُجبر على الانزواء بحكومة عميلة للامريكيين في جزيرة فورموزا ، ووقف الاسطول الامريكي حتى اليوم يحول دون أي هجوم عليه .

وقد راودت الولايات المتحدة في فترة من الفترات ، فكرة الاعتراف بالصين الشعبية حتى أن وزير خارجيتها اتشسون ، كان على وشك اعلان هذا الاعتراف ، الا أن الرأي العام الأمريكي كان ساخطاً على النظام الذي خلق في الشرق الاقصى قوة شيوعية مخيفة بعدأن انهار النظام الذي اقامه صديق الولايات المتحدة تشانج كاي شيك . ولذلك تأجل الاعتراف الامريكي ، وتأجل معه مشروع منح الصين الشعبية عضوية هيئة الامم المتحدة حتى تتم انتخابات الرئاسة الامريكية في نوفمبر ١٩٥٠ .

ومهما يكن من أمر ، فقد تغير موقف الولايات المتحدة قبل أن تتم الانتخابات ، فقد حدث في شهر يونيه أن اندلعت الحرب الكورية التي أثرت أثراً بالغاً في العلاقات الدولية .

يمكن تقسيم الحرب الباردة في دورها الثاني ، اي بعد عام ١٩٤٩ الى ثلاث فترات : أولها عندما بدأ النزاع في مستهل عام ١٩٥٠ وعلى الأخص في الشرق الاقصى ، وثانيتهما عندما تحول النزاع الى الشرق الاوسط في نهاية العام ، ولم يقتصر النزاع على تلك الاماكن بل امتد الى بقاع كثيرة في

العالم ، فحدثت منذعام ١٩٦٠ ازمات في الكونغو وكوبا ، وتجدد النزاع مرة اخرى على الوضع في برلين ، وفي الهند الصينية . ولكن النزاع لم يصل الى حافة الهاوية بل كان الطرفان يصلان دائماً الى حل موقت للتعايش السلمي .

الحرب الكورية :

ومهما يكن من أمر ، فقد تغير موقف الولايات المتحدة في يونيه من ذلك العام عندما اندلع لهيب الحرب الكورية .

كانت كوريا قد تحررت من الحكم الياباني عام ١٩٤٥ بعد خمس وثلاثين عاماً من الاحتلال . ولكنها انقسمت الى قسمين كما كان الحال في ألمانيا ، كوريا الشمالية التي احتلتها آنذاك القوات الروسية ، وكوريا الجنوبية التي احتلتها القوات الامريكية . وفرقت السياسة وتأثير الاستعمار بين أبناء الوطن الواحد ، كما حدث في ألمانيا ، وانقسمت البلاد الى دولتين متعاديتين .

ولكوريا أهمية استراتيجية عظمى لجيرانها ، روسيا ، واليابان ، والصين ؛ ثم أصبح للولايات المتحدة بعد هزيمة اليابان مصالح هامة في تلك المنطقة تجعلها تهتم أبلغ الاهتمام بمصيرها ولذلك فقد أرسلت قواتها من اليابان لوقف الهجوم الذي قام به الكوريون الشماليون الشيوعيون في ٢٥ يونيه سنة ١٩٥٠ . واستطاعت الولايات المتحدة بنفوذها أن تضمن تأييد هيئة الأمم المتحدة ، وانضم الى المحاربين قوات من انجلترا وغيرها من الدول أعضاء هيئة الأمم ولكن تسعين في المائة من القوات المحاربة في كوريا كانت من الولايات المتحدة .

وفي سبتمبر ١٩٥٠ تقدمت تلك القوات ، باسم هيئة الأمم ، فعبرت خط عرض ٣٨ الى كوريا الشمالية . وكان لاقدام هذه القوات على اختراق الخط الذي يحدد القطاعين أسوأ الأثر عند الصين الشيوعية فقررت التدخل وأرسلت قواتها لمساعدة كوريا الشمالية ، واستطاعت القوات الشيوعية أن

تحرز انتصارات عديدة على أعدائها مما اضطر قوات الامم المتحدة الى التقهقر بغير انتظام نحو الجنوب .

وكان من رأي القائد الامريكي جنرال ماك آرثر أنه لا أمل في إحراز أي نصر على القوات الصينية إلا بضرب قواعد الامداد في الاراضي الصينية نفسها . على أن الرئيس ترومان لم يوافق على هذا الرأي ، وحدث بينهما خلاف أدى الى طرد ماك آرثر من قيادة الحماة (ابريل ١٩٥١) أما الاتحاد السوفييتي فكان على استعداد للمفاوضة بشأن وقف القتال . وقد بدأت مفاوضات الهدنة في صيف ١٩٥١ ، ولكنها لم تصل الى نتيجة حاسمة بشأن وقف القتال الا في يوليه ١٩٥٣ .

وقد حاولت الدول المعنية أن تصل الى حلّ للصلح في مؤتمر عقد من أجل هذا الغرض في جنيف سنة ١٩٥٤ . ولكن دون جدوى . والواقع أن هذا المؤتمر كرّس معظم وقته للنظر في مشكلة الهند الصينية حيث كانت الحرب على أشدها بين الاستعمار الفرنسي القديم في تلك المنطقة وبين حركة التحرير التي قادها زعماء شيوعيون وطنيون منذ شهر ديسمبر ١٩٤٦ . وقد أدت هذه الحرب أيضاً إلى قيام صراع بين الولايات المتحدة والعالم الشيوعي بعد عام ١٩٤٩ ، وذلك للمساعدات التي قدمها النظام الجديد في الصين الشيوعية الى المحاربين في الهند الصينية . فكانت الولايات المتحدة تمد الفرنسيين هناك بالمعونات الحربية الكبيرة ، ولكنها لم تؤد إلى نتيجة فعالة ، بل سقط في أيدي الثوار أكبر معقل فرنسي هو حصن « دينْ بْيِينْ فُو Dien — Bien — Phu » في مايو ١٩٥٤ ، مما دعا بعض القواد الفرنسيين والامريكيين الى الاعتقاد بأن الحل الوحيد لانقاذ الموقف العسكري اليائس الخطير هو استعمال القنبلة الذرية . الا أن حكومة الولايات المتحدة لم تأخذ بهذا الرأي . وتم الصلح في يوليه من نفس العام حيث جنى ثوار فيت منه Viet — Minh الشيوعيون ثمار النصر وسيطروا على فيتنام الشمالية . متطلعين الى يوم يستطيعون فيه الضغط على فيتنام الجنوبية .

ومع أن الولايات المتحدة اشتركت في مفاوضات الصلح مع الصين الشيوعية في مؤتمر جنيف ، الا أنها ظلت مصرة على عدم الاعتراف بها رسمياً أو توقيع اتفاقية جنيف التي تشترط اجراء انتخابات لاعادة توحيد فيتنام في عام ١٩٥٦ . والواقع أن تأييد الولايات المتحدة لحكومة الرئيس « ديم Diem » اليمينية المتطرفة في جنوب فيتنام ، وازدياد الضغط من جانب الشيوعيين على فيتنام ، وعلى غيرها من الدول المجاورة — لاوس وكمبوديا — كل ذلك كان سبيلاً الى حدوث أزمات متكررة في تلك المنطقة وزادت من انتشار الحرب الباردة في كل مكان .

على أن توتر العلاقات الذي كان على اشده بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي بدأ يخف في عام ١٩٥٥ بعد أن توصلت القوتان إلى امتلاك الأسلحة النووية ، وعندما اشتدت أزمة الشرق الاقصى ظهر في جو العلاقات الامريكية الروسية نوع من الرغبة في تخفيف حدة التوتر بين الدولتين ، ولا سيما أن الاتحاد السوفييتي غير سياسته العدائية المتطرفة للولايات المتحدة بعد وفاة ستالين (مارس ١٩٥٣) وكذلك أصبح يميل الى مصالحة يوغوسلافيا التي سبق أن اتهمها ستالين بأنها كفرت بالمبادىء الشيوعية . ثم حدث اتفاق بين الدول الاربع في مايو ١٩٥٥ على الجلاء عن النمسا واعتبارها دولة محايدة .

وعلى الرغم من التقارب ونجاح مؤتمرات القمة التي عقدت خلال هذه الفترة الا أن مسائل أخرى ومشكلات أعظم كانت تحول دون الوصول الى تفاهم بين الكتلتين ، وأهمها مشكلة المانيا ، واقدام السوفييت على تأسيس حلف وارسو « Warsaw Pact » (مايو ١٩٥٥) .

ثم عادت الحرب الباردة في عام ١٩٥٥ الى منطقة الشرق الأوسط بعد أن ساد الهدوء تلك المنطقة منذ ان حدث الضغط السوفييتي على كل من تركيا وايران بين عامي ١٩٤٥ و ١٩٤٦ — ولكن في خلال عام ١٩٥٥ ظهر الى الوجود حلف دفاعي جديد كان موجهاً في الدرجة الأولى ضد الاتحاد

السوفييتي ، انضمت اليه تركيا وايران والعراق وباكستان وهو حلف بغداد الذي اتخذ العاصمة العراقية مركزاً له . وقد اثار ذلك الحلف الاتحاد السوفييتي فاحتجت عليه حكومته وهاجمته . ثم ازداد الموقف بالنسبة للشرق الاوسط خطورة عندما انضمت بريطانيا الى عضويته في ابريل ١٩٥٥ ، وبدأ الضغط على مصر لكي تنضم اليه ، ورفض الرئيس جمال عبد الناصر الانضمام اليه رفضاً باتاً ، فأصبح الحلف بعد ذلك موجهاً ضد مصر اكثر منه ضد روسيا .

وكانت مصر قد اضطرت — أمام التهديدات الاسرائيلية — الى طلب المعونة العسكرية من الكتلة الشرقية بعد أن رفضت حكومة الولايات المتحدة أن تبيع لها الأسلحة التي طلبتها ، وكانت الحرب الباردة من الأسباب الهامة في سلسلة الحوادث التي ادت الى ازمة السويس عام ١٩٥٦ ، ولكن سببها المباشر هو المؤامرة الخفية التي دبرت بين اسرائيل وكل من انجلترا وفرنسا ، حيث كانت اسرائيل هي أداة الاستعمار الانجليزي والفرنسي في القضاء على الثورة المصرية ومنجزاتها وعلى الأخص بسبب تأميم قناة السويس . وللمساعدات الضخمة التي كانت تنهال من مصر على الثوار الجزائريين ، وكذلك للدعاية الفعالة للقومية العربية ومحاربة الاستعمار في الجنوب العربي ، وعلى الاخص في عدن التي تعتبرها بريطانيا معقل الاستعمار ، هذا بالاضافة الى أن الاتحاد السوفييتي استطاع أن يتجاوز الحاجز الذي فرضه حلف بغداد واسس علاقات ودية مع مصر . كل ذلك أدى بالتدريج الى قيام ازمة السويس والعدوان الثلاثي على مصر .

الحرب الباردة والشرق الأوسط

وكانت الحكومة البريطانية قد اضطرت إلى التوقيع على معاهدة الجلاء عن مصر في ١٩ اكتوبر سنة ١٩٥٤ ، فاستولى الفزع على اسرائيل ، حتى أن موسى شاريت رئيس وزرائها ووزير خارجيتها صرح في الكنيست الاسرائيلي

بأن معاهدة الجلاء عن مصر معناها أن بريطانيا تتخلّى عن اسرائيل وتتركها لمصيرها المحتوم حيث لن يصبح لها مكان بين دول الشرق الأوسط . وأنحى (شاريت) أيضا باللائمة على الولايات المتحدة لأنها شجّعت الاتفاق .

وبدأت اسرائيل سلسلة من الاعتداءات كان بعضها يتّسم بالغزو المسلح . حدث هذا في الهجوم على غزة في ٢٨ فبراير سنة ١٩٥٥ ، وعلى خان يونس في ٣١ أغسطس ، وعلى الكونتلاّ في ٢٨ أكتوبر وعلى الصبّحة في ٢ نوفمبر . ويلاحظ أن أغلب الاعتداءات حدث بعد انعقاد مؤتمر باندونج (ابريل ١٩٥٥) وهو مؤتمر الدول غير المنحازة الذي أصدر قرارا بتأييده الكامل لقضية العرب في فلسطين وحق العودة للاجئين الفلسطينيين ، ورأت اسرائيل أنها أصبحت في عزلة ، وأن الرأي العام في معظم الدول بدأ يكشفها على حقيقتها ، فرأت أن تسارع إلى العدوان بضربات خاطفة على الأراضي العربية لتفرض الصلح الذي تبتغيه . ولما أدانها مراقبو الأمم المتحدة ، تآمرت على قتل كبيرهم (برنادوت) ، وهي تعلم تماما أن الدول الثلاث — انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة — التي أصدرت بيانها المشترك سنة ١٩٥٠ ضد الاعتداءات في الشرق الأوسط لن تقوم بأي معارضة فعالة ضد عدوانها على الأراضي العربية . وكانت تلك الدول الثلاث قد سبق لها في عام ١٩٥٠ أن أصدرت بيانها المشترك بالوقوف ضد أي عدوان في الشرق الأوسط ، ومع ذلك فقد ثبت ان البيان الذي اصدرته ما كان ليُشهر إلا ضد الدول العربية ، فإذا جاء الاعتداء من اسرائيل تجاهلته الدول الثلاث وكأن الأمر لا يخالف بيان ١٩٥٠ .

وأمام تلك الاعتداءات المتكررة ، رأت مصر أن تطرق كل باب لتزويد جيشها بالسلاح ، ورأى الرئيس جمال عبد الناصر أن يبدأ بطلب السلاح من الدول الغربية . طلبه من انجلترا فأخذت تراوغ كعادتها وتشترط الشروط ، وتطالب مصر أن تنضم إلى حلف بغداد ، وطلبه من الولايات المتحدة فلم يتلقّ أي جواب .

وعرضت حكومة الاتحاد السوفييتي مساعدتها على مصر ، مساعدة غير مشروطة ولا مقيدة ، بأن تمدها بالسلاح ، إما عن طريقها مباشرة ، أو عن طريق تشكوسلوفاكيا ، وتمت مع الأخيرة صفقة الأسلحة في اكتوبر ١٩٥٥ ، وحطمت مصر بذلك احتكار السلاح .

وقد كان لهذا النبأ أثره البالغ في واشنطن ولندن ، ووقف هارولد ماكميلان — وكان إذ ذاك وزيراً لخارجية بريطانيا — في الاحتفال بافتتاح المجلس الدائم لحلف بغداد يقول في مرارة وغيظ « إن أهم نتيجة لصفقة الأسلحة التي عقدتها مصر مع روسيا هي أن بريطانيا أصبحت تشعر أكثر من ذي قبل أن من واجبها أن تؤيد أصدقاءها وتمد لهم يد المعونة » وكانت اسرائيل في ذهنه على رأس قائمة هؤلاء الأصدقاء .

السد العالي والحرب الباردة :

كانت مصر منذ عام ١٩٥٣ تقوم بعمل خطة للتنمية الانتاجية وزيادة الدخل القومي ، وكان السؤال الذي واجه حكومة مصر إذ ذاك هو كيف يمكن اقتصادياً سد احتياجات السكان الذين يتزايدون سنوياً بنسبة تتراوح بين ٢,٥ في المائة و ٣ في المائة ، فاتجهت إلى مشروع بناء السد العالي ورأت أن تبدأ بالاتصال بالبنك الدولي الذي أنشىء لمثل هذا الغرض ، لتمويل المشروع . إلا أن القائمين بالأمر في البنك أخذوا يضعون العراقيل ، ويتلمسون الأسباب للتهرب من المعاونة في تمويل المشروع ، وقالوا إن دون التمويل عقبات لا بد من تذليلها وأولها أن على مصر أن تنهي خلافاتها مع إسرائيل وبريطانيا .

وفي مرة أخرى طلب البنك الدولي أن تعمل مصر على حل مشكلة مياه النيل بينها وبين السودان قبل أن يوقع البنك الاتفاق معها على المعونة المالية .

وفي شهر يونيه ١٩٥٦ زار مصر وزير خارجية الاتحاد السوفييتي لكي يعرض على الرئيس جمال عبد الناصر مساعدة حكومته لمصر في جميع الميادين ،

وادعى أن كل المعاونات الروسية ستكون دون قيد أو شرط ، وأن تكون القروض طويلة الأجل ، لا ترهق مصر ولا تقيدها بأي قيد سياسي أو مذهبي ، بل كل ما يهدف إليه الاتحاد السوفييتي هو مساعدة دولة ناهضة ، تحافظ على كرامتها وتعتز باستقلالها .

واستكمالا للحرب الباردة بين الكتلتين الشرقية والغربية ، حضر إلى مصر يوجين بلاك ليؤكد للحكومة المصرية أن البنك عند وعده الذي ارتبط به في شهر فبراير بشأن تمويل المشروع ، وأكد أيضا بأن الولايات المتحدة وبريطانيا لا يزالان عند وعدهما الذي قطعاه بالمساعدة في تمويل المشروع .

وأعلنت مصر أنها « ترغب في الاتفاق مع الغرب على تمويل مشروع السد بعد أن وصلت الى اتفاق مع السودان ، وأن الأمر الآن يتوقف على نية الدول الغربية » .

وفي الوقت الذي صدر فيه هذا التصريح باستعداد مصر لقبول عرض الولايات المتحدة والبنك الدولي ، كان أعضاء الكونجرس الأمريكي من عملاء الصهيونية ومؤيدي اسرائيل يوجهون أقذع النقد لمشروع المعاونة الغربية لمصر ، وكان هناك فريق آخر في الكونجرس من الأعضاء الذين يمثلون الولايات الجنوبية يعارضون في المشروع خوفا من أن يؤدي السد العالي إلى زيادة المساحة المنزرعة بالقطن المصري .

وكانت مؤامرة الانسحاب من تمويل المشروع قد اختمرت بين لندن وواشنطن ، وساعد على تنفيذها أن (دالاس) وزير خارجية الولايات المتحدة ، كان يعتقد أن الاتحاذ السوفييتي لا يستطيع أن يجازف بأمواله في مشروع ضخم كالسد العالي ، وأن انسحاب الولايات المتحدة وبريطانيا من تمويل المشروع ، سوف يضع الاتحاد السوفييتي في مأزق يكشفه في الشرق الأوسط .

وفي ١٩ يوليه أعلنت الولايات المتحدة في بيانٍ جارح لمصر أنها تنسحب من مشروع التمويل المتفق عليه ، وهو بيان تعمَّد فيه دالاس أن يجرِّح الاقتصاد المصري ويشكِّك في مركز مصر المالي ، ويدعي فيه أن « التطورات التي حدثت خلال السبعة أشهر الأخيرة لا تشجع على نجاح مشروع السد العالي ، وأن حكومة الولايات المتحدة انتهت إلى الرأي بأنها لا تستطيع في الظروف الراهنة أن تشترك في المشروع ، فمصر لم تصل بعد إلى اتفاق مع الدول التي تشترك معها في الانتفاع بمياه النيل ، وأصبحت قدرتها على رصد أموال من ميزانيتها لنجاح المشروع أمراً مشكوكا فيه » .

وفي اليوم التالي حذت انجلترا حذو الولايات المتحدة كما كان متفقا بينهما . وفي مساء نفس اليوم (٢٠ يوليه ١٩٥٦) أعلن مدير البنك الدولي أن البنك لم يعد في قدرته المضيّ في القرض بعد انسحاب كل من أمريكا وانجلترا .

وردت مصر على الطعنة التي وُجِّهت إلى اقتصاد مصر بأن أعلن رئيس الجمهورية تأميم شركة قناة السويس ، وانتقال جميع ما للشركة من أموال وحقوق ، وما عليها من التزامات ، الى الدولة ، وحل جميع الهيئات واللجان القائمة وقتئذ على إدائها ، وتعويض المساهمين . وأن تشكل هيئة مستقلة تتولى إدارة مرفق المرور بالقناة ، كما نص القرار على تجميد أموال الشركة وحقوقها في مصر والخارج ، وحظر على البنوك والهيئات والأفراد صرف أي مبلغ منها ، وأصبح على جميع موظفي الشركة المؤممة ومستخدميها وعمالها أن يستمروا في أداء أعمالهم .

وكان لقرار تأميم قناة السويس صدى عالمي ارتجت له الدول الغربية وعلى رأسها بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة ، وكان أول رد فعل لذلك القرار

المصري أن الحكومة البريطانية قررت تجميد ما كانت تملكه شركة قناة السويس من أموال ومستثمرات في بريطانيا ، وكان الهدف من ذلك القرار الحيلولة دون استيلاء هيئة قناة السويس المصرية الجديدة على تلك الأموال والمستثمرات تنفيذا لقرار التأميم ، والواقع أن هذا القرار البريطاني يعطِّل تعويض حملة الأسهم والحصص ، لأن قانون التأميم نصَّ على أن يكون التعويض رهنا بتحصيل أموال الشركة المؤممة واحتياطاتهما كاملة سواء أكانت في مصر أو في الخارج .

وكان موقف الولايات المتحدة عدائيا منذ صدور قرار التأميم، فقد اصدرت قرارا من جانبها بتجميد رؤوس الأموال المصرية عندها ، وسافر وزير خارجيتها (دالاس) إلى لندن ليشترك في المحادثات التي كانت تجرى بين انجلترا وفرنسا بشأن توحيد موقف الدول المنتفعة بقناة السويس ضد مصر . وقد أصدر وزراء الخارجية باسم بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة بيانا في ٢ أغسطس ١٩٥٦ استنكار « قيام دولة واحدة ، بالاستيلاء التعسّفي على هيئة دولية ..... وأنهم يعتبرون أن العمل الذي قامت به الحكومة المصرية يهدد حرية الملاحة في القناة وسلامتها التي ضمنتها اتفاقية عام ١٨٨٨ » وختم البيان بأن الدول الثلاث «ستتخذ الخطوات الكفيلة بانشاء تدابير لادارتها تحت إشراف جهاز دولي .... ولذلك تقرر عقد مؤتمر يجمع بين الدول الموقعة على الاتفاقية وبين الدول الأخرى المنتفعة بالملاحة في قناة السويس »

مؤتمر المنتفعين ١٦ أغسطس ١٩٥٦ :

تقرر عقد المؤتمر في لندن وبلغ عدد الدول التي دُعيت إليه أربع وعشرون دولة ، ثمان منها هي الدول الموقعة على اتفاقية عام ١٨٨٨ وهي مصر وفرنسا وإيطاليا وهولندة وأسبانيا وتركيا وبريطانيا وروسيا ، وست عشرة دولة أخرى وقع عليها الاختيار .

ولكن مصر أعلنت أنها لن تشترك في مؤتمر لندن في ذلك الجو المشحون بالكراهية والعدوان ، وتلك الاستعدادات الحربية التي تقوم بها انجلترا وفرنسا ولا سيما ما أذيع من أنباء مستوحاة من وزارتي الخارجية البريطانية والفرنسية ومؤداها « أن بريطانيا وفرنسا – مشفوعتين بالتأييد المعنوي من الولايات المتحدة – ستتخذان الخطوات الواجب اتخاذها بما في ذلك استخدام القوة لفرض نظام دولي لإدارة القناة ، وأنه إذا لم يتم الوصول في المؤتمر إلى اتفاق بالإجماع فستشعر كلٌ من بريطانيا وفرنسا أنهما مطالبتان بالتدخل لفرض ما توافق عليه الأغلبية من حلول » .

وقد تمخّض مؤتمر لندن عن انقسام في الرأي ، إذ رأت ثمانية عشرة دولة تكوين لجنة دولية لإدارة القناة ، وعارضت في ذلك الهند واندونيسيا وسيلان والاتحاد السوفييتي ، مؤيدة حق مصر في التأميم والاشراف على قناتها كدولة ذات سيادة ، وهدد المندوب الروسي (شبيلوف) مندوبي الدول بأن الاجراءات العسكرية التي قد تتخذها بريطانيا وفرنسا سوف تؤدي إلى تهديد السلام لا في الشرق الأوسط فحسب بل في خارج الحدود »

وأخيرا تقرر عرض القضية على مجلس الأمن الذي بدأ مناقشتها في ٥ أكتوبر ١٩٥٦ ،وقد استنكر أغلب أعضاء المجلس فكرة الالتجاء إلى القوة ،وقرر الأسس التي يجب أن تكون هادياً في مشكلة قناة السويس . وفوّض مجلس الأمن السكرتير العام للأمم المتحدة (راج همرشولد) أمر حل القضية بالطرق السلميّة ، واقترحت مصر عقد الاجتماع في جنيف ، وتركت تحديد موعده لكل من فرنسا وبريطانيا .

ولكنهما كانا في الواقع على موعد في الظلام مع اسرائيل ، لتدبير أحط وأنذل مؤامرة في تاريخ البشرية ، والتي تمخضت عن العدوان الثلاثي على مصر الذي بدأ في ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ وقبل أن تتم مؤامرة العدوان ، حدثت اتصالات كثيرة قامت بها الحكومتان البريطانية والفرنسية لإقناع الولايات المتحدة بأن خطر الشيوعية أصبح يتمثل في مصر ويتسرب منها إلى شمال إفريقيا . وعندما دقت ساعة الصفر للعدوان الثلاثي الذي دبر في الخفاء ، رفضت الولايات المتحدة تأييد الهجوم ، وفي الوقت نفسه هدد الاتحاد السوفييتي بضرب المعتدين بالصواريخ إذا لم يتوقف العدوان . وفشل العدوان كما هو معروف وانتصرت مصر أروع انتصار وصفه الزعيم مصر الراحل بقوله : « رفع الاستعمار يده ، وانسحب ذليلاً ، وقد تدلت أذناه وكسر أنفه ، وتمرغت كبرياؤه في تراب بور سعيد ... وخرجنا من المعركة وقد ازدادت الأرض صلابة تحت أقدامنا ، وبدأنا ننطلق بكل قوتنا الى المعركة الأصيلة .. معركة البناء » .

وقبل أن تتم المؤامرة الغادرة على مصر ، حدثت اتصالات كثيرة بين الحكومتين البريطانية والفرنسية لمحاولة القضاء على النهضة العربية التي تتمثل في منجزات الزعيم الراحل جمال عبد الناصر ، والتفاف الشعوب العربية حوله ، وبعث فكرة الوحدة والقومية ، وعلى الأخص عندما تم تأميم قناة السويس ، ونجاح الثورة الجزائرية بما بذلته مصر في سبيلها من مال وسلاح ، ونجاح الدعاية المصرية للقومية العربية في الجنوب العربي وعلى الأخص في عدن التي كانت معقل الاستعمار البريطاني منذ بداية القرن التاسع عشر ، هذا بالإضافة إلى أن الاتحاد السوفييتي استطاع أن يتجاوز الحاجز الذي فرضه حلف بغداد ، وأسس علاقات ودية مع مصر وسوريا .

وحاولت الدولتان ، بريطانيا وفرنسا ، قبيل العدوان ، إقناع الولايات المتحدة بأن خطر الشيوعية يطل في الشرق الأوسط من النافذة التي ادعى أنه فتحها في مصر ويتسرب الخطر منها إلى شمال إفريقيا . ورفض الرئيس

ايزنهاور إذ ذاك أن يكون ذلك ذريعة للتآمر مع إسرائيل لغزو مصر . وعارض الغزو عندما حدث الهجوم الثلاثي عليها ، وفي الوقت نفسه هدد الاتحاد السوفييتي بضرب المعتدين في بلادهم بالصواريخ إذا لم يتوقف العدوان .

بذلك حلّت الكارثة بالمعتدين ، وزادها خطورة أن هيئة الأمم أدانت الدول الثلاثة ، ونددّت بالمؤامرة . وأمام هذا الضغط العالمي ، وأمام صمود الشعب المصري ومكافحته للغزو الثلاثي ، وإغراق السفن في قناة السويس لإعاقة الملاحة الدولية ، وقد أثار ذلك العدوان أخطر أزمة عالمية منذ الحرب الكورية ، وأثر أثراً بالغاً في اقتصاد بعض الدول الكبرى ولا سيما في البترول . ففي عام ١٩٥٥ مثلاً كانت بريطانيا تنتج ١٤٪ من نشاطها الصناعي باستخدام البترول ، وتنتج فرنسا ٢٠ – والسويد ٤٤٪ والدنمرك ٣٧٪ . فأدى وقف نقل البترول عن طريق قناة السويس ، وعن طريق أنابيب البترول التي خربها العرب في الاراضي السورية واللبنانية ، إلى حرمان أوربا من ثلاثة أرباع ما تحتاج إليه من البترول وهدد الاقتصاد الأوربي . وقد حاولت الولايات المتحدة ودول امريكا اللاتينية مدّ أوربا بما تقتضيه الظروف من زيت البترول ، ولكن كانت الولايات المتحدة من جانبها قد تضرّرت من إغلاق قناة السويس لأنها تستورد زيت البترول أيضاً من البلاد العربية ولها شركات تعمل في هذا الميدان في الظهران وغيرها من بلاد الدول العربية .

وتحرج موقف انجلترا وفرنسا واسرائيل حيث أحست حكوماتها بالعزلة السياسية ، وخصوصاً بعد أن اضطرت الولايات المتحدة أن تعمل – ولو مؤقتاً – بالتعاون مع الاتحاد السوفييتي ضد حلفائها حتى تم جلاء المعتدين عن الأراضي المصرية .

وقد كان لفشل العدوان الثلاثي بعد الكفاح العربي وتدخل هيئة الأمم المتحدة أثره في تمسك الشعوب العربية بفكرة القومية ومحاربة الاستعمار ، وتجلّى ذلك من ثورة العراق في شهر تموز يوليه عام ١٩٥٨ ، والتي أطاحت

بالملكية وحطمت حلف بغداد . وكان ذلك وسط عدة أزمات جعلت العالم على شفا حرب عالمية ثالثة ، ومع تحرج الموقف بين الكتلتين ، لم تر الولايات المتحدة ولا الاتحاد السوفييتي أن الفرصة سانحة لخوضها فقد استطاعت روسيا أن ترسل إلى الفضاء أول قمر صناعي في عام ١٩٥٧ ، وسرعان ما تبعتها الولايات المتحدة في هذا السبيل ، وأصبح التقدم في هذا الميدان وغيره من الأسلحة الذرية والايدروجينية مصدراً لانزعاج كل من القوتين .

وقد أدت تلك العوامل – وعلى الأخص عندما طُرد جون فوستر دلاس من منصبه كوزير للخارجية عام ١٩٥٩ – إلى تجدد المحاولات لتقريب مسافة الخُلف بين الجانبين ، وتهيأت فرصة لاجتماع الرئيس ايزنهاور مع خروشوف في كامب دافيد بالولايات المتحدة (سبتمبر ١٩٥٩) ، وتم الاتفاق بينهما على عقد مؤتمر قمة في باريس في مايو ١٩٦٠ .

ولم ينجح مؤتمر القمة في الوصول إلى اتفاق ، فقد رفض الرئيس ايزنهاور أن تعتذر الولايات المتحدة عن حادث طائرة التجسس الأمريكية (U 2) التي أسقطت فوق الأراضي الروسية ، وتمسك خروشوف بتقديم ذلك الاعتذار ، وأن يسجل في وثائق المؤتمر . وغادر خروشوف المؤتمر دون الوصول إلى حل مناسب ، وادعى الغربيون أنه كان تأثير العناصر المتطرفة في الاتحاد السوفييتي والعناصر العسكرية في الصين

ومع ذلك فقد كان من المستبعد – حتى لو لم تحدث أزمة طائرة التجسس – أن تنجح سياسة القمة في التقريب بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي ، ولا سيما أن الرئيس أيزنهاور كان وشك أنتهاء مدة رئاسته .

وجاء عام ١٩٦٠ الذي يتميز بانتشار الحرب الباردة في كل من إفريقيا وأمريكا اللاتينية . ففي إفريقيا ظهرت دول حديثة العهد بالاستقلال ، وعلى رأسها زعماء سبق لهم أن قاسوا من مرارة الاستعمار وشاركوا في انتزاع استقلال بلادهم ، ولذلك كانوا بطبيعتهم يكرهون الغرب ويتطلعون إلى

المساعدة الروسية . وكان أشهر هؤلاء، الدكتور نكروما Dr. Nkruma الذي كان رئيساً لجمهورية غانا ، والرئيس سيكوتوري Seheou Touré الذي كان رئيساً لغينيا . وقد احتدت الحرب الباردة بين المعسكرين الغربي والشرقي عندما لاحت أزمة الكونغو . وقد ظهرت تلك الازمة عندما اضطرت بلجيكا إلى منح الكونغو استقلالها في يوليه سنة ١٩٦٠ . ورأى الزعيم « لومومبا » أن يستعين بالنفوذ السوفييتي لإرساء قواعد استقلال بلاده وتدعيم حكمه الذي أقامه في ستانلي فيــل Stanleyille ، بينما كانت الولايات المتحدة يؤيدها حلفاؤها في هيئة الأمم يعملون على توحيد الكونغو والقضاء على ذلك النظام الذي وقع تحت النفوذ السوفييتي .

أما في أمريكا اللاتينية فقد كان صراع الحرب الباردة بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة على أشده ، وذلك عندما أقام « فيدل كاسترو » نظامه الاشتراكي في كوبا بعد القضاء على حكومة الدكتاتور «باتستا Catista » في عام ١٩٥٩ ، وكان فيدل كاسترو بطبيعته شيوعياً ماركسياً اتجهت ميوله نحو الاتحاد السوفييتي ، وقد ازداد اعتماده على الروس بسبب العداء الذي أظهرته الولايات المتحدة لحكومته فقد فرضت عليه المقاطعة الاقتصادية ، وأيدت أعداؤه الذين هاجروا إلى امريكا حتى أنها زودتهم بالعتاد والأسلحة لغزو كوبا في سنة ١٩٦١ . وازدادت حدة الصراع عندما أسس السوفييت قاعدة للصواريخ النووية في كوبا (سنة ١٩٦٢) ، ومع أنه إجراء مشروع من ناحية القانون الدولي ، إلا أن الولايات المتحدة اعتبرته تهديداً صارخاً موجهاً إليها بالذات وتحدياً لسيادتها على البحر الكاريبي ، وأصرت حكومة الولايات المتحدة على إزالة هذه الصواريخ مهددة ومتوعدة . وتجمعت غيوم الحرب في تلك المنطقة مما هدد باحتمال قيام حرب عالمية ثالثة . إلا أن حكومة الاتحاد السوفييتي التي كان يرأسها إذ ذاك خروشوف « رأت ملافاة الموقف الخطير وأزالت الصواريخ في مقابل تعهد الرئيس كنيدي بألا تقدم الولايات المتحدة على غزو كوبا .

وقد كان لهذا الحادث المزعج أثره في كلا المعسكرين ، إذ كان العالم اثناء تلك الأزمة مهدّداً بانفجار حرب ذرية لا يعرف أحد مداها فأخذ كنيدي وخرشوف يعملان على إيجاد وسيلة لإنقاذ البشرية من الدمار وذلك بايجاد نوع من التفاهم المشترك لمنع الحرب المدمرة ، فتقرر إنشاء خط تلفوني مباشر بين الرئيسين عام ١٩٦٣ أطلق عليه « الخط الساخن Hot Line » .

ومع تظاهر كل من الفريقين بالعمل على منع التصادم بين الشرق والغرب ، فإن الأزمات السياسية لا تزال تفرض نفسها على العلاقات بين الكتلتين ، ولا تزال أزمة الثقة تتحكم فيهما حتى اليوم .

●

محتويات الكتاب